

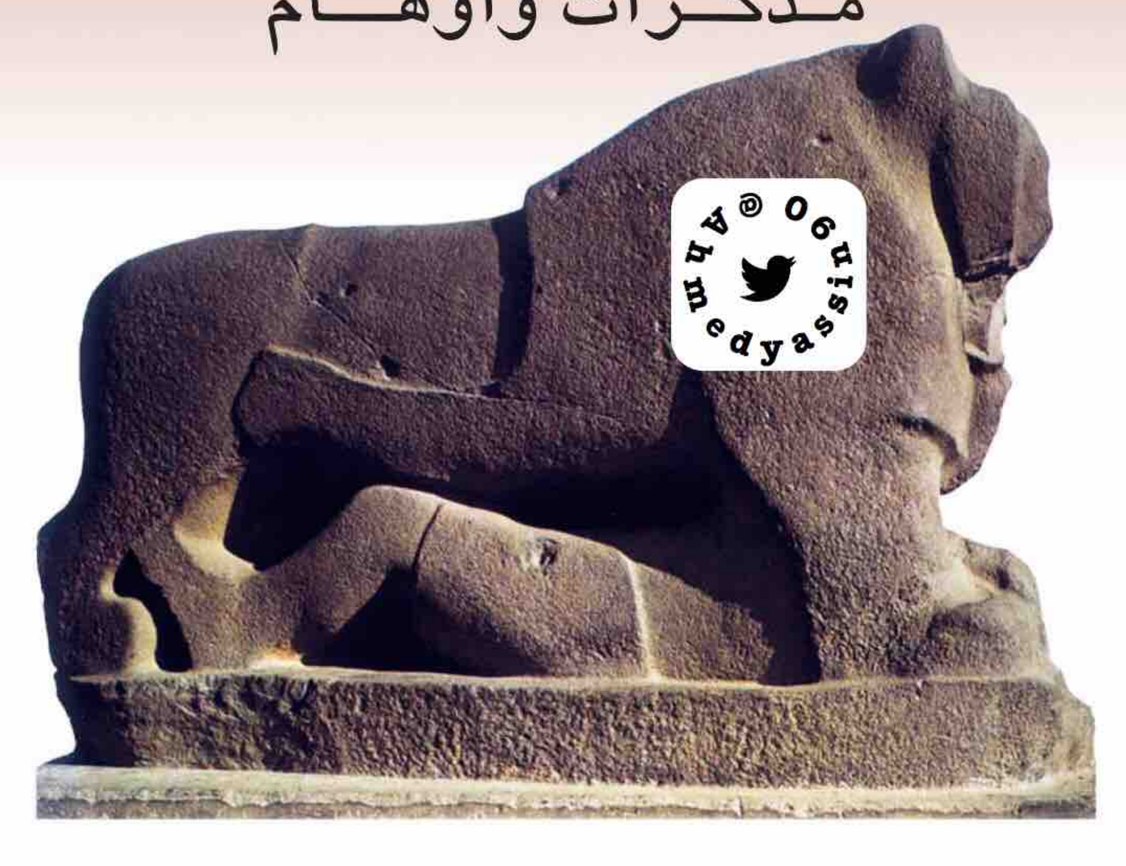
عمَاد خَدّوري



سَراب السلاح النووي العراقي

مذكرات وأوهام

تصوير
أحمد ياسين



سَراب السِلاح النَووي العِراقي

مُذَكَرات وأوهامْ




بسم الله الرحمن الرحيم

سَراب السِلاح النَووي العِراقي

مُذَكَرات وأوهامْ

تأليف

عماد خدّوري

تصوير

أحمد ياسين



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

مكتبة كندا الوطنية لتسجيل بيانات النشر
ISBN 0-9733790-0-6

الطبعة الكندية الأولى 2003
صدرت عن
Springhead Publishers,
22 Springhead Gardens,
Richmond Hill, Ontario L4C 5B9
springhead@rogers.com
هاتف 1-905-770 0071
فاكس 1-304-419 9281
موقع الكتاب على الإنترنت:
http://www.iraqsnuclearmirage.com/

الطبعة العربية الأولى
1425 هـ – 2005 م
ISBN 9953-29-974-9



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
عين التينة، شارع ساقية الجنزير، بناية الريم
هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (961-1)
فاكس: 786230 (961-1) ص.ب: 13-5574 - بيروت - لبنان
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611)

المحتويات

إهـــداء

إلى

أبي وأمي... شُكراً لكما

إلى

نيران... كُلّما صَقلتَ الجَوهرة كُلّما إِزدادت برِيقاً

إلى

أولادي يَمامة وتَمّام ونَوفة... عِسى أن تُخفف ذكريات الماضي من ألمِ الحاضر وتُمهِّد طريق المُستقبلَ

وإلى

أبو ديار وخالد رشيد... المُنقِذان

شكر وتقدير

أقدم شكري الخالص

إلى

جعفر ضياء جعفر

ظافر سلبي

حسين الشاهرستاني

صباح عبد النور

(شخصيات بارزة في البرنامج النووي العراقي)

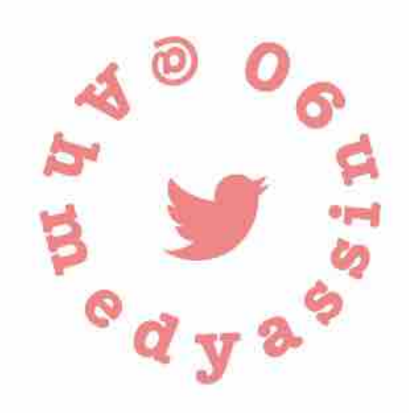
لتعليقاتهم وإضافاتهم

وإلى

سامح الخلف ورافع الناصري ومي مُظفّر لتصميم الغلاف

أديب يونس لمساهمته في ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية

بيتر كوينبرغ لمراجعة المخطوطة الإنكليزية


@Ahmedyassin90

مُقـــدِّمـــة

يستعرض هذا الكتاب مذكرات مواطن عراقي ساهم بجد في العمل ولمدّة ثلاثين عاماً في برنامج منظمة الطاقة الذرّية العراقية، منـــذ بداياتـــه الســـلمية ومروراً بتوجّهاته العسكرية، ومن ثمّ تفكّكه وإندثاره.

حاولت من خلال سرد الأدوار العلمية المختلفة التي عُهِدت لي، وتَعهّـــدت بالعمل فيها مع منظمة الطاقة الذرية العراقية، رسم تـــاريخ برنـــامج العـــراق النووي ومسار تطوّره القصير الأمد، وفي النهاية شطبه من الوجود.

من خلال تناول الأحداث التي مررت بها في حياتي، والتي دارت بشـــكل رئيسي حول البرنامج النووي العراقي، آمل ان تُسلّط هذه "المذكرات" الضـــوء على الخلفية التربوية والعلمية التي أوصلتني إلى شرف المشـــاركة فـــي هـــذا البرنامج الطموح، كما وتبلوّر مُعطيات الإلتزام به، ودوافع العزم على تحقيـــق أهدافه، ومن ثمّ المعاناة من ألم الإنسلاخ عنه.

ويتناول الكتاب "أوهام" الإدّعاءات حول تواجد السلاح النووي في العراق بعد الحرب التي شنّت عليه عام 1991 أو إعادة نشاط برنامجه العسكري النووي على إثرها، والتي أثبتت الأحداث بأنها لم تكن سوى ذريعة مُلفّقة خطيرة لغزو العراق وتحطيمه.

عندما قررت التوجّه إلى القنوات الإعلامية مُباشـــرةً لمقارعـــة الإعـــلام المُضلّل في آب من العام 2002، وذلك فور سماعي لخطاب الرئيس بوش والذي إستوعبت من خلاله عزمه على شنّ حرب إستباقية على العراق تحت ذريعـــة إمتلاكه لأسلحة الدمار الشامل وتشديده على وجود تهديد من الســـلاح النـــووي العراقي، تنبأت آنذاك وبمرارة – وكما جاء في الفقرة الأخيرة من أولى مقالاتي المنشورة تحت عنوان "عدم إمتلاك العراق للقدرة النووية" – وقبل ستة أشـــهر

من الإحتلال من أن "كُلاً من بوش وبلير يقومان بجر شعبيهما رغم أنفهما إلى إحتلال العراق، وحتى يتمكنا من تحقيق هذا الهدف فإنهما يقومان بتغليف تحريضهما لمشاعر شعبيهما الوطنية بمعلومات استخباراتية مغلوطة. إلا أن الإستعراض الإمبراطوري في إرتداء ثياب من الخداع والتلفيق سيكشف بالتالي عن عورتيهما مُستقبلاً".

يبدأ الكتاب بتوضيح المُعطيات العدوانية والجذور الفكرية للمحافظين الجُدد في الولايات المتحدة الأمريكية الذين كانوا المُحرك الرئيس ورأس الحربة وراء الحملة الشرسة التي أدت إلى إحتلال العراق وما نجم عنه من تداعيات وسقوط العراق الحالي في الهاوية.

وبالإضافة إلى ذلك، فأني أطرح قناعتي بأن حملة "المُحافظين الجُدد"، بالتواطؤ الواضح مع المصالح الإسرائيلية، قد أفلحت بصورة رئيسة في إستغلال ظاهرتي العنف والشعور بالتهديد والمُتأصلتين في "نمط الحياة الأمريكية" والتي أدركتُ وواجهتُ أبعادهما أثناء سنوات دراستي الجامعية (1961-1968) في الولايات المتحدة الأمريكية والتي سأعرج عليها بالتفصيل في هذه المذكرات.

لم يستند إحتلال العراق على الأكاذيب والتهم المغلوطة فحسب، بل كان الإصرار على هذه التلفيقات دوراً مشيناً في قتل مئات آلاف من المدنيين العراقيين طيلة عقد التسعينات الماضي. ولقد كان الأجدر، وخاصة بعدما ثبت عدم وجود دليل على أسلحة للدمار الشامل في العراق - منذ أوائل التسعينات - أن تُرفع العقوبات الاقتصادية اللاإنسانية المُجحفة بحق الشعب العراقي في حينها. ويتّضح الآن بأن الإصرار على إبقاء هذه العقوبات المُدمِّرة طيلة العقد الماضي، بحجة وجود أسلحة الدمار الشامل، كان في واقع الحال جريمة نكراء يُضخِّم من بشاعتها موت عشرات آلاف من العراقيين بنيران الإحتلال الحالي.

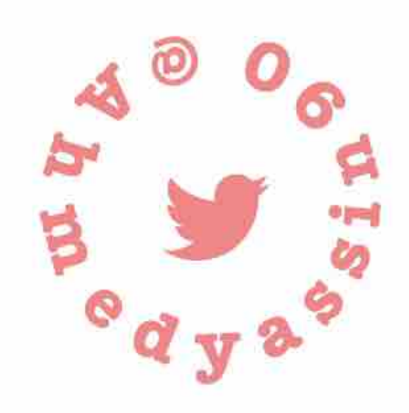
كان العراق المُهشّم والعاجز أشبهُ بالسُبحة المتراصة المُتماسكة بفعل خيط من الدكتاتورية القمعية والذي قطعته غطرسة وتهّور الولايات المتّحدة الأمريكية فتبعثرت حباتها الآن في فوضى وعدم إستقرار.

تحاول الولايات المتّحدة الآن، من خلال هجمتها الإستعمارية الشرسة، تنفيذ كلّ أهدافها في العراق في آن واحد: إزالة أسلحة الدمار الشامل - والتي عجزت عن إيجادها -، مكافحة ما تسميه هي بالإرهاب، إزالة آثار نظام صدام حسين، إقامة نظام إقتصادي يتماشى ومصالحها، السيطرة على نفط العراق، إرساء قواعد ما تعتقده بالديمقراطية، وتطبيع علاقات العراق مع إسرائيل. لكن الواقع الجغرافي والسياسي وبروز المقاومة العراقية سوف يجعل قدراتها في تحقيق كل ذلك مشلولة ومُقيدة التنفيذ كاليد المُبللة التي تتجمد بمجرد لمسها صفيحة باردة بعدما أدى إحتلالها ليس إلى تبديل النظام فحسب بل إلى تدمير كيان الدولة العراقية التي تأسس كيانها الفتي منذ عشرينيات القرن الماضي.

إن نشوء الولايات المتحدة الأمريكية التاريخي، والذي سبر العنف أغواره وترسّخ في جذور تكوينه، غير قادر على إدراك هول الدمار الذي ألحقه الإحتلال الأمريكي - البريطاني بكيان العراق، بل ويفتقد إلى الوعي والحس الإنساني لإمكانية إصلاح الدمار الرهيب الذي أوقعوه فيه.

إلا أن شعب العراق يظل القادر على طرد المُحتلين وإصلاح شأنه وكيانه بنفسه.

(كُتِب هذا الكتاب بعد أشهر من الإحتلال في آب من عام 2003، وتُرجِم إلى اللغة العربية في أواسط العام 2004، مما سمح بإضافة بعض المُلاحظات في متِنه على مجريات الأمور).



@Ahmedyassin90

الفصل الأول

اغتصاب العراق المُحاصَر

سيبقى العشرون من آذار عام 2003 يوماً سيئ الصيت عند شعب العراق كما هو حال الحادي عشر من أيلول عام 2001 لدى الشعب الأمريكي. ففي هذين اليومين، شعرَ كُلٌ من الشعبين بهول صدمة الإرهاب الجماعي الذي غزاه في عقر داره. وبينما وصلت المصداقية الأخلاقيّة للولايات المتحدة الأمريكية، حسب تصوّري، إلى ذروتها في يوم العاشر من أيلول عام 2001، أرى العراق ينحدر حثيثاً نحو الدرك الأسفل بعد إحتلاله – إلاّ أنه سينهض من جديد.

إن المجتمع العراقي يُغتصب الآن بقسوة الإحتلال الظالم. ولقد سبق ذلك خَنقٌ مُتَعَمَّد لكل إمكانياته حين فرضت عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وبإصرارٍ متواصل من خلال الأمم المتّحدة، مقاطعةً إقتصاديةً بربرية أشبه بحصارات القرون الوسطى. فعلى مدى ثلاث عشرة سنة، دمّرت هذه العقوبات البنى التحتية المدنية كمُنْشآت الطاقة الكهربائية، والماء، والمجاري، ومؤسسات التعليم، والصحة، والقانون، والهيكل الاقتصادي الشامل للعراق. نتج عن هذا الحصار معاناة بالغة للشعب العراقي تم إخفاء معالمها عن المجتمعات الغربية. إن عدم الإدرك لكامل أبعاد هذا الحصار البشع تمَّ بفعل الانتقاء الداهي للأخبار من قبل أجهزة الإعلام الغربية، بمعنى أنه لم يكن ذلك بسبب عدم توفّر الأدلّة

الموثقة عن هذا الدمار وأبعاده والتي كانت في متناول اليد. ومع ذلك، وبالرغم من توفرها ما فتئت أن صرّحت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين اولبرايت عام 1996 عندما سألتها الصحفية ليزلي ستال خلال مُناظرة طلابية عن جدوى موت نصف مليون طفل عراقي جراء فرض هذه العقوبات، أجابت الوزيرة بتصريحها السيّئ الصيت "نعم، نعتقد أن الثمن يستحق ذلك!"

في أواخر التسعينيات، استقال إثنان من كبار الإداريين في الأمم المتّحدة، دينيس هاليداي وهانز فون سبونيك، وكانا مسؤولين عن برامج الإغاثة الإنسانية في العراق تحت غطاء "النفط مقابل الغذاء"، وذلك إحتجاجاً على جدول أعمال الحصار المخفي حيث أعرب هاليداي في العام 1998 عن إعتقاده "بأننا نقوم بتحطيم مجتمع بأكمله. إنها حقيقة بسيطة ومُرعبة"، كما وشبّه آثار الحصار الاقتصادي "بالإبادة الجماعية لشعب العراق"[1].

إضافة إلى ذلك الحصار المُدمّر، عانى الشعب العراقي من إستبداد طاغيةٍ مهووس بتمجيد حكمه، مُسلّطاً وسائل قمع شرسة على شعبه المقهور من خلال ممارسات حوالى ثمانية عشر جهاز أمن ومنظمة استخباراتية، بحيث آلت الحال بأن يندر العثور على عائلة عراقية لم يُعدم، أو يُسجن، أو يُستشهد أحد أفرادها خلال ثلاثين عاماً من حُكم صدام الإرهابي، ومن ضمنهم أفراد عائلته.

بسبب هذه العوامل مجتمعة، وبسبب سنوات طويلة من الحروب (منذ مطلع الثمانينات وحتى عام 1991)، فلقد تم تدمير معظم البنية التحتية للمجتمع العراقي والتي سعى من أجل إرسائها وبنائها أجيالٌ من المثقفين والعاملين

---

(1) "حان الوقت لرؤية حقيقة ذاتنا والعراق" دينيس هاليدي، صحيفة المانشستر غارديان، 2 آب 2002.

"Time to see the truth about ourselves and Iraq" Denis Halliday, Manchester Guardian, August 2, 2000.

www.commondreams.org/views/080200-102.htm

المخلصين على مدى ثمانين عاماً، أي منذ قيام دولة العراق في العـــام 1921. وأدى كل ذلك بالنتيجة إلى تمزيق نسيجه الاقتصادي، والقـــانوني، والتعليمـــي، والصحي، والاجتماعي.

تزامنت هذه المحنة في العراق مع ظهور قوة سياسية جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية والتي تزعّمت حملة إحتلال العراق واغتصاب وتدمير ثرواته الطبيعية والتاريخية والحضارية.

المُحافِظون الجُدد في الولايات المتحدة الأمريكية

أدى تقاطع عدة عوامل غير عادية وغير منظورة، مثل إختيـــار الـــرئيس بوش عام 2000 – بدلاً من إنتخابه – وأحداث الحادي عشر من أيلـــول عـــام 2001، بدفع زمرة صغيرة لا تمثّل الشـــعب الأمريكـــي أو مؤسّســـة السياســـة الخارجية الأمريكية السائدة آنذاك، إلى تصدّر واجهة صانعي السياسة الخارجية للقوّة العُظمى الأوحد في العالم والسيطرة على منهاجها الإستعماري وتســـخير الرئيس بوش لتحقيق مآربها.

أصبح قلب المجموعة التي تسيطر على السياسة الخارجية لأمريكا مُكوّنـــاً من المفكرين المتخصصين في مجالات الدفاع، ويُطلق عليهم لقب "المُحافِظون الجُدد". وبما أن المحافظين في أمريكا هم عادة من اليمين السياسي التقليدي، فإن العديد من أعضاء هذه الزمرة كانوا قد بدأوا عملهـــم السياســـي كيســـاريين أو ليبراليين معادين للستالينية قبل إنتقالهم الفكري إلى أقصى اليمين السياسي، ولذا أُطلق عليهم لقب "الجُدد". ففي داخل الحكومة الأمريكية حالياً، تتكـــون زُمـــرة "مُفكري الدفاع" الرئيسيين من بول ولفويتز، نائـــب وزيـــر الـــدفاع، ودونالـــد رامسفيلد الذي أوكلت إليه وزارة الدفاع فقط لأن ولفويتز نفسه كان مُثيراً للجدل بسبب حدة آرائه. كما وتتضمّن هذه الزمرة دوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع والمستشار في البنتاغون الأمريكي، ولويس ليبي ربيب ولفويتز ورئيس مكتب نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، وجون بولتون، اليميني الموكّل إلى وزارة الخارجية للإشراف على سياسة وزير الخارجية كولن باول، وإليوت أبرامـــز،

الذي يترأس سياسة الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي. وفي خارج الإطار الحكومي الرسمي نجد جيمس ولزي، مدير وكالة المخابرات المركزية سابقاً، والذي حاول مراراً أن يربط ما بين أحداث الحادي عشر من أيلول وموجة رسائل الجمرة الخبيثة في الولايات المتّحدة ويلصقها بالعراق وصدام حسين. وأخيراً ريتشارد بيرل، الذي ترك منصبه مؤخراً كمستشار في مجلس وزارة الدّفاع بعد فضيحة مالية غير مشروعة. ومما تجدر الإشارة اليه، فإن أغلب هؤلاء "الخبراء" لم يؤدوا الخدمة العسكرية في الجيش الأمريكي. إلا أن المقر الرئيس لهؤلاء السياسيين الجمهوريين (المُعيّنين) هو الآن في مكتب دونالد رامسفيلد المدني، وزير الدفاع، ويُنظر إليهم بإستهجان وبشك من قبل القادة العسكريين في البنتاغون.

بكل وضوح يُحدّد مايكل ليند في مقال له[2] مناطق تأثير المحافظين الجُدد في الخارطة السياسية الأمريكية والتي تشمل، بالإضافة إلى وجودهم داخل وحول وزارة الدفاع الأمريكية، التأثير الفعّال أيضاً في بقية أضلاع بنتاغون "الشكل الخُماسي" – إن جاز التعبير هندسياً – المتكوّن، بالإضافة إليهم، من (1) الجمعيات السياسية المحافظة و(2) اللوبي الإسرائيلي و(3) التجمعات الدينية اليمينية و(4) الإمبراطوريات الإعلامية.

توفّر التكتلات السياسية المحافظة، أو ما يُطلق عليها "مجالس الخبراء – Think Tanks"، مثل معهد المشروع الأمريكي (American Enterprise Institute) وخطة المشروع الأمريكي الجديد The Project for the New American Century مرتعاً مريحاً للمحافظين الجدد متى ما تركوا، مؤقتاً أو كلياً، الخدمة في المؤسسات الحكومية. ويجدر بالذكر أن تمويل هذه الجمعيات لا يصدر أساساً

(2) "كيف دحَرَ المُحافظون الجُدد واشنطن – وشنّوا الحرب"، مايكل لند، 9 نيسان 2003.
"How neo-conservatives conquered Washington - and launched a war", by Michael Lind, Whitehead Fellow at the New America Foundation in Washington. April 9, 2003.
www.antiwar.com/orig/lind1.html

من الشركات الصناعية بل من المؤسسات المُحافظة التي مضى على تأسيسها عدة عقود من الزمن، مثل (مؤسسة برادلي) و(مؤسسة أولن)، والتي تهب لهذه المؤسسات تبرعات من فوائد عقارات وأرث أغنياء التجار والصناعيين. هكذا نرى أن السياسة الخارجية للمحافظين الجُدد لا تعكس بحدّ ذاتها مصالح المؤسسات الصناعية العملاقة بشكل علني ومباشر، وإن كانت في نهاية الأمر تستفيد وتزدهر من تلك الخدمات الفكرية للمحافظين الجُدد، ولذا من الممكن القول إن المُحافظين الجُدد هم مجموعة من المفكرين العقائديين، وليسوا إنتهازيين.

إنّ حلقة الربط الرئيسة بين مجالس الخبراء المحافظين واللوبي الإسرائيلي في الولايات المتّحدة الأمريكية هو المعهد اليهودي لشؤون الأمن القومي (Jewish Institute for National Security Affairs) المساند العلني لحزب الليكود الإسرائيلي والذي جذب إلى نهجه العديد من خبراء الدفاع غير اليهود من خلال إرسالهم في رحلات سياحية إلى إسرائيل للتأثير على آرائهم وكسب مواقفهم. تتضمّن قائمة المنتفعين – على سبيل المثال – الجنرال المتقاعد جاي غارنر، أول حاكم فاشل للعراق المُحتل. ففي تشرين الأول من العام 2000، شارك غارنر، بعد زيارته إلى إسرائيل على نفقة المعهد المذكور، بتوقيع رسالة صادرة عن المعهد اليهودي لشؤون الأمن تبدأ بالقول: "نحن.. نعتقد إن قوات الدفاع الإسرائيلية قد مارست ضبط نفس رائع بوجه العنف والإنتفاضات المُسيَّرة من قبل قيادة السلطة الفلسطينيّة[2]".

ينقسم اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتّحدة إلى جناحين، الجناح اليهودي والجناح المسيحي. لكل من ولفويتز وفيث صلات وثيقة مع اللوبي الإسرائيلي من اليهود الأمريكيين، حيث أن لولفويتز أقرباء في إسرائيل كما أنه عمل كحلقة

---

(2) "كيف دَحرَ المُحافظون الجُدد واشنطن – وشنّوا الحرب"، مايكل لند، 9 نيسان 2003.
"How neo-conservatives conquered Washington - and launched a war", by Michael Lind, Whitehead Fellow at the New America Foundation in Washington. April 9, 2003.
www.antiwar.com/orig/lind1.html

وصل بين إدارة بوش ولجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية. في حين مُنح فيث جائزةً من قبل "المنظمة الصهيونية لأمريكا Zionist Organization of America"، حيث أُمتدح فيها بأنه "ناشط مؤيد لإسرائيل". وعندما كان فيث خارج دائرة صنع القرار أثناء ولاية الرئيس كلينتون، قام وبالتعاون مع ريتشارد بيرل عام 1996 بكتابة ورقة العمل السياسية الموسومة: "الإنطلاقة الجديدة – إستراتيجية جديدة لضمان المُلك[3]" والمُلك المقصود هنا هو المُلك الإسرائيلي في الشرق الأوسط. وقد تم إعداد هذه الدراسة لتقديمها إلى الحكومة الإسرائيلية القادمة آنذاك برئاسة بنيامين نتنياهو حيث تتطرق إلى تحديد الوسائل المختلفة التي يُمكن لإسرائيل أن تقوم "بتكوين بيئتها الإستراتيجية" بدءً بإزاحة صدام حسين وتبديل نظام حكمه بنظام حكم ملكي في بغداد. كما وأوصت الحكومة الإسرائيلية بوأد عملية أوسلو للسلام وبإعادة إحتلال الأراضي الفلسطينية وبسحق حكومة ياسر عرفات. ولا يخفى على المرء عزم شارون على تحقيق كافة هذه الأهداف.

إن أمثال هؤلاء المفكّرين من المُحافِظين الجُدد لا يشكّلون الغالبية العظمى من الأمريكيين اليهود الذين أدلوا بأصواتهم لصالح آل غور، مرشّح الحزب الديمقراطي في إنتخابات الرئاسة في عام 2000. كما ومن الضروري الإشارة هنا إلى أن أكثر المؤيدين حماساً للموقف السياسي لحزب اللّيكود الإسرائيلي هم الناخبون الجمهوريون ذوي الأصول البروتستانتينية المُتزمّتة والمنتشرين في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية. وتعتقد هذه المجموعات الدينية اليمينية بأنّ الله قد أعطى بحق كلّ أراضي فلسطين إلى اليهود، كما

(3) "اليمين في وسط المسرح السياسي"، صحيفة الغارديان في 4 آذار 2003، ويتطرق فيه إلى تقرير "الإنطلاقة الجديدة – إستراتيجية جديدة لضمان المُلك".

"*Right takes centre stage*", The Guardian, by Brian Whitaker, March 4, 2003.

www.guardian.co.uk/elsewhere/journalist/story/0,7792,907312,00.html

Referencing "*A Clean Break: A New Strategy for securing the Realm*", a report prepared by The Institute for Advanced Strategic and Political Studies' "Study Group on a New Israeli Strategy Toward 2000."

www.israeleconomy.org/strat1.htm

وتنفق هذه المجموعات المتشددة الملايين من الدولارات سنوياً لدعم المستوطنات اليهودية في الأراضي الفلسطينية المُحتلّة.

يشمل الضلع الخامس لـ "الشكل الخُماسي" للمُحافِظين الجُدد عدداً من الإمبراطوريات الإعلامية اليمينية ذات الجذور العميقة في الكومنولث البريطاني وفي كوريا الجنوبية. بذلك تطغى مواقف روبرت مردوخ الموالية لإسرائيل على شبكة فوكس التلفزيونية، الأخطبوط الإعلامي الذي يمتلكه. كما وإن مجلته "المعيار الأسبوعي" (National Standard) والمسؤول عن تحريرها وليام كريستول (رئيس مشروع القرن الأمريكي الجديد) هي لسان حال خبراء الدفاع من أمثال بيرل، وولفويتز، وفايث، وولزي بالإضافة إلى دفاعها الأعمى عن مواقف حكومة شارون التعسفية. ويمتد هذا الأخطبوط الإعلامي ليشمل مجلة "المصلحة الوطنية" (National Interest) التي يموّلها الملياردير كونراد بلاك، الذي يمتلك جريدة الجروزليم بوست الإسرائيلية وإمبراطورية هولينجير الإعلامية في كل من بريطانيا وكندا.

أغرب هذه الشبكات الإعلامية المُضللة تلكُم التي تدور في فلك جريدة الواشنطن تايمز والتي يملكها المُبشِّر الكوري الجنوبي (والمحكوم سابقاً) القسّ سون ميونج مون والتي تملك وتسيطر على وكالة الأنباء العالمية (United Press International – UPI) والتي تُدار الآن من قبل جون أوسوليفان، كاتب خُطب مارجريت تاتشر، رئيسة الوزراء البريطانية سابقاً، وكان قبل ذلك يعمل مُحرّراً لكونراد بلاك، القيصر الإعلامي في كندا. من خلال تشابك هذه القنوات الإعلامية، فلقد طغى أسلوب الضحالة والإثارة التي عُرِفت بها الصحافة الشعبية البريطانية اليمينية على وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية نفسها.

كيف تمكّنت هذه المجموعة الصغيرة من خبراء الدفاع، أي "المُحافظون الجُدد"، والتي تختلف مواقفها عن مواقف أغلبية النُخبة التي اعتادت رسم السياسة الخارجية الأمريكية، من جمهوريين وديمقراطيين، من الإستيلاء على إدارة الرئيس بوش علماً أن القليلين منهم دعموا المُرشّح بوش عام 2000 أثناء الجولات الإنتخابية الأولية لحزب المحافظين إذ راودتهم الشكوك بأنّ بوش الثاني سيكون متخاذلاً كأبيه الذي أخفق في إحتلال بغداد أثناء حرب الخليج

الأولى والذي مارس ضغوطاً كبيرة على إسرائيل أثناء عملية أوسلو للسلام؟ كما ساورتهم الريبة من أن إدارة بوش الإبن ستكون على شاكلة إدارة أبيه حيث سيسيطر عليها الجمهوريون المعتدلون والواقعيون من أمثال كولن باول، وجيمس بيكر، وبرينت سكوكروفت. لذا فكان دعمهم الأولي في دوري تلك الإنتخابات عن الحزب الجمهوري موجهاً لمصلحة عضو مجلس الشيوخ جون ماكين إلى أن أصبح واضحاً بأن بوش الثاني هو الذي سينال سبق الترشيح عن الجمهوريين.

وهنا حالف الحظ المُحافظين الجُدد عندما كُلّف ديك تشيني مسؤولية إدارة الفترة الإنتقالية الرئاسية (الفترة ما بين الإنتخابات في تشرين الثّاني وتسلّم مقاليد الحكم في كانون الثّاني). إستغلّ تشيني هذه الفرصة الثمينة بملء المناصب الشاغرة في الإدارة الجديدة بحلفائه من المُحافظين الجُدد المتشدّدين. وبدلاً من أن يصبح كولن باول المرجع الأساس للسياسة الخارجية بحكم منصبه وزيراً للخارجية، كما توقّع الكثيرون، وجد باول نفسه محاصراً داخل شبكة تشيني اليمينية التي تضم ولفويتز، وبيرل، وفيث، وبولتون (وكيل وزير خارجية) وليبي (رئيس هيئة أركان مكتب نائب الرئيس ديك تشيني).

كما استغلّ المحافظون الجُدد، وبمهارة فائقة، جهل بوش وضحالة خبرته في السياسة الدولية، على خلاف أبيه الذي كان قد ساهم في القتال في الحرب العالمية الثانية وأصبح سفيراً في الصين ومديراً لوكالة المخابرات المركزية ونائباً لرئيس الجمهورية. كان بوش الإبن ضحلَ التعليم والثقافة ومُستهتراً في شبابه، كما وفشل مراراً في ممارسة أعماله التجارية قبل أن يفوز بمنصب حاكم ولاية تكساس، والذي هو عبارة عن منصب رمزي في أحسن الأحوال، مُخلّفاً خلفه سجلاً مثيراً للجدل يشير إلى تهربّه من الخدمة العسكرية أثناء حرب فيتنام بفضل النفوذ الذي تتمتع به عائلته. فبينما كان أبّوه جمهورياً مُعتدلاً في مواقفه، فلقد تشبّع بوش الابن بالمحيط الاجتماعي والثقافي السائد في غرب ولاية تكساس المُغالي بإستعراض العضلات، والتديّن المُتزمّت، والتشكيك بالمُثقفين. ترعرع بوش الابن في طبقة أرستقراطية ذات الإنتماء البروتستنتي الأسقفي (Episcopalian) ومن ثم حولّ إنتمائه الديني إلى الأصوليّة الجنوبية المتشددة أثناء

أزمة نفسية عصفتْ به في منتصف عمره. تنعكس المضامين الدينية المُتزمتــة في العديد من أقوال بوش، ومن أكثرها دلالة تلك المقولة المنشورة له في جريدة هآرتز الإسرائيلية[4] نقلاً عن محمود عباس، رئيس الوزراء الفلسطيني آنذاك، الذي أبلغ الصحيفة بأنّ بوش قد صرّح له أثناء اجتماع عقد بينهما: "قال لي الله بأن أضرب القاعدة وها أنا قد ضربتهم، وبعد ذلك أمرني الله بضرب صـــدام، ولقد فعلت ذلك أيضاً، والآن إنني مُصممّ على حلّ مشكلة الشرق الأوسط".

تمكّن فكر المُحافِظين الجُدد من النفاذ إلى الإدارة الجديدة للرئيس المُنتخب بوش قبل إستلام بوش سلطة الرئاسة الفعلية في كانون الثّاني 2001[5]، إذ قـــام العديد من أعضاء حكومته المُقبلة، من ضمنهم ديك تشيني ودونالـــد رامســـفيلد وبول ولفوفيتز ولويس ليبي والأخ الأصغر لبوش، بإعداد تقرير في شهر أيلول من العام 2000 ضمن فعاليات مجلس الخبراء في مشروع القـــرن الأمريكـــي الجديد (Project for the New American Century-PNAC) يرسم فيه خطة توضح معالم الهيمنة الأمريكية على العالم (Global Pax Americana) والموسوم: "إعادة بناء دفاعات أمريكا: الإستراتيجيات والقـــوّات والثـــروات للقـــرن الأمريكـــي الجديد[6]" ومن ضمنها عزمها على شن الحرب على العراق "لتغيير النظام" فيه.

(4) "إن خارطة الطريق مُنقذة لحياتنا" رئيس الوزراء عباس، صحيفة هاآرتز 26 تموز 2003.
"*Road map is a life saver for us, PM Abbas tells Hamas*", by Arnon Regular, Ha'aretz, July 26, 2003.

www.haaretzdaily.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=310788&contrassID=2&subContrassID=1&sbSubContrassID=0&listSrc=Y

(5) "خطط بوش "لتبديل نظام الحكم" في العراق قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية نيل ماكاي فـــي 15 أيلول 2002.
"*Bush Planned Iraq 'Regime Change' Before Becoming President*", By Neil Mackay, 15 September 2002.

www.informationclearinghouse.info/article1221.htm

(6) تقرير "إعادة بناء دفاعات أمريكا: الإستراتيجيات والقوّات والموارد للقرن الجديد".
"*Rebuilding America's Defenses, "Strategy, Forces and Resources For a New Century*", A Report of The Project for the New American Century, September 2000.

www.informationclearinghouse.info/pdf/RebuildingAmericasDefenses.pdf

لقد عزز هذا الإهتمام بالهجوم المُبيّت على العراق الكثير من التفاصيل التي وردت في كتاب "ضدّ كل الأعداء" لريتشارد كلارك، المستشار في شؤون الإرهاب في البيت الأبيض سابقاً، والصادر في العام 2004.

وتؤكد هذه الخطة بجلاء نوايا حكومة بوش المستقبلية في حتمية السيطرة العسكرية الأمريكية على منطقة الخليج، بقيَ صدام حسين في الحكم أم لم يبقَ. تدّعي حكومة بوش بأن "للولايات المتّحدة، ولعقود خلت، الرغبة في لعب دور أكثر ديمومة في الأمن الإقليمي لدول الخليج. وبينما يعطي النزاع الطويل الأمد مع العراق المُبرر لتنفيذ ذلك فعلاً، فإن الحاجة لوجود قوة أمريكية كبيرة في الخليج تتجاوز قضية نظام صدام حسين".

وتُشهِّر وثيقة مشروع القرن الأمريكي الجديد بأمبراطورية الولايات المتحدة بدعمها الجهور في تنفيذ "المُخطّط للحفاظ على أولوية السيطرة الأمريكية على العالم وذلك بمنع ظهور أي منافس لقوتها العظمى الوحيدة، والعمل على تشكيل نظام أمن دولي يتوافق مع مبادئ ومصالح أمريكا". كما ويوصي التقرير بتطوير منظور هذه "الإستراتيجية الأمريكية الكبرى" على المدى الطويل ويدعو الولايات المتّحدة "لخوض وربح عدة معارك عسكرية في آن واحد وجعل هذا الهدف "من الأولويات الرئيسية" لها.

بدأ بوش بالإبتعاد عن مواقف كولن باول والميل بإتجاه تزمّت ولفويتز قبل أن توفّر له أحداث الحادي عشر من أيلول زخماً دافعاً يُغطّي به عجزاً كان يعاني منه. لقد تهيأت له مُهمّة واضحة لتغيير مجرى سياساته وتمنحه القدرة لكي يبتعد عن خطى والده تماماً. وقد كانت هناك دلائل تشير إلى ظهور جفاء بين الأبّ الحذِر وإبنه المُبشِّر بالعدوان على العراق حين حذّر بعض المخضرمين من إدارة بوش الأب في العام 2002، من ضمنهم جيمس بيكر وسكوكروفت ولورانس إيجليبير، علناً من الإقدام على غزو العراق بدون تفويض واضح من الكونجرس الأمريكي والأمم المتّحدة.

يصعب التكهّن فيما إذا كان بوش واعياً كُلياً لإستراتيجية ولفويتز وجماعته العدوانية الشمولية والتي بدأت معالمها تتضح شيئاً فشيئاً. وفيما عدا إعتناقه

حديثاً لمبدأ الحروب الإستباقية، يبدو أنه صدّق حقاً التهديد الوشيك على الولايات المتّحدة من قبل "أسلحة الدمار الشامل" المفروض وجودها عند صدام حسين، الأمر الذي كان يُردده المُحافظون الجُدد علناً وتكراراً ولم يتوانوا عن تضخيم تهديده المفترض. لقد حثّ (مشروع القرن الأمريكي الجديد) على غزو العراق حتى أثناء فترة حُكم الرئيس كلينتون ولأسباب لا علاقة لها حينئذ بالصلات الممكنة بين صدام حسين وأسامة بن لادن. كررت الرسائل المنشورة على الملأ في حينه والموقّعة من قبل ولفويتز والمُحافظين الجدد الآخرين الطلب من الولايات المتّحدة بغزو وإحتلال العراق، وقصف قواعد حزب الله في لبنان، وتهديد الدول الأخرى مثل سوريا وإيران بهجمات عسكرية أمريكية إذا ما إستمرت بدعم وتبنّي الإرهاب – حسب طروحاتهم الجديدة. وكان رد المحافظين الجدد حاسماً بوجه من تجرأ وشكك بأن هذه الطروحات والادعاءات لا تهدف إلى حماية الشعب الأمريكي، بل جعل منطقة الشرق الأوسط آمنة لإسرائيل بتوجيه تهمة "معاداة السامية" لمن يتصدى لطروحاتهم لإسكاته وطمس حُجّته.

وبهذه الأساليب تمكّنت عقيدة المُحافظين الجُدد من السيطرة على سياسات واشنطن الخارجية ووجّهتها للولوج في أتون حرب شرق أوسطية قد تسري كالنار في الهشيم، بَدءً بإحتلال العراق. لم يرتبط هذا المسار بأيّ تهديد عسكري معقول أو محتمل للولايات المتّحدة من قبل العراق، بل لقي هذا التوّجه معارضة شديدة من قبل معظم شعوب دول العالم، فيما عدا إسرائيل.

من دواعي التحسّب هنا هو تلاؤم ظرفٍ عابرٍ مع شخصية مُحددة. فبعد هجوم الحادي عشر من أيلول، كان من المحتمل أن يشن أي رئيس أمريكي الحرب لإسقاط حماة طالبان وبن لادن في أفغانستان. إلا أن مَسار بقية الأحداث وردود الفعل التي تم تبنّيها من قبل الولايات المتّحدة كان يمكن أن يكون مختلفاً لولا تطبيق القواعد الإنتخابية المُستقاة من قوانين القرن الثامن عشر في الولايات المتّحدة والتي أعطت الرئاسة إلى بوش الثاني على طبق من ذهب، ولولا أن إستغلّ تشيني فترة الرئاسة الإنتقالية ليقوم في لمِّ شملِ جماعة "مُنتدى مشروع القرن الأمريكي الجديد" لكي يتسلموا مقادير السياسة الخارجية للولايات

المتحدة الأمريكية برمتها ويصبغوها بتزمت تفكيرهم.

ويجدر بنا في هذا المجال التطرّق للمنظور الفكري للمحافظون الجُدد وخلفيات هذا الفكر الأحادي المتعصّب.

الجذور الفكرية للمُحافظين الجُدد

ألبرت ولستيتير

في شرحها المفصّل عن "المُحافظين الجُدد في موقع السُلطة[7]"، تتبّع إليزابيث درو خلفية الجذور الثقافية لكل من بيرل وولزي وولفويتز إلى أن تصل إلى ألبرت ولستيتير (الراحل) والذي كان أستاذاً في جامعة شيكاغو وعمل لدى مجموعة راند (المشهورة بعلاقاتها وعقودها مع وزارة الدفاع الأمريكية على مدى عدة عقود من الزمن) وعلّم فيما بعد في جامعة كاليفورنيا.

تبنّى ولستيتير، خلال سنوات الحرب الباردة، الموقف القائل إن الردع النووي، بحدّ ذاته، لم يكن كافياً بل أنه من المُحتّم والضروري على الولايات المتّحدة الأمريكية أن تخطّط لخوض الحرب النووية فعلاً لكي تتمكن من ردع هكذا حرب. كما إدعّى، وبشدّة، بأن تقدير القوّة العسكرية للإتحاد السوفياتي كان أقلّ من واقعه الفعلي. وقد حصل ولفويتز على شهادة الدكتوراة تحت إشراف إستاذه ولستيتير. كما وسنحت الفرصة لريتشارد بيرل، عندما كان طالباً في مدينة لوس أنجليس، بمقابلة ولستيتير عندما دعته إبنة ولستيتير للسباحة في مسبح منزلهم. وفيما بعد، دعا ولستيتير صديق إبنته بيرل، والذي كان طالباً في جامعة برنستون أنذاك، إلى واشنطن للعمل مع ولفويتز على تقرير لدحض معاهدة منع انتشار الصواريخ البالستيّة المقترحة في تلك الفترة، والتي عارضها ولستيتير بقوة، ومن ثم أُرجىء العمل بتنفيذها من قبل إدارة بوش الأب. كما

(7) "المُحافظون الجُدد في السُلطة"، أليزابيث درو، مجلة نيويورك لمُراجعة الكُتب، 12 حزيران 2003.

"*The Neocons in Power*", by Elizabeth Drew.

The New York Review of Books, Volume 50, Number 10, June 12, 2003

www.nybooks.com/articles/16378

وقابل أحمد الجلبي ولستيتير أثناء دراسته للحصول على شهادة الدكتوراة في الرياضيات من جامعة شيكاغو. ومن خلال ولستيتير قابل بيرل أحمد الجلبي وضمّه إلى حلقة المُقرّبين له في نواة "المُحافِظين الجُدد".

في ذلك الحين، كان أحمد الجلبي قد أسس المؤتمر الوطني العراقي عام 1992، والذي هو تجَمعٌ لفئات من المعارضة العراقية كان العديد من أعضائها يعيشون في المنفى، وتموّلهم بشكل علني وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وقد أثبتت الأحداث تبؤ هؤلاء المنفيين الصدارة في توفير المعلومات المُلفّقة، وجمع ونشر الأكاذيب عن أسلحة الدمار الشامل العراقية أثناء حقبة التسعينات والتي سخّرتها بكل جدارة جماعة المُحافِظين الجُدد في دفع زخم دعوتها لإحتلال العراق. وقد يُعجّل الكشف عن هذا العامل بدوره في دق الإسفين لشرخ موجة المُحافِظين الجُدد العاتية وثلم شوكتهم والإطاحة بهم.

مايكل ليدين

أصبح مايكل ليدين، وهو من الشخصيات المرموقة في معهد المشروع الأمريكي (American Enterprise Institute) المُحافظ، من طليعة مُنظّري حركة المُحافِظين الجُدد ومنّبعاً للأفكار العسكرية التي نتجت عن سياساتهم[8]. صدر له كتاب في العام 1996 بعنوان "خيانة الحرّية – كيف قادت الولايات المتّحدة ثورة ديمقراطية عالمية وربحت الحرب الباردة ومن ثَمَّ ولّت أدبارها" يكشف فيه عن هوس المُحافِظين الجُدد الأساسي والذي يدعي فيه: "أن الولايات المتّحدة لم "تربح" بحق الحرب الباردة لأن إنهيار الإتحاد السوفياتي تمَّ بفعل إهترائه الذاتي فحسب وبدون إطلاق رصاصة واحدة. إن كانت الولايات المتحدة قد ربحت الحرب الباردة فعلاً، فإن البرهان على ذلك كان ببزوغ مؤسسات ديمقراطية في

(8) "القدرة العسكرية الخارقة، الرجل الذي يدعو إلى الحرب الشاملة في الشرق الأوسط"، ويليام بيمان، 14 أيار 2003.

"Military Might, The man behind 'total-war' in the Middle East", William O. Beeman, May 14, 2003.

www.sfgate.com/cgi-bin/article.cgi?file=/chronicle/archive/2003/05/14/ ED116756.DTL&type=printable

كل مكان تعرَض للتهديد الشيوعي، ولكن هذا الأمر لم يحصل".

وطِبقاً لنظرية ليدين هذه، يتوجّب تحقيق ذلك الآن، ولكي تنتصر (الديمقراطية) يجب أن يحصل التغيير فعلاً، وأولاً بأول، في كُلٍّ من العراق وإيران وسوريا. لذلك فإن العملية التي تضمن حدوث هذا الإنجاز أو التحوّل هو شن "الحرب الشاملة – Total War" العنيفة لتحقيق مفهوم عنف جديد هو "الدمار الخلاق – Creative Destruction". شملت أهداف هذا التصوّر، فيما شملت، الهجوم على الوهّابية والسلفية والمذهب الشيعي، وامتد أخيراً لتُبارك محاولة تدمير الرمز الرئيس للمذهب الشيعي ألا وهو ضريح الإمام علي تحت ذريعة القضاء على إنتفاضة مُقتدى الصدر(9). يعتقد ليدين "بأن نتائج الحرب الشاملة لن تقتصر على تدمير قوات العدو العسكرية فقط ولكنها سوف تُجبر أفراد مجتمع العدو المقهور بأن يتخَذ كلٌّ منهم قراراً شخصياً بتقبّل توجهّات حضارية عكس تلك التي جُبلوا عليها، علماً أن تفادي قتل هؤلاء المدنيين يجب أن لا يكون من أولويات الحرب الشاملة... إنّ هدف الحرب الشاملة هو "أن تفرض إرادتك ورغباتك بالقوة وبشكل دائم على الشعب الآخر". ورحمة الله على الديمقراطية الموعودين بها.

أثناء جولة له في البصرة وجنوب العراق إبان الإحتلال، عبّر الصحافي اليميني توماس فريدمان، وبشكل شبه عفوي، في مقالة له نشرتها جريدة النيويورك تايمز في 25 مايس من عام 2003 وبعد شهرين من الإحتلال، بأن "أفضل شيء في هذه الفاقة هو أن هزيمة العراقيين الساحقة سوف تجبرهم على إعطاء الأمريكيين الفرصة لتأسيس دولة بديلة أفضل".

هذا هو المفهوم العدواني المُجحف الذي يطرحه ويأمل ليدين في تحقيقه

(9) "تدمير ضريح الإمام علي: جزء من خطة المحافظين الجُدد للحرب الشاملة" كرت نيمو، 13 آب 2004.

"Destruction of the Imam Ali Shrine: Part of the Bushcon Plan for Total War", Kurt Nimmo, 13 August 2004.

kurtnimmo.com/blog/index.php?p=274

عبر "حربه الشاملة" وشهره "الدمار الخلاق" لنشر (الديمقراطية).

إلاّ أن الشعب العراقي سيثبت له ولمُنظّري المُحافظين الجدد عكس ذلك، وها هي الآن إنتفاضات المقاومة في وسط وجنوب وشمال العراق (ما عدا المناطق الكردية).

تتردد أصداء أفكار ليدين يومياً، وبنبرات متصاعدة من قبل المُحافظين الجُدد من أمثال تشيني ورامسفيلد وولفويتز إذ تبنّت وجهات نظرهم بشكل واضح إتجاهاً مُعاكساً لتوجّهات السياسة الخارجية الأمريكية التي كانت تُمارس قبل أحداث الحادي عشر من أيلول. وكما ورد أعلاه، لا يتردّد ليدين عن الجزم بأنّ إستخدام العُنف لنشر (الديمقراطية) هو قَدَرٌ مرسوم للولايات المتحدة الأميريكية. بذلك المنظور أصبح ليدين المشرّع لفلسفة الإحتلال الأمريكي للعراق والحجّة الفكرية لعملية الدمار العشوائي الذي ألمّ بالمجتمع العراقي برمّته.

بعد إستغلال "المساعي الحميدة" لدبلوماسية الأمم المتّحدة (من عمليات التفتيش عن الأسلحة والعقوبات الاقتصادية) لضمان ركوع العراق عسكرياً وإقتصادياً وتجويع شعبه، وقتل حوالى نصف مليون من أطفاله وشيوخه، والإيغال في تحطيم بُنيته التحتية، وبعد التأكّد من تدمير معظم أسلحته، قام "تحالف الراغبين – Coalition of the Willing"، والأجدر تسميته "تحالف الصاغرين والمُبتَزّين"، بإرسال جيشٍ ذي تفوّق تقني هائل إلى العراق لإحتلاله. ومن نافل القول إن شجاعة جنود الإحتلال القادرين على إلقاء القنابل المُتطوّرة من علو آلاف الأمتار في الجو كشفت عن جبن شديد على الأرض في ميدان القتال بقتلهم العشوائي للمواطنين العُزّل عند تعرضهم لأي إعتداء بسيط، والتي تنمّ عن عمق هلعهم ووحشيتهم وعنصريتهم.

حين نهب وحرق المخربون المتاحف، والوزارات، والمستشفيات، والمؤسسات الحكومية وقف الجنود الأمريكيون والبريطانيون دون اكتراث يراقبون مشاهد الدمار. ولقد برروا ذلك بإدعائهم بأنهم لم يتلقوا الأوامر لمنع أعمال النهب والتخريب. وكانت أولوياتهم واضحة للعيان. لم يكن أمن وسلامة الشعب العراقي من مهامّهم، كما ولم يكن من مهامّهم الحفاظ على ما تبقى من

البنى التحتية في العراق. بإختصار لم تتجاوز أولويات قوات الإحتلال نطـاق حقول نفط العراق وسلامتها، حيث تمّ "تأمين سلامة" حقول النفط في الشـمال والجنوب حتى قبل بدء الحملة العسكرية وقامت بحماية وزارة النفط فور دخول قوات الاحتلال مدينة بغداد.

ثم تبع ذلك حالة عارمة من الفوضى يطلق عليها المُحلّلون وصف "حالـة فراغ السلطة"، إذ تُركت المدن الكبرى التي تعج بالآلاف أو الملايين من السكان والتي عانت حصار الحرب لعدة أسابيع دون غذاء وماء وكهرباء وتحت قصف مستمر عنيف، بدون أي غطاء لضمان أمنها أو السيطرة علـى إدارة شـؤونها المعيشية، علماً بأن الشعب العراقي كان قد صبر طويلاً على حملة قاسية مـن التجويع المنظّم من خلال عقوبات الأمم المتّحدة لأكثر من عقد.

وهكذا إنزلقت حضارة عتيدة يزيد عمرها عن الآف السنين فـي دوّامـة الفوضى والدمار. ولزيادة الأسى والحزن يعلّق وزير الدفاع الأمريكي رامسفيلد بتعالٍ ينمّ عن الغطرسة والعنجهية الأمريكية قائلا": "لقد خرج العراقيون للتو من الدكتاتورية إلى الديمقراطية... هذه هي الديمقراطية... الشعوب الحرة هي حرة في إرتكاب مثل هذه الأعمال ولا يمكننا منعهـا". رحمـة الله علـى الحريـة الموعودين بها.

ولم يبقَ للقنوات التلفزيونية الأمريكية ما تعتزُّ به سـوى إعـادة مشـهد حفنة قليلة من العراقيين المُبتهجين بإسـقاط تمثـال صـدام حسـين بإيقـاعٍ وإخراجٍ أمريكي بحت. لقد أعمتهم تلك اللحظة عن الإدراك بأنهم قـد سـقطوا في فخ الإحتلال الشرس الذي لم يأبه في ضـرب المـدن والسـكان بالقنابـل الفتاكة والمحرّمة دولياً وقتل ألاف الأبرياء لكي يعلن في نهايـة الأمـر: "لقـد حرّرنا 600 بئرٍ للنفط[10]".

(10) "بماذا لم تُخبر إسرائيل أمريكا بعد؟"، رمزي بارود، السجل الفلسطيني، 21 نيسان 2003.
"What Else Hasn't Israel Told America?", by Ramzi Baroud, The Palestine Chronicle, April 21, 2003.
www.palestinechronicle.com/article.php?story=20030421081806395

لقد دفع إعتقاد المُحافظين الجُدد بأنّ تفوقهم الثقافي قد أهّلهُم فعلاً للتحكم بمصير الإنسانية عن طريق الخداع الفكري والكذب المُنظّم. وظهر جلياً أن الدعم الظاهر الذي أبداه الرأي العام في الولايات المتّحدة بمساندة مسيرة الحرب ضدّ العراق كان قد بُنيَ أساساً على صرحٍ مُتعدّد الطبقات من الكذب والخداع ساهم فيه، إلى حدّ كبير، تفكير المُحافظين الجُدد وبتنسيق من قبل الحكومتين الأمريكية والإنكليزية وبتضخيم غوغائي من قبل أجهزة الإعلام التي تقع تحت سيطرتهم التامة وسيل الأكاذيب التي وفّرتها عناصر المعارضة العراقية[11].

بذلك إستطاعت دولة حديثة شريرة أن تمزّق حضارة عريقة وبشكلٍ مُرعِبٍ حقاً.

في نفس الوقت الذي يساورني فيه اليقين والإيمان بقدرة الشعب العراقي في التغلب على محنته ومصابه الراهن من خلال مقاومته للإحتلال، فإني أعتقد أيضاً بأنّ الجانب المطمور من ديناميكية الديمقراطية عند الشعب الأمريكي[12] ستوصله في النهاية إلى إدراك مدى المأزق الأحمق والإجرامي الذي دفعه إليه هؤلاء المُحافظون الجُدد وربما يُجمع على محاسبتهم ومعاقبتهم. إنه الإمتحان الحاسم لفعالية الديمقراطية الأمريكية.

---

(11)"كانت حرب إحتلال أمريكا للعراق من أكبر الحروب جُبناً في العالم". خطاب لمناهضة الحرب، آروندهاتي روي، 2 حزيران 2003.

"The US Invasion of Iraq was perhaps the most cowardly War ever fought in History"

"The Day of the Jackals", a speech by Arundhati Roy, June 2, 2003.

globalresearch.ca/articles/ROY306A.html

(12)مقالة جديرة بالقراءة: "قوة الجماهير في عصر الأمبراطورية" خطاب لأروندهاتي روي في سان فرانسيسكو، 16 آب 2004 (أنظر إلى مقالة روي الأخرى في (11) أعلاه).

"Public Power in the Age of Empire", Arundhati Roy speaking in San Francisco, August 16th, 2004

(باللغة العربية – ترجمة بثينة الناصري) **www.iraqpatrol.com/php/index.php?showtopic=4521**

(باللغة الإنكليزية) **www.alternatives.ca/article1389.html**

من هنا سأبدأ بسرد مذكراتي آملاً بشرح خلفية الإستعداد والإندماج والإلتزام في العمل في البرنامج النووي العراقي منذ بداياته السلمية البسيطة وحتى مراحل فنائه الاخيرة. وينتهي السرد بتسجيل الجهود المتواضعة التي حاولتها مُنفرداً، خلال النصف سنة قبل شن الحرب على العراق، لكي أتصدّى لحملة التضليل والخداع والكذب التي شُنّت لدعم الإحتلال الغاشم لوطني.

وما زال الطريقُ سالكاً...

الفصل الثاني

عربي النشأة وطفولة رصينة

كانت بغداد لوحةً اجتماعيةً متعددة الألوان في نهاية العام 1944 حين وُلِدت فيها. تمتزجُ وتتصارع فيها الإنتسابات العشائرية، وقيمها البدوية، مع طموحات الطبقة البرجوازية المهنية حديثة التكوين، ضمن أطر دينية متعددة المذاهب والجذور التاريخية بأطيافها الزاهية، محدودة المساحة جغرافياً، ولكنها شاسعة البعد إنسانياً.

كان والدي، الدكتور يوسف يعقوب خدّوري، دام ذِكّره الطيب، قد أنهى للتّو خدمته العسكرية طبيباً في الجيش العراقي. ولم تمضِ سوى 25 عاماً خلت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عندما نال العراق "إستقلاله" بعد ثلاثة قرون من الحكم العثماني بمجتمعٍ يندرُ أن تجد فيه آنذاك الأثر لعالِمٍ أو مهندسٍ أو طبيبٍ. جاء البريطانيون في حينها وأشاعوا (أيضاً) أن إحتلالهم للعراق كان "لتحريره". ولم يلبثوا أن ذاقوا طعم المقاومة والهزيمة ليندحروا فيما بعد مع إحتلالهم البغيض.

مارس الوالد مهنة الطّب في عيادة بسيطة في منطقة شعبية في بغداد تُدعى "باب الشيخ" منذ منتصف أربعينات القرن الماضي، وبقيَ فيها لمدة تجاوزت الأربعين عاماً ولحين وافاه الأجل عام 1989 محاطاً بكرم أهل المنطقة رداً لجميله في غضّ النظر عن إستيفاء أجور معالجة غير القادرين مادياً منهم.

عُرِف عنه جود النفس والعطاء. ولا زِلت ألتقي بكبار السِّن ممن يذكرون طيبة قلبه، ويترحَّمون عليه عند ذكر إسمه.

وكان جدّي، يعقوب خدّوري، تاجراً ثرياً يملك الأراضي والبساتين في منطقة العشّار في مدينة البصرة في جنوب العراق. أقدم جدي في صيف عام 1929، وبالمشاركة مع أحد تجار مدينة الموصل في شمال العراق، بجمع جلود الأغنام من معظم العشائر في شمال وجنوب العراق وشحنها بحراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية لبيعها هناك، على أن تُدفع قيمتُها لأصحابها بعد البيع. إلا أن الشحنة وصلت إلى ميناء نيو أورلينز الأمريكي مع إنهيار السوق المالية هناك في خريف عام 1929، مما أوجب بيع شحنة الجلود بثمنٍ زهيدٍ للغاية وبخسارة مادية فادحة لجدي وشريكه. وإلتزاماً بشرف كلمة التاجر آنذاك، كان لا بُدّ من تعويض العشائر عن بضاعتهم بالرغم من عدم وجود أي عقد مكتوب بين الطرفين. لم يكن الهروب من تلك المسؤولية من خلال الإعلان عن الإفلاس مقبولاً من الناحية الأخلاقية أوالعرف التجاري السائد. لذلك إضطرّ جدي إلى بيع كافة ممتلكاته لتغطية ديونه. كان يعقوب خدّوري حريصاً على تلقي ولديه، يوسف وخدّوري، العلوم التي تؤهلهما لمستقبل مهنّي ناجح، وأدخلهما في المراحل الدراسية الأولية لتأمين ذلك الهدف. بعد مرور سنة على إفلاسه، وهو على فراش الموت، طلب من أخيه، توما خدّوري، الإلتزام بتنفيذ رغبته في حصول ولديه على شهادتيهما العُليا بعد وفاته. أوفِد أبي وعمّي من قبل عمّهما توما خدّوري إلى الجامعة الأمريكية في بيروت في السنة التالية. وفي العام 1935 عادا إلى بغداد وقد حصل أبي على شهادة الطب بينما نال عمّي شهادة المحاماة.

على الرغم من ذكائها المتوقّد ظلّت والدتي، ماري يوسف عباجي، ربّة بيت ولم تحترف العمل. وتميّز ذكائها مثلاً بالحفاظ على إجادة اللغة الفرنسية طيلة حياتها بعد أن تعلمتها صغيرةً في مدرسة الراهبات الإبتدائية والثانوية المشهورة في الباب الشرقي في بغداد. كما وإشتهرت بين أقرانها برفعة الحسّ وحُسن الهندام حتى وفاها الأجل عام 1994. كان والدها تاجراً من مدينة حلب

السورية وتزوّج من عائلة بزّوعي، والتي هي من العائلات المسيحية العريقة في شمال ووسط العراق حيث كان عمّها مُطراناً (مقام عالي في الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية) في مدينة الموصل في أوائل القرن العشرين.

عاش والديَّ أيام شبابهما في (عقد النصارى)، أي شارع المسيحيين، في وسط بغداد حيث كان عرض الشارع الضيّق يسمح فقط بمرور حمارين جنباً إلى جنب تحت ثقل الأحمال. وكانت شبابيك الطابق العلوي للبيوت تكاد تمَس بعضها البعض عبر الشارع الضيّق، وتكاد لا تسمح لأشعة الشمس بالنفاذ إلى أرض الشارع إلا فيما ندر. وكانت (السراديب) أو الأقبية تحت مستوى الشارع متوفرة في معظم البيوت حيث يرتادها للقيلولة كل أفراد العائلة أثناء ساعات ظهيرة الصيف اللاهبة، وترتادُها العقارب أيضاً لبرودتها. وفي المساء كانت تُرشُ أسطح المنازل بالماء عند غروب الشمس لتلطيف الجوّ ليلاً للنائمين على الأسطح ومعهم (التُنَكْ) أو دوارق الماء الطينية لدرء العطش أثناء الليل وعلى مرأى من عيون الجيران. وما كان ذلك يمنع (المطيرجية) أو مربّي الحمام من إستراق النظر صباحاً على ما قد كُشِف عنه أثناء نوم الصبايا، وهم يتظاهرون بمتابعة طيران أفواج حمامهم بحيث أنهم جلبوا العار على هوايتهم وأنفسهم لدرجة أنهم فقدوا نتيجة ذلك حقهم الطبيعي بالإدلاء بالشهادة أمام المحاكم.

سَكنتْ عائلتنا المكوّنة من والديَّ وأخي الكبير وليد وأنا في الأربيعينات من القرن الماضي في منطقة شعبية ما زال يُطلق عليها إسم (بستان الخس)، والتي كانت تَعِجّ بلهو الإطفال في أزقتها، وتبعد قليلاً عن (الباب الشرقي) والذي كان يحدّ مدينة بغداد شرقاً في بدايات القرن العشرين. وساعد في تربيتنا، ولمدة تزيد عن العقد من الزمن، السيدة الآشورية الخيّرة أم يوسُف (كوزي القسّ) من مدينة تلكيف العريقة القدم في شمال العراق.

تَتذكّر كوزي، بحنين دافئ وذاكرة ثاقبة لم ينال منها الزمن بتاتاً (حتى بعد مرور أربعين سنة) عندما كنت أقوم بزيارتها مِراراً في مدينتها تلكيف، نزواتي



مُربّيتي كوزي القس في تلكيف عام 1993.

وطيشي الصبياني بحيث عجزت والدتي من أن تُماشي حماستي ومغامراتي الصبيانية فتوسّلت من (مدام عادل)، مديرة مدرسة عادل الإبتدائية - حيث كان أبي الطبيب الخاص للمدرسة - بقبولي وأنا في الثالثة من العمر في صف (الروضة) وغضِّ الطرف عن شرط القبول القانوني والذي كان حده الأدنى أربع سنوات للأطفال. وبناءً عليه، أُجبِرتُ على إعادة الصف الثاني من روضة الأطفال (التمهيدي) لسنة ثانية كيّ أتأهلَ للإنتقال إلى الصف الإبتدائي الأول وأنا في السن القانونية. إضافة إلى ذلك، أصرّت والدتي على أن ألتحق وأعيش في القسم (الداخلي) من المدرسة، ولعدة سنوات دراسية قادمة، بسبب مستوى نشاطي وحماسي الزائدين.

كانت (مدام عادل)، الإسم المُحبَب للسيدة اللبنانية زهور عادل، مديرةَ دار روضة ومدرسة عادل الإبتدائية المشهورة بصرامتها وتميّزها في تثقيف النشء. قدِم الدكتور أنيس عادل مع زوجته زهور إلى بغداد من لبنان وأسّسا مدرسة عادل الأهلية في منطقة السعدون عام 1933. إشتهر إسم (مدام عادل) في الوسط

الثقافي في بغداد منتصف القرن المنصرم بفعل قدرة وسيطرة مديرتها المُتميّزة بحيث أُطلق إسم (مدام عادل) على المدرسة نفسها. جمعت المدرسة كوكبةً من خيرة المُعلّمين الممتازين وأصبحت بجدارة من أفضل المدارس الإبتدائية في بغداد. إستقبلت المدرسة أبناء وبنات أشهر العائلات اليهوديّة، والمسيحية، والمُسلمة، والكردية وبقية الطوائف في بغداد والعراق كلّه. ولا زلت أحمل الذكريات للعديد من أصدقائي الطلبة في مدرسة مدام عادل وأحفظ أسماء العديد من تلامذتها – من بينهم أحمد الجلبي الذي أصبح معروفاً في العام 2003 لدوره المُريب في إحتلال العراق – وكنّا في صف واحد عندما تخرجنا عام 1956. التعليم المُميّز ودقة النظام في المدرسة سمحا بتفوق الخريجين من طلاب السنة السادسة الإبتدائية وحصولهم تكراراً على أعلى الدرجات في الإمتحان الحكومي السنوي الموحّد الذي كان إلزامياً على كافة طلاب المدارس الإبتدائية في العراق. غادرتْ مدام عادل وعائلتها العراق بعد ثورة عام 1958 وبقيَ إسم مدرستها محفوراً في ذاكرة الطلاب وأهلهم، وما زال بناء المدرسة الأصلي قائماً إلى يومنا هذا مما يدل على متانة تشييده. توجّه معظم الخريجين من الأولاد من مدرسة مدام عادل مباشرةً إلى كليّة بغداد النموذجية في حي الصليخ أقصى غرب بغداد.

أسّس الآباء اليسوعيون الأمريكان كليّة بغداد النموذجية عام 1932، بناءً على طلب الجالية المسيحية في العراق من لدن حضرة البابا في الفاتيكان، قرب (عقد النصارى) في باديء الأمر. ومن ثم إشتروا أرضاً في منطقة الصليخ غرب بغداد وصمّموا بأنفسهم وبنوا كلية بغداد النموذجية في الأربعينات. وسرعان ما انعكس إحتراف وإندفاع مُدرّسيها والقائمين على أعمالها من الكهنة الأمريكان، والمُدرّسين العراقيين الممتازين، لتصبح المعيار النّوعي والأمثل للتعليم المتوسط والثانوي في العراق، وربما في المنطقة العربية آنذاك. ولإعداد الطلبة للإمتحانات الحكومية الموحّدة (البكالوريا) التي تسري على كافة المدارس المتوسطة والثانوية في أنحاء العراق في نهاية السنتين – السنة الثالثة المتوسطة والخامسة الثانوية – كان على الطلاب دراسة كافة المواضيع (ما عدا اللغة

العربية) باللغتين العربية والإنجليزية التي يقوم بتدريسها الآبـــاء اليســوعيون أنفسهم. وأذكر إمتحاناً باللغة الإنكليزية في الصف الثالث المتوسِّط، ونحن فـــي الخامسة عشر من العُمر، يُطلب منا فيه قــراءة قصَّـــة قصـــيرة بالإنكليزيـــة ومن ثمَّ تأليف قصَّة أخرى ذات مضمون مختلف، ولكن بنفس التركيب اللغوي والنَّحوي للقصَّة الأصلية. كما وكانت الكتب ومعدات مختبرات علوم الفيزياء، والكيمياء، والحيوان، والنبات من الجودة التي تضاهي ما يتــوفَّرُ منهـــا فـــي المدارس الثانوية الأمريكية. وتضَمَّنتْ النشاطات الإضافية العديد من الفعاليات في المناقشة، والخطابة، والنشاط المسرحي وفي الرياضة أيضاً والتي مكنَّـــت طلابها السبقَ والفوز في كثير من المباريات التي كانت تُجرى مـــع المـــدارس الثانوية الأخرى. ولأنني نشأتُ مسيحياً كاثوليكياً، فقد كان لِزاماً علـــيَّ التقيُّـــد بثقافة دينية مُتزمِتة من التلقين في الإيمان المسيحي، ما برحت أن تخلصت من قيودها أثناء تعليمي الجامعي.

كان معيار كلية بغداد الثقافي من الجودة والصعوبة بحيث لم يفلـــح فـــي التخرّج من دورتنا، التي بدأت في عام 1956 بحوالى 250 طالباً سوى أقلَّ من 100 طالب في العام 1961. وعلى ضوء تميّزها فـــي الأداء ونســـب النجـــاح العالية، أهدتها الحكومة العراقية عام 1956 أرضاً في منطقة الزعفرانية شـــرق بغداد، فقام الآباء اليسوعيون بتصميم وبناء جامعة الحِكمـــة عليهـــا. أُفتتحـــت الجامعة عام 1959، وإستمرت في نشاطها التعليمي حتـــى ســـنة 1969 حـــين طردهم البعثيون من العراق بتهمة التجسس على مُعســـكر الرشـــيد العســـكري القريب منها. من مُميزات التصميم المِعماري لأبنية الجامعة، والتي أبدع فيهـــا الأباء اليسوعيون أنفسهم، ملائمة الأبنية للبيئة المناخية الحارة والجافة وقُبَّة من الكاشي الكربلائي (نسبة إلى مدينة الحسين – عليه الســـلام) المُـــزجج والـــذي يعكس أشعة الشمس على شكل صليب متى ما نظرت إلى القُبَّة أثناء النهار ومن أي إتجاه.

كان الوعيُ السياسي لدى العديد من طلبة كلية بغداد في الخمسينات مـــن القرن الماضي مُستفحِلاً ومُتفشياً إلى درجة مُقلقة للآباء اليسوعيين. إنضممتُ،

وأنا في سن الرابعة عشر وطالباً في الصف الثاني المتوسط، برتبة مؤيدٍ في حزب البعث العربي الاشتراكي وهي الأولى في سلم العضوية إذ تلهيا رتبة النصير ثم العضو. وكان مسؤول خليتنا الحزبية آنذاك (السيّد) عادل عبد المهدي شُبّر، المشهور سياسياً الآن كمسؤول بارز في المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ووزيراً للمالية في "الحكومة الانتقالية" في العام 2004. وأذكر من أعضاء الخلية، التي بذل عادل عبد المهدي الساعات العديدة في تثقيفها سياسياً نزار القريشي، وعبد الحق العاني، وسميع البنّا، وفاضل عباس مهدي، والمرحوم هاشم عبد المهدي.

شاركنا تلك الأيام في العديد من (المظاهرات) السياسية، وقد إتّسَم البعض منها بالعنف ضدّ شرطة نوري السعيد، رئيس الوزراء المستديم طيلة أربعة قرون من العهد الملكي، وفيما بعد شرطة رئيس الجمهورية عبد الكريم قاسم. وحدث أن كانت إحدى تلك المواجهات ضدّ الآباء اليسوعيين في سنة تخرجي من كلية بغداد عام 1961، وبالتحديد بعد أن أكملنا الإمتحانات الوزارية في نهاية العام الدراسي، وبعد أن تقدمتُ لإختبار اللغة الإنكليزية (TOEFL) الذي يؤهل الطالب للدخول إلى الجامعات الأمريكية، وما زال يُعمل بهذا الإمتحان إلى حدّ الآن.

قامت الشرطة بالقبض على أعزّ أصدقائي، المرحوم هاشم عبد المهدي، شقيق عادل عبد المهدي، في منزله. وفور مغادرة الشرطة للمنزل، إتصلت بي شقيقة هاشم هاتفياً تُحذّرني بأنها سمعت الشرطة تتحدث عن نيّتهم التوجّه إلى منزلنا والذي يقع على إمتداد شارعهم لإلقاء القبض عليّ. قام والدي فورَ سماع النبأ بإيصالي إلى محطة سكة الحديد في الشالجية، وأعطاني مبلغاً من المال يكفيني للهروب إلى مصيف صلاح الدين في شمال العراق. وكانت المفاجأة هناك حين قابلت صديقي باسل القيسي، الذي أرشدني فيما بعد إلى البرنامج النووي العراقي، وظافر سلبي، الشخصية البارزة في برنامج التسليح النووي العراقي والذي كان مسؤولاً عن عملي في ذلك المضمار.



عماد خدوري وباسل القيسي وظافر سلبي في مصيف صلاح الدين عام 1961.

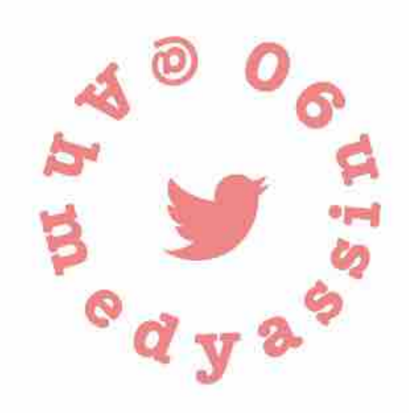
أثناء إقامتي في مصيف صلاح الدين، تسلمّتُ وبحزن شديد رسائل البريد التي أرسلها لي والدي. حملت لي تلك الرسائل رفض الجامعات الأمريكية لطلبات الإلتحاق التي بعثتها إلى عدد منها دون ذكر سبب الرفض. كان أملي الأخير هو إستلام موافقة جامعة ولاية مشيغان (Michigan State University-MSU) حيث كان أخّي وليد يدرس فيها خلال السنتين الماضيتين. وجاءت الرسالة من جامعة ولاية مشيغان تحمل رفضاً لقبولي، مع فارق بسيط حيث وضّحوا سبب الرفض. لقد حصلتُ على درجة منخفضة في إمتحان اللغة الإنكليزية بينما إجتزت وبتفوّق كافة مواضيع الإمتحان الأخرى. أدركت حينئذ سبب رفض الجامعات الأخرى والذي كان في الواقع بسبب خطأ في إمتحان اللغة الإنكليزية نفسه. كان هناك مستويان من الإمتحان؛ مستوى مُعيّن للطلبة الأمريكيين ومستوى آخر للطلبة الأجانب. وشاء سوء الحظ أن اختلطت أسئلة الإمتحان حيث أدينا سهواً الإمتحان المُخصّص للطلبة الأمريكيين. وبالرغم من متانة لغتنا الإنكليزية بفضل منهاج كلية بغداد، فإنه لم يشفع لنا في ذلك الإمتحان المغلوط. قمت عندها بكتابة رسالة توضيحية إلى مسؤول القبول في جامعة ولاية مشيغان تشرح هذا التباين في مستوى الإمتحانين مُستشهداً بنجاح أخّي

وليد الذي يدرس في جامعتهم – علماً أن مُعدّله الدراسي العام كان متوسطاً مُقارنةً مع معدّلي العالي – وقد حصلت على الترتيب الثالث على مستوى الجمهورية العراقية. بعد مُضيّ ثلاثة أسابيع، إستلمت رسالة القبول من جامعة ولاية مشيغان. وتشاء الصُدف في وقت لاحق من تلك السنة، عندما عملتُ مساعداً في مكتب الإدارة في الجامعة لتعضيد وضعي المالي، أن أعثر على تلك الرسالة التي بعثتُها من مخبأي الجبلي وقد شرح عليها مسؤول القبول بما مؤدّاه: "ما دام يُجيد كتابة مثل هذه الرسالة، فعلينا قبوله".

وردني أمر من عادل عبد المهدي، وأنا ما زلت متوارياً في صلاح الدين في صيف عام 1961، بالرجوع إلى بغداد والتفاوض مع الآباء اليسوعيين. عُدتُ إلى بغداد وقمت بزيارة كلية بغداد مختبئاً في صندوق سيارة أجرة (تاكسي) حملتني إلى هناك حتى أتفادى أعين الشرطة التي كانت تحيط بموقع كليّة بغداد، واستطعت الوصول إلى حلٍ موفّق للخلاف مع الآباء اليسوعيين.

عرضتْ عليّ الحكومة العراقية نظراً لحصولي على معدلٍ عالٍ في الإمتحانات الثانوية الحكومية، منحة دراسية تُغطّي نفقات تسعة سنين دراسية للحصول على شهادة الدكتوراة في موضوع الفيزياء النووية في الولايات المتحدة الأمريكية. هكذا كان نمط السياسة التعليمية للحكومات العراقية منذ ثلاثينات القرن الماضي في دعم التعليم العالي وتشجيع الطلاب على الحصول على الشهادات العلمية العليا في العلوم والهندسة من الجامعات الغربية. إلا أن والدي، وبسبب الأثار السلبية الدامغة التي عانى منها أثناء خبرته الوظيفية في وزارة الصحة، رفض هذا العرض وقرّر العزم على دعمنا مالياً في سعينا للحصول على الشهادات العليا، بالرغم من العبء الكبير عليه، حتى نكون في منأى عن القيود الوظيفية الخانقة والتي تشترط على الخرّيجين الجُدد الخدمة في الأجهزة الرسمية أو الحكومية لمدة ضعف فترة البعثة الدراسية.

وبعد أسابيع قليلة، تركت العراق مُتوجّهاً إلى مدينة إيست لانسنك في ولاية مشيغان الأمريكية للإلتحاق بجامعة ولاية مشيغان. كان لي من العمر آنذاك سبعة عشر ربيعاً.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

الإستلاب والخوف

عقل منفتح في عرين الوحش

أشدُّ ما يبهرني عند وصولي إلى نيويورك في أواخر شهر آب من العام 1961، هو سرعة السيارات التي كانت تندفع بسرعة على الشوارع العريضة. أسرع بي أخي وليد، والذي كان في إستقبالي عند الوصول، مُباشرةً إلى مقر الجامعة في مشيغان وأودعني في دارٍ للطلبة يتسع لحوالى ستمائة طالب للإستعداد للفصل الدراسي الخريفي الذي كان على وشك البدء بعد أيام قليلة. إلا أنني إستيقظت في منتصف الليلة الأولى على وجع آلام حادّة من جراء إلتهابٍ في الزائدة الدودية ونُقلت على عجلٍ إلى مستشفى الجامعة. بعد الانتهاء من العملية مباشرة أسرَّ الجرّاح إلى أخي وليد مفاجأته من متانة عضلات بطني.

درجات المواد التي حَصلتُ عليها في الفصل الأول في جامعة ولاية مشيغان، كانت أشبه بشهادة تقدير للإمكانات العلميّة والنوعيّة التربوية التي منحتنا إياها كليّة بغداد، إذ بلغ معدلي في ذلك الفصل 4.0 نقاط (أي معدل 100%) وبحملٍ كاملٍ من المواد الدراسية التي يسمح بها نظام الفصول هناك. بعث رئيس الجامعة دعوة عشاء تكريماً لكلِّ الطلاب الحاصلين على درجة 4.0 في ذلك الفصل، وأقيم العشاء في مبنى إتحاد الطلاب حيث جلسنا في صفوف

طويلة في قاعة ضخمة. القى رئيس الجامعة خطاباً ممتازاً تلك الأُمسية إختتمهُ بأسلوبه الخطابي المُميّز بخفض نبرات صوته تدريجياً، ومن ثمَّ طلب من كلٍ من الحضور أن يقف ليقول إسمه ومن أي بلد أتى. تساءَلتُ في نفسي – وإن كانت خبرتي لمثل هذا الأداء في جمع غفير محدودة: أيعقل أن يقف 250 طالباً، كل بمفرده، لكي يردد اسمه واسم بلده امام هذا العدد الكبير. ما الفائدة من ذلك ومن سيتذكّر هذه المعلومات؟ وما إن اقترب الدور مني حتى نهضتُ أُبلّغُ المدعوين إسمي وأصلي، وما كدت أجلس مكاني حتى طفح كيل صبري من هذه التجربة المُملة ونهضتُ مرة ثانية ألوّح بالشوكة التي مازالت بيدي قائلاً: "كما وأن رقم الطالب الذي أحمله هو 336458" مستهزئاً بقيمة المعلومات التي أدلى بها بقية الطلبة وجلست وأنا أشعر بإرتياح كبير. ألا يعقل أن يكون لرقمٍ أصمٍ ذات الوقع الذي يتركه "إسمي..." و"من أي بلدٍ آتي..." أمام حشد كهذا؟ ما أن انتهيت من التعبير عن إعتراضي بهذا الأسلوب حتى ساد الوجوم القاعة كلّها لثوانٍ معدودة ثُمَّ فوجئت بالتصفيق الذي تبعهُ، بعد أن أدرك الحضور مغزى ثائرتي.

كانت ميلاني باخ المرأة الأولى التي شاركتُ معها في علاقة حميمة. إلا أنني كنت مُقيّداً تجاه رغباتها الشفافة بسلاسل نشأتي وإرتباطي الشديد بالديانة الكاثوليكية وخشيتي من العقوبة الإلهية. وكثيراً ماعكست دموعُها خيبتها ودهشتها من تمالكي زمام عواطفي وجسدي والتي ظنّت، خطأً، أنها السبب في ذلك. لكن ما لبث ان عجّلت هذه العلاقة في إبتعادي عن الديانة الكاثوليكية.

خلال فصل الشتاء الاول الذي أمضيته في ولاية مشيغان أشتركتُ مع نادي الطلبة الكاثوليك في رحلة إلى منتجع للتزلج على الجليد. كانت مجموعتنا مكونةً من أربعة شبان في سيارة ذات سقف متحرك، وكانت القافلة تسير زوجياً – كل سيارة تتابعها أخرى فيما لو حصل عطل أو أمر ما لأحداها خلال الطريق. هبّت علينا في الطريق عاصفة ثلجية إضطرت مجموعتنا المكونة من سيارتين أن تُحافظا على مسافة قريبة. من سوء الحظ ثُقب أحد إطارات السيارة التي كنت فيها، وقامت السيارة الثانية بتقديم المساعدة اللازمة رغم تململٍ

واضح من بطءٍ تقدمنا وإنطلقت أمامنا بعدئذ. بعدها بساعة إنفجر إطار ثانٍ في سيارتنا، ولم يكن معنا اطار بديل لأننا لم نتمكن بعد من إصلاح الإطار المعطوب ولم تنتبه السيارة الثانية المنطلقة أمامنا إلى محنتنا. كان الوقت ليلاً والساعة تشير إلى الحادية عشرة والطريق مقفر من حولنا والرياح الثلجية تتسلل الينا من شقوق قماش السقف. مما زاد موقفنا سوءاً عطل تدفئة السيارة، وهبطت درجة الحرارة إلى 25 درجة مئوية تحت الصفر وبدأت أطرافنا في التجمُد. قسَّمت ما حملتُه معي من تمرٍ على زملائي في السيارة على أمل أن نحصل على شيءٍ من الدفء. في حوالى الثانية صباحاً لاحظتُ أن سائقنا قد بدأ يفقد وعيه. تمكنت بمساعدة الزملاء من تنحية سائقنا من خلف المقوّد ونقلناه إلى المقعد الجانبي ولجأت إلى الصلاة بإستمرار أن يبعثَ الله من ينقذنا ممَّا نحن فيه.

أخيراً شاهدت في المرآة العاكسة ضوء شاحنة قادمة من خلفنا. حاولت جاهداً بأصابعي المتجمدة أن أُشير لسائق الشاحنة بالتوقف لمساعدتنا بتشغيل مفتاح الأضواء الخارجية. توقفت الشاحنة على بعد خمسين متراً أمام موقعنا، لكن أطرافي التي شلَّها البرد لم تمكنني من فتح نافذة السيارة حتى أشير إلى السائق ومساعده ليتقدما ناحيتنا، فلزما مكانهما انتظاراً لإشارة إيجابية من جانبنا. في تلك الأثناء توقفت سيارة آتية من الاتجاه المعاكس، وتبيّن أنها سيارتنا المرافقة وقد افتقدوا أثرنا خلفهم فعادوا أدراجهم ليبحثوا عنّا. على الفور قام هؤلاء الزملاء مع سائق الشاحنة ومساعده بنقلنا متجمّدين إلى سيارتهم الدافئة. ذكّرَتني هذه التجربة، والألم الناجم عمّا يُدعى بـ "عضة التجمُد"، بألآم عملية إزالة اللوزتين عندما ينحسرُ تأثير المُخدِّر.

كان والدي يعمل جاهداً حتى يَفيَ بإحتياجاتنا التعليمية من رسوم وأجور السكن والطعام لي ولأخي وليد. ولم نتبين سوى بعد سنوات طويلة كم عانى والدي للقيام بهذا العبء، حتى أنه اضطرَّ لأن يبيع قطعة الأرض الوحيدة التي منَحته ايّاها الدولة بحكم مهنته، كما وأنه أُضطُر مرغماً أن يستدين من أحد أقربائه. ولم يستطع والديَّ بعدها أن يمتلك منزلاً خاصاً حتى أتممنا تعليمنا الجامعيّ، وترك لنا عند رحيله عن هذه الدنيا عام 1989 مبلغ 500 دينار عراقي.



مُساعد إداري في دار الطلبة "شو الشرقي" في جامعة ولاية مشيغان عام 1963.

مع نهاية الفصل الأول الذي قضيته في دار الطلبة "شو الشرقي" تقــدمتُ بطلب عمل في ذلك المبنى وحصلتُ على وظيفة مُساعد إداري. كان المنصب يتطّلب إدارة الشؤون الداخلية، وتنظيم النشاطات الرياضية، وتقديم الاستشارات اليومية لحوالى 50 طالباً يقيمون في المبنى مقابل السكن والطعام المجاني خلال العام الدراسي. إستمريتُ في أداءِ هذه الوظيفة طيلة الأعوام الثلاثة التاليــة، أي حتى تخرجي من الجامعة سنة 1965.

بدأت تتشكَّلُ عندي أولى الإنطباعات المُغايرة لما حسبته عــن " طريقــة الحياة الأمريكية" من خلال مهمتي الإدارية في المهجع الجامعي. فبعــد ثــلاث سنوات طويلة أمضيتها كمقيمٍ ومراقبٍ لأكثر من 150 طالباً أمريكياً، لم أستطع أن ألمس وجود علاقات صداقة حقيقية واحدة بين الطلبة الأمريكيين والتي تحمل مفهوم الولاء والإخلاص والتلاحم الذي نشأتُ على مفهومه وتمرّستُ بهِ وحنّيت إليه أثناء ترعرعي في بغداد.

أحسستُ آنذاك بأن هناك شيئاً مفقوداً في نسيج علاقات الصداقة الطلابية.

فجميع العلاقات التي شاهدتها، بدون إستثناء، أثناء تلك الفترة من التكوين الفكري، وأنا في مطلع الشباب، بانت ضحلةً وهشةً. لم يكن بوسعي في أن أصف شخصين من هؤلاء، بعد فترة من الزمن، وأدعي بأنهما صديقان حقيقيان، بمعنى الصداقة التي جُبلنا عليها. كانت العلاقات عابرةً باهتة وسهلة الإندثار. وإذ أعود الآن بذاكرتي إلى الوراء – بعد أربعة عقود من الزمن – أشعرُ بأن فكرتي عن هذا الأمر لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية وربما بالغتُ فيها.

بالإضافة إلى الحملِ الدراسي في كل فصل، كنت قارئاً جيداً بحيث طالعت العديد من الكتب لمفكرين أمثال القاصة الأمريكية (آينْ راند) وتبجيلها للفرد الأمريكي المُبدع والثوار اليساريين أمثال (رِجيس دبرى) و(تشي غيفارا) والثوار التاريخين أمثال (كارل ماركس) و(لينين) و(ماوتسي تونج). ومن الأفلام التي شاهدتها في تلك الفترة، والتي بقت عالقةً في إدراكي السياسي لعقود خلت، كان أهمها فيلم "معركة الجزائر" في عام 1965 للمخرج الإيطالي (جيلو بونتكورفو) والمُقتبس عن يوسف سعدي الذي كان يملك الشركة المنتجة وأحد الأبطال الحقيقيين لمعركة الجزائر التي جرت في العام 1957. ويسرد الفيلم أحداثاً واقعية جرت في تلك السنة في حي القصبة العتيق وسط العاصمة الجزائرية خلال ثورة التحرير ويبرز نشاط المجاهدين الجزائريين في مواجهة الإحتلال من خلال التركيز على نشاط القوات الفرنسية الخاصة بقيادة الجنرال ماسو في إستخدام أبشع أنواع التعذيب لإجبار الأشخاص المعتقلين على كشف أسرار المقاومة، وبطولة الشعب الجزائري في دحر الإحتلال. بدأ الإهتمام الأميركي بهذا الفيلم بعد إتساع نشاط المقاومة العراقية للإحتلال الأميركي. وفي شهر أيلول من العام 2003 عرض البنتاغون الفيلم مرات عديدة للضباط وقادة أجهزة الاستخبارات في محاولة لفهم طبيعة وأبعاد المقاومة داخل المدن في وقت كانت الخسائر تلاحق القوات الأميركية في المدن العراقية بسبب تزايد نشاط المقاومة، وتزداد عروضه الآن في صالات العرض الأمريكية[13]. سبق

(13)فيلم "معركة الجزائر" في قاعات العرض الأميركية (باللغة العربية)
www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=45866

مشاهدتي لهذا الفيلم بسنتين في العام 1963 فيلم آخر بعنوان "الأمريكي القبيح[14]" والذي يتناول بشاعة العقلية العسكرية الأمريكية عن كتاب بنفس العنوان للمؤلفين (ويليام ليدرر) و(يوجين بورديك) والصادر عام 1958 مُتنبئاً جرائم حربهم في فيتنام.

ومن خلال قراءاتي السياسية والاقتصادية، تبلورت للمرة الأولى في إدراكي كلمة الإستلاب (Alienation) للكاتب الأمريكي إيريك فروم وبالأخص توضيحها في فهم البون الشاسع بين مجتمعي العربي المُتماسك الذي ترعرعت فيه وهشاشة وضحالة المجتمع الأمريكي الذي كنت أتلمّسُ معالمه.

وجدت كلمة الإستلاب طريقها إلى اللغة العربية في الستينات ولا غرب في ذلك إذ إن مفهومها لحالات العزلة العنيفة والتمزق الاجتماعي والإنساني بفعل التطور الاقتصادي الرأسمالي كان، وما زال، بعيداً عن تحسس وإدراك الإنسان العربي المُغلّف بقيمه الاجتماعية والدينية والحضارية والذي لم يذق طعم المجتمعات الأوروبية من خلال العيش فيها. وبدأت أفهم ما في قلب الشاعر الأمريكي ت. أس. أليوت حين وصف أفراد مجتمعه بالرجال "الفارغين" و"المجوفين" من إنسانيتهم.

خلال صيف كل عام من أعوام 1964 و1965 و1966 كنت أقوم بشراء تذكرة طائرة طلابية رخيصة لرحلة مُرجّعة إلى لندن، ومن هناك أتجول في دول أوروبا طوال أشهر الصيف مُستعيناً بإبهامي للإيعاز للسيارات المُسافرة برغبتي في مُشاركتهم السفر مُستخدماً ورقة مخطوط عليها وجهة سفري وكلمة "طالب" تحتها. وبهذه الطريقة الفريدة في السفر أستطعت زيارة جميع البلدان الاوروبية، وعيش تجارب مثيرة بحق ومشاهدة راقصي البالية المشهورين " نورييف" و"مارغريت فونتين" في مدينة فلورنسا الايطالية بصحبة رفيقة سفر أسكتلندية، والسباحة في البحيرات الدانمركية والمكوث في قصور فاخرة في ألمانيا مع وريثة عائلة "ميلي" الألمانية المشهورة بصناعتها والتي التقيت بها من

(14)كتاب "الأمريكي القبيح" www.mekong.net/cambodia/ugly_am.htm

قبل في جامعة مشيغان. كانت هذه الرحلات تنتهي بي، مع نهاية الصيف، في بيروت في ضيافة إبن عم والدتي جاك بزّوعي، الذي كان يعرف معنى الحياة وسُبل مسرّاتها. كنت وما زلت مُقدراً تلك الضيافة حقّ قدرها.

مع أن كلفة المغامرة الصيفية الواحدة كانت تتراوح بين المائتين إلى ثلاثمائة دولار، لأن إقامتي كانت عند الاصدقاء الجدد الذين التقي بهم أو في فنادق الطلبة الرخيصة، فقد وصلت ذات مرّة إلى مدينة (باري) في جنوب إيطاليا دون أن أملُكَ أجرة نقل الباخرة التي تبحر إلى أثينا حيث كنت أتوقع إستلام مبلغ تحويل متواضع من والدي. عملتُ جاهداً حتى أُقنع وكيل السفريات بالسماح لي بركوب الباخرة على أن أدفع ثمن التذكرة عند وصولي أثينا، لكن دون طائل. وبينما أنا على هذه الحال من الإحباط، لاحظت مرور بعض السيارات التي تحمل لوحات أرقام أمريكية. وعندما إستفسرت عنها من وكيل السفريات أعلمني بوجود قاعدة عسكرية أمريكية قريبة. عندها كتبت على ورقة بيضاء: "أرجو التوقّف، إنني بحاجة إلى مساعدة وليس إلى توصيلة". أوقف ضابط أمريكي سيارته المكشوفة مُستفسراً عن الأمر وتفاجأنا بأنه أيضاً من خريجي جامعة مشيغان. على الفور دعاني لإصطحابه إلى شقته داخل القاعدة العسكرية حيث تناولنا شريحة من لحم البقر مع البيرة ومن ثم أخذني إلى وكيل السفريات في القاعدة وإشترى لي تذكرة سفرٍ في الدرجة الاولى على الباخرة المتجهة إلى أثينا. طلب مني هذا الضابط بالمُقابل خدمة بسيطة عند وصولي إلى بيروت. كان قد أوصى عند صانع مجوهرات لبناني على خاتمٍ غالي الثمن ليهديه إلى خطيبته، ولم يصله ذلك الخاتم رغم دفعه الثمن مُقدّماً. لوحّت بالتذكرة على مرأى من وكيل السفريات الذي صدّها عني في البداية وتأكّدت من وصول الخاتم إلى صاحبه عند وصولي إلى بيروت.

تلبدّت سُحبُ الحرب في فيتنام في تلك الفترة وتحولّت إلى عواصف عاتية على ساحة المُعارضة الأمريكية للحرب. وجاء كتاب "الأمريكي القبيح" المذكور أعلاه ليجد صدىً في قناعتي ومشاعري لِمّا كنت أُشاهده في الإعلام الأمريكي المُنحاز آنذاك والإنطباعات عن عنجهية ووحشية العقلية العسكرية الأمريكية. أسهم

هذا الكتاب في وضع النقاط على إدراكي لملامح الوحش العسكري – الصناعي الأمريكي الذي كنت أعيش في عرينه. ويمكن رؤية ذلك من الحدث التالي.

في أوج تصاعد المقاومة ضدّ الحرب الفيتنامية إرتأتْ شركة (داو كميكل Dow Chemical) العملاقة أن تقدم شرحاً لطلبة جامعة مشيغان تُدافع فيه عن موقفها إزاء إنتاج مادة النابالم الحارقة التي استخدمت على نطاق واسع في فيتنام، والتي دخلت في خانة الأسلحة المُحرّمة لاحقاً واسُتخدمت بشكل غير مُعلن في إحتلال العراق كما سنأتي على ذكره في نهاية الكتاب. عُقدت هذه المُحاضرة بعد أحداث الشغب التي حصلت في صيف العام 1967 في مدينة ديترويت، والذي إستعمل فيها الجيش الأمريكي الدبابات للقضاء على مظاهرات الشغب داخل المدينة. بعد إنتهاء مندوب شركة (داو كميكل) من مُحاضرته أمام المئات من الطلبة، تقدمت إليه بالسؤال التالي: "هل تؤيد إستعمال النابالم ضدّ المدنيين في فيتنام؟" أجاب بنعم مُعللاً جوابه بالمنطق العسكري البحت. عقّبت عليه بالسؤالِ الإفتراضّي التالي: "لو إفترضنا أن زمام الأمور كانت قد فلتت في الصِدام الذي حصل مؤخراً في ديترويت ولم تستطع الدبابات أن تمنع الشغب أو توقف أعمال الحرق والنهب، فهل تُقِر آنذاك شركة (داو) مشروعية إستخدام النابالم ضد المدنيين والمتظاهرين المُسلّحين السود في ديترويت؟" بعد لحظات من التأمل والتفكير أجاب " لا ". أضفت قائلاً: "كيف إذاً تُبرّر شركة (داو) إستعمال هذا السلاح الوحشي، الذي لا يستطيع التمييز بين المدنيين والمحاربين، في فيتنام ولكن ليس هنا في الولايات المتحدة الأمريكية؟ ألا يدل هذا على معيار مزدوج لقيمة حياة الانسان في هذا المُجتمع الذي يَدّعي إحترام حقوق الإنسان؟". لم يأتِ مندوب الشركة بجواب بل قوبل سؤالي بتصفيق مُلجم من قبل الطلبة.

إقترن تنافري من" طريقة الحياة الأمريكية " في منتصف الستينات مع تَعاظُم تقديري لدفء وغنى التراث والحضارة العربية، وتوصلتُ إلى قناعة مصيرية بأن عليَّ أن لا أتزوج إلا من فتاةِ عراقية، وإن على أولادي أن ينشأوا ويترَبّوا في بيئة عراقية، مع إلتزامي أمامهم بإتمام تحصيلهم العلمي في الخارج، كما جرى التقليد في عائلتنا.

قامت بيني وبين (ليندا تيرنر) علاقة حب قوية إستمرت لعدة سنوات. كانت (ليندا) السبب الرئيس في إختياري جامعة مشيغان لإكمال دراستي العليا في الفيزياء بعد تخرّجي من جامعة ولاية مشيغان لبدئها هي الدراسة في جامعة مشيغان على شهادة الماجستير. إلاّ أن إدراكها لصلابة القرار الذي إتخذته بشأن حياتي العائلية إضطرّنا، وبألمٍ شديد، للانفصال عن بعضنا، رغم العمق الروحي للعلاقة التي ربطت بيننا، وتزوّجتْ (ليندا) في العام 1967.

شكّلت القضية الفلسطينية محور تعاظم وعيي السياسي. وطغت قضية مناصرة الكفاح الفلسطيني على جزء كبير من نشاطي في كلتا جامعة ولاية مشيغان وجامعة مشيغان من خلال فعاليات إتحاد الطلبة العرب فيهما. وجلبت رسائلي العديدة إلى المحرر في جرائد الجامعتين، دفاعاً عن القضية الفلسطينية ومُقارعة للإعلام الصهيوني الطاغي، الويل والثبور من قبل الطلبة المؤيدين لإسرائيل إلى حدّ تهديدهم بقتلي عدة مرات.

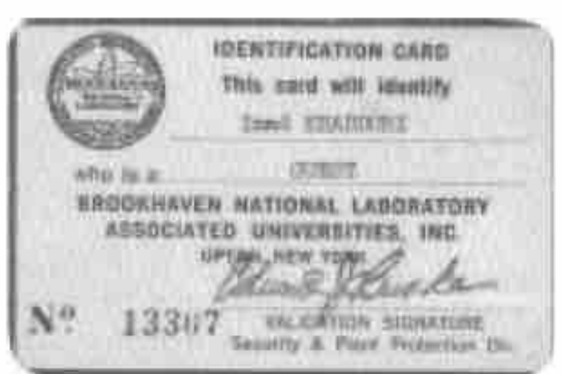
كان الطلبة العرب يعقدون مؤتمراً سنوياً لهم يحضره المئات من طلبة الجامعات العديدة في الولايات المتحدة. كان تحركنا وصوتنا لكشف التحريف الإعلامي الصهيوني، والذي مازال إلى الآن مُهيمناً على الإعلام الأمريكي إلى حدٍّ كبير، محور مُجمل نشاطاتنا وفعالياتنا. إلا أن ذلك لم يمنع من تحّرك مختلف التيارات والأحزاب السياسية في أروقة المؤتمر لتعكس مسار نظيراتها في العالم العربي ولتساهم في تعالي شعور الإنتماء العربي. وبرز أخي وليد – الذي يعلو كعبهُ كعبي في العلاقات العامة – كأحد القادة السياسيين في منظمة الطلبة العرب الداعين للوحدة العربية في مطلع الستينات.

كانت الهزيمة في الحرب العربية – الإسرائيلية سنة 1967 نقطة تحولٍ رئيسية في حياتي. إن تزاوج المصالح بين الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين والمساعدات العسكرية والدبلوماسية الأمريكية اللامحدودة لسياساتها في إضطهاد وقمع الفلسطينيين ترك في نفسي أثراً عميقاً لمدى الحياة. وبينما كنت أقود سيارتي على الطريق السريع عائداً إلى جامعتي مُنصتاً للأخبار، لم أتمالك نفسي عندما سمعت نبأ الانكسار العسكري وصدرت عني من شدة الألم صرخة

متواصلة بأعلى صوتي. أحسستُ وكأن بركاناً في داخلي يريد أن ينفجر.. لم تَعُد الكلمات تكفي.. بل ما عاد لها معنى.

إنعكس ذلك على تصرفاتي ضمن إتحاد الطلبة العرب وأصبحت أكثر إقداماً. ما أن سمعت بدعوة لجنة النداء اليهودي الموّحد تقويم حجم القوسين لجمع المال لإسرائيل عقب الحرب حتى بادرت بالذهاب وحضور اجتماعهم مع رفيقة عمري وزميلتي الوفيَّة (جين ليتو) وهي يهودية الأصل وإبن عمّي رمزي الصائغ. بعد إنتهاء الخطباء من إلقاء كلماتهم الحماسية دفاعاً عن إسرائيل والبدء بتوزيع الظروف لحشوها بنقود التبرعات، نهضت من مقعدي وصعدت إلى وسط المنصة الرئيسة وتناولت المذياع من يد المُتكلّم مُخاطباً الحضور أن يأخذوا بعين الإعتبار مأساة الشعب الفلسطيني وجموع النازحين عن بلدهم ويقدموا تلك التبرعات لهم. لما استعاد منظمو الحفل وعيهُم بعد صدمة هذه المفاجأة إتجهوا نحوي وشكّلوا سداً بيني وبين حضور القاعة الذي تملّكته الدهشة في محاولة منهم لعزلي عن أنظارهم والتكلّم إليهم. خطوت إلى الأمام نحو حافة المنصة مُجبراً الواقفين أمامي للتنحي جانباً ومُستمراً في مخاطبة الجمهور الذي نهر قِسماً منهم جهراً منظمي الحفل لمحاولتهم إسكات صوتي. هرعت (جين) إلى خارج القاعة لكي تستنجد بإبن عمّي لمساعدتي، ولكنَّهُ رفض طلبها. قامت (جين) على الفور بالاتصال بالشرطة وما أن شاهدتُ الشرطيان يتجهان بصحبة (جين) نحو المنصة حتى قفزتُ إليهم وحشرتُ جسمي في وسطهم ممسكاً بذراعهم ونحن نخرج من القاعة وبجانبي (جين). تلّقى اتحاد الطلبة العرب بعد تلك الواقعة العديد من الرسائل المُشجّعة أرسلها قسم من الحضور وجمعنا مبلغ 4600 دولار من تلك التبرعات، وقد تمَّ تحويله إلى صالح القضية الفلسطينية. وتلقيتُ كذلك عدداً آخر من المكالمات الهاتفية تهددُني بالموت.

إزاء إدراكي لمفاصيل الترابط بين السياسة والاقتصاد في تلك المرحلة العاصفة من تفكيري، وصلت إلى نتيجة مؤداها أن حلول مشاكل المجتمع العربي تكمن في تطوير وتطويع إقتصادياته. وعلى ضوء ذلك، تخلّيت كُلّياً عن التحضير لشهادة الدكتوراة في الفيزياء النووية، والتي كنت قد بدأتُها عام 1967





بطاقة الهوية لعملي في مختبرات (بروكهيفن الوطني) النووية في ولاية نيويورك عام 1967.

في مختبرات (بروكهيفن الوطني) النووية الواقعة في منطقة آبتون بولاية نيويورك، وحولّت موضوع دراستي إلى الاقتصاد في جامعة مشيغان في خريف 1967. إلا أن مبادىءَ الاقتصاد الرأسمالي سرعان ما نفرتني وقضتْ على ذلك التوَجّه القاصر.

تجسيداً لقناعتي السياسية، قررت أن أحمل السلاح وألتحق مع فدائيي (فتح) في فلسطين.

كان الناشط السياسي حسن شريف الوسيط في إنضمامي إلى منظمة التحرير الفلسطينية ومنها إلى قواعد تدريب الفدائيين في الأردن. في صباح أحد أيام صيف عام 1968، قمتُ بِعرض كلّ ما أملك في حديقة البيت الذي كنت أسكن فيه مع صديقي اللبناني محمد مكداشي لبيعها على المارين واشتريت بالمبلغ الذي جمعته تذكرة طائرة إلى لندن. من لندن بدأت رحلتي إلى بيروت مُستعيناً بإبهامي وتوصيلات السائقين الكرماء. عند عبوري بحر المانش بين بريطانيا وفرنسا، صادفت نبيلاً إنكليزياً عرضَ عليَّ قيادة سيارته إلى باريس إذ كان يخشى السواقة على الجانب الأيمن من الشارع، وكان ذلك خلال الثورة الطلابية في فرنسا في صيف 1968. بالطبع قبلت العرض مسروراً. كان النبيل قد ملأ صندوق سيارته بالوقود الإحتياطي نظراً لإضراب محطات الوقود الفرنسية عن العمل، وبرّهن على نُبله من النوعية الفاخرة لوجبات الطعام والشراب الفرنسي التي إستضافني إليها أثناء رحلتنا إلى باريس.

ما أن وصلنا إلى باريس حتى نزلت أتجوّلُ في شوارعها، وأتابع كرَّ وفرّ جموع من الطلبة المُضربين وهي ترمي الشرطة بالحجارة. وفي غفلة من إتجاهي عرجت على زاوية شارع وإذ بي خلف متراس للشرطة وهم يتفادون سيل حجارة الطلبة. وقبل أن أتراجع بسرعة، تطلّع أحد رجال الشرطة إلى خلفه وإنتبه لوجودي فأسرع نحوي قابضاً رقبتي ورماني داخل قفص إحدى دورياتهم السيّارة ليشبعوني ضرباً ظناً منهم بأني أحد الطلبة المُضربين. إستعنتُ بما أتمكن من لغتي الفرنسية الضعيفة لشرح حالي مُشيراً إلى مفتاح الفندق الذي أنزل فيه لأرُدَّ عن نفسي العصا التي كادت أن تهوي. من حسن حظي تدخّل أحد ضباطهم وأوقف هبوط العصا آمراً أن أبسطَ يدايَ الاثنتين أمامه. وعندما تأكدَّ من نظافة كفيَّ وعدم تلطيخهما بالطين والأتربة التي تُدين بتلوّثها أيدي الذين يقومون برمي الشرطة بالحجارة، أطلق الضابط سراحي.

قبل أن ألتحقَ بمعسكر فتح للتدريب في مدينة السلط الأردنية، تركت مجموعةً من البطاقات البريدية مع سيدة صديقة في بيروت لكي تبعث بواحدة منها كل أسبوع إلى والدي لطمأنته كعادتي كل صيف عندما أرتحل من مكان إلى آخر.

أشرفَ على تدريبنا على حرب العصابات أبو صلاح، المقاتل القادر بكفائته وجديّته. أطلقت على نفسي الإسم الحركي، أبو هاشم، تيمّناً بصديقي هاشم عبد المهدي في بغداد. كنا حوالى الستين مُقاتلاً في المعسكر، إستشهد عدد منا أثناء الغارات الإسرائيلية على معسكرنا، وآخرون سقطوا خلال العمليات العسكرية. إحتفاءً بزيارة رئيس المنظمة أبو عمار، ياسر عرفات، إلى موقعنا، نظّمَ أبو صلاح عرضاً خاصاً له شمل سباق عشرة من أسرع المقاتلين لتسلق هضبة مرتفعة وهم مُحمّلون بكامل عتادهم، والذي يزن حوالى خمسين كيلوغراماً من الذخيرة الحية. كنت في أوج لياقتي البدنية بحيث لم أشعر بقدماي تلامس الأرض وأنا أطير إلى أعلى الهضبة في طليعة المُتسابقين.

دعاني أبو عمار بعد العرض لتجاذب الحديث معه واندهش عندما عـرف عن خلفيتي. في اليوم التالي، أبلغني أبو صلاح بتعليمات أبو عمار والتي نصّت على عودتي إلى بغداد والعمل مع مكتب فتح هناك. أوضح أبو صلاح بأن قرار أبو عمار كان قد إستند إلى يقينه بامكانية الاستفادة من مؤهلاتي فـي مراحـل لاحقة بدلاً من القتال في ذلك الوقت، ولم ينفع إحتجاجي علـى ذلـك القـرار، فغادرت المعسكر والحزن يلفّني.

كان إشتياقي إلى بغداد في أوْجه بعد الإفتراق عنها لفترة سـبعة سـنين. وبينما إنطلقت بنا السيارة عبر الصحراء إلى بغداد في منتصف نهار صـيفي، شعرتُ بسعير لسعات الهواء الحار الذي يلفحُ يدي الممتدة من النافذة وكأنه رُذاذ ماء بارد من لذّتِه، لشوقي المكبوت إلى وطني. ولمّا وصلنا بغداد وأنـا مُعـدم مادياً، لم أجد صعوبةً في إقناع سائق سيارة الأجرة بأن يوصلني إلى بيتنا لكي أحصل له على نقود أجرته. فتحت والدتي باب البيت وسألتني وأنا واقف عنـد الباب الخارجي: "من أنت؟"، إذ إلتبَس عليها الأمرعند رؤيتي حليـق الـرأس وبلون بشرة تضاهي البنّي الغامق من أثر التدريب العسكري. تأثّرَ سائق سيارة الأجرة من المشهد فرفض بأباء تناول الأجرة حتى لا يُفسد علينا حلاوة اللقاء، لا سيّما وأنه لاحظ أبي يهرع خلف أمي نحوي.

عانى والديّ الكثير طيلة تلك الفترة، إذ كانت الشكوك قد ساورتهم بوقوع حدث غير إعتيادي بعد إستلامهم العديد من البطاقات البريدية من لبنان. وبنـاءً على إلتماس من والدي، قام عمّي خدّوري خدّوري بالسفر إلى سورية، وإتصل بأحد اصدقائه في وزارة الداخلية هناك الذي أكّد له بأنني كنـت قـد إجتـزتُ الحدود من لبنان في طريقي إلى الأردن، بعد مراجعتـه لسـجلات العـابرين للأراضي السورية. ورغم إرتياح أبي العارم بعودتي، إلاّ انه تألمّ كثيـراً مـن جرّاءِ قراري ترك الدراسة على شهادة الدكتوراة ونفوري آنذاك من التوجّه نحو العلوم وإندماجي العميق في الأمور السياسية. كان جُلّ طموحه في الحياة هـو: "أن أبني قلعتين في هذه حياتي – ولديّ وليد وعماد، ويحمل كلٌ منهما شـهادة الدكتوراة في يمينِه". وبالرغم من خيبة أمله في ما آلَ إليه مصيري، فلقد تركَني

ألْعَقُ جراحي وأتلمَسُ دربي بنفسي، وهو يحيطني دوماً بحنانه وحكمته.

بعد بضعة أشهرٍ من العمل لصالح فتح، وقيامنا بالإعداد وعرض العديد من الأعمال المسرحية الفلسطينية الثورية الهادفة في بغداد والمدن العراقية الأخرى بهدف الحصول على مردوداتها المالية لدعم الإنتفاضة الفلسطينية، أدى خلافي الشديد بشأن طريقة تصريف هذه المردودات مع إدارة مكتب فتح في بغداد إلى توقف نشاطاتي في منظمة التحرير الفلسطينية.

الفصل الرابع

المفاعل النووي

الخطوة الأولى في رحلة طويلة

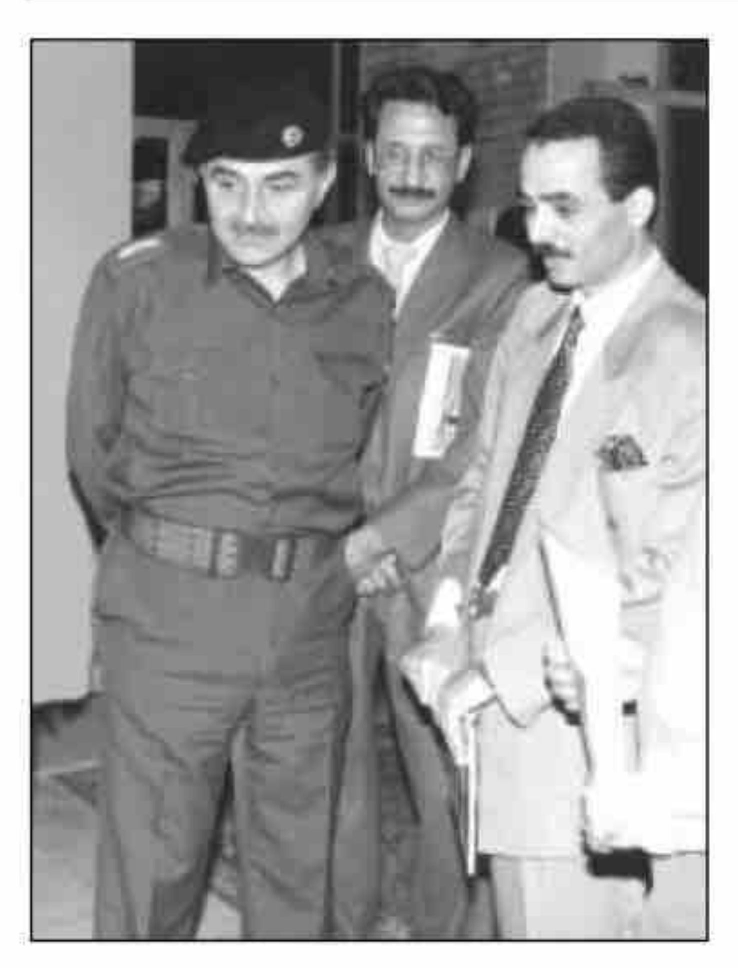
في إحدى أُمسيات خريف عام 1968، وبينما كنت ألعب الطاولة في (قهوة) مقهى زناد على بعد أمتار من نهر دجلة، جلس بقربي صديقي العزيز من أيام كلية بغداد، المرحوم باسل القيسي، والذي مرّ ذكره عند لقائنا أثناء إعتكافي في مصيف صلاح الدين في صيف عام 1961. كان الخبر قد وصل إلى باسل بأني قد عُدتُ من دراستي في الولايات المتّحدة الأمريكية بعد إقامة قصيرة في الأردن. بعد تبادل التحية ورشف قدح الشاي، مالَ عليّ بأسلوبه الوقور المتواضع ليطرح عليّ إقتراحاً سيُغير مجرى حياتي. سألني بنُبلٍ وحياء: "لماذا لا تلتحق معنا في مركز البحوث النووية حيث يعمل العديد من أصدقائنا من أمثال جعفر ضياء جعفر ونزار القريشي وآخرون؟".

أخذتني دهشة عارمة عند طرحه السؤال إذ لم أكن أعلمَ بأن الروس كانوا قد أنتهوا من العمل في تشييد مفاعل للأبحاث النووية السلمية وبقدرة 2 ميغاواط في التويثة قرب منطقة الزعفرانية، والتي تبعد حوالى عشرين كيلومتراً إلى الشرق من بغداد، وبأن تشغيله كان قد بدأ فعلاً في تشرين الثّاني من عام 1967. كنت في ذلك المنعطف من حياتي عند مُفترق طرقٍ يتقاطعُ في وسطه مساران

حادان، أحدهما أمل والدي ورغبته في حصولي على شـــهادة الـــدكتوراة فـــي الفيزياء النووية من ناحية، وعُمق تأثُري بقناعاتي السياسية (الثورية) من الناحية الأخرى. فرض عليَّ إقتراح المرحوم باسل القيّسي تفكيراً عميقاً ومزيـــداً مـــن الجدّية واليقين.

ما زلت أذكر الشعور بالفخر والدهشة لمقابلة أصدقاء الدراسة وهم في غمرة حماسهم وإنهماكهم في إجراء التجارب العلمية في أبحـــاث "التطـــاير النيترونى غير المرن" في قاعة المفاعل مُستعينين بأحدث المُعدّات والأجهزة العلمية، وبمساعدة بعض العلماء المُنتدبين من لدن الوكالة الدوليـــة للطاقـــة الذرية (IAEA). إلتحقت بالعمل على الفور مع مجموعة الفيزيائي العراقـــي القدير جعفر ضياء جعفر، والذي كان قد أنهى دراسته وحصل على شـــهادة الدكتوراة في الفيزياء النووية من جامعة برمنغهام في بريطانيا قبل سنوات قليلة. كان العدد الكلّي للموظّفين في مركز البحوث النووية لا يتجاوز المائة والعشرون برئاسة الكيميائي المرموق، غازي درويش، موزّعين على أقسام الفيزياء والكيمياء والزراعة وإنتاج النظائر المُشعّة للأغـــراض الصـــناعية والطبية. وما زال عبق أجواء تناول كُلّ العـــاملين لطعـــام الغـــداء يليهـــا المحاضرات العلمية أو جلسات التخطيط الإدارية تحت رعاية وإدارة غازي درويش القديرة، يُعطّر ذكريات تلك الأيام المُفحمة بالحماس والإندفاع وعقد الآمال الكبيرة.

بعد قضاء عدة أشهر من الإنهماك في إجراء البحوث مع فريق جعفر، قرّرت التخلّي عن إلتزاماتي السياسية والعودة للسعي في الحصـــول علـــى شهادة الدكتوراة. إستقبل أبي هذا القرار بفرحٍ بالغ إذ يُقرّبه من تحقيق أُمنيته في الحياة، خاصة وإن أخّي وليد كان بصدد الإنتهاء من إعـــداد إطروحتـــه للحصول على شهادة الدكتوراة في موضوع العلاقات الدولية مـــن جامعـــة (جورج تاون) في واشنطن بإشراف الأكاديمي والمؤرخ المرمـــوق مجيـــد خدّوري.



جعفر ضياء جعفر، إلى اليسار، الرئيس العلمي لبرنامج السلاح النووي العراقي عام 1997.

وبناءً على ذلك، أخذت إجازة مفتوحة من الوظيفة في مركز البحوث النووية في مطلع صيف عام 1969. وبعد الإنتهاء من إعداد بحثٍ علميٍ مع جعفر[15]، سافرت متوجهاً إلى الولايات المتحدة دون أن أحصل على أي قبول جامعي أو دعم مالي، ولكنني مُصِرٌ على تجديد العزم لنيل شهادة الدكتوراة والتي كنت قد بدأتها في وقت سابق (عام 1967) في مختبرات بروكهيفن الوطنية النووية قرب نيويورك، وعلى أمل تصويبها نحو التخصص في المفاعلات النووية. إلا أن الرياح لم تجرِ كما تشتهي السُفن.

---

(15) "تجربة بإستخدام كاشف بلّوري ثلاثي لطيف كاما"، جعفر جعفر وعماد خدوري. الحلقة الدراسية الدولية حول أطياف شعاع الأسر النيوتروني، ستودفيك-السويد 11-15 آب 1969. الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

"Experience with a Three-Crystal-Pair and Anti-Compton Spectrometer for (n,γ) Spectroscopy". Jafar D. Jafar, Imad Y. Khadduri, et. al. Proc. of the International Symposium on Neutron Capture γ-ray Spectroscopy, Studvik-Sweden, 11-15 August 1969. IAEA, STI/PUB/235. Vienna 1969.

عند التوقّف في لندن وأنا في الطريق إلى أمريكا، قرّرت تغيير مسار الرحلة لوفرة في الوقت، وعرجت على جامعة (برمنغهام) حيث كان صديقي اللبناني، محمد مكداشي، يدرس للحصول على شهادة الدكتوراة في الرياضيات. عشنا أنا ومحمد معاً وأشتركنا في مسؤوليات ومسرّات بيت واحد خلال السنتين الأخيرتين من الدراسة في جامعة مشيغان في مدينة (آن آربر) في ولاية مشيغان. وكان محمد قد لمّ رحاله وانتقل إلى جامعة برمنغهام، بعد رجوعي إلى الأردن، ليلتحق بإستاذه المُشرِف على أطروحته والذي كان قد قرر الإنتقال إلى جامعة (برمنغهام) في بريطانيا. وكما اعتدت السفر في ذلك الوقت، فلقد إستقلّيت حافلة للركاب لتنقلني إلى أطراف شمال لندن. وبفضل رفع لوحة مكتوب عليها (برمنغهام – طالب)، أشرت بإبهامي للسيارات العابرة عن نيتي مشاركتهم السفر إلى تلك المدينة. كنت افتقر إلى عنوان محمد هناك، لذا توجهّت فور وصولي إلى مقر الجامعة إلى كافيتريا الطلبة. لم يكن من الصعب إطلاقاً التعرّف على رهط من الطلبة العرب مُعلنين عن هويتهم دائماً بنقاشٍ مُتميّز. بعد إلقاء التحية العربية المألوفة ودَعوتهم لي لإحتساء القهوة، سألت عن صديقي محمد. تعرّف عليه أحدهم فوراً ودلّني إلى مكان سكنه. كان محمد يقيم في مُجمّع سكنيٍّ للطلبة على بعد عدة كيلومترات من الجامعة. إلا أن مُرشدي كان يفتقر إلى عنوان شقته أو رقم هاتفه. وبما أن الوقت كان قد قارب على الغروب، ولعلمي بهواية محمد المشّي في المساء، فقمت بالإستفسار عن الحافلات التي تمر على ذلك المجمع السكني للطلبة وإلتصقت بنافذة الحافلة أراقب المارة عن كثب. وقبل حلول الظلام بقليل، تراءى لي محمد وهو يمشي بسترته الفضفاضة، ولحيته الكثّة، غارقاً في التفكير وما زال كعادته يتشبّث بغليون يتدلّى من فمه.

بعد الصحوة من الصدفة الحلوة وبهجة اللقاء بعد مُضي حوالى سنة ونصف على فراقنا، تمّ التطرّق إلى ما أنا مُقدمٌ عليه. مال عليّ محمد برأسه وجحدني بنظراته الثاقبة عندما ذكرت له بأنّني قد نويَت العودة إلى الولايات المتّحدة لمتابعة الدراسة في موضوع المفاعلات النووية. ثمّ إنهال عليّ بحججٍ

مُفحمةٍ أشبه بسيوف المَنطِق الحاسمة. ذكّرني محمد بالعديد من الرسائل والمكالمات الهاتفية المُهددة بالموت أثر نشاطاتي من أجل القضية الفلسطينية في كلٍ من جامعة ولاية مشيغان وجامعة مشيغان. وكان متأكداً بأن عودتي إلى هناك ستُثير من جديد حفيظة الطلبة الموالين لإسرائيل، وخاصة بعد زيارتي إلى الأردن وإنضمامي إلى فتح، وبأن تلك الواقعة ستختم مصيري، أو بالأحرى حياتي، إن عُدت إلى هناك.

وعندها طرح محمد خياراً آخر أخّاذاً: "لماذا لا تبقى هنا في جامعة برمنغهام؟ على حدّ علمي فلقد تم مؤخراً إفتتاح قسم خاص بتكنولوجيا المفاعلات النووية في الجامعة يُدرّس به أساتذة مرموقون". في صباح اليوم التالي، ذهبت لزيارة العالم المتواضع (ديريك بينون)، والمحاضر النظري الرئيس في مجموعة فيزياء المفاعلات والتي كانت في حينها ضمن قسم الفيزياء وعلم الفلك في جامعة برمنغهام. بيّنت له خلفيتي الدراسية وتجربتي القصيرة في البحث في مركز البحوث النووية في التويثة ورغبتي في الحصول على شهادة الدكتوراة في هذا الإختصاص. وعندما طلب مني الإطلاع على شهاداتي العلمية، أوردت له صدفة زيارتي إلى صديقي في مدينة برمنغهام وعدم تحسّبي لذلك اللقاء معه إذ إن الشهادات كانت في مطار لندن مع حقائبي التي تنتظر الإقلاع إلى الولايات المتحدة. إلا أنني تذكّرت، ولحسن الحظ، بأني أحمل في جيب معطفي رسالة توصية من باحث علمي يُدعى جعفر ضياء جعفر تتطرق إلى فترة البحث القصيرة التي قضيتها معه. بانت آنذاك الدهشة على وجه (ديريك)، فاغراً فمه ليسحب الغليون منه، وطلب الإطلاع على تلك التوصية. وفور إطلاعه على محتوى التوصية، رفع ديريك سماعة الهاتف وطلب من مدير التسجيل في الجامعة بتحرير أمر قبولي في الدراسة للحصول على شهادة الدكتوراة على أن أوافي مدير التسجيل الشهادات الدراسية المطلوبة لاحقاً.

مُدرِكاً أثر قراره السريع في نفسي، بما بدا على وجهي من ملامح الدهشة والسرور، أوضح (بينون) عن خلفية معرفته الشخصيَّة بجعفر والذي أنهى دراسة الدكتوراة في نفس قسم الفيزياء وعلم الفلك في جامعة برمنغهام قبل أربع

سنوات، حيث ترك إنطباعا مُشرِّفا عن إمكانياته العلمية من خلال إطروحته الفذّة في موضوع "التفاعلات النووية القوية"، وإنجازها في وقت قياسي. دُهشتُ أكثر لجهلي بهذا الأمر وبالرغم من عملي القصير الأمد مع جعفر، مما يدلُ على سِمات تواضعه. في آخر المطاف، كانت رسالة التوصية من جعفر لوحدها كافية لضمان حصولي على القبول لدراسة الدكتوراة في جامعة برمنغهام. شتّان ما بين هذا المنحى التدريسي المَبني على الثقة في الجامعات الإنكليزية والشروط المُتزمتة المطلوبة من طالب الدكتوراة في الجامعات الأمريكية.

شاءت الصدف أن يقوم جعفر، والذي كان في حينه يشغل منصب رئيس قسم الفيزياء في مركز البحوث النوويّة وعضو في اللجنة العليا للطاقة الذرية العراقية، بزيارة إلى قسم الفيزياء في جامعة برمنغهام في السنة الثانية من بدء دراستي فيها. أثناء فترة تناول الشاي، وهي العادة المألوفة في المجتمع الإنكليزي عصر كل يوم، في قسم الفيزياء بالجامعة صدف وأن إجتمعت مع كل من جعفر والبروفسور الموقّر (برتشام)، رئيس قسم علم الفلك والفيزياء، في حلقة واحدة نرتشف الشاي. وبدون أي مُقدّمات، أنزل البروفسور (برتشام) قدحِ الشاي من فمه وتوجّه بالكلام إلى جعفر بكل جدّية وتواضع. فقد حاول أن يؤكد لجعفر بأن موقعه التدريسي في القسم، والذي كان على أغلب الظن قد عُرض عليه فور تخرّجه، ما زال قائماً وطمأنه ببقاء العرض سارِ حتى يُقرر جعفر العودة والإنضمام إلى هيئة التدريس في القسم. ما كان من تواضع جعفر إلاَّ أن إسترقَ النظر إليَّ بإبتسامته الناعمة الخجولة، وكأنّه يناشدني لإنقاذه من ذلك الموقف الحرج. عاد بعدها جعفر إلى بغداد، إلا أنه غادر العراق بعد فترة قصيرة لينضمَّ إلى فريق بحث دولي يعمل على إجراء تجارب متقدمة في الفيزياء النووية في المركز الأوروبي للأبحاث النووية (CERN) في جنيف، سويسرا.

جاءت مُبادرة (بينون) السخيّة بقبولي في الجامعة مُرفقّة بتحذير عن عدم وجود أي فرصة في الحصول على مُساعدة مالية من الجامعة لتغطية نفقات الدراسة، ولا حتى المُساعدة في التدريس في مختبراتها، تلك الوسيلة التي ساعدتني مالياً أثناء دراستي للحصول على شهادة الماجستير من جامعة

مشيغان. بناءً على ذلك، رجعت إلى السفارة العراقية في لندن ومعي القبول الرسمي من جامعة برمنغهام آملاً الحصول على بعثة دراسية من الحكومة العراقية، بالرغم من تحفظّات والدي على مثل هذه الخطوة. وهناك قابلت (بارنز)، الإداري الإنكليزي المسؤول عن شؤون رعاية الطلبة العراقيين في إنكلترا ولأكثر من عقدين من الزمن، والذي إستجاب بأسلوبه المُهذّب لطلبي مُشيراً بأنه ندر أن يحصل طالب عراقي على بعثة دراسية من خلال السفارة بدون وصول إيعاز رسمي على منحه البعثة من بغداد. معنى ذلك أنه يتوجّب عليّ التقدم بطلب البعثة الدراسية في بغداد. أرسلت الخبر إلى والدي عبر التلكس والذي قام بدوره بزيارة وزير النفط، رشيد الرفاعي، الذي يعلم والدي أمر صداقته لأخي وليد والذي كان في ذلك الحين، وحتى منتصف الستينات، المسؤول عن تنظيم حزب البعث في أمريكا ومن ضمنهم رشيد. وفي اليوم التالي، إستلم بارنز برقية (تلكس) تحمل إليه موافقةَ وزارة النفط على منحي بعثة دراسية للحصول على الدكتوراة في تكنولوجيا المفاعلات النووية من بريطانيا شرط إجتيازي الإمتحان المُقرر لذلك في السفارة. بعد أن قدمت الامتحان المطلوب، ألقى بارنز نظرة سريعة على نتائج ذلك الإمتحان ثمّ رنا اليّ بنظرات إعجاب من فوق إطار نظّاراته، وصرّح ببروده الإنكليزي المعهود: "إنّها من أفضل النتائج التي مرّت عليّ ولوقت طويل". وعلى أي حال، أبلغني بأنه يتعيّن عليّ الإنتظار لفترة شهرين لإكمال الخطوات الروتينية اللاحقة بمعاملة البعثة. وبما أنني كنت قد ضمنتُ موقع دراستي في جامعة برمنغهام والبعثة من الحكومة العراقية، ولوفرة الوقت المُتاح، قررت المضي قُدماً في مُتابعة رحلتي إلى الولايات المتّحدة عسى أن أحظى على فرصة أفضل، ولسببٍ آخر في "نفس يعقوب" كما تقول العرب.

نهاية حلم

إنتابني توجّس وتوتّر عارم والطائرة على وشك الهبوط في مطار نيويورك صيف عام 1969. لم يكن هدفي من الذهاب إلى أمريكا هو البحث عن فرصة أفضل لنيل شهادة الدكتوراة من تلك التي حصلت عليها في بريطانيا فحسب،

بقدر حاجة مُلِحَة في قرارة نفسي للوصول إلى قناعة واضحة فيما إذا كانت إنطباعاتي التي تمخضّت بعد سبع سنوات من الدراسة والمعايشة والتفاعل العميق مع "طريقة الحياة الأمريكية"، كانت نتاجاً سليماً أم أنها غير ذلك. يا تُرى هل أن نتائج تلك الخبرة هي فِعلاً من السلبية الدامغة التي إنطبعت في ذهني عندما تركت أمريكا، لسنتين خلت، أم أن هناك مجال وأمل، مهما كانا ضعيفين، بأن مرور أحداث السنتين الأخيرتين قد طوَّرَت تفكيري وهدَّأت كثيراً من الإنطباعات العاطفية وردود الفعل الشابّة التي فاضت بها مشاعري تجاه "طريقة الحياة الأمريكية ".

ألاً أن أحداث الشهرين التاليين أكدَّت أحساسي وزادت من ريبتي.

قمت خلال تلك الفترة القصيرة من الزمن من السفر، ودوماً عن طريق إستخدام إبهامي في مشاركة المسافرين لسياراتهم، من نيويورك إلى مدينة (آن آربر) في ولاية مشيغان ومن هناك عبر الولايات المتّحدة إلى أقصاها غرباً إلى مدينة (بيركلي) في ولاية كاليفورنيا ومن ثمّ توجّهت شمالاً إلى مدينة (سياتل) في ولاية واشنطن ورجعت منها أخيراً إلى منطلقي في مدينة (آن آربر). تأكَّد لي في نهاية تلك الرحلة صواب القرار الذي إتخذته مع نفسي قبل سنوات قليلة من أن لا أتزوّج إلا من إمرأة عراقية، وأن يتربّى أطفالي في كنف المجتمع العراقي الذي يفيض بالأصالة والدفء الاجتماعي.

بعد ترحيب رئيس قسم الفيزياء في جامعة مشيغان بعودتي وإعرابه عن تأييده لإختياري متابعة الدراسة لنيل شهادة الدكتوراة، إلا أنه أعرب وبشكل واضح، عن عجزه عن المساعدة في توفير أي مساعدة مالية لتحقيق ذلك الهدف بسبب شحة الموارد المالية، والتي كانت تُعين طلبة الدراسات العليا في أمريكا في نهاية الستينات. لذا فلقد كان عليّ أن أتدبَّر الأمر في العثور على من يدعمني مالياً، ولفترة الخمس سنوات المتبقية من الدراسة، ناهيك على أن موضوع فيزياء المفاعلات النووية لم يكن قد دخل بعد في خطة ومنهج القسم. لذا كان لا بد من التوجّه والعودة مرة أخرى إلى حقل الفيزياء النووية، والذي لم أكن أرغب فيه بعد إطلاعي على مجال العمل البحثّي في العراق. وفيما كان

مدير القسم يُشاركني المقترحات في إيجاد الخيارات البديلة، تذكّر زميلاً له مُتخصص في العلوم الفيزيائية يُدرّس في جامعة كاليفورنيا في مدينة (بيركلي) كان قد أعلمه مؤخراً بوجود مقعدٍ شاغر لطالب دكتوراة في قسمه والذي كان ما زال يحظى بدعمٍ مالي. بادر مدير القسم على الفور بالاتصال هاتفياً بزميله، إلا أنه لم يفلح في العثور عليه بسبب بدء العطلة الصيفية الدراسية. ومع ذلك، نصحني مدير القسم بالتوجّه فوراً إلى (بيركلي) لإجراء مقابلة مع زميله وتقديم أوراقي وشهاداتي شخصياً بينما يستمر هو في محاولة الاتصال به هاتفياً لإعلامه بخبر قدومي.

غادرت آن آربر وقلبي مثقل بحزنٍ عميق بعد أن علمت أثناء إقامتي القصيرة بأن إثنين من أصدقائي الأمريكيين قد توفيا. أحدهما مات مُنتحراً، وتوفي الآخر نتيجة تناوله كميات كبيرة من الهيروين. بدأت رحلتي إلى (بيركلي) مُشرّعاً إبهامي غير مدركٍ حينها بأني سأكون على قاب قوسين من الموت خلال الأيام والليالي الثلاث من السفر المستمر، مرة كنتيجةٍ عرضية لحرب فيتنام والمرة الأخرى بسبب خطأ بَدر مني.

بعد يوم من السفر، شاء الحظ أن يدعوني رجلان لمشاركتهم سيارتهم في ولاية أوهايو، حيث جلست بينهما في المقعد الأمامي من الشاحنة الصغيرة. سرعان ما أدركت الموقف الحرج الذي وقعت به. لقد كانا على درجة عالية من السُكر، ويُرفقان كل جملة يتفوهان بها بالسباب والشتائم. تبيّن لي بأنهما قد إنتهيا للتو من السَطوِ على محطّة للبنزين، وقتلا مالكها وأفرغا خزانة نقوده وفرّا بعبوات من صناديق البيرة. كانا في نوبة مُستعرّة من القتل، ولم يكن ذلك البائس صاحبُ المحطة أول قتلاهما. بعد إرتكابهم جريمة صباح ذلك اليوم، لاحظ أحد سائقي الشاحنات سيّئ الحظ سياقتهم الرعناء، وشاهدهما يتجرعان علب البيرة ثم تبادلا وإياه بعض إشارات الأيدي البذيئة. على إثر ذلك، أبلغ سائق الشاحنة الشرطة بالأمر. لحقت بهم سيارة الشرطة وأوقفتهم للتحقيق معهم، إلا أن الشرطة أخلت سبيلهما بعد أن ادعيا بأنهما من الجنود العائدين للتوّ من فيتنام وفي طريقهما إلى بيتهما وعائلاتيهما. ما إن أخلت الشرطة سبيلهما إلا

وعقدا العزم على قتل سائق الشاحنة الذي أوشى بهما، ولوّحا بأسلحتهما أمامي مظهرين استعدادهما للقضاء عليه. كان هذا سبباً كافياً بزعمهما حتى يسرعا من أجل اللحاق به. وفجأة بادرني أحدهما بالسؤال عن مبلغ المال الذي أحمله معي. فما كان عليّ إلى أن أسحب بسرعة محفظتي من جيبي وإطلاعه على الدولارات الخمسة فقط الموجودة فيها، إذ كنت قد إعتدت على الإحتفاظ بنقودي في جواربي متى ما إستعنت بإبهامي في السفر. وللزيادة في طمأنتهما على تآلفي معهما، بدأت بتقليد أسلوبهم في الكلام المُفعَم بالسبّ والشتم. ناورت في الكلام معهما، وكنت حذراً جداً عندما سألت عن سبب أفعالهما تلك. عكس وجوههما الحجريان ردّهما الجامد القاسي ونسبا تصرفاتهما تلك إلى قتلهما العديد من المُسلّحين والمدنيين في فيتنام إلى الدرجة التي باتا فيها لا يستطيعان التعامل مع واقعهما الطبيعي إلا بطمس ما تبقى من ضمائرهما من خلال الإستمرار في تلك المنهجية العدوانية والقتل المستمر، وما كان إحتسائهما المفرط للكحول إلا لتسهيل تلك المهمة المُشينة بعد أن أصبحا أشبه بآلات مُتحركة قاتلة. يتردد هذا الحقد الأعمى في القتل في مقولات للعديد من الجنود الأمريكان في العراق الآن: "ألا لعنة الله، فإني أكره (كلمة بذيئة كتلك التي إستعملها مرافقي سفري) العيراق وأكره (الكلمة البذيئة) العيراقيين. لا أبغى سوى الرجوع إلى داري[16]"، وأيضاً "تم إخبارنا بأنه فور ربحنا الحرب وإحتلالنا لبغداد، سيقومون بإستبدالنا بوحدات أخرى للعمل على حفظ السلام. إن الذين يقومون بالقتل يجب أن لا يكونوا المسؤولين عن حفظ السلام. عليهم إعادتنا إلى ديارنا[17]".

(16) "الإحتلال كلمة بغيضة"، بورزو داراغي، صحيفة الإيراني، 11 حزيران 2003.
""Occupation" is an ugly word", by Borzou Daragahi, The Iranian, June 11, 2003.
www.iranian.com/Travelers/2003/June/Baghdad/

(17) "إنهيار المعنويات في العراق"، كريس توملينسون، صحيفة الغارديان، 25 أيار 2003.
"Morale Reportedly Flagging in Iraq", by Chris Tomlinson, The Guardian, May 28, 2003.
www.guardian.co.uk/worldlatest/story/0,1280,-2723308,00.html

كان الجنديان السّكيران القابعين على يميني وشمالي بحاجة إلى عناية نفسية عاجلة، إلا أن تلك الخدمات نادراً ما توفّرت للجنود الأميركيين العائدين من حرب فيتنام في ذلك الوقت، وعلى أغلب الظن، ما زال العائدون من إحتلال العراق بأمس الحاجة إليها بعد الجرائم التي إقتُرفوها. وما زاد من الطين بلّة هي العقلية العدوانية الداعية للعنف الأهوج التي جُبل عليها جيل الجنود الأمريكيين حالياً[18].

بعد أن إطمأن المحاربان العائدان من فيتنام لصُحبتي، جادت قريحتهما وهما يعانيان من السُكر الشديد، فدعياني لمشاركتهما حفل جنوحهما القاتل على أن يمُنّا عليَّ بمال يغتنمانه من محطّات الوقود التي تنتظرنا في الطريق. ماطلتُ في الجواب على هذا العرض السخيّ، وإختلقت الحاجة المُلحّة للتخفيف عن نفسي بتلبية نداء الطبيعة حيث انهما لا بد يعانيان من مثانتيهما الطافحتين بالبيرة. توقّفت بنا السيارة في منطقة لإستراحة المسافرين وهما يلعنان الوقت الضائع في مسعاهما الحثيث إلى اللحاقِ بسائق الشاحنة المنحوس. كانت وجهة سفرهما نحو الجنوب – إلى الحدود المكسيكية، بينما كنت أنا متوجهاً نحو الغرب إلى (بيركلي) في كاليفورنيا. فإستغليت لحظات الراحة بعد إفراغ البيرة من جسدهما وأقنعتهما بضرورة ذهاب كلّ منا في إتجاهه المقصود. ساورتهما الشكوك للحظات قصيرة عن إحتمال إبلاغي عنهما للشرطة إلا إنني طَمرتُ ذلك الهاجس مُستعيناً بكلّ الكلمات القذرة التي في جُعبتي وبأغلظ قسم أقوى عليه. وبلحظة لا أكاد أصدقّها، تخلّيا عني وسارعا في الإنطلاق للإمساك بغريمهما.

بعد بضع ساعات، وبينما أنا جالس في سيارة أخرى تقلُّني صوب (بيركلي)، وعلى بعد حوالى الخمسين كيلومتراً من منطقة الإستراحة التي توقفنا عندها، رأيت شاحنة مقلوبة على حافة الطريق وقد أحاط بها رجال الشرطة

(18) "القتلة المُتمرسون على القتل لن يربحوا عقول وقلوب الناس"، شارلز كلوفر، صحيفة الفايننشال تايمز 25 حزيران 2004.

"Natural-born killers will not win hearts and mind", by Charles Clover, Financial Times, June 25, 2004.

http://www.christusrex.org/www1/news/ft-6-27-04.html

والإسعاف يسحبون جثة سائقها المنكود الحظ من قاطرتـــه المُهشّــمة. تركـت الأمريكيين يعتنون بموتاهم، وبأحيائهم الأموات.

في ساعات الصباح الأولى من اليوم التــالي وانـــا فـــي ولايـــة نيفـــادا الصحراوية، توقّف راعيّ بقر لإصطحابي معه بعد أن انتهى للتوّ مـــن عمـــل مضني لعدة أيام بلياليها في كيّ مؤخرة الأبقار لتحديد مالكها بوضـــع علامـــة مميزة هناك. بعد أن تلقّى أجراً سخياً لقاء عمله، ما كان عليـــه إلا أن يشـــتري لنفسه سيارة جديدة متوجهاً بها إلى كاليفورنيا، وهي المحطة التي خططتها على لوحتي شاهراً إياها أمام سائقي السيارات العابرة. كان في حالة واضـــحة مـــن الإرهاق والتعب، وأشار إلى ذلك الأمر كأحد أسباب قبوله مشاركتي السفر معه علّني أساعده في قيادة المسافة المُتبقية – وهي بحدود الألف كيلومتر. نبّهتُه إلى أنني بدوري لم أذق طعم النوم خلال اليومين الماضيين بسبب سفري المتواصل، إلا أنَّه أصرّ على قيادتي السيارة الجديدة بينما غطّ هو في نـــوم عميـــق إلـــى جانبي. ما أقسى سُلطان النوم عندما يحُطُّ بعناد وأنت تقود سيارةٍ مسرعة على طريق مُستقيمٍ كالمسطرة، لا يحيد قيد أنملة نحو اليمين أو اليسار، والإشـــارات البيضاء المتقطعة في وسط الطريق تنهال على عينيك برتابة وكأنها حلقة تنويم مغناطيسي فتغلُق جفنيك دون أن تدري وضدّ إرادتك.

أحسست وكأن جفناي باتا أثقل من الرصاص وأنا أحاول أن أرفعهما لتبقى عيناي مفتوحتان. فجأة أدركت من خلال قراءتي للإشارات المرورية بأنّني قد نمتُ فعلاً وبدون وعي لمسافة ليست بالقليلة، وأنا مازلت مُتشبّثاً بمقود السيارة المُنطلقة في ذلك الطريق المستقيم اللانهائي. قررت بيني وبين نفسي، وتَباً للنائم بقربي، بأن أتوقّف للنوم في منطقة الإستراحة القادمة والتي تبعد نحـــو عشـــر كيلومترات. إلاّ إنّ سلطان النوم كعادته في مثل هذه الحالات، لايحتمل الصـــبر وأصرّ على طغيانه فسهتْ عيناي مرة ثانية بينما يداي تمسكان بعجلة القيـــادة، في حين إنحرف الطريق إلى اليمين قليلاً. فجأة، أحسســت بتـــوازن الســـيارة المنطلقة يختلُّ إلى جهة اليسار. فتحت عيني على صوت إرتطام السيارة بعـــدد من إشارات المرور الصفراء الفسفورية التي تدلُّ الســـائقين علـــى إنحنـــاءات

الطريق ليلاً. كانت السيارة منطلقة على حافة الطريق اليسرى الـذي يكسـوه الحصى الناعم، وسرعان ما إنحدرت السيارة إلى الخندق الفاصل بين طريقـي الذهاب والإياب، ومالت لتبقى منطلقة على الإطارين اليسارين بينمـا حبـات الحصى تتطاير وهي تضرب شباك السيارة كرشق من الطلقات. إستولت عليّ في تلك اللحظة عزيمة عارمة على عدم الرغبة في المـوت بهـذه الطريقـة، فتشبّثت بمقود السيارة بكل ما أوتيت من قوة للسيطرة عليها. هبّ راعي البقـر من نومه وتشبّث بكلتا يديه بأسفل واجهة العدادات الأمامية، بينما أنا أصـارع للسيطرة على السيارة. أدَّت قبضة الحياة على عجلة القيادة خشية الموت إلـى خروج السيارة من خندق التهلكة والعودة إلى الطريق العام حيث دارت السيارة على نفسها من شدة سرعتها دورتين في منتصف الطريق، ثـمّ توقّفـتْ عـن الحركة تماماً مُعترضةً حركة السير أمام السيارات المندفعة نحوها. ما كان مني إلا أن أعدت تشغيل المحرك بسرعة وضغطت بكل قوتي على عتبـة البنـزين لتقفز السيارة كالغزال إلى قارعة الطريق بينما مرّت السيارات بأزيزها المُسرِع وسائقوها لا يصدّقون ما يرون بأم أعينهم.

ترجّلنا من السيارة المنكودة لفحص الضرر الذي أصابها بعـد إرتطامهـا بالعديد من الإشارات الصفراء العاكسة. وبهدوء يُحمَد عليه، بادرني راعي البقر بالقول: "حَسناً يا شريكي، دع القيادة لي الآن". أبديت أسفي للضرر الذي لحـق بسيارته لكنه طمأنَنَي بانه سيعوّض ذلك من أجر عمله القادم.

قاد راعي البقر السيارة إلى منطقة الإستراحة لتناول القهوة. فجأة، وبينما نحن جالسين سويةً نحتسي القهوة، أدركنا هول الحادث بعد ان أفقنا من الصـدمة، وإذ بأيدينا ترتعش بعنف لا إرادي لتنسكب القهوة من الفناجين. ما إن إنتهينا مـن تنظيف القهوة المسكوبة حتى عُدنا إلى السيارة لنتفحصها من جديد تحت أشـعة الشمس. تبيَّن عندها أن شرخين عميقين حصلا في مفصلي مِقوّد السيارة الجديدة من أثر قوة تمسّكي بالحياة ضدّ قوة الجاذبية وقوى الفيزياء الأخرى.

وصلت جامعة كاليفورنيا أخيراً وقابلت الأستاذ المعني. كان بـدوره فـي إنتظاري بعد تلقّيه المكالمة الهاتفية من صديقه في (آن آربر). إلا أنه أخبرني،

ولسوء الحظ، نبأ ملء المقعد الدراسي الشاغر والأخير أثناء ترحالي لمقابلتــه. على ضوء ذلك، توجّهت شمالاً إلى ولاية واشنطن لزيارة صديقة إيطالية (غيل ماليزيا) والتي كانت تعيش على مركبٍ عائم في مدينة (سياتل)، بينما كان قلبي يُناجي حُبّي الأول لــ (ليندا ترنر)، من أيام جامعتي مشــيغان، التــي حطّــت الرحال فيما بعد للعيش هناك مع زوجها. لقد قُمتُ بزيارة (ليندا) وتقابلنــا فــي (سياتل) للمرة الأخيرة بعد نيف وثلاثين عاماً وذلك في العام 2001.

إتّصلت مع أصدقائي في مدينة (آن آربر) للإستفســار عــن بريــدي وإذ برسالة من (بارنز)، من السفارة العراقية في لندن، يُعلمني بإكتمال الإجراءات الإدارية بشأن بعثتي وضرورة تواجدي في لندن لإستكمال خطواتها، ومن ثــمَّ الإلتحاق بالدراسة في جامعة برمنغهام. توكلّت على إبهامي في العــودة عبــر أمريكا شرقاً إلى (آن آربر) لإلتقاط ما تبقى من متاعي هناك. عبرت في طريق العودة جبال (الروكيز) في ولاية مونتانا، ولم يسعُني إلا أن أتخيّل جمال تلــك الجبال المُهيب والتي تشهد بصمتها الحزين على التشوّه المُريع الذي ألمّ بها من جراء الإستغلال الطائش لمصادرها الطبيعية بفعل نظامٍ إقتصاديٍ معادٍ للبيئة.

في السادس عشر من تموز عام 1969، وبعد توديــع أخــي فــي مدينــة واشنطن (مقاطعة كولومبيا)، راقبتُ الهبوط الأول على القمر يقوم به كل مــن (نيل آرمسترونغ ومايكل كولينس وبَز الدرين) من على شاشة التلفزيون قبــل صعودي الطائرة عائداً إلى لندن.

بعد تجارب الشهرين الماضيين، تأكّدت من أن مشاعري السلبيّة وخوفي الفطري من "طريقة الحياة الأمريكية" قد تركا بصمات لا تُمحى في ذاتي وتفكيري.

دوّنت في حينها مُجمل إحساسي ونفوري منها بتشبيها بنبؤة (بيير فيرنواد)، بأنّ الثورة الفرنسية سوف تلتهم أطفالها، تنطبق أيضاً على وحش "طريقــة الحيــاة الأمريكية"، بعنفها وعنصريتها وقساوة نظام إقتصادها.

بكل أسى، وبعد خمسة وثلاثين عاماً، إحتلّ الوحش الأمريكــي بــلادي ليلــتهمَ عراقي الحبيب!

تجربة مختلفة

أشار عليَّ الأستاذ المُشرف على دراسات الماجستير والدكتوراة في علوم وتكنولوجيا المفاعلات النووية في جامعة برمنغهام، العالم (مالكولم سكوت)، بأن أضع جانباً شهادة ماجستير الفيزياء التي نُلتُها من جامعة مشيغان، والتي أخذت مني عامين من الدراسة الجادة بسبب مادتها المعقَّدة، والعمل للحصـــول علـــى شهادة ماجستير جديدة في تخصصٍ محددٍ وهو تكنولوجيا المفاعلات النوويـــة. بعد العام الدراسي لنيل الماجستير، يُمكِن لإدارة القسم أن تُقيِّم إمكانياتي العلميَّة وتقرر مدى أهليتي للالتحاق ببرنامج الدكتوراة. أتاح نظام البعثـــات الدراســيّة السَّخي في العراق عام 1969 لأربعة من الطلبـــة العـــراقيين الإلتحـــاق بقســـم تكنولوجيا المفاعلات النووية في جامعة برمنغهام للحصول علـــى الماجســـتير، وهم: طارق الحمامي وعبد الله كندوش ورياض يحي زكي وأنا.

أدّى أسلوب التعليم البريطاني الذي يعتمد على المصادر أكثر منها علـــى الكتب المنهجية، والذي سرعان ما تأقلمت معه، إلى زيادة ملحوظة في ساعات دراستي. ولكنني لفتُ نظر أستاذي (مالكوم سكوت) إلى إمتعاضي وضيقي من كثرة أداء الإمتحانات المتكررة بحيث لم أعد أهتم في التميّز فيها. بعد إكمـــال مشروع البحث الصيفي في نهاية ذلك العام الدراسي، إجتمع (مالكوم) مع كـــلٍ من الطلبة على إنفراد ليعطيه نتائج التقويم. أوعز (مالكوم) لكلٍ مـــن طـــارق الحمامي ورياض يحي زكي بأن يتركا جامعة برمنغهام إلـــى جامعـــة أخـــرى لإكمال دراستهما، حيث إلتحقا بعدها بجامعة (جلاسكو) في أسكتلندة. وحظـــى عبد الله كندوش على إمتياز الإستمرار على شهادة الدكتوراة، بسبب حصـــوله بصورة رئيسة على أعلى معدّل في الإمتحانات النهائية، بشرطِ إثبات جدارتـــه في البحث العلمي. وبالرغم من أن درجاتي في الإمتحان النهائي كانـــت أدنـــى الصف كلَّه، إلا أنه رشّحني لمتابعة برنامج الدكتوراة حيث أن مشروع البحـــث الصيفي كان قد أظهر قدرةً كامنةً لديَّ في التفوّق في الأبحاث المُتقدمة.

بعد انقضاءِ ستة أشهر، دعا (مالكوم) عبد الله للاجتماع به ليبلغه بأن عليه ترك الدراسة في جامعة برمنغهام لأنه بات من الواضح أن قدراته غير كافيـــة

للقيام بأبحاث نوعية حسب ما تطَّلبَهُ معايير الجامعة. طلب عبد الله أن يتحول إلى قسم الهندسة الميكانيكية في نفس الجامعة، ولكن (مالكوم) ظلَّ مُصِراً على رأيه. كان عبد الله بارعاً في إجتياز الإمتحانات بتفوق لما لديه من قدرة فائقة على الحفظ والإستظهار، إنما قدراته في البحث ما كانت لتفي بمتطلبات أي من الأقسام في جامعة برمنغهام. إضطرعبد الله أن يغادر إلى جامعة (جلاسكو) بقلبٍ كسير ليلتحق برياض وطارق هناك.

تناول موضوع إطروحتي "قياس معدّل الإنشطار النووي القياسي للنيوترون في كُتلة من الحديد بإستخدام كاشف المَسار الصلب". تطلّب هذا البحث إستخدام مُعجّل (نفيلد) في جامعة برمنغهام الذي نُصب إبّان الحرب العالمية الثانية وظلَّ في خدمة البحث العلمي حتى إغلاقه في العام 1999. وخلال سنوات بحثي، كان المُعجّل تحت رعاية الفنيّين (فرِد) و(تيد) الحميمة.

سَمح لي الوقت في تلك الأثناء بممارسة النشاطات الطلابية السياسية، وبالذات الدفاع عن القضية الفلسطينية في المناسبات المتاحة. إلاّ أن هذا النشاط أزعج بعض الطلبة البريطانيين غير المتعاطفين مع القضية الفلسطينية وأثار فضولَ أساتذتي (مالكوم سكوت وديريك بينون) ودهشتهم، خاصة عندما إجتذبت هذه النشاطات بعض الطالبات المُتعاطفات، مثل المحامية (نعومي جولدستين). إنتهت إحدى المظاهرات الطلابية أمام مكاتب شركة الطيران الإسرائيلية (العال) في لندن بوقوعنا في قبضة الشرطة الإنكليزية، ممّا دفع بالمحامية اليهوديَّة المُلهَمة (نعومي) إلى الاسراع بالسفر من مدينة برمنغهام إلى المحكمة في لندن للدفاع عني وإخراجي من السجن في اليوم التالي.

أُغرمت في تلك الأعوام بحُبِّ الأمريكية (سيغني كولينز)، وهي شقيقة صديقتي (لسلي) من أيام الدراسة في جامعة ولاية مشيغان والتي كنت قد قمت بزيارتها في الدانمارك، حيث كانت تعيش مع زوجها، عام 1965 مع صديقة بولندية شاركتني واسطة نقلي الإبهامي.

كما وأتت إلى بريطانيا للدراسة صديقة العمر (جين ليتّو) اليهودية الأصل التي وقفت بشجاعة إلى جانبي أمام التجمع اليهودي الذي دعا إليه (إتحاد النداء

اليهودي) في عام 1967. ما لبث أن صادقت (جيني) زوجتي نيران وإستضافت أهلها مِراراً عند مرورهم في لندن، وما زلنا نلتقي معها بين الحين والآخر.

أما – الأختان – العزيزتان (ليفكي كريستيدو)، طبيبة الأسنان اليونانية، و(يتر جوكسو)، الفيزيائية التركية، فلهما عندي مكانة خاصة. كانت (ليفكي) تنبض بالذكاء بتعليقاتها القاطعة كحد السيف وإبتسامتها الساحرة المرحة. كانت (يتر) تدَّخنُ بشراهة، ومن خلال غيوم الدخان كانت نظراتها الحالمة تُنبيءُ بقدراتها الفكرية الدفينة. تعمقَت صداقتنا إلى الدرجة التي حدت بي أن أصحب زوجتي نيران لقضاء شهر العسل في إحدى جُزر اليونان في ضيافة (ليفكي) لفترة أسبوعين ومن ثمّ ذهبنا ثلاثتنا لقضاء أسبوعين آخرين عند (يتر) في تركيا.

عندما إنتهيت من أطروحتي للدكتوراة في كانون الأول من عام 1973، كنت قد خفّفت من نفوري المُتعاظم من إستلاب العالم الغربي بسبب إدراكي لتأثير التقاليد الإنكليزية العميقة والمتينة، والتي استطاعت بظلالها من أن تحمي المجتمع الإنكليزي من لهيب حرارة الدولار الأمريكي الحارقة، وتقرّبني من الحياة الإنكليزية، إلا انها تظل باردةً بالمقارنة مع مزاجي العربي.

الأبحاث النووية للأغراض السلمية

إلتحقت ثانيةً بمركز البحوث النووية في التويثة في الأسبوع الاول من شهر كانون الثاني عام 1974. في ذات اليوم التحق بالمركز المرحوم خالد إبراهيم سعيد، وهو زميل يحمل شهادة الدكتوراة في فيزياء الحالة الصلدة من المملكة المتحدة، وباشر عمله كرئيس لمركز البحوث النووية بفضل مكانته في حزب البعث. وبما أنني لم أنخرط في سلسلة العضوية في الحزب، ولم أتعدّ رتبة "مؤيد" خلال سنوات الدراسة في المرحلة الثانوية، فقد منعني ذلك على ما يبدو من تقلّد منصب إداري رفيع في المركز كما صرّح لي بذلك بوضوح الفيزيائي ميسّر الملاح، زميلي في جامعة مشيغان والعضو الفعّال في الحزب والذي كان قد أصبح عندها رئيساً لمنظمة الطاقة الذرية العراقية. لم أكن أتطلّعُ

بدوري إلى مثل تلك المناصب الإدارية لما تتطلّبه من إنغماس كلّي في الأعمال الادارية والروتين الرسمي والإبتعاد عن غِنَى البحث العلمي والرضى المهني الذي أنشده، ناهيك عن أنني قطعت علاقاتي مع التنظيم الحزبي للبعث منذ عام 1962 عندما كنت طالباً في أمريكا.

ما أن إنضممت إلى مجموعة منصور عمّار ومقدام علي في قسم المفاعل في المركز، حتى بادرت بتسخير أدوات البحث العلمي الحديثة التي إكتسبت خِبرتها من العمل على أطروحة الدكتوراة، وبالأخص فيما يتعلق بالكشف عن مسار الجُسيمات النووية الدقيقة من خلال إختراقها للكاشفات البلاستيكية الصلدة والتي كانت مصنوعة بطريقة خاصة من بوليمرات نيترات السليلوز. عند عبور الجُسيمة المشحونة، مثل جُسيمة ألفا الثقيلة، عبر الكاشف تتكسر أواصر البوليمرات بفعل الشحنات الكهربائية للجُسيمة النووية، ويفتح المجال للمزيد من التكسير عند مُعاملة الكاشف بمحلول قاعدي قوي، مما يَدُلّ بالتالي عن المسار الفعلي للجُسيمة النووية في الكاشف عند فحصه تحت المجهر، وقياس عدد المسارات وطول كل مسار بالميكرونات، أي أجزاء المليون من المتر. ومن مميزات هذا النوع من الكواشف عدم تأثر أواصرها عند مرور أشعة كاما أو جزيئات بيتا من خلالها والتي تصاحب النيوترونات إعتيادياً. وبطلاء الكاشف بنوع مُعيّن من المواد التي تطلق جُسيمات ألفا نتيجة تفاعلها مع النيوترونات، يمكن أيضاً إحصاء عدد النيوترونات وتحديد طاقة النيوترون من طول مسار جُزيئة ألفا. بفعل هذه الكاشفات، تمكنتُ من إلتقاط صور لمواد يصعب إلتقاطها بالطرق التقليدية، مثلاً توزيع محتويات المادة المتفجرة داخل غلاف الرصاصة أو الفتيل الليفي داخل الولاعة، بعد تعريض هذه النماذج لشعاعٍ من النيوترونات المصوّبة والصادرة من قنوات المفاعل التي تحيط بقلب المفاعل[19].

(19) "منظومة التصوير النيوتروني في مفاعل IRT-200"، دورية الأجهزة والطرق النووية، 174 (1977) ص115.

"A Neutron Radiography Facility on the IRT-2000 Reactor". Imad Y. Khadduri, Nuclear Instruments and Methods, 147 (1977) pps 115-118.

خلال مشاركتي في مؤتمرٍ علميٍّ في أواخر عام 1974 في فرنسا لتقـديم بحثي في مجال التصوير النيوتروني، تبيَّنَ لي مجال آخر في إسـتخدام هـذا الكاشف في الكشف عن مكامن اليورانيوم تحت طبقات الأرض. تعتمـد هـذه الطريقة على تعريض الكاشف لوحده، وبدون الحاجة إلى طلائه بالمادة التـي تتفاعل مع النيوترونات، لجُسيمات النظائر المُشعة الغازية الناتجة عن الإنشطار النووي الطبيعي لليورانيوم، والتي تطلق جُزيئات ألفا عند إنحلالها حسب مجال نصف عمرها الإشعاعي. فبدفن أكواب بلاستيكية مقلوبة على عمق سنتمترات تحت سطح الأرض، مُلصقين بقاعها رقائق كاشف نترات السـليلوز، وتركهـا لبضعة أسابيع لتجمّع النظائر الإنشطارية الغازية لليورانيوم في بـاطن الأرض والتي تتسرب إلى الأعلى نحو سطح الأرض عبر شقوق الطبقات الأرضـية، فإنها تتجمع بمرور الزمن في الأكواب المقلوبة. وعندما تُطلق هـذه النظـائر المُشعة جُزيئات ألفا بتحللها الإشعاعي، والتي لا يتجاوز مـداها فـي الهـواء سنتمترات معدودة، وهي قريبة من الكاشف المُلصق في قاع الكأس المقلـوب، فإنها ستخترق الكاشف وبالتالي يُمكن حصرها بعد معالجة الكاشـف كيميائيـاً ومسحه تحت المجهر.

وإذا قمنا بتوزيع الأكواب المقلوبة في موقع ما بنظام شبكي، فإن كثافة أثار جُسيمات ألفا، من خلال حلٍ رياضيٍّ لعلاقة الكثافة مع تقـاطع خطـوط هـذه الشبكة، تُعطي مُخططاً يحدد مكامن تركيز اليورانيوم الموجـودة فـي بـاطن الأرض ولعمق عشرات الأمتار، حسب طبيعة الأرض وتشقق طبقاتها.

فور عودتي من المؤتمر، وبمبادرةٍ شخصيةٍ مني، إقترحت على خالد سعيد أن أستقصي عن مكامن اليورانيوم في كافة أنحاء العراق. وافق خالد فوراً على مُقترحي وإنتدب عُمران موسى، السائق المخلص الوفيّ، مع سـيارة ومعـدات اتصال وجهَّزنا بالتصاريح الرسمية والتمويل.

بدأت البحث أولاً في المناطق الجبلية شمال شرق العراق، قريباً من قرية (هيرو) الكردية عند الحدود الإيرانية. كانت المنطقة ما تزال متـوترةً سياسـياً



التنقيب عن اليورانيوم قرب قرية هيرو في شمال العراق عام 1976.

آنذاك لكنها تظلُ من أجمل المناطق الطبيعية التي شاهدتها في حياتي. بدا اليورانيوم الأصفر ظاهراً للعين حتى على سطح الأرض. كان يعاوننا في مهمتنا خمسون جندياً ينتشرون على شكل مروحة وأنا في وسطهم أزرع الاكواب في الارض. من المفارقات المُدهشة التي رأيتها هناك منظر آلات الحفر الصدئة المُبعثرة على الجبل مُشَوِّهةً جمال الطبيعة الخلابة. حدثنا مُتقدمون في السن من الرجال والنساء الأكراد من أهالي المنطقة عن قدوم مجموعات من المُنقّبين الإنكليز في الخمسينات من القرن الماضي، على أثر منح بريطانيا حقّ التنقيب عن اليورانيوم في العراق تحت مظلّة (حلف بغداد)، إلى قرية (هيرو) التي تبعد عشرات الكيلومترات عن الطرق السالكة، حاملين على ظهور البغال تلك المعدات الثقيلة وتركهم لها في مكانها بعد إستخدامها. أضحت تلك المعدات الصدئة شاهداً على أهمية الثروة المعدنية الكامنة في تلك الديار.

من مناطق الشمال إتجهت وعُمران إلى الجنوب حيث أمضينا عدة أشهر في منطقة (الجِل) الصحراوية الواقعة على الحدود العراقية السعودية، والتي تبعد حوالى 100 كيلومتر جنوب نُكْرة السّلمان (وتعني حفرة سلمان) مقر أكبر

السجون في العهد الملكي السيئ الصيت. شاركَنا في بداية الأمر سرور ميرزا، رئيس قسم علم طبقات الأرض في مركز البحوث النووية ذلك الحين، الذي رافقَنا في أول زيارة ومعه خرائط مفصّلة عن المنطقة ليساعدنا في تحديد المناطق التي يتوقع العثور فيها على اليورانيوم.

كانت مدينة السماوة محطتُنا الأخيرة قبل ولوج الصحراء نحو نُكرة السلمان والتي تبعد عنها لحوالي 200 كيلومتر جنوباً. على مسافة 25 كيلومترٍ من السماوة تقع بحيرة صغيرة تُدعى بحيرة (ساوة) في وسط الصحراء. تعلو مياه البحيرة بحوالي المترين فوق مستوى سطح الأرض المحيطة بها. ورد إسم البحيرة في بطون كتب التاريخ وبأنها غاصت يوم ولادة النبي محمد (صلعم). وتنفرد البحيرة بخواصها الفيزيائية والكيميائية، إذ إن عملية التبخُر التي تُسَرّعها حرارة الصيف العالية لماء البحيرة المالح يؤدي إلى تراكم الملح الذي تقذفه أمواجها على محيطها ليبني ويرتفع مع مرور الزمن حائطاً ملحياً يحيط بكامل قطر البحيرة ومحتوياً لمستوى الماء المتزايد الذي يُغذّي عملية البناء المستمرة. يعيش في البحيرة نوع نادر من السمك الأعمى لا يزيد طوله عن خمس سنتيمترات وله جسم شفاف بحيث يُرى من خلاله هيكل السمكة العظمي. ومن غرائب الأمور وجود هذه الفصيلة من السمك في بحيرات شبيهةٍ لبحيرة ساوة في شمال روسيا. إن البحيرة عميقة ويُعتقد أن مصدرها المائي يتسَّرب من بحيرة الرزازة الواقعة إلى شمالها، وليس للبحيرة أي مصرف تجري منه المياه. وهناك بعض النظريات التي تدعي إرتباط هذه البحيرة بمثيلاتها، بدلالة هذا الفصيل من السمك، عبر جداول وأنهر مائية تجري على أعماق بعيدة تحت الأرض.

بينما كنّا نُجهّز أنفسنا للإنطلاق عبر صحراء السماوة نحو نُكرة السلمان، بحثنا بطبيعة الحال عن دليل ليقودنا عبر دروب الصحراء الخالية من العلامات المرورية. تقدّم إلينا أحد رجال الشرطة العاملين في مخفر نُكرة السلمان مُدّعياً إلمامه بدروب الصحراء وقدرته على قيادتنا عبرها. همّس أحد الرجال الناصحين في أذن سائقنا عُمران بأن هذا الشرطي ليس من بدو الصحراء

العالمين بدروبها كما يدعي، وإنما كان يبغي فقط الحصول على الرحلة المجانية ليصِلَ إلى مركزه في نكرة السلمان. إلا أن عُمران أغفل عن إعلامنا بهذه المعلومة المهمة في حينها، وأبرَق سرور برسالة إلى مركز شرطة نُكرة السلمان يُعلمهم فيها عن طبيعة إنتمائنا ومهمتنا وعن قرب وصولنا عندهم قبل مغيب شمس ذلك النهار.

بعد ساعة من ولوجنا الصحراء مُتّبعين إرشادات 'دليلنا' فوق دروب كأنها أخاديد متعرجة محفورة في جلد رجل كبير السِّن، خيّم عليه القنوط وأطرق برأسه في الارض قائلاً في خزي: "دخِت" .. أي أنه قد داخ (أصابه الدوار) واعترف بفشله في مهمته وأنه لا يدري أين نحن ولا أين وصلنا.!

كانت كميات الطعام والماء الباقية في حوزتنا قليلة والذئاب تحوم حولنا. كنا قد سمعنا ونحن في السماوة قصة هجوم الذئاب على إثنين من المهندسين الإيطاليين الذين إستغرقا في النوم ليلاً قرب سياراتهم في تلك المنطقة قبل أسبوعين، ولم يُعثر على أثرهم إلا من خلال الأحذية السميكة التي كانا يرتديانها والتي كانت كل ما تبقى منهما بعدما فتكت الذئاب بهما. ثم إنهارت أعصاب 'دليلنا' وصار يبكي كالطفل ليقينه بقُربِ أجلَه وأجلنا.

بادرَ سُرور بالتخفيف عن كاهلنا وتأكيده بأن البرقية التلغرافية التي أرسلها من مدينة السماوة إلى مركز شرطة نُكرة السلمان لإعلامهم عن قرب وصولنا، ستُثير إهتمامهم وقلقهم عند إفتقادهم وصولنا وسيقومون بدورهم بالاتصال بمنظمة الطاقة الذرية في بغداد التي ستبادر فوراً بإرسال طائرة هليكوبتر للبحث عنا. بناءً على ذلك، قدتُ سيارتنا ذات الدفع الرباعي إلى مرتفع أستطيع منه إطلاق شعاع مصابيح السيارة بإتجاه السماء كُلَّ ربع ساعةٍ من الزمن بأمل، ولو ضعيف، إرشاد الباحثين عنا إلى مكان وجودنا. كما وأحكمنا إغلاق أبواب السيارة خشية الذئاب الجائعة التي كانت تحوم في تلك المنطقة.

انبلجَ الصبحُ دون أن نرى أو نسمع هدير المروحيات. وفجأةً، وبدون أي مقدمات، وجدنا أمامنا بدوياً من أهل الصحراء يقترب منا على ظهر ناقته. أسرَّ

لنا الرجل بإرتيابه من الشعاع الضوئي الذي كان ينبعث في اتجاه السماء بين الفينة والأخرى طوال الليل، فركب ناقته بحثاً عن مصدر الضوء. لا شك في أن تأمل السماء ليلاً في وسط الصحراء يطلق الأحاسيس الشاعرية في الإنسان، ولا شك أيضاً بأن فرحتنا برؤيته كانت عارمةً جداً، فأمطرناه بما يستحق من القُبلات.

فوجئَ مُدير مركز الشرطة عندما شاهدنا أمامه في نُكرة السلمان، لاسيَّما ومعنا أحد اتباعه من الشرطة. بادره سُرور بالسؤال: "ماذا حلَّ بالبرقية التي بعثناها لكم أمس من السماوة تعلمكم بوصولنا؟". إستغرب مُدير الشرطة من السؤال لأنه لم يستلم أي برقية في اليوم السابق. وبعد الإستقصاء، تبيّن بأن الشرطي المخوّل بتشغيل جهاز البرقيات لم يكن على علاقة وديَّة مع الشرطي 'الدليل' فرمى البرقية فور إستلامها في سلة المهملات عندما قرأ إسم غريمه ولم ينتبه، بكل أسف، بما فيه الكفاية إلى عبارة "فريق من منظمة الطاقة الذرية العراقية" بسبب كراهيته العمياء لزميله. عثرنا على البرقية المذكورة وهي ما تزال قابعةً في سلّة المهملات.

من ناحية أخرى، كان دليلنا البدوي المُتمرِّس أبو حمزة مُتميّزاً في مُهمته. في أحد الأيام، واجهت وعُمران بعض المشاكل في تشغيل سيارتنا وهبط الليل علينا ونحن على وشك الإنتهاء من تصليحها. ما أن اشتغل محرك السيارة حتى قفلنا عائدين إلى مُخيّمنا. كان الليل شديد العتمة وأبو حمزة جالس بيني وبين السائق من باب الإحترام لكي أستمتع بالنسيم البارد في طريق العودة بعد نهار شديد الحرارة. لكنه لم يستطع ان يحتملَ طويلاً فطلب مني بكل أدب أن أُعطيه مكاني ليجلس بجانب الشباك. تخليتُ عن موقعي وأطلَّ أبو حمزة برأسه من الشباك يتابع الارض تحت أضواء السيارة الكاشفة وهو يعطي تعليماته إلى عُمران بالإلتفاف نحو اليسار تارة وإلى اليمين تارة أخرى. كان أبو حمزة مُلماً بتضاريس الطريق التي ننطلق فوقها، بدءاً بحبات الحصى التي تصادفنا، ولون التربة، حتى الهضبات الترابية الصغيرة التي تعترض دربنا وكأنه ملاح ماهر يقرأ عن خارطة مفصلّة. وأخيراً طلب أبو حمزة من عُمران التوقف عن السير.

لم يكن أمامنا ما نراه سوى الظلام الحالك وأنوار السيارة الممتد بعيداً دون هدى. "دِر إلى اليسار قليلاً" وإستدار عُمران بالسيارة وما زلنا لا نرى شيئاً أمامنا سوى فضاءً مظلماً. أضاف أبو حمزة "دِر أكثر إلى اليسار وسوف نعثرُ على كوخٍ مهدمٍ من الطين". ما أن إستدارت السيارة قليلاً حتى شاهدنا الكوخ أمامنا على بُعدِ 20 متراً.

وثمة إكتشاف مُثير حصل في اليوم التالي. ما أن نهضنا في الصباح وإستعدّينا لمغادرة الكوخ حتى جال أبو حمزة ببصره قائلاً: "هنا العراق" وهو يُشير إلى المكان الذي يقف عليه، "وهناك تقع المملكة العربية السعودية" مُشيراً إلى نقطة تبعُد الخمسة أمتار أمامه. سألت أبو حمزة والدهشة تغمرُني: "كيف تعرف ذلك؟" حمل أبو حمزة المجرفة وبدأ يحفر على بعد خطوات قليلة منّا. وعلى عمق عشرين سنتيمتراً، ظهر أثر خط أبيض من مسحوق الجبس وأعلن أبو حمزة بدون تردد: "هذه هي الحدود بين العراق والسعودية". كان أبو حمزة صبياً عندما جاء الوهابيون السعوديون في العشرينات من القرن الماضي ورسموا الحدود بين البلدين على طول مئات الكيلوميترات، وكان أبو حمزة مع العراقيين عند رسمهم تلك الحدود.

علّمَتني تلك الصحراء المُقفرة دروساً لا تُنسى في الكرم العربي. كنت قد تِهت وعُمران مرة ثانية في الصحراء، ورحنا نجول في البَيْداء علّنا نصل إلى مكان نسترشد به. وبينما نحن على تلك الحال، لاحظنا نقطةً سوداء في الأفق فإتجهنا صوبها. في وسط صحراء لا متناهية، وجدنا خيمة يعيش فيها بدوي وزوجته مع طفليهما وبضعة أغنام وجملين اثنين. نزلنا في ضيافته بناءً على إلحاحه لكي نستريح من عناء الضياع أمام خيمته ونستفسر عن طريق عودتنا إلى مُخيّمنا. فرش لنا البدوي سجادة نتربع عليها ثمَّ أحضر وعاءً فيه ماء يرشّ به التراب من حولنا. عجبت لأمره لأن الماء في الصحراء أثمن من الذهب، وها هو يبذّرُه على التراب. سألته بتردد وخجل عمَّا يفعل، فأجاب: " أرش الماء على التراب حتى أُزيد من رطوبة الهواء وبالتالي يخفف عنكم الحرَّ وترتاحون في مجلسكم".

بعد أن شربنا قهوة مضيفنا وأستعلَمنا عن وجهة دربنا، طلبنا إذناً بالرحيل. فأصرَّ البدوي على البقاء عنده لتناول العشاء. حاولت جاهداً التملص من تلك الدعوة وطلبت من عُمران أن يعطيه ما تبقَّى معنا من خزانات الماء، وإتجهنا نحو السيارة لنغادر المكان. ما كان من البدويّ إلا أن ركض حاملاً واحداً من خرافه وألقاه في صندوق السيارة قبل أن تقلع مُردداً: "طالما أنكما رفضتُما العشاء في خيمتي فعليكُما أن تأخذا الخروف معكما". تعشينا تلك الليلة في خيمته.

شملت خطة عملنا توزيع أقداح القياس البلاستيكية المقلوبة، وبداخلها قُطعة الكاشف، على بعد كيلومترٍ واحد من بعضها البعض في خطوط مستقيمة يمتدّ كل منهاُ إلى ما بين العشرة والعشرين كيلومتراً وتتقاطع عمودياً لتُشكّل شبكة واسعة تُغطّي منطقة مُعينة. كنت وعُمران نقوم بوضع علامات من الأحجار الصغيرة فوق موقع الأقداح المطمورة للدلالة على مواقعها عند إستردادها بعد مرور شهرٍ من الزمن. وكنا نجمع الحجارة من الأرض المنبسطة حولنا، مما سبب الضيق لأعدادٍ كثيرة من العقارب بأنواعها المختلفة التي كانت تنعم بالفيء تحت الأحجار المنزوعة فتهبُّ للإنتقام منّا بلدغ جزمنا الثقيلة التي تحمّلت المئات من اللدغات السامة.

كثيراً ما كنا نجد، أثناء حفر مواقع الأقداح إلى عمق ثلاثين سنتيمتر، على أصدافٍ بحرية صغيرة أو بقايا أصداف أكبر حجماً. يسود الاعتقاد أن مياه البحر كانت تغمر كُلَّ الصحراء الجنوبية وصولاً إلى مدينة النجف الأشرف التي تبعد 160 كيلومتراً إلى الجنوب من بغداد. ومازال أهالي النجف الأشرف يطلقون على المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينتهم، والتي يحدها ساتر منخفض بعمق عدة أمتار والذي كان بمثابة الجرف، إسم (البحر).

ثم إتجهت مع عُمران غرباً إلى مدينة القائم على الحدود السورية، وهناك عثرنا على مكمنٍ غني لليورانيوم في باطن الأرض. دلّت نتائج المسوحات التي قُمنا بها على وجود ترسبات مُركّزة من اليورانيوم في منطقة قريبة من مدينة القائم تُدعى (عكاشات) وهي منطقة غنية بالفوسفات ويشكّلُ اليورانيوم ناتجاً

عرضياً من هذه التكوينات الجيولوجية. شُيد في منطقة (عكاشات) مصنع واسع لإستخراج الأسمدة الفوسفاتية، والذي إشتمل أيضاً على وحدة مُعالجة خاصة لإستخراج اليورانيوم كناتج عرضي من عمليات إنتاج أسمدة الفوسفات على هيئة مادة أولية لخام اليورانيوم يُطلق عليه إسم (الكعكة الصفراء). في نهاية الثمانينات، كان هذا الناتج يُنقل بواسطة القطار إلى شمال العراق حيث موقع (الجزيرة) قرب الموصل والذي شُيّد فيه مصنع لتحويل (الكعكة الصفراء) إلى معدن أوكسيد اليورانيوم الذي يتحولُ بالتالي إلى تتراكلوريد اليورانيوم بعد معالجته بمادة الكلورين. كانت هذه هي المادة المُغذّية لمنظومات تغْنية اليورانيوم (Uranium enrichment) في موقع الصفاء في الطارمية للحصول على اليورانيوم الملائم عسكرياً لإستخدامه في صُنع القنبلة النووية.

بعد مرور أشهر عديدة على قيامي بالمسوحات عن مكامن اليورانيوم في أنحاء العراق، عدتُ إلى مركز البحوث النووية في أواخر عام 1975 أحمل نتائج وخرائط تلك المسوحات[20]. وظهر على الفور تحدٍ جديد. فقد تقرر عقد المؤتمر الأول لإستخدامات الطاقة الذرية للاغراض السلميّة في بغداد، وكان إسمي مُدرجاً ضمن القائمين على تنظيمه برئاسة البيولوجي النووي القدير المرحوم حميد عودة. كانت أهمية هذا المؤتمر بالنسبة لي هو إكتشاف العالم النووي المصري الفذ المرحوم يحي المشد ومن ثُمّ إجتذابه للعمل معنا. وسوف أعود لهذا الموضوع فيما بعد.

في تلك الأثناء، طلب مني خالد سعيد، رئيس مركز البحوث النووية، أن أتصلَ بجعفر ضياء جعفر لكي أُقنِعَهُ بالعودة إلى العراق للعمل معنا، نظراً لدراية خالد بمدى العلاقة الخاصة التي تربطني بجعفر. كان جعفر في ذلك

(20)"إستخدام أفلام نيترات السليلوز في التنقيب عن اليورانيوم"، عماد خدوري، قسم المفاعل النووي، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، عراق. كانون الأول 1979.

"On the Use of Cellulose Nitrate Film in Uranium Exploration". Imad Y. Khadduri, Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. December 1979.

الوقت ضمن فريق دولي يزيد عددهم على المائة من العلماء النوويين يبحثـــون في مشاريع نوويّة لصالح اللجنة الذريَّة الاوروبية (CERN) قرب مدينة جنيــف في سويسرا. إمتثلت للطلب وفاتحت جعفر بالموضوع.

إستجاب جعفر للطلب، لأسباب هو أدرى بها مني، وعاد إلى العراق مـــع زوجته الإنكليزية (فيليس) وولديهما صادق وأمين، وإلتحـــق بمنظمـــة الطاقـــة الذرية العراقية. على أية حال، هناك معلومة حديثة عن هذا الموضوع ذكرهـــا (روبرت ويندرام) في برنامج إذاعته (NBC News) في العشرين من نيسان من العام 2003 ذكر فيه بأن جعفر كان قد تقدَّم بطلب للتعيـــين بمنصـــب (أســـتاذ جامعي) في كلية إمبريال البريطانية في مطلع عام 1975. وبالرغم من مؤهلاته الرفيعة، فإنه لم يحصل على ذلك المنصب الأكاديمي المطلوب، مما حفَّزه على أن يتخذ قراراً مصيرياً بالعودة مع عائلته إلى مسقط رأسه.

وفي تلك الفترة أيضاً، تمَّ عقد زواجي إلى فتاة محترمة، جميلـــة، دقيقـــة الجسم والملامح، تُدعى نيران شوكت جرجيس تسكنُ في نفس الشـــارع الـــذي نقطنه في ضاحية بغداد بعد أن عرَّفتني عليها صديقتنا المتوقِّدة الحِس ميّســـون ملك. في كثير من الأحيان كنت ونيران نجازف، رغم المحـــاذير الاجتماعيـــة الصَّارمة، بالتسلل تحت جنح الظلام إلى نهر دجلة، الذي ينحدر عنـــد نهايـــة شارعنا، ونمضي ليالٍ لا تُنسى في زورق صغير يديره محرك روسي الصـــنع كنت قد إشتريته بمبلغ خمسة عشر ديناراً، ونَفرش الحصيرة (بساط شعبي من القش) على الرمال النظيفة في الجُزر التي ترتفع عادة فـــي فصـــل الصـــيف مُلتحفين بضوء القمر. في إحدى تلك الليالي، وبينما نحن نبحر شمالاً في نهـــر دجلة، إرتطم قاع زورقنا بسطح جزيرة غاطسة تحت سطح الماء تقـــع مقابـــل القصر الجمهوري الحسّاس، مما دفع بمحرك الزورق عالياً في الهواء مُصدراً ضجيجاً عالياً وناثراً نافورة من الماء فوقه. الجميل في الأمر أن نيران ظلّـــت متمالكة لأعصابها رغم حراجة الموقف مما زاد من إعجابي بها. تفاجأ والـــدينا وأصدقاؤنا عندما أبلغناهم، أنا ونيران، عن نيَّتنا الزواج بمراســـيم مُتواضـــعة دونما إعتبار للعادات والتقاليد السارية المُربكة التي لم أحب التقيُّد بها. بعد عقد

الزواج في الكنيسة وتوزيع الحلويات، أعربنا عن شكرنا للمدعوين، وقمنا بتوديع الجميع على أن نستقبلهم في بيتنا الجديد. إستطعت ونيران أن نفرش بيتنا بمبلغ خمسة وستين ديناراً عراقياً إذ كانت جميع المفروشات من أسرَّة وأرائك ومناضد ومائدة الطعام والخزانات والكراسي من صناعة (شعبية) شُغلت يدوياً من سعف (جريد) النخيل الزهيد الثمن والستائر من قماش (الجنفاص) المُستخدم في أكياس القماش المتينة.

دعونا أهل نيران وأقربائها بزيارة منزلنا الجديد لإستقبال التهاني، وقبل مغادرتهم الحفل، مالَ عليَّ والدها، المحامي الوقور شوكت جرجيس، هامساً في أذني: "أنك إقترنت بإمرأة عميقة"، كناية منه أنها كالجوهرة.. كلَّما صقلتها كلَّما إزداد بريقها. وحقاً ما قال، وخاصة عند المحن.

أدركت في وقت مُبكر قابلية نيران الفذَّة على الدراسة الجادة، وما زالت تُدهشني بقابليتها هذه بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الزمن ومضي خمس سنوات على وجودنا في كندا بحيث تقضي الساعات العديدة يومياً في الدراسة، طيلة هذه السنوات الخمس، في تعلّم لغات البرمجة الحاسوبية المُتطورة وتدريسها وتطبيقها. وعليه، قررنا سويّة عقب الزواج بأن على نيران متابعة دراستها العليا، مما إضطرنا إلى تأجيل الإنجاب إلى ما بعد نيلها شهادة الماجستير في علم الحاسوب. وبالمساعدة السخية من لدن المفكّر المرحوم عبد الوهاب الكيالي، الذي أُغتيل قبل أوانه فيما بعد، إستطاعت نيران الحصول على بعثة دراسية حكومية لمدة سنتين لمتابعة دراستها في جامعة آستون في مدينة برمنجهام في المملكة المتحدة. سافرت نيران لوحدها إلى هناك عام 1978 لتجد حفاوةً وإستقبالاً حارّين من لدن (مالكوم سكوت)، الأستاذ المشرف على رسالتي في الدكتوراة، والذي سهّل أمور إقامتها في برمنجهام، بينما بقيت أنا في عملي في مركز البحوث النووية في بغداد. بعد عامين من الفراق الصعب علينا، تخللها العشرات من المُكالمات الهاتفية الحارة، التأمَ شملنا حين بدأتُ فترة التدريب في مركز (ساكلاي) للأبحاث النووية الفرنسي على مفاعلات الأبحاث التي اشتراها العراق من فرنسا في حينها.



السيد إيتو، في وسط الصورة، مع الفريق الياباني عام 1977.

في شهر أيلول من العام 1980، ومع بدء الحرب العراقية - الإيرانية، شاهدتْ إبنتنا يمامة النور لأول مرة في مدينة باريس. وقد أطلقنا عليها هذا الإسم تيمّناً بالحمامة التي عادت بغصن الزيتون مشيراً إلى نهاية الطوفان الكبير. بان على يمامة من صِغرها الشُبه المدهش لجمال والدتي الهاديء، بالإضافة إلى ذكائها المُتّقد.

خلال عامي 1976 و1977، وضع العراق خُطةً للحصول على مفاعل نوويٍّ لتوليد الطاقة الكهربائية (محطة كهرونووية) حيِّز التنفيذ فكوَّن فريقاً علمياً لدراسة أفضل العروض المطروحة. أصبحت عضواً في ذاك الفريق المفاوض الذي إجتمع مع وفود الشركات الصناعية التي زارت مركز البحوث النووية، وأجرى معها مفاوضات طويلة ومفصَّلة بشأن هذا الأمر. قام فريقنا بزيارة عدد من مفاعلات توليد الطاقة النوويّة في اليابان (شركة ميتسوبيشي) والسويد (آسيا أتوم) وألمانيا الغربية (كرافت ورك أي جي). إجتازت مفاوضاتنا مراحل هامة مع الجانب الياباني (ميتسوبيشي) وسافرنا للقاء معهم لتنفيذ مراحل مُتقدمة من المفاوضات في مقرهم الرئيسي في مدينة طوكيو. كنّا على وشك الإتفاق على بعض الفقرات الشبه نهائية مع الجانب الياباني عندما استأذن من الاجتماع رئيس الوفد الياباني، السيد الجليل إيتو، إثر تلقيه حديثاً هامساً من أحد مساعديه

ليغادر قاعة الاجتماع ويعود بعد خمس دقائق مُعلناً إنتهاء المفاوضات. كانت الشركة الأمريكية (وستنكهاوس) التي تُزوِّد الوقود النووي لكافة المحطات الكهرونووية في اليابان قد إتصلت لتُبلِغ الجانب الياباني عن رفضها تزويد أي وقود نوويّ إلى المحطة الكهرونووية المُزمع إنشائها في العراق. عادَ وفدنا إلى بغداد وقد إستوعب درسه جيداً وقدّم التوصية التالية – إذا كنا ننشد بناء محطة كهرونووية، فإنها يجب أن تكون من صنع روسي –. ما كنت أدري آنذاك بأن توصيتنا هذه كانت ستؤدي إلى تقييدي بتطبيقها لسنوات عديدة في العقد القادم.

حسابات الكُتلة الحَرِجة بين الجَدّ والفُضول

إنعقد المؤتمر الأول لإستخدامات الطاقة الذرية للاغراض السلميَّة في بغداد في ربيع 1975. تم تكليفي بمهمة تنسيق البحوث العلمية في موضوع تقنيات المفاعلات النووية. إستوجبت تلك المُهمة مراجعة الأبحاث المرفوعة وتقييمها وتخصيص الوقت اللازم لإلقائها. جلب إنتباهي إرسال عالم نووي مصري لعشرة من أبحاثه في الدراسات النظرية للمفاعلات في ظرف بريدي واحد. وكرد فعل أولي على العدد الكبير نسبياً لأبحاثه مما قد يوحي بإنخفاض مستواها العلمي، فلقد طلبت من مُساعدي مراجعتها السريعة وإعلامي تقييمه لها. وإذ به يعود بتقييم مُدهش لمحتوياتها. فأمعنتُ في دراسة كل أبحاثه التي بين يدي وتبيّن لي بأن دراساته المطوّلة وعُمق التحليلات التي توّصل إليها هامة وجديرة بالإعلام عنها. لذا طلبت منه أن يحاول أن يجمع ما بين مواضيع الأبحاث العشرة ليُلقيها في محاضرة شاملة على أن أُخصصَ لمحاضرته ساعة كاملة من وقت المؤتمر، عِلماً أنني كنت قد خصصت لكل من أستاذي (مالكوم سكوت)، الذي قدمَ بحثنا المُشترك الذي قُمت به تحت إشرافه لنيل شهادة الدكتوراة، وبحث – أختي – التركية (يتر جوكسو) ربع ساعة من الوقت فقط لكل منهما.

أستطاع عالم الفيزياء المصري الفذ، يحي المشدْ، أن يقدّم في تلك المحاضرة ما برهن على قُدراته العلميَّة بسلاسة ويُسر بما يمتلكه من مقدرة في

شرح وعرض مواضيع علمية صعبة بكل وضوح وفعالية. كانت في نية يحي، عند مشاركته في المؤتمر، التقدم بطلب للحصول على منصب تعليمي في الجامعة التكنولوجية في بغداد لتمتعه بإجازة دراسية من جامعة الاسكندرية في مصر. عملنا في اليوم التالي لمحاضرته على قبول طلبه كأستاذ في الجامعة التكنولوجية. كانت تلك بداية لصداقة عميقة وحميمة مع يحي المشدْ.

خلال إنعقاد المؤتمر، إقترح علينا أستاذي (مالكوم) أن نبدأ برنامجاً أكاديمياً لمنح شهادة الماجستير في تقنية المفاعلات النووية تعتمد على المواد العلمية التي أقرّها بنفسه لتدريس ذلك المنهاج في جامعة برمنجهام. كما وتعهد (مالكوم) بأن يقبل الطلاب الخريجين من برنامجنا لمتابعة دراستهم للحصول على شهادة الدكتوراة في جامعة برمنجهام بمجرّد أن أُقدّم خطاب توصية مني للطالب المُرشّح. كانت ثقته هذه سخيَّة وقد إلتزم بالوعد الذي قطعه طيلة الأعوام التالية.

تمَّ تنسيق المنهاج التدريسي لنيل شهادة الماجستير ومتابعته مع قسم الفيزياء في جامعة بغداد في الخريف التالي والتحق في الفصل الدراسي الاول منه إثنان من الطلبة. تم الإتفاق على أن يقوم مركز البحوث النوويَة بتحمّل المسؤولية التدريسية في هذا البرنامج بينما يقوم قسم الفيزياء في جامعة بغداد بمنح شهادة التخرُّج. إعتمد البرنامج في الأساس على قيام يحي المشدْ بإلقاء المحاضرات النظرية على الطلبة بينما قمتُ بتدريس الجانب العملي منه مُعتمداً على المواد والمراجع العلمية التي ألفّها وجمعها (مالكوم سكوت). قام أول طالبين بالتنقل مرتين كل أسبوع إلى الجامعة التكنولوجية لتلقّي محاضرات يحي وأبديا إعجابهما الشديد بأسلوب إلقائه القيّم وتبسيط المواضيع لتسهيل إستيعابها. وقد حفزّني ذلك لشراء خمسين شريط تسجيل صوتي وطلبت منهما تسجيل كافة محاضراته للإحتفاظ بها للمستقبل. مازلت أعتزُّ بتلك المجموعة من الأشرطة رغم أنني إضطررت لتركها في بغداد عند مغادرتي الصعبة للديار.

وحرصاً على توفير إفادة أعمَّ وأوسع من غزير علم يحي القيّم وهو في بغداد، رتبتُ لأمر قدومه إلينا في مركز البحوث النووية مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع للعمل معه في الأبحاث النظرية في فيزياء المفاعلات، ولأوفر على

الطالبين مشقّة زيارته في الجامعة التكنولوجية. كانت باكورة تعاوننا في الحسابات النظرية تصميم برنامج حاسوبي لحساب إحتراق وقود المفاعل النوويّ إعتماداً على مواصفات الوقود النووي وتصميم قلب المفاعل والمعادلات الرياضية الدقيقة والأخذ بنتائجه التي كانت أدقّ من المعادلات اليدوية البسيطة التي تركها لنا العلماء الروس[21].

كانت سعة المعلومات وعمق الخبرة التي إمتلكها يحي المشدّ عن تقنية المفاعلات غنيةً بحق. لقد فتح لنا برنامج حساب إحتراق الوقود النووي في المفاعل باباً لحسابات القنبلة النووية. إذ إن تشغيل المفاعل هو في الواقع عملية التحكم والسيطرة على الإنشطار النووي المُتسلسل الذي يقود، عند فقدانه، إلى الإنفجار النووي. ففي القنبلة النووية الإنشطارية، فإن الكرة الخارجية المتكونة من مواد شديدة الإنفجار، والمُحيطة بقلب القنبلة المؤلف من نصفي كرة من معدن اليوارنيوم 235 ذات التغْنية العالية، تُفجّر آنياً لتكوّنَ موجة صدمٍ تتوجهُ داخلياً نحو نصفي الكرة لتؤدي بالتالي إلى تلاحمهما وضغطهما بشدة فائقة فتُزيد من كثافتهما. وبتوفر مصدر للنيوترنات قرب قلب القنبلة، يؤدي إرتطام أحد النيوترونات بنواة اليورانيوم 235 لتشطره مُصدرة طاقة عالية إذ إن مجموع كتلتي النواتين الناتجين من الإنشطار أقل من كتلة نواة اليورانيوم 235 الاصلية. وهذا الفرق الصغير في الكتلة يتحول إلى طاقة حسب معادلة (أينشتاين) الشهيرة ($E=mc^2$). تطلق عملية إنشطار نواة اليورانيوم 235 من 2 إلى 3 نيوترونات إذ قُدِّر لواحد منها، أو أكثر من واحد بجزء قليل، أن تؤدي إلى إنشطار نواة يورانيوم 235 أخرى ثم يؤدي نيوترون ناتج عن ذلك إلى

---

(21) كورلود: برنامج حاسوبي لحساب تاريخ تشغيل مفاعل IRT-2000". عماد خدوري ويحي المشد، قسم المفاعل نووي، لجنة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، عراق. التقرير NR-11، حزيران 1976.

"*CORELOAD: A Computer Code for Calculating the Evolution of the Operation History of the IRT-2000 Reactor*". Imad Y. Khadduri, Yehya al-Meshad Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. Report No. NR-11, June 1976.

إنشطار نواة ثالثة وهكذا دواليك، فإن ذلك سيؤدي إلى تحرر طاقة هائلة وبزمن قليل جداً، أي إنفجار نووي من جراء هذا التفاعل المُتسلسل. وهذا ما يحصل في القنبلة، وما المفاعل سوى السيطرة على سرعة هذا التفاعل من خلال إمتصاص العدد الفائض من النيوترونات المُحررة بواسطة قضبان من معدن سريع الإمتصاص لها لضمان إمتصاص نيوترون واحد فقط أثناء عملية التفاعل المتسلسل. وما تأثير تفجير الغلاف المُتفجّر لضغط نصف كرتي اليورانيوم 235 في القنبلة سوى زيادة كثافتهما لضمان إمتصاص نوويات اليورانيوم لأكثر من نيوترون مُحرر واحد وبدء عملية التفاعل المُتسلسل غير المُتحكّم فيه. عندئذ تنفجر القنبلة مُصدرةً كمية هائلة من الطاقة ونظائر نواتج الإنشطار ذات الإشعاعية العالية جداً.

لاقت فكرة تطبيق حسابات إحتراق وقود المفاعل على حساب الكُتلة الحرجة للقنبلة إستحساناً عند عرضها على خالد سعيد وجعفر ضياء جعفر. إستخدمنا في تلك الحسابات بيانات منشورة في الدوريات العلمية عن مواصفات لكُرات نووية – أُطلق عليها أسماء (كودايفا) و(جيزيبل) للكرات الخالية من الغلاف الخارجي و(توبسي) و(بوبسي) لكرات مغلفة بالمتفجرات – والتي أُعتمدت في مشروع مانهاتن الأمريكي في الأربعينات لحسابات تصميم أول قنبلة ذرية. وقمنا بتقليد الإنضغاط لزيادة كثافة الكرات حسابياً، وكانت نتائج حساباتنا الأولية قريبة جداً من النتائج المنشورة لهذه الكُرات[22].

ما أن انتهى عقد العمل لفترة عامين بين يحي المشدّ والجامعة التكنولوجية

(22) "إستخدام طريقة نقل متعددة المجاميع للحسابات الحرجة السريعة لبعض الأجسام الكروية" عماد خدوري، يحي المشد. قسم المفاعل النووي، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، عراق. التقرير NR-14، حزيران 1978.

"The Use of Multigroup Transport Method for Criticality Calculations of Some Fast Spherical Assemblies". Imad Y. Khadduri, Yehya al-Meshad. Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. Report No. NR-14, June 1978.

في سنة 1977 وتخريج دفعتين من طلبة الماجستير، حتى سارعت بإنتهاز تلـــك الفرصة لأضمن تفرغه كُلياً للعمل معنا في مركز البحوث النووية بعد أن أبدى رغبة في قبول ذلك. وافق المسؤولون على إقتراحي بشرط أن أعرف الســـبب الحقيقي لرغبته البقاء في العراق. ذهبت إلى بيت يحي المشدّ عصر ذات يوم، وبينما كنا نشرب الشاي معاً ونطالع عدداً من المجلات العلمية، أشار يحي إلى صور الباحثين المنشورة إلى جانب كل بحث معلقاً: "هؤلاء كانوا من تلامـــذتي ولقد أصبحوا الآن في الولايات المتحدة وقد أحرزوا نجاحات علمية". فانتهزت الفرصة وسألته مباشرةً: "لماذا لم تُفكّر في الذهاب إلى الولايات المتحدة لا سيما وإنه لديك العديد من المعارف الذين يستطيعون تأمين فرصة عمل جيدة لك في مجال الأبحاث أو التدريس؟". في تلك اللحظة، دخلت علينا ابنته الشابة تحمـــل صينية ثانية من إستكانات (أقداح صغيرة) الشاي، فشكرها بلطف ثـــمَّ إســـتدار يجيب على سؤالي: "إنه بسببها وبسبب أختها. سمعت العديـــد مـــن الروايـــات المحزنة من أولئك التلاميذ السابقين وكيف أنهم قد فقدوا السيطرة على أولادهم في الولايات المتحدة وخاصة الفتيات منهم. العراق بلد مُسلم وأشعر بالإرتيـــاح والطمأنينة في أن تتربيا فيه".

تمّت الموافقة على إلتحاق يحي المشدّ بمنظمة الطاقة الذريّة العراقية.

من فرط سعادتي بوصول يحي المرتقبة إلى مركـــز البحـــوث النوويـــة، أسرعت بجمع وتجهيز كافة الأوراق والوثائق اللازمـــة لتوقيـــع العقـــد معـــه ووضعتها على منضدة حامد البياتي، مستشارنا القانوني، وتركت يحي المشـــدّ معه بإنتظار التوقيع النهائي من قبل المرحوم عبد الرزاق الهاشـــمي، رئـــيس منظمة الطاقة الذرية العراقية في ذلك الوقت. قضى عبد الرزاق نحبه في صيف عام 2003 بعدما دخل عليه البعض وأردوه قتيلاً في عقر داره.

ناداني حامد البياتي على عجل بواسطة المذياع وكنت أعمل حينها في مبنى المفاعل. لقد قام عبد الرزاق الهاشمي بخفض راتب يحي من 450 إلى 425 دينار عراقي، علماً أن راتب الوزير في تلك الأونة كان حوالى 400 دينار. شعر يحي بالإهانة، فحمل حقيبته الجلدية وترك مكتب حامد مُتجهاً إلى سيارته. ركضت من مبنى المفاعل وفي طريقي صادفت خالد سعيد فشرحت له الموضوع، وأنا مازلت راكضاً، ورجوته أن يذهب إلى عبد الرزاق الهاشمي مباشرةً لمحاولة حل هذا الإشكال. لحقت بيحي وهو على وشك غلق باب سيارته، وعدد من رجال الحرس يركضون خلفي مندهشين لما يجري أمامهم.

لقد شعر يحي بالإهانة كما قال لي بصوت مرتجف: "إنها ليست مقدار المبلغ بقدر الأسلوب المُهين في التعامل معي". وبينما كنت أحاول تهدئة عِزّة نفسه الجريحة، إلتحق بنا خالد قائداً سيارته ليعطينا أوراق العقد ممهورةً بتوقيع عبد الرزاق الهاشمي بكامل الراتب المتفق عليه مُسبقاً.

أدّت المقدرة التي أكتسبناها في حساب معدل إحتراق الوقود النوويّ في المفاعل، بفضل وتقدير خالص لجهود يحي، إلى إعراب جعفر عن رغبته في أن أعمل وإياه على حسابات مفصّلة عن إمكانية إنتاج البلوتونيوم 239 القابل للإنشطار، والذي يشكِّلُ أساس نوع آخر من القنبلة النووية، من إحتراق وقود المفاعل الروسي، وإنما دون مشاركة يحي المشدّ في هذه الحسابات. أُبديت بعض التحفظات العلمية حول هذا الطلب إذ إن إحتراق الوقود النووي يؤدي أيضاً إلى إنتاج النظير بلوتونيوم 238 ذي القابلية العالية لإمتصاص النيوترونات بدون أن يؤدي ذلك إلى إنشطاره، أي أن وجود البلوتونيوم 238 يؤدي إلى (تسمّم) أو تعثّر عملية الإنشطار النووي المُتسلسل. لذا يتوجب إحراق الوقود النووي لفترات قصيرة نسبياً من الزمن لضمان الحصول على النقاوة المطلوبة من البلوتونيوم 239، وبأقل تشويب من البلوتونيوم 238، ليكون مُلائماً للسلاح النووي. ونظراً للقدرة المحدودة لمفاعل الأبحاث الروسي، ربما أحتجنا إلى فترة طويلة من الزمن لكي نحصل على الكمية المطلوبة من البلوتونيوم اللازم لصنع

السلاح النووي. أصرّ جعفر على قيامنا بهذه الحسابات لإقتناء الخبرة في إجرائها والحصول على كافة البيانات المتعلقة بحساباتها[23].

في ذات الوقت كنت أعمل بمعية أحد طلاب الماجستير على تجربة معقدة غايتها القياس الفعلي لإحتراق خلايا الوقود النووّي. تحتاج التجربة إلى خزان كبير من الحديد الفولاذي المقاوم للصدأ وإستخدام إسطوانة كبيرة من الرصاص بوزن خمسة أطنان لنقل خلية الوقود المحترق الشديد الإشعاع من موقع خزنه في باطن الأرض إلى محطة القياس في الخزان الحديدي المملوء بالماء المُقطّر. يتمُّ غرس خلية الوقود داخل أنبوب من الرصاص في وسط الخزان ثُمَّ تُدارُ بصورة مُستمرة في حركة مضبوطة الإيقاع وعلى مستويات عديدة على طول الخلية لمدة يومين أو ثلاث. يدل قياس الإشعاع الناجم عن كل مستوى إلى كمية اليورانيوم 235 التي إنشطرت، أو احترقت، بالإضافة إلى كمية اليورانيوم 235 المتبقية في ذلك المستوى من خلية الوقود ومنه يمكن قياس الإحتراق على طول الخلية الذي يبلغ حوالى المترين. تحتاج قياساتنا إلى عمليات حسابية معقدة والتي توفِّرت لنا من خلال التدريب على إستخدام مفاعل الأبحاث الفرنسي (أوزيراك).

في العام 1974، زار باريس وفد حكومي برئاسة صدام حسين. أطلقنا على الرحلة اسم (رحلة المسقوف) لأنّ طائرة كاملة حُمِّلت بسمك الشبّوط والبِز (أنواع خاصة من السمك العراقي) مع (السكّافين) أو الطباخين لهـا بملابسهم التقليدية والحطب الخاص الذي يُشوى على ناره السمك، وسافرت بحمولتها إلى باريس لعرض كرم الضيافة العراقية. شُويَ السمك بعرض رائع، فقد صُفَّ منبسطاً على عيدان واصطفت العيدان عامودياً امام لهب النار المشتعلة – وهذا

(23) "كميات البلوتونيوم 239 المُمكن إنتاجها من مفاعل IRT-5000". جعفر ضياء جعفر وعماد خدوري، قسم المفاعل النووي، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، العراق. تشرين الأول، 1978، ونُشر في 1983.
"The Possible Production of Pu239 from the IRT-5000 Reactor". Jafar D. Jafar, Imad Y. Khadduri. Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. October, 1978, published in 1983.

الطبق الخاص يُعرف في العراق بالمسقوف. بحث الوفد آنــذاك مــع الجانــب الفرنسي موضوع شراء مفاعلين نوويين للأبحاث السلمية.

وفي العام 1976، زار وفد عراقي رفيع المستوى باريس لإستكمال تلــك المفاوضات. كان الوفد برئاسة عبد الرزاق الهاشمي وعضوية جعفــر ضــياء جعفر وحسين الشهرستاني (الكيميائي الذي أعتقل لمدة 11 سنة ثمَّ هرب خــلال حرب عام 1991) وهمام عبد الخالق (النجم الصاعد فــي البرنــامج النــووي العراقي). أطلق الفرنسيون الأسماء (أوزيريس) و(آيزيز) على المفاعلين، تيمُّناً بالإلهتين الفرعونيتين وحسب سياق التسميات المُعتمد فــي مركــز ســاكلاي للأبحاث النووية الذي يقع بالقرب من باريس حيث تم فيه تصــميم المفــاعلين. كان (أوزيريس) مفاعل أبحاث كبير نسبياً بقدرة 40 ميغاواط، بينما كانت قدرة (آيزيز)، وهي أخت وزوجة (أوزيريس) حسب الأسطورة الفرعونية، بحــدود ميغاواط واحد يُستخدم لإختبار المنظومات التجريبية البحثية الستة للتأكــد مــن صلاحيتها قبل إدخالها وتشغيلها الفعلي في (أوزيريس). أطلق الفرنسيون إســم (أوزيراك) على المشروع الكلّي، وبدورنا أطلقنا إسمي (تموز 1) و(تمــوز 2) على المفاعلين، إذ إن معظم الأحداث السياسية الكبرى خلال تــاريخ العــراق الحديث حصلت في شهر تموز الحار.

وإستعداداً للتوسّع المرتقب في مركز البحوث النوويّة وإستقبال المفــاعلين الجديدين، توجَّه اهتمامنا لكيفية حماية موقع المركز في منطقة التويثة من هجوم عسكري. مما لا شك فيه أن الفكر العسكري السوفياتي، الذي كان ســائدا فــي العراق في ذلك الوقت، أدى إلى بناء ساتر ترابي بعلو ثلاثة طوابق يحيط بكامل موقع المركز، فيما عدا نفقان اثنان يبلغ طول كل منهما 100 متر. لــو أحتــاج الامر وتم إغلاق هذين النفقين، يظل موقع المركز داخل هذا الســور الترابــي محمياً حتى في حالة فيضانٍ مدمِّر.

إستهلك بناء الساتر الترابي جُهداً جباراً، وإمتد على محيط حوالى خمســة كيلومترات حول موقع المركز وإرتفع بحدود 25 مترٍ عــن الأرض وبعــرض 100 مترٍ، وتمَّت تقويته بشباك من الحديد كل خمسة أمتار من الإرتفاع.

إستدعاني هُمام، نجم الطاقة الذرية الصاعد، وسألني: "ما الذي يحصل في حالة سقوط قنبلة على درع المفاعل الروسي وإختراقه؟ ما هو بعد المسافة التي يمكن أن تصل إليها السحابة المُشعة التي ستنطلق نتيجة الانفجار؟ هل يمكن أن تتضرر مدينة بغداد نفسها؟"

بادرت في إجراء الحسابات اللازمة مُعتمداً في الأساس، مرة أخرى، على البرنامج الحاسوبي الذي تم تطويره مع يحي المشدُ. توجبَ عليَّ، للتحقق من نتائج الفرضيات النظرية مع الأخذ بعين الإعتبار سرعة الرياح المتغيرة والتي تتحكم في إنتشار السحابة الشعاعية، إجراء تجارب تُحاكي هذه الحالات. لذا طلبت السماح في إستعمال منظومة تجريبية موجودة في كلية الرشيد العسكرية، والواقعة داخل معسكر الرشيد القريب من مركزنا، تتضمن نفقاً يُمكن التحكّم بسرعة تدفق الهواء من خلاله لإجراء التجارب في الديناميكيا الهوائية. تمت الإستجابة لطلبي في الحال. بنينا نموذجاً مُصغَّراً لكامل موقع التويثة يشمل جميع المباني والساتر الترابي الجديد. وضعنا النموذج في (نفق الريح) وبدأت التجارب ببث الدخان بطريقة مُسيطر عليها من مدخنة المفاعل المُصغرة، مع التحكم بسرعة تدفق الهواء لكي ندرس كيفية إنتشار السحابة الشُعاعية أثر إنطلاقها من المفاعل. أخذنا صور فيديو لجميع مراحل الإختبارات وجاءت النتائج قريبة من نتائج الحسابات النظرية التي أُجريت على تلك الحالات. إلا أن أهمّ نتيجة تم التوصل إليها من تلك التجارب هو أنه في حالة تغطية الساتر الترابي بالاشجار ومرور السحابة المُشعة على الساتر، فإن أوراق الأشجار ستساهم في إرتفاع مُعدّل إمتصاص النظائر المُشّعة بنسبة عالية جداً وبالتالي تُقلّل الكثير من مستوى النشاط الإشعاعي للسُحابة. أمر هُمام بإنشاء نظام ريٍّ على كامل سطح الساتر الترابي وتمّ غرسه بالأشجار الكثيفة.

من الملائم في هذا السياق التطرق إلى بعض الإدعاءات المُلفّقة التي روّج لها نفر قليل من الذين تدور حولهم الكثير من علامات الشكوك حول مصداقيتهم ووطنيتهم. إستطاع فيزيائي عراقي، يدعى خضر حمزة، من الهرب من العراق في العام 1994 والحصول على حماية المخابرات المركزية الأمريكية. نشر

خضر كتاباً في نهاية عام 1999 عنوانه: "صانع قنبلة صدام". يجدر بنا القول في هذا المقام أن خضر حمزة لم يشارك البتّة في أية من البحوث المار ذكرها أعلاه فيما يخص حسابات الكتلة الحرجة أو إنتاج البلوتونيوم أو تأثير حادث إشعاعي فرضي. كان إهتمامه البحثي الوحيد للعديد من السنوات هو موضوع تفاعلات الأجسام الثلاثة التي لم يكن لها أي علاقة ببرنامج التسليح النووي. ليس هناك تقرير علمي واحد يشير إلى أي عمل قام به خضر حمزة فيما يخص أبحاث السلاح النووي في ملفات مركز البحوث النوويّة لتلك الفترة في السبعينات، فيما يعطي كتابه إنطباعاً مُغايراً لذلك.

في أواخر عام 1978، أُوكِل إلى عالِم في موضوع المواد الصلبة، مهدي شُكر غالي عُبيدي، مُهمة تكوين فريق من العلماء والمهندسين لتدريبهم في مركز (ساكلاي) النووي على تشغيل المفاعلين الفرنسيين والمنظومات التجريبية البحثية الستة التي أُشتريت. تمَّ تعييني للإشراف على التدريب على إثنتين من أكثر المنظومات تعقيداً، (إيريناكس[24] ومارِيناكس[25])، المَعنيتين في إختبار خواص وقود المفاعل النوويّ ومقاومته تحت ظروف تشغيلية حرجة.

عُيّن مهدي غالي لاحقاً، في عقد الثمانينات، رئيساً لفريق معني بعملية "الطرد المركزي" كخيار آخر في برامج تغْنية اليورانيوم للأغراض العسكرية.

---

(24) "الحسابات النيوترونية لمنظومة إرينيكيس"، تم إنجازه في مركز ساكلاي للبحوث النووية، فرنسا. عماد خدوري وآخرون، قسم المفاعل النووي، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، العراق. التقرير PH-RP-P02-81-1، كانون الأول 1980.

"Neutronic Calculations for IRENEAKIS". (Work performed in Saclay, France), Imad Y. Khadduri, et.al. Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. Report No. PH-RP-P02-81-1, December 1980.

(25) "الحسابات النيوترونية لمنظومة مارينكيس"، تم إنجازه في مركز ساكلاي للبحوث النووية، فرنسا. عماد خدوري وآخرون، قسم المفاعل النووي، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، العراق. التقرير PH-RP-P03-80-2، كانون الثاني 1981.

"Neutronic Calculations for MARINAKIS". (Work performed in Saclay, France), Imad Y. Khadduri, et.al. Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Reactor Dept., Baghdad, Iraq. Report No. PH-RP-P03-80-2, January 1981.



مجموعة خريجي الماجستير في تقنية المفاعلات النووية في مركز ساكلاي في فرنسا عام 1980.

وفي نهاية شهر حزيران من عام 2003، قاد مهدي المفتشين الأمريكيين إلى وثائق عن برنامج الطرد المركزي كان قد أخفاها طيلة عشرة سنين في حديقة منزله تحت شجيرة ورد، وهو الآن في ضيافتهم في الولايات المتحدة الأمريكية.

إلتحق بي في (ساكلاي) خمسة من الطلبة من خريجي دراسة الماجستير في تقنية المفاعلات النووية. كما وأُنتدِب ستون من العلماء والمهندسين في أوائل 1980 لدراسة اللغة الفرنسية في دورة مكثّفة في مركز (ساكلاي)، تبعها عام من التدريب المُكثّف على تشغيل المفاعلين والمنظومات البحثية الستة. كان باسل الساعاتي مسؤولاً عن الفريق بكامله ولكن، وللأسف، لم يكن قادراً على تحمُّل المسؤولية المناطة به إذ لم يكن بإستطاعته إتخاذ أي قرار من تلقاء نفسه، ويلقي مسؤولية اتخاذ القرارات على مرؤوسيه ويكتفي بدور قناة تمر فقط من خلالها الأوراق والتقارير مشفوعة بمقولته الدائمة: "لإطلاعكم وبإنتظار تعليماتكم"، بدون إتخاذ أي موقف من مضمونها. خلق هذا الأسلوب الإداري الضعيف شرخاً خطيراً في فعّالية الفريق العلمي والهندسي.

بدأت خلافات جدية تتبلور بين فريق التدريب والفرنسيين، أخطرها التبديل المفاجئ الذي أقرَّهُ الفرنسيون لوحدهم حول نوع الوقود النووّي المَنوي إستعماله في المفاعلين. فبدلاً من إستعمال وقود نووي إسطواني ذو تغْنية عالية بحـــدود 80%، وكما هو متفق عليه في عقد الشراء، فُرِضَ علينا في عـــام 1980 أمـــر إستعمال وقود من نوع (كراميل) – سُميَ هكذا لشُبهِه بقطع الشوكولا الفرنسية – وبتغْنية 18% فقط. لقد صممَّ الفرنسيون هذا النوع مـــن الوقـــود خصيصـــاً للمشروع العراقي لكي يتأكدوا تماماً بأنه لن يكون بمقدور العـــراق إســـتخدام الوقود الأصلي ذو التغْنية العالية لإنتاج سلاح نووي. وكان علينا تجربة هـــذا النوع الجديد من الوقود في منظومتي (أيريناكس) و(ماريناكس).

إنزعج العراق كثيراً من هذا التغيير في نوعية الوقود والإخلال بشـــروط العقد الموقّع، فأنتُدب يحي المشّد لإعادة التفاوض بشأن شروط العقد. في الثالث عشر من شهر حزيران عام 1980، إغتالت المخابرات الإسرائيلية (الموســـاد) يحي المشّدَ بتهشيم رأسه بقضيب من النحاس الاحمر عند دخوله غرفتـــه فـــي الفندق في وسط باريس. ثم دُهِست وقُتلت الشاهدة الفرنسية الوحيدة على ذلـــك الحادث في أحد شوارع باريس بعد أيام قلائل من إستشهاد يحي. لفَّ الحـــزن سائر أعضاء الفريق العراقي الموجود في (ساكلاي) وقاموا جميعـــاً بمرافقـــة جثمانه إلى المطار. ذهبت بعدها مع زوجتي نيران لحضـــور قِـــدّاس لأرواح الموتى ضمن مراسيم جنائزية للمؤلف الفرنسي (غابرييل فوري) أُقيمـــت فـــي كنيسة في الحي اللاتيني في باريس، وبكيت خلالها كما لم أبكِ في حياتي قطّ.

إشتدت الخلافات فيما بين المُشرفين على فريق التدريب حـــول مُفـــردات التدريب، وبضمنها إنتقاداتي المُتصاعدة لبعض أعضاء حـــزب البعـــث الـــذين جاؤوا للتدريب معنا دون المؤهلات العلمية أو الهندسية الملائمة مما سبب فـــي تعثُّر سير البرنامج التدريبي المُكْلف. فوصل بغداد نبأ هذه الخلافات والتقـــارير المرفوعة بشأن مفرداتها عن طريق قناة باســـل الســـريعة المشـــفوعة بختمـــه المطاطي "بإنتظار أوامركم"، وبإتخاذ رئيس الفريق الفني، رياض يحي زكـــي، الذي كان قد إنتقل من جامعة برمنجهام إلى جلاسكو بعد حصوله على شـــهادة

الماجستير في العام 1970، دوراً مُتخاذِلاً خشية رد فعل إنتقامي من أعضاء فريقه البعثيين.

كنا قد بلغنا منتصف الفترة التدريبية عندما قام عبد الرزاق الهاشمي بزيارة إلى باريس وكنت في حينها في بغداد في مُهمة عمل. جمع عبد الرزاق الهاشمي سائر أعضاء الفريق وعقد لي محاكمة صورية مُستغِلاً عدم وجودي للدفاع عن نفسي. سأل الحاضرين: "من منكم يعتقد أن عماد خدّوري مُخطئ؟" رفع معظم البعثيين وبعض الآخرين أياديهم بالموافقة لتطغى الفرحة على الأعضاء البعثيين الذين كانت تحوم حولهم الشبهة. أعقب ذلك بسؤال: "من منكم يعتقد أن عماد خدّوري محقّ في توجيه إنتقادته؟". رفع الثلث الباقي من الحضور المستقلين، وأيضاً البعض من البعثيين، أياديهم.

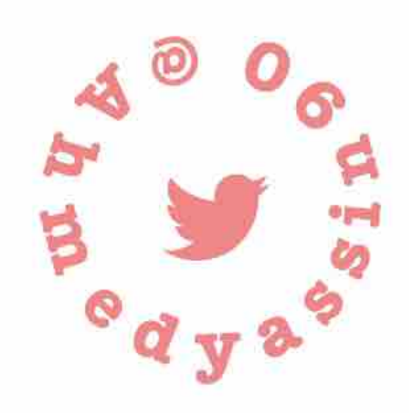
عاد عبد الرزاق الهاشمي إلى بغداد وأنا مازلت فيها، إلاّ انَّه تَجنَّب مواجهتي بنتائج المهزلة التي أشرف عليها في باريس، مما يعود إلى طبيعة تفتقر إلى الشجاعة في معالجة الأحداث. لدى عودتي إلى (ساكلاي) من بغداد قبل أعياد ميلاد عام 1980، أُبلغت عن موضوع المحاكمة الصورية. وبعد أيام قلائل وصل أمرٌ من عبد الرزاق الهاشمي يوعز بانهاء فترة تدريبي وعودتي إلى بغداد فوراً. وصل الخبر المصيري بالنسبة لنجاح مهمة التدريب على أهم المنظومات البحثية في الصباح. وبوجه لا مبالٍ يتصنّعُ الإعتذار، أبلغني باسل بالأمر قبل حضورنا اجتماع هام مع (جانتون)، المسؤول الفرنسي الرئيس عن التدريب. ومع ذلك حضرت الاجتماع ودافعت بكل قوة عن مواقف الفريق العراقي في مواجهة الوفد الفرنسي. ما أن إنفضَّ الاجتماع، مالَ عليَّ باسل محمود السامرائي، الرجل الشهم رئيس فريق المهندسين، وسألني بوجل إن علمتُ بنبأ إنتهاء عملي مع فريق التدريب. ولمَّا أومأت له بالإيجاب قال بعفويَّة ودهشة بالغة: "ومع ذلك دافعت عن موقفنا في الاجتماع مع الفرنسيين بكل هذه الشجاعة!".

تفضّل باسل الساعاتي، وعدد من أعضاء الحزب الموالين له، بمرافقتي وزوجتي وابنتنا يمامة ذات الثلاثة أشهر إلى المطار، وحرصوا على أن لا

يفارقوا ظلّنا إلى أن وصلنا باب طائرة الخطوط الجوية العراقية لكي لا نشرُد إلى طائرة أُخرى.

في أول أسبوع من شهر كانون الثاني عام 1981، عُدتُ إلى مركز البحوث النوويّة. إتجهت فور وصولي إلى مكتبة المركز وإنتقيت غرفة أرشيف فارغة، ثُمَّ شرعت في ترجمة كتاب عن "تأثير إنفجار السلاح الذري" للمؤلف الأمريكي (صموئيل جلاستون) إلى اللغة العربية وبصحبتي أبريق قهوة عربية وسيجار كوبيٌّ. لم أعطِ أي إهتمام للإجراءَت الرسمية التي كانت تحتم عليّ المُباشرة في قسم من الأقسام العلمية ولم أوقّع على أي ورقة تؤكد عودتي للعمل في المركز. كنت وببساطة أذهب إلى العمل صباح كل يوم، وأتجه مُباشرة إلى صومعتي في المكتبة لأتابع ترجمة الكتاب وأستضيف القِلةً من الأصدقاء الذين مكّنتهم الشجاعة الأدبية من القيام بزيارتي ومشاركتي القهوة العربية. كان وضعي الرسمي غير طبيعي وغير مُتعارف عليه. حاول خالد سعيد وآخرون تسوية الأمر مع عبد الرزاق الهاشمي وحثه على أن يدعوني إلى اجتماع معه لتنقية الأجواء، إلا أن رده كان: " لن أُقابل عماد لكي أتجَنّبَ ما لا تُحمَد عقباه".

بقيت على موقفي الصامت الرافض والمُعارض حتى البداية الفعلية لبرنامج السلاح النووي في أيلول من عام 1981.



@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

القنبلة النووية

اصنعوا القنبلة

لم أكن مُدركاً في أوائل عام 1981 خلفية بعض الأحداث التي كانت تجري خلف الكواليس بهدف الحصول سرياً، وبصورة متعثّرة ومُقصّرة، على القنبلة النووية. فلقد أودع أحد أفضل العلماء الكيميائيين في مركز البحوث النووية في التويثة، حسين الشهرستاني، في السجن في كانون الأول 1979 عند بدء إيفادي ووصولي إلى فرنسا. كنّا على علم بعمق إيمان حسين حيث كان يتوقف يومياً عن عمله في المختبر المجاور لقاعة المفاعل وينشر أوراق الحاسوب على الأرض ليؤدي فريضة الصلاة في مواعيدها. بلغنا الأمر إلى فرنسا في حينه، أو بالأحرى ما سُمِح لنا بسماعه، هو إدعاء أحد عناصر حزب الدعوة الإسلامي، والذي كان يُعتبر من أحد الأحزاب المُعادية للحكومة، بأنّه كان قد سمع إنتقاداً من قبل حسين على عمليات إلقاء القبض على العديد من الشيعة في السجن على أثر محاولة عملية إغتيال طارق عزيز في الجامعة المستنصرية، وبأنّه كان في حيازة حسين مناشير لحزب الدعوة مَخفيّة في إنبوب لمعجون الإسنان أثر عودته من حضور مؤتمر علمي في فرنسا. كان معلوماً لدينا في ذلك الوقت قسوة إجراءات النظام ضد كل من كان يُعاديه سياسياً، وبالتالي فإن الولوج في النشاطات السياسية المُعادية له كان بمثابة ممارسة لعبة الروليت الروسية الإنتحارية.

في 4 كانون الأول 1979، قام كل من همام عبد الخالق، النجم الصاعد لرئاسة لمنظمة الطاقة الذرية العراقية، وخالد سعيد، رئيس مركز البحوث النووية، بزيارة حسين في مكتبه وشاغلوه إلى حين وصول عدد من ضباط الأمن. كان جعفر ضياء جعفر، والذي كان في ذلك الوقت مستشاراً في منظمة الطاقة الذرية العراقية، قد رافق همام وخالد في تلك الزيارة إلا أنه لم يكن على علم بهدفها. وصل ضباط الأمن وألقوا القبض على حسين وأودعوه في السجن.

قام جعفر بزيارة منزل حسين في اليوم التالي لمواساة زوجته الكندية وأطفالهما والإستفسار عن إمكانية تقديم أي مساعدة لهم على أمل أن يُطلق سراح حسين خلال فترة قصيرة. ولكن عندما دقَ جعفر جرس الباب، فتح ضابطان من الأمن الباب له شاهرين مسدسيهما، وهي ممارسة مُعتادة من قبل أجهزة الأمن في نصب فخٍ للإيقاع بالمتعاونين مع الموقوف. أُقتيد جعفر وسائقه عمران (السائق الذي رافقني في الصحراء للتنقيب عن اليورانيوم) إلى داخل المنزل ولم تكن عائلة حسين في حينها موجودة في البيت. إتصل ضباط الأمن هاتفياً بمقرهم للتبليغ عن الحدث. أتاهم الأمر بإطلاق سراح جعفر وعمران. وكان واضحاً بأن المنزل كان قد تعرّض إلى تفتيش دقيق إذ تناثرت على أرضه الصحف والكتب المُبعثرة. قرّر جعفر المكوث في المنزل بإنتظار عودة عائلة حسين لطمأنتهم. وبعد حوالى النصف الساعة رجعت عائلة حسين إلى بيتهم وحاول جعفر تهدئتهم بإعلامهم أن إجراء التفتيش كان تحقيقاً 'روتينياً' ومكث جعفر مع العائلة إلى حين مغادرة ضباط الأمن لمنزل حسين.

عانى حسين الشهرستاني الكثير من التعذيب الجسدي والنفسي في سجنه الإنفرادي. وبعد عدة أشهر من توقيفه، قام برزان، رئيس جهاز المخابرات في حينها والأخ غير الشقيق لصدام، وبرفقة عبد الرزاق الهاشمي، رئيس منظمة الطاقة الذرية العراقية، بزيارة حسين في زنزانته حيث عرض عليه برزان الإفراج عنه ومنحه بعض الهدايا بشرط تعاونه في برنامج لإنتاج السلاح النووي. وعندما سأله حسين عن ما هو المطلوب منه بالضبط ضمن هذا البرنامج نظراً لقلة خبرته بمتطلباته، أجابه عبد الرزاق الهاشمي بإمكانية

مساهمته في عملية إستخراج عنصر اليورانيوم من إنتاج أسمدة الفوسفات في معمل عكاشات الذي كان في طور الإنتهاء من التشييد قرب مدينة القائم على الحدود السورية. وبغية إقتناص فرصة الخروج من السجن، أعلن حسين عن إستعداده للمساهمة قدر الإمكان في ذلك[26]. وهناك رواية أُخرى كما تذكر بأن برزان كان قد حذّر حسين بشدة بالقول بأن "من لا يرغب في خدمة بلاده لا يستحقّ الحياة" وكان ردّ حسين "أنا أتّفق معك بأنه من واجب المواطن خدمة بلاده، لكن ما تطلبه مني هو عملٌ لا يخدم بلدي[27]".

وبالرغم من هذا اللقاء، يبدو أن موقف حسين لم يَرقِ بالدرجة الكافية إلى جهاز المخابرات إذ بقى حسين في السجن لفترة عشرة سنوات أخرى. إلا أن فترة سجنه الإنفرادي إنتهت بعد حوالى تسعة سنوات وقبيل غزو الكويت في آب 1990 حيث سمح له بالإختلاط مع السجناء الآخرين. إستغلّ حسين تلك الفرصة لترتيب هروبه من السجن، وأثناء الفوضى التي عمّت العراق إثر بدء الحرب إستطاع حسين الهروب في 13 شباط 1991. تم ذلك بمساعدة أصدقاء له إذ جلبوا معهم إلى سجن أبو غريب، وفي سيارات شبيهة بسيارات المخابرات، أوراق رسمية مزورة تخوّلهم بإصطحاب حسين للتحقيق معه في مقر جهاز المخابرات في بغداد، إلا أنهم توجّهوا به ومع أفراد عائلته إلى السليمانية ومنها إلى إيران. أصدر حسين الشهرستاني، بمساعدة مهدي عبدالله شمخي، كتاباً في العام 2000 يحكي فيه قصة سجنه وهروبه من السجن بعنوان "الهروب إلى الحرية".

على أثر التوقيف، ناشد جعفر عبد الرزاق الهاشمي مُدافعاً عن حسين للإخلاء عن سبيله. وعلى سجيته المعهودة، سارع عبد الرزاق الهاشمي إلى

(26) "لمحة عن حياة د. حسين الشهرستاني"، إيريك كولدستاين، منظمة حقوق الإنسان.
"Profile of Dr. Hussain Shahristani", by Eric Goldstein, Huqoqalinasan.org.
www.mafqud.org/en/partners/hio/goldstein.htm

(27)" يقول علماء صدّام حسين السابقون بأن برنامجه النووي قد تم إعاقته"، صحيفة البوسطن جلوب، فرح ستوكمان، 2 أيلول 2003 صفحة A1.
"Hussein's Ex-Scientists Say Nuclear Bid Stymied", Boston Globe newspaper, Farah Stockman, Globe Staff. 02/09/2003 Page: A1

صدام مُلفقاً تُهماً يجيد ديباجتها ضدَ جعفر. على ضوء ذلك، أمر صدام بحجز جعفر في إقامة إجبارية إنفرادية في كانون الثّاني 1980. ولم أدرك إلا بعد العديد من السنوات بأن مقر حجز جعفر الإجباري كان في بيت لا يبعد سوى بضع شوارع عن بيتنا في منطقة عَرَصات الهندية. عاش جعفر في منفاه هناك لمدة عشرين شهراً يشاركه العيش والسكن ضابط إستخبارات دائم الحضور. وبالرغم من علاقتي الحميمة مع جعفر طيلة أربعة عقود، إلا أنني لم أتجرأ أن أسأله عما قاساه أو شاهده خلال تلك الفترة، وإن طرق سمعي بشاعة جزء منها. على أثر عودتي من باريس في كانون الثّاني 1981، وعلمي بما آل إليه مصير جعفر، بادرت بالقيام بزيارات عديدة لوالدته الموقّرة لمواساتها في محنتها الأليمة من خلال تزويدها بالنتف من المعلومات التي كنت أتمكن من جمعها عن مصيره. زياراتي المتعددة لها ولزيارات أبي الدائمة لها لمعاينتها طُبّياً كانت تمنحها شعوراً بالإرتياح والطمأنينة. كانت تلك الأيام عصيبة ومُحبطة للغاية، ولا زلت أتذكر مرارة طعمها. بعد عدة أشهر من الزيارات، دعاني همام عبد الخالق إلى مكتبه وهددني بالقول "لك إذا مَراح تجوز من زيارة أم جعفر، ترى راح يُشوُن على طيزك بُصل" (إذا لم تتوقّف عن زيارة أمّ جعفر، سيَشّون البصل على مؤخرتك) إشارة إلى ضبّاط الأمن أو المخابرات. فبما أن شوي البصل يحتاج إلى الكثير من الحرارة زمناً ودرجةً فالضرب المستمر بعصا على العقب كانت تلميح همام لتوليد الحرارة المطلوبة لشوي البصل. رفضت طاعة الأمر وواصلت زيارة أمّ جعفر، ونزل رصيدي درجة أخرى لدى الجهات المعنية. وعندما أُطلق سراح جعفر أخيرا، بلغني بأنّ أمّه الموقّرة كانت قد أخبرته "عماد أخٌ حقيقي لك".

قامت إسرائيل وبشكل عدائي بقصف وتدمير مفاعلي تموز 1 وتموز 2 في 7 حزيران 1981[28]. حدثت الغارة الإسرائيلية في أواخر العصر وبعد

(28) بيان الحكومة الإسرائيلية حول قصف المنشأة النووية العراقية قرب بغداد في 8 حزيران من عام 1981.

Statement by the Government of Israel on the Bombing of the Iraqi Nuclear Facility near Baghdad, June 8, 1981.

www.mfa.gov.il/mfa/go.asp?MFAH0i5s0

عودة أغلب الموظَفين إلى بيوتهم. سمعت دوي الإنفجارات وركضت إلى سطح المنزل للإستطلاع. وبالرغم من أن منزلنا يبعد حوالى 30 كيلومتراً عن التويثة، إلا أنني رأيت سحب الدخان المتصاعدة وسمعت دوي الإنفجارات المُتكررة ثم تتبعت بحزن الطائرات الحربية الإسرائيلية وهي تتجه غرباً فوق بغداد وبدون أي تحدٍّ يُذكر. ولكن عند وصولي إلى موقع التويثة صبيحة اليوم التالي، حال ضابط الأمن الذي كان على بيّنة من مواجهتي العنيدة مع عبد الرزاق الهاشمي بيني وبين الدخول إلى الموقع، فعدت أدراجي إلى البيت. وفي مساء ذلك اليوم، إجتمعت مع عدد من زملائي في العمل حيث طغى على لقائنا الغضب الشديد والغصّة تحرق الحناجر جراء هذا العدوان اللئيم، وفي إنتظار رد الفعل.

دافعت إسرائيل عن هجومها العدائي بحجة أنها تَستبِق وتُحبِط محاولة العراق لإستخدام هذه المفاعلات لإنتاج الأسلحة النووية وقدّمت فرضيتين باطلتين علمياً لتبرير هجومها.

إدعت إسرائيل في فرضيتها الأولى بإمكانية قيام العراق بإستخراج اليورانيوم المُخصّب من وقود المفاعلين للحصول بما يكفي لإنتاج السلاح النووي الإنشطاري. إلا أن الفرنسيين كانوا قد أبطلوا هذا الإحتمال من خلال قيامهم، وبدون معرفة وموافقة الجانب العراقي وكما أتيت على سرده في الفصل السابق، بتغيير درجة تخصيب الوقود وخفضها إلى الدرجة التي يفقد فيها الوقود ميّزاته العسكرية لإستعماله في السلاح النووي، ما لم تُجرِ عليه عمداً عمليات تقْنية مُعقّدة والتي لا يمكن إخفائها عن أنظار ورقابة الجانب الفرنسي وكذلك مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وذلك لخضوع وقود المفاعلين إلى الجرد والرقابة الدورية المستمرة من لدنهما. علاوة على ذلك، فإن كمّيات الوقود الجديدة التي أعطيت إلى العراق لا تكاد تكفي للبدء في برنامج تسلّح شامل حتى إذا تم التفكير في مثل هذه العملية والتي من السهولة الكشف عنها إذ تستوجب إطفاء المفاعلين وإختفاء الوقود.

كما وروّجت إسرائيل فرضية ثانية، والتي إستندت على فعل إسرائيل

نفسها في إنتاج ما يقارب المائتي قنبلة نووية من مفاعلها الفرنسي الأصل في ديمونا خلال ثلاثة عقود من الزمن، بالزعم بأنه من الممكن تحوير تجارب وقلب مفاعل تموز 1 لإنتاج نظير البلوتونيوم 239 والمُستخدم في النوع الثاني من القنابل النووية الإنشطارية. إنّ إتهام العراق بإمكانية قيامه بمثل هذا الخيار هو تضليلٌ مُتعمّد لحقائق علمية، إذ يتطلب هذا المسعى الإلتزام بجدول زمني ضيّق بتزويد المفاعل بالوقود ولفترات زمنية قصيرة للحدّ من تكوين النظير الثاني للبلوتونيوم 238، كما ويتطلب كميات أكبر من الوقود النووي الجديد لتلبية متطلبات قلة إحتراقه في قلب المفاعل. إذ إن من خواص البلوتونيوم 238 هو قابليته العالية لإمتصاص النيترونات، ومن ثم فإن تعدّي نسبة وجوده في خليط مع البلوتونيوم 239 لرقم مُعين سيؤدي بالتالي إلى "تسميم" العملية الإنشطارية، والتي تعتمد أصلاً على إنتاج عدد معيّن من النيوترونات، مُسبباً في إجهاض عملية التفاعل الإنشطاري المتسلسل. بالإضافة إلى أن عملية فصل البلوتونيوم 239 عن البلوتونيوم 238 هي من الصعوبة والخطورة البالغة. كما وأن قيام العلماء العراقيين بمثل هذا التحوير الجذري لتغذية وقود المفاعل يقرب من الإستحالة تحت أنظار العلماء الفرنسيين الذين تعاقدنا للعمل معهم لسنوات عديدة وعن أعين مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وحتى لو أخذنا إحتمال قيام الجانب العراقي من جهته بطرد الفرنسيين ومفتشي الوكالة وإدارة المفاعل بكادر عراقي بحت لسلك طريق الحصول على البلوتونيوم، فإن التصميم الفرنسي للوقود على هيئة "كاراميل"، وبالتالي تصميم قلب المفاعل نفسه، كانت ستمنع من إستخدام المفاعل لهذا الغرض إذ إن كمية الوقود الجديد المتوفرة كانت محدودة وغير كافية إطلاقاً لمثل هذا الخيار. وحتى لو تمكّن العراق من إستخراج وتصنيع وتخصيب اليورانيوم ذاتياً، فمن غير الممكن إستخدام التصميم الفرنسي لقلب المفاعل بدون تحوير وإعادة تصنيع قلبه المُشع تحت ظروف إشعاعية قاهرة وتعجيزية. وكل هذه الإحتمالات كانت ستكشف عن نفسها للأنظار فور البدء بها.

على ضوء ذلك، لا بُدّ من الإقرار بأن الحافز المنطقيّ الوحيد لإسرائيل

لقصف هذه المفاعلات كان قرارها اللئيم في إجهاض حق العراق ومنعه من الحصول على الخبرة والتقنية النووية العلمية بحدّ ذاته، وليس منعه من الحصول على السلاح النووي. إلا أن فِعلهم العدائي أدى بالضبط إلى عكس ما كان يخشونه، إذ إتخذ صدام قراراً سياسياً في الشروع في برنامج مصوّب للحصول على السلاح النووي، وبسرية تامة، فور قيام إسرائيل بعدوانها على مُنْشآتنا النووية.

لزم هذا القرار إعتاق جعفر من حجزه الإجباري وإعادته إلى الحلقة القيادية العلمية المؤهل لها. إستغرق إقناع جعفر، والمكتوي بضيم الإعتقال لعشرين شهرٍ، بعض الوقت لدراسة الخيارات العلمية ووضع ملامح الخطوات المقبلة والتفاوض على شروط إطلاق سراحه. وبينما ما زال في بيت إحتجازه في منطقة عَرَصات الهندية، أعتقد أنّه كتبَ ورفع في صيف 1981 العدد من التقارير التقنية حول هذا الموضوع إلى صدام. وبعد التوصل إلى الإتفاق بين الطرفين، أُخلي سبيل جعفر لقيادة برنامج التسليح النووي العراقي.

وصل جعفر إلى مركز البحوث النووية في التويثة صبيحة الثالث من أيلول 1981 للإيذان ببدء برنامج التسليح النووي. وكان أحد شروط عودته إلى العمل هو إزاحة عبد الرزاق الهاشمي من منظمة الطاقة الذرية العراقية. وبدخول جعفر إلى المركز، غادر عبد الرزاق الموقع فوراً ولم يعُد إليه بتاتاً.

دخل جعفر من بوابة المركز راجلاً وطلب لقاء بعض الزملاء وكنت من ضمنهم. تركت صومعتي في المكتبة بدون رجعة.

إجتمع البعض منا، وأذكر من ضمنهم المرحوم باسل القيسي ومنقذ القيسي ومنقذ البكر وزهير الجلبي ونبيل كارنيك وعماد إيليا وبضعة آخرون في مكتب متواضع وعلى أطراف مقر رئاسة المركز، وجلسنا كلّنا في إنتظار دورنا للقاء جعفر الذي آثر الاجتماع منفرداً مع كل واحداً منا إذ كان بصدد تكليف كلّ منا

بمهامه الأولى في البرنامج. أذكر ذهول اللحام النووي عماد إيليا والإلكتروني الألمع نبيل كارنيك بعد اجتماعهما مع جعفر وتشككهم وتورّعهم من المهام التي خطّها جعفر لهم وسألوني بحياء مشوب بإبتسامتهما المعهودة: "هل هو جدّي فعلاً في كلامه؟ هل بإمكاننا تصميم وتصنيع ما يطلبه منا؟". كانت تلك، في الواقع، الخطوات الأولى التي حبا فيها العراق في برنامج مصوب ومُحدد للحصول على السلاح النووي.

كانت المهام الأولى التي كلّفني بها جعفر هي العمل على وضع وترسيخ أسلوب رصين في عملية توثيق التقارير العلمية والتقنية التي ستنتج عن البرنامج وضمان سرية تداولها، إضافة إلى متابعة وتنسيق إجراءات الشراء السرية للمواد المطلوبة للبرنامج. وإلتزاماً بالأساليب الإدارية المتينة التي عمل ظافر سلبي، رئيس الدائرة الإدارية في حينها، على إرسائها في المركز، لزم علينا تسيير عمليات الشراء من خلال ناطق بطي، رئيس قسم المُشتريات المُخضرَم، وبالتنسيق مع وكيله أحمد الرهيمي، المُتمرّس والمُتمسك إلى درجة العبادة بالقوانين والتعليمات السارية والتي كثيراً ما إصطدمت بمتطلبات السريّة والخفية المطلوبة للحصول على مثل هذه المواد لأن القوانين نفسها لم تكن أصلاً قد وضعت لضمان تلك المتطلبات. بدأنا بشراء بعض الكشافات الدقيقة الحساسة من ألمانيا الغربية وبعض المواد الحساسة الأخرى من فرنسا بعد العديد من المشادات اللغوية الممزوجة بالعصبية للعثور على طريق التنفيذ المُرضي لكلي الطرفين وضمن أُحجيات القوانين الإدارية.

تركّزت إجراءات وسياقات التوثيق التي طُلب مني إعدادها بصورة رئيسة على نزاهة ونوعية العمل العلمي أو التقني المُقدّم للتوثيق حيث كان جعفر يعتمد على تقييمي العلمي الأولي لمحتوى التقرير الذي كنت أرفق معه قائمة بالأشخاص اللذين أوصي بتوزيع التقرير عليهم لموافقته النهائية على التقرير وعلى قائمة التوزيع أيضاً. كما وقمنا بإستخدام ورقاً ذو خطوط باهتة يصعب تقليدها عند طبع التقرير بصورته النهائية وإستنساخ الأعداد المحدودة منه للدلالة على محاولة نسخ أي صفحة منه بدون التخويل بذلك. كما وتم وضع

إجراءات لجرد نسخ التقارير سنوياً والتأكّد من وجودها لدى الحائزين عليها بموجب قوائم التوزيع. وتم تحديد ثلاثة مواقع منفصلة ومتباعدة جغرافياً لخزن المجاميع الكاملة من التقارير، إذ أن إثنين منهما كانا خارج مركز البحوث النووية.

أعيدت تسميات الدوائر المختلفة في مركز البحوث النووية للتمويه عن نشاط دائرة جعفر إذ أُطلقت تسمية دائرة 3000 للبحث والتطوير والمعنية ببرنامج السلاح النووي برئاسة جعفر ضياء جعفر، في حين كانت دائرة 1000 تخصّ مكتب نائب رئيس منظمة الطاقة الذرية العراقية برئاسة همام عبد الخالق عبد الغفور (إذ كان صدام حسين رئيساً لمنظمة الطاقة الذرية في حينها)، وكانت دائرة 2000 للعلاقات الدولية برئاسة الفيزيائي المرحوم رحيم الكتل والذي عُيّن لاحقاً سفيراً للعراق في النمسا وعلى مقربة من الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا، وكانت إدارة المركز تحت رئاسة ظافر سلبي في دائرة 4000، وكانت دائرة 5000 تُعنى بالمشاريع الهندسية للمركز ودائرة 6000 تضم الأقسام العلمية في مركز البحوث النووية برئاسة خالد إبراهيم سعيد. إستمرت كافة الدوائر وأقسامها بأعمالها الإعتيادية في المجالات السلمية للطاقة الذرية تحت رقابة وأنظار الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومفتشيها، ماعدا دائرة 3000 والتي كانت بمنأى عنهم.

وفي غمرة إستقراري البطيء في مسؤولياتي الجديدة في البرنامج الناشئ، طلب مني جعفر مهمّة مستعجلة وهي الحصول على العشرات من المقالات والتقارير العلمية المهمة والتي كان بحاجة ماسة لها وكذلك شراء أجهزة ليزر للتحقق من جدوى أسلوب جديد في تغْنية اليورانيوم بإستعمالها. أوفدتُ، وبمعيتي ضابط شاب من الإستخبارات، لحضور مؤتمر علمي كان قد عُقد في مدينة سان دييغو في ولاية كاليفورنيا في العام 1982 حول موضوع إستخدامات كاشفات مسار الحالة الصلبة، وهي الكواشف التي إعتمدت عليها في أبحاثي العديدة ومن ضمنها الكشف عن مكامن اليورانيوم تحت الأرض خلال فترة السبعينات. باشرت فور وصولي إلى المؤتمر بالبحث عن طريقة أمينة للحصول على التقارير العلمية الحساسة المطلوبة ومن حسن الحظ لمحتُ بطاقة

تعريفية على منضدة التسجيل للمؤتمر تُعلن فيها أمينة مكتبة متقاعدة عن خدماتها في التفتيش والحصول على التقارير العلمية التي تهم الباحثين المشاركين في المؤتمر لقاء أجرٍ مادي مُستعينة بالإنترنت، والتي كانت في حينها ما زالت تحبو في انتشارها. إستأجرت سيارة وذهبت إلى دارها لتسليمها قائمة التقارير المطلوبة، وبعد عدّة أيام زرتها هناك مرة ثانية وإستلمت منها معظم التقارير المعنية لقاء أجرٍ قدره 200$ وصافحتها مودّعاً، ولا أذكر إن كانت قد سألتني عن بلدي أو عن سبب إهتمامي في المواضيع التي وفّرتها لي.

في نهاية فترة المؤتمر، تمكّنت من إقناع مرافقي اليقظ بالذهاب قبلي إلى نيويورك لإنتظاري هناك، حيث كان له أصدقاء كان يرغب في قضاء بعض الوقت معهم، لأقوم أثنائها بشراء أجهزة الليزر من فلوريدا، إذ كنت قد رتبت صفقة شرائها هاتفياً من سان دييغو في كاليفورنيا. لم يستغرق توقّفي في مطار ميامي في ولاية فلوريدا أكثر من ساعة واحدة حيث قابلني في المطار ممثل شركة تقنية، وكان هندياً، وسلّمني الحقيبة اليدوية التي تحتوي على أجهزة الليزر الدقيقة وقمت بدوري بتسليمه حقيبة يدوية تحتوي على مبلغ 30,000$ نقداً. سافرت بعدها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع صديقة أمريكية لي تُدعى (شارون كراهام) والتي تعرفت عليها في جامعة مشيغان، وكانت، وما تزال، تعيش لوحدها في مزرعة نائية في ولاية نورث كارولينا، ومن ثم التحقت مع رفيق سفري في نيويورك.

فور عودتي إلى العراق في تشرين الثاني 1981، أيقظتني خالة زوجتي نيران في ساعات الصباح الأولى لتُبشّرني بمولد إبننا تمّام. سمّيناه بهذا الإسم تيمناً بإسم الشاعر العربي المسيحي المشهور، أبو تمّام، والذي إستقر في سامراء عند الخليفة المعتصم. دأبت على إصطحاب تمّام معي، منذ صغره ولحين مغادرتنا العراق، عند قيامي بزيارة أصدقائي من عشائر الخزاعل في الكوفة أو عشائر الجبور قرب الشرقاط في شمال بغداد، ليشاهد بأم عينيه كرمهم المعهود وحسن ضيافتهم ويتذوّق الوفير من سفرة طعامهم اللذيذ ويستمتع إلى أحاديثهم المتشعبة ذات الأصالة.

وعلى ضوء التقدّم الملحوظ الذي أحرزناه في نشاطات الشراء وإجراءات التوثيق، وجّهني جعفر تدريجياً للمساهمة أيضاً مع مجموعة التخطيط المركزية للبرنامج والتي كانت تعمل مباشرة تحت إشرافه، إلا أن إرتكابي لخطأ طفيف أدى بالتالي إلى فصم علاقتي مع الدائرة 3000 كلياً. كانت إحدى مهام لجنة التخطيط تحديد المؤتمرات العلمية والتقنية التي لها علاقة ببرنامجنا وتدور محاورها حول الحقول التي نسعى للتطوير فيها، ومن ثم تحديد وترشيح العلماء والمهندسين المؤهلين لحضورها.

كان حسن شريف، صديقي اللبناني المُقرّب من أيام الدراسة في الولايات المتّحدة وقناتي الرئيسية إلى منظمة التحرير الفلسطينيّة والتي أدّت إلى إلتحاقي بمعسكراتهم في الأردن، يعمل مع مفوضيّة الأمم المتّحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا، والتي كان مركزها حينئذ في بغداد. إتصل بي حسن هاتفياً ليعلمني عن عقد مؤتمر مهم في الكويت حول الإلكترونيات وبرعاية المفوضيّة التي يعمل فيها. قمت بترشيح المهندس الكهربائي الأقدم وصديق طفولتي، باسل القيسي. كانت أجهزة المخابرات تتنصت على كل مكالمات حسن الهاتفية، وعليه فلقد ثارت حفيظتهم الشديدة لعدم قيامي مُسبقاً بطلب إذنهم بالتكلّم مع هذا "الأجنبي" أو إخبارهم لاحقاً عن تلك المكالمة، ولم يسعفني جهلي بمثل تلك التعليمات أو الحاجة لإخبارهم عنها، وبالأخص مخاطبة صديق مُقرّب ومُؤتمن مثل حسن. إعتبروا عملي خرقاً أمنياً لا يُغتفر وأمروا بطردي من الدائرة 3000 فوراً، والأنكى من ذلك طردي من منظمة الطاقة الذرية كُلياً.

في صبيحة أيام العام 1983، دخل إلى مكتبي ضابط مخابرات وأمرني بحدّة بإلقاء القلم من يدي ومغادرة المكتب فوراً والإلتحاق في قسم المفاعل في الدائرة 6000. لم أدرك ما دار خلف الكواليس بشأن هذا القرار إلا بعد مُضي حوالى عشر سنوات من الحدث.

فلقد إعترض كلٌ من جعفر ضياء جعفر وظافر سلبي، زميلي من الثانوية ورئيس الدائرة الإدارية 4000، وبشدّة ضد قرار جهاز المخابرات بنفيٍ خارج منظمة الطاقة الذرية العراقية والإلتحاق بجامعة بغداد. وتلا ذلك مجادلات حادّة

ومحفوفة بثقل المسؤولية على جعفر وظافر، وإنتهى الجدال بالتوصّل إلى حلٍ مقبول لكافة الأطراف ببقائي في مركز البحوث النووية ولكن بشرط انضمّامي ثانية إلى قسم المفاعل والذي عملت به طوال السبعينات. كانت دهشة عدنان جرجيس، رئيس قسم المفاعل المُقتدر والمتفاني في عمله، كبيرة لنزولي المفاجئ على قسمه وفي حيرة من أمره عن موقعي في القسم وتركني، بكرم عاداته، لتقرير العمل الذي أرتأيه عنده. تمهلّت في إتخاذ قراري وأنا أهضم ما حلّ بأمري، وبدأت التجوّل في أرجاء المركز الواسعة ولساعات طويلة يومياً، ولمدة أسابيع عديدة معبراً وللمرة الثانية خلال ثلاث سنوات، عن إمتعاضي للإجراءات المُتخذَة ضدي وتمرّدي عن العمل. وبين الحين والآخر، تجرأ بعض الإصدقاء بمشاركتي في تجوالي في الهواء الطلق مما حدا بهمام عبد الخالق، نائب رئيس الطاقة الذرية، بإستدعائي إلى مكتبه لتوجيه التوبيخ الليّن لموقفي الرافض وعِنادي مُتذكراً فشل تهديده في شيّ البصل على مؤخرتي قبل ذلك بسنتين لقيامي بزيارة والدة جعفر. كان سبب قلقه هو إنعكاس موقفي السلبي الرافض هذا على معنويّات بقية العاملين في المركز. وبلباقة ودبلوماسية معهودة منه شجعني على إختيار عمل مناسب أمضي به وقتي، ولا أشُكَ بأن غايته الرئيسة كانت إبعاد ويل ضباط المخابرات عني والذين ضاقوا ذرعاً من رعونتي. وعلى ضوء ذلك اللقاء، إخترت العمل على تقييم دراسات السلامة النووية المطلوبة لرفع قدرة المفاعل الروسي من 2 إلى 5 ميغاواط والذي كان مركز البحوث النووية بصدد القيام به. إلا أن فرصة عمل أفضل راقت لي بعد مضي بضعة أشهر فقط عندما عرض عليّ خالد إبراهيم سعيد العمل معه على مشروع المحطة الكهرونووية والتي كان العراق قد تفاوض وإتفق مع الإتحاد السوفياتي لإجراء الدراسات المطلوبة لبنائها في العراق. وفي نهاية العام 1983، إنتقلت للعمل في مكاتب مشروع المحطة الكهرونووية والتي اتخذت من منطقة الجادرية جنوب بغداد والبعيد عن مركز البحوث النووية ورقابة جهاز المخابرات المُحكمة عليها موقعاً لها.

إلتقيت مع خالد إبراهيم سعيد لأول مرة أثناء إنعقاد المؤتمر السنوي للطلبة

العرب في مدينة فورت كولينز في ولاية كولورادو في صيف العام 1964. كان قد قدم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بمعية حوالى إثني عشر طالباً حزبياً بعثياً، بعد أن طُردوا من جامعة لومومبا في موسكو لأسباب لا زلت أجهلها، وأُوفدوا ضمن بعثات الحكومة العراقية مباشرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراستهم. كما وتقابلنا مرات عديدة في الشقة التي كنت أسكن فيها في مدينة برمنغهام في المملكة المتحدة حيث كنت أعقد دعوات غداء وسمر لأصدقائي من الطلبة العراقيين في المدن القريبة من برمنغهام بعد أن أكون قد أعددت لهم طبخات عراقية مثل (الباجة) والثريد والبقلاوة والبيرة التي كنت أُخمّرها في مطبخي. كان خالد يعمل على الإنتهاء من شهادة الدكتوراة في الفيزياء الصلدة من جامعة قريبة لبرمنغهام، وشاءت الصدف أن ننتهي سوية مناقشة أطروحاتينا في نهاية العام 1973 ونعود إلى بغداد لنباشر العمل في مركز البحوث النووية في نفس اليوم، والموافق 19 كانون الثاني 1974. عُيّن خالد فور إلتحاقه بالمركز رئيساً له إذ كان خالد، وكما ذكرت آنفاً، عضواً في حزب البعث على العكس مني. قضى خالد إبراهيم سعيد نحبه، رحمه الله، يوم 3 آيار من عام 2003 عندما أمطر جنود أمريكيون فزعون النار عشوائياً من دبابتهم على سيارة داخلة إلى شارع بيته وقتلوا من فيها ومن ضمنهم المرحوم خالد وسائقه.

بدأت بالعمل مع خالد على مشروع المحطة الكهرونووية في وقت مبكّر من العام 1984. كانت الوكالة الدولية للطاقة الذرية قد أعدّت الخطوات والتعليمات المُفصّلة الواجب إتباعها من قبل الدول الأعضاء عند عزمهم إنشاء محطة كهرونووية، والتي تشمل مراحل إختيار موقع المحطة، وعمليات التشييد، وخطوات بدء تشغيل المحطة ومن ثم صيانتها، كل ذلك من أجل ضمان السلامة وتقليل مخاطر التلوّث الإشعاعي جراء تشغيل المحطة على الناس والبيئة المحيطة بها إلى الحد الأدنى، حتى عند تعرضها لحوادث طبيعية كالفيضان أو حوادث طارئة كسقوط طائرة عليها. من المتطلّبات الأساسية لتنفيذ المراحل المذكورة هو وضع وتطبيق منهاج واضح ومفصّل لتأكيد الجودة، والذي يتضمّن شرح وتوثيق الإجراءات الدقيقة حول كيفية تطبيق كلّ خطوة من خطوات هذه

المراحل والإلتزام بها. كانت مهمتي الأولى في هذا المشروع كرئيس لقسم تأكيد الجودة، هو وضع برنامج تأكيد الجودة لمرحلة إختيار موقع المحطة، والـذي كان من المتوقع أن يستغرق لوحده ما بين الخمس والسبع سنوات[29]. إستوجبت هذه المسؤولية السفر مرات عديدة إلى فيينا، حيث مقر الوكالة الدولية للطاقة الذرية للتدريب على مفاهيم تأكيد الجودة.

وبما أن (الأعين الساهرة) كانت برفقتنا دوماً أثناء السفر، وبغية لقاء الصديق والأخ العزيز رجاء الخليلي وزوجته سناء، واللذين أصابهم جور صدام الظالم حين أبعد مئات الآف من العراقيين بسبب (التبعية) في أواخر السبعينات، وإنتهى بهما المقام في فيينا، فلقد تتطلب لقائهم إبتكار أعذار غريبة عن طباع (مرافقينا) كالرغبة بحضور سيمفونية أو أوبرا والتي ما برح أن عدلوا عن مرافقتي إليها وتركوني احضرها بمفردي بعد أن ذاقوا طعمها المر بالنسبة لهم، ومنها أدلف إلى بيت رجاء حيث اللقاءات الحلوة والذكريات الحارة.

كانت الدورات التدريبية في مركز الوكالة الدولية للطاقة الذرية حول مفردات ومنهجية تأكيد الجودة ذات قيمة وفائدة كبيرة والتي إنعكست بدورها فيما بعد عندما إنضممت ثانية إلى مجموعة جعفر في عام 1987 وإستعنت بمفاهيمها لتطوير العمل في برنامج السلاح النووي.

تحتاج عملية تفضيل موقع على آخر لتشييد المحطة الكهرونووية إلى جمع وتقييم العديد من البيانات حول كل موقع مُرشّح (والتي كانت بحدود السبعة مواقع) من ضمنها بيانات عن الرصد الزلزالي والفياضانات التي ألمّت في المنطقة عبر التاريخ المُسجّل، والبيانات الهيدرولوجية والبيئية والكهربائية والمناخية الآنية لتلك المنطقة. كان من ضمن مسؤولياتي في قسم تأكيد الجودة

(29) "برنامج تأكيد الجودة لإختيار موقع المحطة الكهرونووية العراقية"، عماد خدّوري ومحمد عباس، مشروع المحطة الكهرونووية، منظمة الطاقة الذرية العراقية، بغداد، العراق. التقرير SA-IR-04-001، كانون الثّاني 1987.

"The Site Selection Quality Assurance Program for the Iraqi Nuclear Power Plant". Imad Khadduri, Mohammad J. Abbas, Iraqi Atomic Energy Commission, Nuclear Power Reactor Project, Baghdad, Iraq. Report No. SA-IR-04-001, January 1987.

الاتصال والتنسيق مع كافة الدوائر والمؤسسات الحكومية المعنية بتوفير البيانات المطلوبة والتفاوض مع مدراء تلك الدوائر حول توقيع عقود تنفيذ هذه الدراسات من جهة، ومع العاملين المسؤولين عن جمع البيانات حول سُبل العمل بما يضمن متطلبات تأكيد الجودة، من جهة أخرى. كانت مفاهيم تأكيد الجودة ومتطلبات الدقة والتوثيق والتدقيق والمراجعة غريبة ومثالية لمعظم العاملين في الدوائر الحكومية المعنية والذين إعتادوا على سلوك الطريق الأقل تطلباً لساعات عملهم ونوعية أدائهم. وإمتد مد جمع البيانات، لكل موقع من المواقع السبعة، من جمع الخرائط العسكرية (السرية) التفصيلية للموقع إلى صيد الحيوانات النادرة التي ترتاده لتقييم تأثير المحطة عليها، بالإضافة إلى بيانات الحقول العلمية الأخرى له.

في تلك الأثناء، رُزقنا بإبنتنا الصغرى، نوفة، في حزيران 1987. يرنّ إسمها بالبداوة الصافية ويعني إمرأة طويلة شامخة تقف فوق مرتفع من الأرض. أبدت نوفة، ومنذ صغرها، توازناً ملحوظاً في ردّ فعلها تجاه الأحداث الطارئة وعكست في ذلك خصال والدتها. إلا أن طريقة تعاملها مع الحدث تميزت بقدرتها على معالجة أصل المشكلة بتواضع وبدرجة عالية من ثقة النفس وبدون إستفزازٍ للطرف المُقابل. أعلمتُ ممرضة التوليد في المستشفى بأن تطلق إسم أُميمة على المولودة والذي يتماشى مع أسماء أشقائها يمامة وتمّام. وعندما بلغ نيران خبر تسمية الطفلة، إستدعت الممرضة وطلبت منها شطب إسم أُميمة من إستمارة التسجيل ووضع إسم نوفة عوضاً عنه. وقد وضّحت لي فيما بعد بأنّها كانت تتطلّع إلى ولادة إبنٍ لتطلق إسم نوفل عليه، لذلك اختارت اسم نوفة وهو اسم البنت الأقرب إلى نوفل.

وفجأة بدأت الأحداث تتوالى بسرعة على طبيعة عملي. ففي ربيع عام 1987، حضرت اجتماعاً رفيع المستوى برئاسة همام عبد الخالق، رئيس منظمة الطاقة الذرية العراقية، والذي لخّص فيه أولويات المنظمة. لم أكن مُدركاً بجسامة الأحداث التي كانت تجري خلف كواليس الإدارات العليا لدوائر المنظمة. إلا أن الإنطباع المؤكد الذي خرجت به من ذلك الاجتماع هو إستقرائي للدور الثانوي الذي آل إليه مشروع المحطة الكهرونووية وتحجيم الدعم له كمجرّد واجهة للوكالة الدولية للطاقة الذرية لتركيز إهتمامها عليه، بينما

قُدّر لبرنامج السلاح النووي أن يحظى بدعم وزخم طارئَين أشبه بقفزة نوعية في الأهمية.

إن أسباب هذا التطوّر المُفاجئ في ذلك الوقت كان في الحقيقة نقطة تحوّل حاسمة في برنامج السلاح النووي العراقي.

مشروع البتروكيمياويات 3: PC3

على حدّ علمي، بدأت سلسلة من التغييرات الجذرية في هيكلية وعمل الدائرة 3000 بعدما أقدم خضر حمزة، والذي أطلق على نفسه جزافاً لقب "صانع قنبلة صدام"، بكتابة تقرير إما بسبب فشله في مهمته ضمن منهاج عمل الدائرة في إحراز تقدّم في مجال تغْنية اليورانيوم بطريقة الإنتشار الغازية، والتي كُلّفه بها جعفر، ولكي يتنصل من مسؤولية فشله في ذلك، أو بسبب طموحه في تقلّد موقع جعفر كرئيس للبرنامج النووي العسكري. وقد أُرجّح الإحتمال الأول إذ كان حمزة يفتقر إلى المؤهلات القيادية ومنطوياً على نفسه ولا يفتأ عن الإنكباب على حل معضلة الأجسام الثلاثة نظرياً، والتي لا علاقة لها بفيزياء القنبلة النووية، ولأكثر من عقد من الزمن. كما وكان يفتقر إلى الهيبة أو الشجاعة لقيادة فريق عمل، وشجّع نفوره من أي عمل تجريبي بحت إستنباط العديد من التوريات المضحكة حول سلوكه العلمي.

وبغض النظر عن هدفه في أي من الحالتين أعلاه، فلقد رفع حمزة في بداية عام 1987 تقريراً مطوّلاً مباشرة إلى صدام حسين يتّهم فيه جعفر بالمماطلة في تنفيذ مهامه بعد مضي خمس سنوات على برنامج السلاح النووي وبهدره للمصادر المالية السخية التي خُصّصت لذلك البرنامج. أثار ذلك التقرير غضب صدام وطالب بتوضيح واقع الحال من قياديّ البرنامج لهذه التهم.

في تلك المرحلة الحرجة من البرنامج، طُلب من ظافر سلبي، والذي كان حتى ذلك الحين رئيساً لدائرة 4000 الإدارية في مركز البحوث النووية، الإنضمام إلى فريق الإدارة العليا للبرنامج، والذي كان يضم همام عبد الخالق، وجعفر ضياء جعفر، وخالد سعيد، ونعمان النعيمي، وعبد القادر عبد الرحمن.

جلب ظافر معه أفكاراً جديدة حول سبل وكيفية التقدّم للأمام وبوتيرة أسرع. إقترح ظافر في بادىء الأمر على فريق الإدارة العليا بالاجتماع منفردين وطيلة أسبوع من الزمن في دور الإستراحة في بحيرة الحبانية لكي يخلو لهم الجو لمراجعة الأمور وإعادة النظر في سبل تفعيل العمل. وبعد إلمامه لواقع سير العمليات التصميمية والعلمية في الدائرة 3000، بادر إلى طرح نموذج جذري حول تفعيل علاقات أقسام الدائرة العلمية والهندسية مع بعضها البعض لبلورة أفكارهم وتعضيد جهودهم. ركّزت أطروحته على أن إمتلاك المصادر المادية والموارد البشرية بحدّ ذاتها غير كفيل للحصول على أعلى مردود من تلك الموارد، إذ إن شبكة التفاعل بينها هي المحور الرئيس للإستخدام الأفضل لتلك المصادر والموارد. وعليه إقترح ظافر بإعتماد فكرة "الزُمر" والتي هي فِرَقٌ تضم في عضوية كل منها علماء أو مهندسين يُرشّحون من قبل رؤوساء أقسامهم وتكليفهم، بشكل جماعي، بمعالجة الأفكار العلمية والتصاميم الهندسية ومتابعة خطوات إنجازها، وبذا يُجسّد التصميم الناتج الفكري التفاعلي الجماعي لكلّ الإمكانيات والنشاطات العلمية والهندسية المعنية. لقد كان هذا الأسلوب من العمل مختلف بشكل جذري عن النمط السابق في العمل حيث كان التصميم يصدر من القسم المعني ويمرّ على باقي الأقسام العلمية والهندسية ليجمع تذبيل أفكار كل قسم منهم بشكلٍ منفردٍ غير تفاعلي.

نتج عن مداولات الإدارة العليا لبرنامج السلاح النووي في خلوة الحبانية إعادة لهيكلة أقسام الدائرة وتشكيل المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: وتُعنى بطريقة تغْنية اليورانيوم بواسطة الطرد المركزي ويرأسها مهدي شكر غالي العبيدي. وبعد مضي عدة أشهر، كُلّف حسين كامل، صهر صدام المؤتمن، بالإشراف على مجمل فعاليات برنامج السلاح النووي، وأخذ فور تسلمّه تلك المسؤولية هذه المجموعة تحت جناحه ووضعها بالكامل تحت سيطرته وإدارته.

المجموعة الثانية: وتُعنى بعمليات التغْنية بطريقتي Penning's Ionisation Guage-PIG و Tungsten Inert Gas-TIG برئاسة جعفر والذي كان مُهتماً بهاتين

الطريقتين منذ العام 1982. بعد تكوين هذه المجموعة بعدة أشهر، إستُبدلت هاتين الطريقتين بطريقة فصل النظائر بطريقة EMIS في الفصل الكهرومغناطيسي الأمريكية القديمة بإقتراح من ظافر سلبي.

المجموعة الثالثة: للدعم الإداري، وللتخفيف عن كاهل جعفر في هذا المجال الرتيب، برئاسة ظافر سلبي. ومن مسؤوليات هذه المجموعة الشراء المُبطّن للمعدات والأجهزة عبر القنوات الوهمية وتوفير المعلومات الهندسية والعلمية وتوثيق التقارير العلمية وتنفيذ النشاطات التصنيعية الميكانيكية والكهربائية وفي مرحلة تالية الإشراف على النشاطات التصميمية لها. إلتحقتُ بهذه المجموعة في أيلول من 1987.

المجموعة الرابعة: تم التخلي عن عملية التغْنية بواسطة الإنتشار الغازي، والتي كانت بالتأكيد من دواعي بهجة خضر حمزة، وكُلّف عوضاً عن ذلك بجمع فريق لتصميم القنبلة النووية في هذه المجموعة. إلا أنه طُرد من ذلك المنصب بعد مُضي عدة أشهر على ذلك وأُنيطت تلك المسؤولية بخالد إبراهيم سعيد.

وفي صيف عام 1987، أُعلِن رسمياً عن تشكيل مشروع البتروكيمياويات 3 (PC3)، والذي ضمّ المجاميع المذكورة أعلاه، بدلاً من الدائرة 3000 وبدأت وتيرة العمل في برنامج السلاح النووي تتصاعد بإضطراد ملحوظ.

خُصصت بناية قاتمة ضخمة، والتي كانت مقراً سابقاً للاتحاد العمالي العراقي ومجاورة لمقر حسين كامل في هيئة التصنيع العسكرية، لمجموعة خضر حمزة لتصميم القنبلة النووية. لم يكن خضر قد حضر اجتماع الإدارة العليا في الحبانية وإن كان هو نفسه تحت هيمنة حسين كامل في ذلك الوقت. إلا انه، وخلال أشهر معدودة من جهود ترميم البناية لتأهيلها للعمل، وفّر لنفسه ثلاثة من وحدات التكييف المُخصصة لتلك البناية ووضعها في منزله. لم يخفَ ذلك الأمر عن أعين ضباط الأمن الذين رفعوا الأمر إلى حسين كامل. جُرّد خضر عباس فوراً من مسؤوليته في فريق السلاح النووي في ربيع عام 1987

ومن كافة الإمتيازات التي كان يتمتع بها وأُعيد كباحث علمي عادي في قسم الفيزياء في مركز البحوث النووية ليعود مرة ثانية إلى حسابات تفاعل الأجسام الثلاثة والتي كانت تنتظره بلهفة.

وأثناء الأعوام 1987–1989، شاهدت العديد من المرات خضر حمزة في مركز التويثة وهو ينزل من حافلة نقل الموظفين ليمشي إلى مكتبه مطأطأ الرأس بدلاً من وصوله المألوف سابقاً في سيارته الحكومية الفاخرة نافخاً أوداجه. إلا أنه سرعان ما غمر نفسه في إعداد تقرير عن مبادرة الدفاع الإستراتيجية الأمريكية الفضائية مُقتبساً معلوماته من الكتب العلمية الغزيرة المتوفرة في مكتبة المنظمة ورفع تقريراً عن هذا الموضوع إلى من يهمه الأمر. وبُغية إستعادة الجزء اليسير من الإمتيازات المالية التي حُجبت عنه بفعل الحطّ من موقعه السابق، ألحّ بشدة وحصل على الموافقة لإيفاده إلى بولندا لمحاولة شراء جهاز لتركيز البلازما بحجة إن بعض مكونات الجهاز الإلكترونية قد تكون مفيدة في التفجير الإنضغاطي المطلوب لبدء عملية إنفجار القنبلة النووية. إلا أنه كان قد عزم على التقاعد من الوظيفة قبل إيفاده إلى بولندا.

لم يتجاوز عدد العاملين مع خضر حمزة خلال عامي 1988 و1989 سوى آنسة واحدة كانت قد تخرّجت عام 1987 من قسم الفيزياء في جامعة بغداد. صدر أمر نقل المومأ إليها إلى قسم علمي آخر أثناء إيفاد خضر إلى بولندا وذلك تحسباً لأمر تقاعده وتركه العمل فور عودته من هناك. كان البرنامج النووي العسكري خلال تلك السنوات في وتيرة مُطّردة من النشاط ومع ذلك أشار حمزة، في مقابلة صحفية له مع جريدة الواشنطن بوست[30]، إلى الجزء من تقرير وزير الخارجية الأمريكي كولن باول إلى مجلس الأمن في 5 شباط من عام 2003 والذي إدّعى فيه بأنّ الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد علمت

(30) "الدليل الجُرمي"، ريتشارد ليبي، صحيفة الواشنطن بوست، شباط 6، 2003؛ صفحة C01.
"The smoking gun", by Richard Leiby, Washington Post , February 6, 2003; Page C01.

في العام 1995 "نتيجة لشهادة هارب آخر" عن بدء "تسريع البرنـامج النـووي العسكري" إبان غزو الكويت في آب 1990، لإكمال السـلاح النـووي. "كـان يقصدني أنا" تفاخر حمزة في مقابلته الصحفية في حين أنه كان في نهاية العـام 1989 مُتقاعداً وبعيداً كلياً عن نشاطات منظمة الطاقة الذرية العراقيـة إذ كـان محاضراً في كليّة المنصور الأهلية في بغداد.

بعد طرد خضر حمزة من البرنامج النووي العسكري في ربيع عام 1987، أنيطت مسؤولية رئيس فريق تصميم السلاح النووي إلى خالد سعيد مما تتطلب منه التخلي عن رئاسته لمشروع المحطة الكهرونووية وتم تعيين عطا الـراوي عوضاً عنه لرئاسة المشروع. ما لبث أن نشر عطا هدوءه وحسن إدارته علـى نشاطات المشروع بدون أن تسقط السيجارة من فمه.

في تلك الفترة من ربيع العام 1987 كنت قد حضـرت ذلـك الاجتمـاع الطارئ برئاسة همام لإطلاعنا على أهداف منظمة الطاقـة الذريـة للمرحلـة القادمة والتي قرأت بين سطورها تهميش مشروع المحطة الكهرونووية وتحجيم الدعم لها.

بُغية إحكام قبضته على برنامج السلاح النووي، عيّن صدام زوج إبنتـه، حسين كامل، والذي كان في حينها رئيس هيئة التصـنيع العسـكري مسـؤولاً مُشرفاً على كافة فعاليات البرنامج. وافق حسين على إناطة مسؤولية المجموعة الرابعة، مجموعة تصميم القنبلة والتي كانت تحت إشرافه أثناء فتـرة خضـر حمزة، إلى خالد سعيد، وإعادة ضم المجموعة الرابعة مع المجموعـة الثانيـة (برئاسة جعفر) والمجموعة الثالثة (برئاسة ظافر). إلا أنـه إرتـأى اخضـاع المجموعة الأولى، مجموعة تغنية اليورانيوم بطريقة الطرد المركزي (برئاسـة مهدي شكر غالي والذي برز إسمه بعد إحتلال العراق في أيار من عـام 2003 بعد أن أعلن عن إخفائه لتقارير وبعض المكونات لمشروع التغنية المسؤول عنه في حديقة منزله ولفترة عقد من الزمن) لقيادته المباشرة وفصل كل أنشطة تلك المجموعة عن المجاميع الثلاثة الأخرى. أُخفيت نشاطات المجموعات الأربعـة كُلياً عن أعين مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

وفي كانون الثّاني 1989، إنضم مشروع البتروكيمياويات 3 (PC3) بكافة مجاميعه ضمن وزارة الصناعة والتصنيع العسكري برئاسة حسين كامل لزيادة التمويه على نشاطاته نظراً لوجود مشاريع فعليّة بإسم مشروع البتروكيمياويات 1 ومشروع البتروكيمياويات 2 واللذين كانا ضمن المشاريع النفطية العملاقة التي إضطلعت بهما وزارة الصناعة والتصنيع العسكري في الثمانينات.

وبخلاف إدعاءات خضر حمزة الباطلة، فإن القياديين الأساسيين لبرنامج السلاح النووي العراقي، في تقديري، هم جعفر ضياء جعفر، وهمام عبد الخالق، وظافر سلبي، والمرحوم خالد سعيد، والكيميائي نعمان النعيمي.

كان ظافر سلبي وما زال الصديق الحميم ورفيق الدرب منذ أيام دراستنا الثانوية في كلية بغداد. وشاء القدر أن يجتمع أصدقاء الصف الواحد، مع باسل القيسي ونزار القريشي، مرة ثانية للعمل في مركز البحوث النووية.

إنضمّ ظافر بعد تخرّجه من كلية الهندسة في جامعة بغداد في العام 1965 إلى شركة نفط العراق والتي كانت في حينها بأمرة شركة إنكليزية وتُسيطر على حقول النفط الغنية قرب مدينة كركوك. أدى إستيعاب ظافر لسياقات العمل المنضبطة والدقيقة المُتّبعة من قبل المهندسين البريطانيين مع قدرته المُتميّزة في الإدارة والمبادرة والبصيرة إلى تبلور شخصيته القيادية في العمل. نُقِلت خدماته إلى منظمة الطاقة الذرية العراقية في أواخر السبعينات وكلّف برئاسة الدائرة الإدارية في مركز البحوث النووية حيث كان عدد العاملين فيه آنذاك حوالى 1500 عالم ومهندس، وتقني، وإداري. وخلال بضع سنوات، وضع ظافر أُسساً أمتن للبنية التحتية الإدارية والأكثر فاعلية في الدولة العراقية، حسب تقديري، سواء في نقل الموظفين، أو في تنظيم سجلات المخازن وتدقيقها، أو الإجراءات الإدارية وسياقاتها، أو دفع الرواتب والمستحقات المالية، أو عمليات الشراء وإستيراد المعدات والأجهزة من خارج القطر. إقترنت نظرته المنهجية في العمل، ومتابعته للأمور، وكفء إدارته للاجتماعات، وشخصيته الإنسانية الدافئة، وتواضعه باحترام العاملين معه.

هناك أمثلة عديدة على تواضع ظافر في العمل وتفضيله عدم التصدّر والبروز في المواقع التي قد تُسلّط الأضواء عليه، ومن أبلغ تلك الأمثلة الحالة التالية. كان ظافر في نهاية الثمانينات المسؤول المباشر على كافة مراحل إنشاء وتشغيل موقع الطارمية شمال بغداد حيث تم نصب المنظومة الرئيسة لتغنية اليورانيوم المُعقّدة لإنتاج قلب السلاح النووي. وبينما كنت منهمكاً في العام 1989 في تجميع وإعداد سياقات العمل والخرائط النهائية من الزمر العديدة المُكلفة ببناء تلك المنظومات وتدقيقها وختمها لتسليمها بإحتفال رسمي إلى المهندسين والفيزيائيين الذين سيباشرون في تشغيل تلك المنظومات بشكل إنتاجي بحت مُعلنين بذلك البدء في إنتاج أهم مكونات القنبلة، فوجئت بطلب ظافر مني، وكان مسؤولي الوظيفي في حينها، بإدارة عملية التسليم والإستلام للوثائق والخرائط والتي صوّرت على شريط فيديو بالكامل وأمام الأقراص المغناطيسية الضخمة في بناية التغنية الرئيسة حيث كان هو الشخص الأجدر لتبوء هذا الشرف كثمرة لجهوده المُتميّزة في تحقيق معظم حلقات ذلك الإنجاز.

ترك ظافر أثراً محموداً بعد تقاعده من منظمة الطاقة الذرية في نهاية العام 1991، وإن الدليل على تميّز عمله هو طيبة ذِكره وعدم إنتقاد أدائه من قبل أي من العاملين في المنظمة والذي بلغ عددهم حوالى 7000 موظّف. وبكل تواضع، فإني أنسب إليه الدور الرئيسي في تفعيل برنامج الأسلحة النووية خلال وبعد عام 1987.

كان ظافر المسؤول الأعلى في كافة عمليات شراء الأجهزة والمعدات ومن ضمنها الحساسة والمحظور علينا إقتنائها لأغراض برنامج التسليح النووي. وعندما تباطأت عمليات الشراء تحت ثقل متطلبات ناطق بطي، رئيس قسم المشتريات في مركز البحوث النووي، ونائبه أحمد الرهيمي، الذي كان نقطة التنسيق بين ذلك القسم وPC3، لإلتزامهما المستميت بالنص الحرفي للتعليمات الإدارية والمالية الصارمة إتّخذ ظافر قراراً فاجأ الكل. بحسه الإداري الرهيف في تقييم إمكانيات العاملين معه، وهي الخاصية التي إفتقدها العديد من المسؤولين الآخرين حوله، إختار ظافر التقني عادل فياض، أحد مشغلي المفاعل

الروسي وخريج إحدى كليات ألمانيا الغربية، ليترأس قسماً جديداً للمشتريات ضمن مجموعته الثالثة (أُطلق عليه رمز فعالية 3 ب) ليُكرّس أعمال تلك الفعالية كُلياً في تلبية متطلبات مشتريات PC3 السريَّة. أثار قرار ظافر في حينها الدهشة والتوجّس من صواب هذه الخطوة.

في هذا السياق، أتذكّر حادثة مُعينة لعادل فياض في أواخر السبعينات. أثار إنتفاخ في الغلاف الحديدي المقاوم للصدأ في إحدى قنوات المفاعل ذات الإشعاع العالي جداً والمُستخدمة للأغراض البحثية، القلق الشديد من إمكانية تشققها وتسرّب ماء تبريد المفاعل نفسه، والمُشع أيضاً، من القناة وإلى قاعة المفاعل. وأثناء إستخدامي لآلة تصوير مقاومة للإشعاع، كنت قد أُشتريتها حديثاً، للكشف عن مدى الضرر الناجم عن الإنتفاخ في قناة المفاعل إذ بتساؤل همام عبد الخالق، النجم الصاعد في إدارة المنظمة آنذاك والذي كان واقفاً خلفي يُراقب الصور التي ألتقطها، طالباً معرفة "منو هذا اللي ديعيّط لخاطر الله (من هذا الذي يزعق بحق السماء) على سطح المفاعل؟". إتصلت بعادل فياض، والذي كان منفعلاً وواقفاً على سطح المفاعل على إرتفاع سبعة أمتار منا بإستخدام جهاز المحاكاة اليدوي، طالباً منه الهدوء تهدئة روعه إذ يبدو أنه قد فقد السيطرة على صوته العالي النبرات لفرط قلقه علينا الواقفين أمام القناة وخوفه من تفطّر الإنتفاخ وإحتمال تسرّب الماء المُشع علينا. لم يكن ما يدل، في ذلك الوقت، على مهارات وإمكانيات عادل التنظيمية سوى إدارته لمحل بيع التحفيات والسجاد القديم في أوقات فراغه.

إلا أن حسّ ظافر الثاقب أدى إلى إكتشاف وتبلّور موهبة فريدة لدى عادل، بالرغم من سخرية وتعليقات ناطق وأحمد اللاذعة، حيث تمخض قسم المشتريات الذي أسسه عادل بمعاونة عدد محدود من الشباب والشابات خلال فترة وجيزة من الزمن عن قسم فعّال يضم حوالى خمسين موظفاً ويُدير فعاليات الشراء لمجهود PC3 عبر حوالى عشر قنوات للشراء السري يستخدم العديد منها عناوين وأرصدة وأجهزة اتصال دوائر ووزارات ومؤسسات حكومية خارج منظمة الطاقة الذرية العراقية. وكان لدى عادل نفسه العديد من جوازات السفر

بأسماء مستعارة لتنفيذ طلبات الشراء التي تستوجب التنفيذ من خارج القطـر. أبدى عادل مهارات عالية في الإدارة الكفوءة ضمن سياقات عمل واضحة وإتخاذ القرارات الحاسمة السريعة، وكان منفتح الذهن على المقترحات التي تُطرح عليه.

إن أهم دليل على نوعية الولاء والنزاهة والإنضباط في العمـل، بـإدارة وسياقات العمل المُعتمدة من قبل ظافر وعادل في ذلك الوقت، هو عـدم ورود أي تهمة أو إخبارية عن أي عمولة مالية أو تقبل رشوة في تنفيذ كافـة أنـواع الصفقات والعقود المالية والتي بلغت قيمتها ما يقارب عشرة بلايين دولار خلال سنوات البرنامج، من أعلى سلطة في المنظمة ومروراً بعادل فياض وإلى كافة موظّفيه. كان لعادل فياض دوراً مهماً جداً في نجاح برنامج السـلاح النـووي ولحين توقّف البرنامج في العام 1991.

أُغتيل عادل فياض بإطلاق الرصاص عليه في مزرعته في ضواحي بغداد في العام 1994 وسرقت سيارته الحكومية. حضرت مع المئـات مـن زمـلاء العمل، مراسم حداد الأيام الثلاثة الحزينة في خيمة نُصبت فـي حديقـة بيتـه. تعددت الإشاعات بالنسبة إلى مُرتكبي هذه الجريمة وتراوحت ما بـين ضـباط المخابرات لإشتباههم في علاقات عادل مع الأجانب، إلى الصفقات المشـبوهة والتي سرت كالنار في الهشيم بعد الحرب بسبب الحالة الاقتصادية المتـدهورة، إلى حالة سرقة عادية من قبل قطاع الطرق في حيّ مزرعتـه. ومـن المُثيـر للإنتباه في هذا الأمر هو أخذ خضر حمزة، لسبب ما في قرارة نفسـه، هـذه المأساة كتهديد موجّه ضدّه بالذات، والذي إعترف به في كتابه، حيث إستشـهد بقتل عادل كسبب أساسي في إتخاذه قرار الهروب من العراق في نهاية 1994.

نعود الآن إلى تكليف خالد إبـراهيم سـعيد لقيـادة المجموعـة الرابعـة المعنية بتصميم القنبلة النووية بعد إزاحة خضر حمـزة عـن هـذه المهمـة لقصور أمانته المادية. واجه خالد معضـلة جدّيـة فـي تكـوين مجموعتـه حيث كان جعفر قد ضمّ معظم علماء مركز البحـوث النوويـة مـن الدرجـة الأولى ضمن مشاريعه لتغْنية اليورانيوم، وخصوصاً الفيزيائيين والكيميـائيين منهم، ولم يبقَ في المركز سوى العلماء الذين كانوا إمّا أقل نوعيـة علميـاً أو

مُتخصصين في الحقول التي لم تتطلّبها مهام جعفر.

خلال بضعة أسابيع من تسلّم مهمته الجديدة، دعاني خالد لزيارته في مركز البحوث النووية وإقترح عليّ رئاسة قسم الفيزياء في مجموعته للبدء في حسابات تصميم القنبلة النووية مُتذكّراً أبحاثي النظرية البدائية المُبكّرة مع المرحوم يحي المشد ومع جعفر حول هذا الموضوع في السبعينات.

إلا أنه، وعلى ضوء عملي مع خالد لمدّة ثلاث سنوات في مشروع المحطة الكهرونووية، فإني لم أستسيغ ذلك العرض ورفضت طلبه بالرغم من إلحاحه. كانت حجتي في الرفض بسيطة إذ أخبرته بأنه "من الصعب عليّ العمل معكم لأنك تكتب العمل المطلوب مني القيام به بقلم من الرصاص في الصباح وسرعان ما تمحو طلبك في عصر نفس اليوم" وما يترتب عليه من فوضى من جراء ذلك التخبّط.

في هذه الأثناء، وبالرغم من تحمّل ظافر لأعباء الأمور الإدارية للمشروع بهدف تخفيف حملها عن كاهل جعفر وتفرغه إلى القيادة العلمية، فلقد أخذ على نفسه تدقيق مسار العمليات البحثية في المشروع ضمن موقعه في الإدارة العليا وتحمّل مسؤولية نجاح المشروع ككل. فبعد النظر في أساليب التغْنية المعروفة بإسم PIG وTIG والتي كانت قد أُعتمدت من قبل جعفر خلال السنوات الست السابقة، توصّل ظافر إلى القناعة بعدم الجدوى في المضي قُدماً في هذين المسارين للوصول بهما إلى عمليات إنتاجية على المستوى المطلوب. وبنهمه المُعتاد على القراءة، وبعد التداول وإستشارة العلماء والمهندسين الآخرين في المشروع، توصّل ظافر إلى قناعة أُخرى تُفيد بضرورة التحول إلى إعتماد طريقة فصل النظائر كهرومغناطيسياً – Electromagnetic Isotope Separation (EMIS) – بإستخدام أقراص مغناطيسية كبيرة يُطلق عليها إسم (كالترون) والتي كانت قد أُعتمدت وطُبّقت أثناء الحرب العالمية الثانية في مشروع مانهاتن لإنتاج القنبلة النووية الأمريكية التي دمّرت مدينة هيروشيما في اليابان.

وبعد العديد من النقاشات والتداول حول هذا الأمر، إستطاع ظافر إقناع الإدارة العليا للمشروع بجدوى تبنّي قناعته الجديدة وإتّخاذ القرار بالتركيز على

مسار EMIS بأسرع ما يمكن وأُستبدل إسم (كالترون) والذي كان مُختصراً لإسم California University SynchoTron بإسم (بغدادترون) تيمّناً بإسم بغداد، وكان على ظافر إثبات صحة إختياره.

طرق إلى سمع ظافر رفضي لعرض خالد لرئاسة قسم الفيزياء في مجموعته الرابعة والمُشكّلة حديثاً، وعلى ضوئه إستدعاني لمقابلته في اليوم الثاني. دخل ظافر مباشرة في خلفية تعديل المسار البحثي المذكور أعلاه وبتفاصيل دقيقة غير معهود معرفتها بالنسبة إلى مُستمِع من خارج المشروع، إذ كنت ما زلت أعمل رسمياً في مشروع المحطة الكهرونووية بالإضافة إلى خلفية ريبة المخابرات من تصرفاتي. وتعبيراً عن دهشتي لصراحته فلقد تجرأت بسؤاله "هل غيّرت المخابرات موقفها حول 'حصانتي الأمنية'؟". فما كان من ظافر سوى الإلتفاف حول الإجابة عن إستفساري ودخل مباشرة وبدون مقدمات، كعادته المعروف بها، في أساسيات المهام المطلوبة مني حيث وضّح قناعته بأن العلماء العاملين مع جعفر، وبعد مرور ست سنوات من العمل المُثابر والمستمر على PIG وTIG، قد أهملوا البدء في البحث بصورة جدية عن المصادر العلمية المتوفرة لإعتماد المسار البحثي الجديد بطريقة EMIS. "أريد منك أن تغرقهم بالتقارير العلمية والهندسية المنشورة في هذا المجال. كما وأريد منك أيضاً إعادة إحكام السيطرة على إجراءات التوثيق إذ إن نوعية بعض تقاريرنا العلمية التي إطلعت عليها هي دون المستوى المطلوب وكان يجب أن تُراجع بدقة قبل المصادقة عليها وتوثيقها وتوزيعها". بعد الإنتهاء من تلك المقابلة، عرفّني ظافر على خولة الخزرجي لمساعدتي في تنفيذ المهام الجديدة ومن ثم ألحقت سلام توما، زميلي ومستشاري المؤتمن، بفريق عملي.

وتمهيداً للتخفيف من وطأة إنتقالي المُفاجئ إلى مجموعته الثالثة على حساب وتيرة عملي في مشروع المحطة الكهرونووية، فلقد إقترح ظافر بأن أُقسّم أوقات عملي ما بين المشروعين ولحين إيجاد بديل لي في مشروع المحطة. إلا أن الموقف الطوباوي والمُتشدد لعطا الراوي، الرئيس الجديد لمشروع المحطة بدلاً من خالد سعيد، والذي رفض كلياً أي مشاركة لأوقات

عملي مع المجموعة الثالثة دعاني إلى توديعه والإلتحاق فوراً بمجموعة ظـــافر كرئيس لفعالية (3و) للمعلومات والتوثيق.

توفير المعلومات

في اليوم التالي من قبولي عرض ظافر، وبعد أن هيأت مستلزمات مكتبي وبجانبي مكتب آخر لخولة، قمت بجولة في ردهات مكتبة الطاقة الذرية العراقية العامرة بالكتب والتقارير بطوابقها الثلاث ورنين شروحات ظافر فـــي أهـــداف التوجّه البحثي الجديد تصوّب نظراتي إلى ما قد يدلّ عنها. لفت نظري وأستنفر ذاكرتي ملف متكامل يتألف من حوالى سبعين فهرسٍ بأغلفتها الســـوداء تضـــم سلسلة ملخّصات العلم النووي (Nuclear Science Abstracts) والتي بدأت بالصدور في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1947 وإنتهى إصدارها فـــي العـــام 1976 حينما تبدلت الجهة الرسمية المعنية بإصدارها، وهي مركز الخدمات المعلوماتية التقنية الوطني (National Technical Information Services)، إلى وزارة الطاقـــة (Department of Energy). كانت الدفعة الأولى من هذه السلسلة، والتي غطّت ما يقارب الثمان سنوات الأولى من الإصدار، ضمن (المكتبة النووية) المُتكاملـــة والتي قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية كهدية إلى العراق في العام 1956 تحت برنامج "الذرة من أجل السلام" الذي روّج له الـــرئيس الأمريكـــي آيزنهـــاور. تضمنت هذه الهدية معظم أدبيات ما نُشر علناً عن الطاقة الذرّية في ذلك الوقت. وبعد تأسيس منظمة الطاقة الذرية العراقية، تم الإشتراك بهذه السلسلة ومن ثـــمَّ ضمان توفر كافة أجزائها لتُغطّي كلّ السنوات الفاصلة وحتى نهاية تلك السلسلة في العام 1976.

كما وتضمنت تلك المكتبة الذرّية الثمينة هدية أخرى وهي مفاعل نـــووي قليل القدرة للأبحاث العلمية. ولكنه صادف قرب وصوله إلى مينـــاء البصـــرة العراقي في الخليج العربي مع إندلاع ثورة الرابع عشر من تموز عـــام 1958 وسقوط المملكة الهاشمية في العراق. وصعُب على الأميركيين تسليم هذه الشحنة الحسّاسة إلى حكومة (ثورية) عراقية وحلّوا معضلتهم بعرض هديتهم هذه إلـــى

حليفهم شاه إيران المدعوم من قبل وكالة المخابرات المركزية بعد إطاحتهم لحكومة مصدّق، الزعيم القومي الإيراني الذي إستطاع دستورياً من عزل الشاه في العام 1952 ولكنه تجاسر في التفكير والعمل على تأميم صناعة النفط الإيرانية. وحسب معلوماتي، فلقد تم نصب هذا المفاعل في جامعة طهران ولا زال تحت الخدمة هناك.

بعد عثوري على هذا الكنز العلمي الثمين، قمت بتصفّح فهارس عدة أجزاء من السلسلة مُدوّناً الكلمات العلمية ذات الدلالة والتي تتناول المفاصل الرئيسة لطريقة فصل النظائر كهرومغناطيسياً (EMIS) وعلاقتها بالقنبلة النووية. ومنها إستقيت قائمة بحوالى خمسين كلمة دالّة مُعتمدة في هذا المُسلسل مثل الكتلة الحرجة، مشروع مانهاتن، كالترون وما شابه. في هذه الأثناء، إنضمّ سلام توما إلى مجموعتي وسلمّت قائمة الكلمات الدالّة إليه وإلى خولة وطلبت منهما مراجعة وتدوين تفاصيل المصادر المذكورة في كافة أجزاء السلسلة والتي تغطي الأبحاث العلمية المنشورة خلال ثلاثين سنة تقريباً. وبعد مضي أسبوعين، أعادا إليّ قائمة بالتقارير المقتبسة من مصادر تلك السلسلة والتي ملأت أكثر من خمسين صفحة. كانت مهمتهم التالية هو التأكد من توفّر أو عدم توفّر كل مصدر أو تقرير مذكور في قوائمهما ضمن مقتنيات مكتبة المنظمة. وكانت المفاجأة هي توفّر ستّة وتسعون بالمائة من المصادر المذكورة في مكتبة الطاقة الذرية بالفعل مما دلّ على الجهود الحميدة لمسؤولي المكتبة في توفير المصادر العلمية للباحثين العلميين في المنظمة. كما ونبهني سلام إلى أن بطاقات فهرسة الكتب في المكتبة كانت تدل على وجود حوالى 30 عنواناً من أصل أكثر من 50 تقريراً وكتاباً وبطاقات معلوماتية مُصغّرة (microcards) في مكان ما في المكتبة لسلسلة علمية عن تطوير أول سلاح نووي أمريكي ضمن مشروع مانهاتن خلال الحرب العالمية الثانية والتي نُشرت، أو بالأحرى ما سُمح بنشره، تحت سلسلة الطاقة النووية الوطنية (National Nuclear Energy Series). بعد التنقيب عن الأمر عثرت، وما زلت أحتفظ، بالقائمة الأصلية المطبوعة من قبل أحد موظفي المكتبة في منتصف الستينات والتي تدلّ على

وجود جزء كبير من مفردات سلسلة الطاقة النووية الوطنية في المكتبة فعلاً، إلا أنها لا تُشير إلى موقع وجودها لسبب من الأسباب مما دلّ على عدم الرجوع إليها خلال العقدين المنصرمين. وبعد عدة أيام من التفتيش والبحث عن المفاتيح للدخول إلى غرف مقفلة ومَنسية في سرداب المكتبة وطوابقها العليا، والبحث في صناديقها المغلقة والتي يعلوها الغبار، عثرت في إحدى تلك الغرف على صندوق يعلوه طبقة سميكة من الغبار، والذي لم يُفتح منذ الستّينات، وكانت فيه تلك التقارير المنشورة عن مشروع مانهاتن. وبعد التحريات الدقيقة، عثرت على بطاقة مايكروفيش أُدرج في إحدى صفحاتها القائمة الرسمية المتكاملة للكتب والتقارير المنشورة في سلسلة الطاقة النووية الوطنية وتأكدت من وجود العديد منها في ذلك الصندوق المنسي وأشّرت على ما هو مفقود منها، والتي لم تتعدّ أصابع اليد الواحدة. قمت بإستنساخ كافة محتويات الصندوق وحفظ النسخ الأصلية منها في مكان أمين آخر بعيد عن متناول اليد.

وبالإستعانة بخدمات بضعة موظفين إضافيين، تم إستنساخ العديد من النسخ للكتب والتقارير وتصنيفها علمياً وتوزيعها على الباحثين والمهندسين، كُلٍ حسب مجال تخصصه. وإستجابة لرغبة الباحثين والمهندسين في إمكانية التفتيش السريع عن ورود كلمة علمية معينة في عدد من الكتب والتي تتناول هذه الكلمة من وجهة إختصاص مُعيّن، باشرنا بالعمل على مسح صفحات الكتب والتعرف على كلماتها بإستخدام الحاسوب بعملية يُطلق عليها التعرّف البصري للحروف (Optical Character Recognition) وبذلك تمكّنا من إدخال محتويات أحد عشر كتاباً، أو ما يقارب ثمانية ألاف صفحة، خلال فترة شهرين في ملف حاسوبي واحد تُمكّن الباحث من التفتيش عن موقع ورود كلمة علمية معينة في كافة الكتب في آنٍ واحد والتي تتناول التعامل مع هذه المفردة من جوانبها الفيزيائية، والكيميائية، والتصميمية، والهندسية وما شابه.

وبعد تمحيص أدق لنسبة الأربعة في المائة من التقارير التي لم تتوفر في مكتبتنا وتدقيق ما توفر لدينا من تقارير مشروع مانهاتن، ظهرت لنا ثغرتان في المعلومات المتوفرة عن الكالترون و(EMIS).



Appendix B

NATIONAL NUCLEAR ENERGY SERIES

القائمة الكاملة بتقارير مشروع مانهاتن الأمريكي لصنع القنبلة النووية إصدار عام 1961.

كانت الثغرة الأولى في إشارة العديد من مصادر تقارير مشروع مانهاتن إلى براءات إختراع، حددتها برقمها الرسمي، والتي تخص منظومة الكالترون والتي هي لب طريقة الفصل النظائري كهرومغناطيسياً والتي قام بإعدادها وتسجيلها رسمياً علماء ومهندسو مشروع مانهاتن بأنفسهم. كانت هذه الوثائق بمثابة التصاميم الفعلية وأوصاف المكوّنات الأساسية وشرح أساليب عمل منظومة الكالترون والفصل النظائري الكهرومغناطيسي وبمجموعها تكوّن دليل عمل لتصميم وتشغيل الكالترون. إلا أن براءات الإختراع هذه لم تكن ضمن الهدية الأمريكية إلى مكتبة الطاقة الذرّية وكان لا بدّ لنا من الحصول عليها لقيمة المعلومات التي تحتويها.

كان سرور مرزا، الدائم الأناقة مع زهرة (الجنبد المدنبسة) على ردن سترته، الملحق العلمي في سفارتنا في فينا. وكانت علاقتي معه تمتد نيف عقد من الزمن عندما إلتحق معي، كرئيس قسم الجيولوجيا، في العام 1976 في أول زيارة إلى منطقة الجل في الصحراء الجنوبية قرب نُكرة السلمان لإرشادي إلى المواقع المحتملة لمكامن اليورانيوم وتقاسمنا ذكريات المتاهة في الصحراء بسبب دليلنا الزائف والتي كادت أن تودي بحياتنا.

فبالتنسيق مع سرور، أرسلت له العديد من القوائم تتضمن كل منها حوالى عشرين أو ثلاثين مصدراً لمقالات علمية وتقارير وبراءات إختراع، ومن ضمن براءات الإختراع المطلوبة في كل قائمة، أدرجت بعضاً منها والتي تخص مشروع مانهاتن. تم تصريف طلب الحصول على فقرات تلك القوائم من خلال مكتبات جامعات بعض الطلبة العراقيين في أوروبا. وبما أنه كان من المتيسّر، في ذلك الوقت، الحصول على براءات الإختراع، لقاء ثمن زهيد، من منظمة الملكية الفكرية العالمية (World Intellectual Property Organization-WIPO) ومقرها في جنيف – سويسرا، والتي كانت المرجع الأساس وخزينة كلّ براءات الإختراع في العالم، فلقد تمكّنا، من خلال هذه القوائم، من الحصول على كلّ براءات الإختراع التي تخص منظومة (EMIS) والبالغ عددها حوالى 164 براءة اختراع. بعد إستلام كامل السلسلة، قمنا بتصنّفيها حسب مجال

السيد رئيس المنظمة:

ارفق طياً نتيجة استطلاع براءات الاختراع مع الفضل لاهتمامكم ومتابعتكم في الحصول عليها.

للتفضل بالاطلاع لطفاً، مع التقدير.

[illegible]

21/10/88

رئيس منظمة الطاقة الذرية

شكر همام عبد الخالق غفور على الجهد المبذول في الحصول على براءات إختـــراع مشـــروع مانهاتن عام 1988.

الإختصاص العلمي والهندسي ووزّعنا نسخاً منها إلى كافة العلماء والمهندسين المعنيين وقام همام بتقديم شكره على هذا الجهد. لم تتجاوز كلفة الحصول على براءات الإختراع هذه بضع مئات من الدولارات.

في الثغرة المعلوماتية الثانية، كانت بعض الكتب مصـــوّرة فوتوغرافيـــاً وبتصغير شديد على بطاقات ورقية غير شفافة وتدعى microcard والتي سبقت ظهور الميكروفيش والميكروفلم. إستخدمت هذه الطريقة لتصوير الوثائق فـــي أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات حيث يتم تصـــوير الصـــفحة وتصـــغير الصورة ومن ثم طبعها على ورقة بحجم البطاقة البريدية والتي كانت تستوعب حوالى 20–40 صورة مصغرة في كل منها. وجدت جهاز قارئ المياكروكارد الأصلي الذي جاء مع هدية المكتبة في العام 1956 وتحت طبقات من الغبـــار.

1 - CALUTRON :	PATENT NO.
- THE COMPREHENSIVE PATENT ON CALUTRONS BY ERNEST LAWRENCE.	2,709,222
- CALUTRONS.	2,725,478
- RECTANGULAR CORE OPENINGS, CASTINGS OF LONG SHALLOW MAGNET TRAYS.	2,727,190
- CALUTRON ASSEMBLING AND DISASSEMBLING APPARATUS.	2,871,361
	2,871,362
	2,871,363
- MOUNTING AND SUPPORT OF SOURCE AND RECIEVER TO ENABLE QUICK AND ACCURATE ALIGNEMENT AND EASY ACCESS.	2,871,364
- HAND TRUCK FOR CALUTRON HANDLING.	2,874,860
- DISASSEMBLY AND DECONTAMINATION APPARATUS FOR CALUTRONS.	3,143,119
- CALUTRON WITH MEANS FOR REDUCING LOW FREQUENCY RADIO FREQUENCY SIGNALS IN ION BEAM.	3,260,844
2 - PLURALITY OF ION SOURCES :	
- CALUTRON WITH PLURALITY OF ION SOURCES AND COLLECTORS.	2,714,664
- PLURALITY OF TANKS AND MAGNETIC FIELD STRUCTURES.	2,721,272
- PLURALITY OF INDEPENDANTLY REGULATED ION SOURCES AND FILAMENTS.	2,733,347
- MULTIPLE ION BEAM TYPE.	2,754,423
- OPERATE PREDETERMINED PORTION OF SYSTEM FOR SEVERAL CALUTRONS.	2,847,576
- DUAL HEATED ION SOURCE HAVING ARC SHIFTING MEANS.	2,882,409
- DUAL ION SOURCES WITH LINER.	2,890,340
3 - ION SOURCE :	
- SUPPORT AND INSULATING ARRANGEMENT TO RELIEVE STRESSES.	2,714,165
- CLEANING OF SLIT OF SOURCE FACE.	2,714,665
- SIMPLE AND COMPACT ION SOURCE.	2,715,683
- ION SOURCE WITH TWO INSULATION PLATES, APPLY VARIOUS POTENTIALS TO THEM TO SHAPE AND AFFECT SURFACE OF PLASMA.	2,882,409
- ION SOURCE WITH REGULATION OF CATHODE, ANODE AND ION CHAMBER VOLTAGE.	2,733,340
- MECHANISM CAPABLE OF ADJUSTING ION SOURCE THROUGH SEVERAL PLANES	2,737,590
- SEVERAL CHARGE CHAMBERS CONNECTED TO SINGLE ARC CHAMBER	2,817,763
- IMPROVED ION SOURCE, GOOD HEAT DISTRIBUTION, REDUCE SPARKS.	2,873,376

نموذج لعناوين بعض براءات الإختراع لمشروع مانهاتن.

يعمل هذا الجهاز عن طريقة عكس الضوء من على سطح المياكروكارد وتكبير صورة الصفحة المُصغَّرة بما فيه الكفاية لقراءتها. إلا أنه بالإضافة إلى عدم وضوح الصورة الناتجة وبالكاد قراءة محتوياتها من خلال ذلك الجهاز القديم، فإن عدم إمكانية طبع تلك الصور المكبرة كانت العقبة الأساسية في إستغلال المعلومات المخزونة على بطاقات المايكروكارد، وبالذات محتويات تقرير حاسم ومهم جداً برقم TID 5232 حول أجهزة المعالجة الكيميائية لطريقة الفصل الكهرومغناطيسي. أصر الكيميائيون على الحصول على نسخة مطبوعة من هذا التقرير المهم لإستيعاب وتطبيق ما ورد فيه. وعلى ضوئه، طلب مني ظافر تلبية رغبتهم بأي طريقة ممكنة ومهما كلف الأمر من خلال الحصول على جهاز قارئ وطابع للمايكروكارد، بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على إندثار هذه التقنية.

قبل حلول إعياد الميلاد في كانون الأول من العام 1987، أمسكت ذات ليلة بالهاتف في مكتب عادل فياض وإتصلت بالعالم. تكلمت مع شركات متخصصة في أجهزة التوثيق والإستنساخ في اليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا وفرنسا والسويد والمملكة المتحدة وفرنسا مُكرّراً شرحي لمواصفات بطاقة المايكروكارد لدهشة وحيرة الفنيين المختصين في تلك الشركات. كنا نتجنب الاتصال مع الشركات الأمريكية، لتفادي إسترقاق أجهزة مخابراتهم قدر الإمكان، إلا في الحالات المستعصية. وبعد ساعات عديدة من الاتصالات الدولية الهاتفية بدون العثور حتى على فني مختص له الإلمام ببطاقات المايكروكارد، إتصلت مع ظافر لإعلامه عن فشل محاولاتي في الحصول على أي معلومات عن الجهاز المطلوب وطلبت موافقته للاتصال مع الشركات المعنية في الولايات المتحدة الأمريكية كسبيلنا وأملنا الأخير في العثور عليه. كان جواب ظافر قصيراً، كالعادة: "توكّل" – أي موافق وإتكّل على الله –.

بدأت بالاتصال بشركات منتخبة في الولايات المتّحدة، وفي مكان ما في ولاية تكساس، بان خيط من الأمل عندما كلّمني فني مصري الأصل بأنه قد رأى مؤخراً الجهاز الذي أتحدث عنه.

"آه، تعني جهاز قارىء المايكروكارد؟"

"نعم، نعم" أكدّت له وأنا متماسك على نبرة صوتي لطمس غبطتي من العثور على شخص يفقه معنى هذه الكلمات.

"طيب، أنا قد رجعت تواً من زيارة معرض لأجهزة الإستنساخ في مدينة شيكاغو أُقيم في الأسبوع الماضي وأعتقد بأني قد أطلعت على مثل هذا الجهاز. إنتظر لحظة لكي أُراجع بطاقات العمل التي جمعتها من المعرض لعلني أجد بطاقة تلك السيدة التي شرحت لنا عمل هذا الجهاز العتيق. هل أنت متأكّد بأنك تريد مثل هذا الجهاز؟ كان الشرح عنه مضيعة لوقتنا ولا أحد يهتم به أو يرغب في شرائه".

كنت جالساً على حافة مقعدي عندما صاح: "ها هي البطاقة. إنها تعمل في شركة بيل وهاول في شيكاغو".

تمكنت من الاتصال مع السيدة المذكورة وهي في طريقها لمغادرة مكتبها للتمتع بإجازة أعياد الميلاد. سألتها: "ما هو ثمن الجهاز؟"

فأجابت: "نحن نبيع الجهاز الواحد منها بسعر عشرة آلاف دولار، والدفع نقداً مُقدّماً".

إستفسرت منها: "وما هو سعره مع المواد الإحتياطية لتشغيله لفترة ثلاث سنوات؟"

أجابت بعد عدة لحظات: "دعني أحسب ذلك لك، فإن المجموع النهائي لمثل هكذا جهاز هو إثني عشر ألف دولار".

"لحظة من فضلِك".

وإتصلت بظافر على خط هاتفي داخلي، مع العلم بأننا كنا في الساعات الأولى من فجر ذلك الصباح، وكان جوابه "إشترِ جهازين" وأغلق الخط.

رجعت إليها: "حسناً، نود شراء جهازين رجاءً".

فأجابت: "حسناً، إلا أن سعر الجهاز الواحد مع ملحقاته التشغيلية الإحتياطية أصبح الآن خمسة عشر ألف دولار".

وكان جوابي السريع: "موافق، وستستلمين كامل المبلغ نقداً عند رجوعك

من عطلة أعياد الميلاد. أرجو البدء في عماية التجهيز قبل مغادرتك المكتـب. وبالمناسبة، أعيادك سعيدة مُقدّماً".

وتركت تصريف أمر الدفع نقداً إلى مهارة عادل فياض.

وبحلول نهاية عام 1987، وخلال فترة أربعة أشـهر مـن إنضـمامي إلـى مجموعة ظافر ومعالجة الثغرتين المذكورتين أعلاه، توّفر لدى العلماء والمهندسين معلومات علمية وهندسية وفيرة عن الكالترون وبدأوا بالعمل الحثيث على تطبيقها في تصميم وتشغيل ما أطلقنا عليه إسم البغدادترون، وذلك تيمُّناً بمدينة بغداد.

إلا أن ذلك كان بداية التدفق المعلوماتي العارم في مشروع PC3.

عملاً بأهمية الإلتزام بسياقات العمل وإجراءات مراقبة الجـودة، والتـي إكتسبتُ مفاهيمها من خلال برنامج تأكيد الجودة والعديد من الزيـارات قبـل سنوات قليلة إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا أثنـاء التـدريب علـى إجراءات السلامة الصارمة التي تتطلّبهـا عمليـة إختيـار موقـع المحطـة الكهرونووية، قمت بزيارات تفقّدية لمكاتب التصميم وورش الإنتاج في فعاليات المشروع PC3 المعنية في تصميم وبناء منظومات EMIS والبغدادترون. وعلى أثرها، إشتكيت إلى ظافر من أن "المهندسون والمصمّمون ومشـغلو المكـائن الإنتاجية لا يعملون طِبقـاً للمواصـفات والإجـراءات الصـناعية (Industrial Standards and Procedures)، وإن هذا سيكلّفنا الكثير من المال والوقت المهـدور بمرور الزمن". بالإضافة إلى ذلك، فإن البعض من العلماء والمهندسين كـانوا يتعرضون للإحراج الشديد أثناء المفاوضات الحاسمة بشـأن إبـرام صـفقات المُشتريات لأجهزة ومواد حساسة عبر تلكسات وهواتف فعالية عـادل فيـاض للمشتريات إذ كان عليهم الإجابة وبسرعة عن أرقام المقـاييس والمواصـفات الصناعية التي يتم بموجبها التحديد الدقيق للمواد والأجهزة المطلوبة.

كان الجهاز المركزي للمواصفات والسيطرة النوعية هي الدائرة الحكومية المسؤولة والمستودع الوحيد في العراق، في ذلك الوقت، للوثائق التي تخـصّ مقاييس ومواصفات الصناعة الوطنية والدولية، بالإضـافة إلـى المواصـفات الصناعية العراقية والعربية. نتج عن زيارتي التفقدية لمحتوياتها عن إسـتعارة

الفهارس بعناوين وأرقام المواصفات الصناعية الوطنية الألمانيـــة والبريطانيـــة والأمريكية والمنظمتين الدوليتين للمواصفات الصناعية والكهربائيـــة (International Standards Organization-ISO) و (International Electric Commission-IEC).

قمت على الفور بشراء ونصب خمسة أجهزة لإستنساخ المطبوعات، وكلّفـــت فريق عمل من منتسبي فعاليتي ومكتبة الطاقة الذرية بالعمل على مدى 24 ســـاعة بالتناوب لإستنساخ كل هذه الأدلة وبعدة نسخ لكل منها ومن ثـــم توزيعهـــا علـــى المهندسين والمصممين ومُشرفي الورش الصناعية، كلٍ حسب إختصاصه، والطلب منهم بمراجعتها وتحديد المواصفات المهمة والتي تتطلبها مهام أعمالهم ونشاطاتهم. وبعد الحصول على التفويض والرُخص الخاصـــة، إذ كانـــت تعليمـــات الجهـــاز المركزي تحظر إستعارة وثائق المواصفات وإخراجها من مقر الجهاز المركـــزي، تم تدبير زيارة أسبوعية صباح كل خميس يقوم خلالها خمسة من منتسبي فعـــاليتي بالتفتيش عن وجمع المقاييس التي تم تحديد أرقامها من قبل المهندسين والمصممين ونقلها في نهاية دوام ذلك اليوم بشاحنتين إلى مركز البحوث النووية والعمل علـــى إستنساخها على مدى خمس وثلاثين ساعة متواصلة لتعود بها الشاحنتين صباح يوم السبت إلى مقر الجهاز المركزي للمواصفات والسيطرة النوعية في إنتظـــار فـــتح أبوابه لإعادة المقاييس والمواصفات إلى أمكان حفظها على رفوف مكتبتهم.

وبالرغم من ذلك الجهد، فلقد فوجئنا بفقدان العديد من المواصفات المهمـــة في مقتنيات الجهاز المركزي، والذي كان قانوناً الجهة الوحيـــدة فـــي العـــراق المخولة بشراء المواصفات من مصادرها الأصلية. وبعد تعثر محاولاتنـــا فـــي القيام بشراء المواصفات المفقودة والإشتراك بمجموعة إضافية من المواصفات المطلوبة في أعمالنا بسبب العراقيل الإدارية المعمول بها في الجهاز المركزي، تجنبنا القانون الذي يحظر علينا شراء المواصفات المنشورة مـــن مصـــادرها مباشرة، إذ قُمنا باستئجارها.

دعاني ظافر إلى مكتبه وأمامه أكوام من المجلات الإخبارية التي كانـــت تصله أسبوعياً، ومن ضمنها مجلة التايم والنيوزويك ونشرات جينس الدفاعيـــة وما شابه، والتي كان يتصفحها بعناية ومن ثم يتكرّم بها علينا بعد الإنتهاء منها.

أشار ظافر إلى إعلان موجود في مجلة أسبوع الطيران(Aviation Week)، عن شركة أمريكية تُدعى (Information Handling Services-IHS) تعمل منذ العام 1956 ومستعدة إلى تأجير مجموعة كاملة من المواصفات والمقاييس الصناعية الأمريكية (والتي تصدر عن أكثر من 200 مؤسسة مختصة في وضع المواصفات الصناعية)، بالإضافة إلى المواصفات الأوروبية والدولية. كانت هذه المجموعة المتكاملة من المواصفات مخزونة على حوالى ألف لفّة من المايكروفلم وتحتوي كلّ لفّة منه على حوالى 5000 صورة (أي صفحة مصغّرة). وتتحمل الشركة تحديث هذه المكتبة من خلال الشحن جواً، مرة كل شهرين، بكافة الإصدارات الحديثة والمُحدّثة من قبل الجهات المصدّرة للمواصفات. بالإضافة إلى ذلك وأهم ما في الأمر، فلقد قامت الشركة بإعداد فهرس عن منتوجات كافة الشركات الأمريكية ومواصفات كل منتوج وسعره التقريبي بالإضافة إلى تحديد أرقام المواصفات الصناعية التي تنطبق على ذلك المنتوج، في حالة طلب شرائه أو الإطلاع على طرق ومواصفات تصنيعه. كما وأعدت الشركة فهرساً آخر لإيجاد تفاصيل كلّ العلامات التجارية (Trade Marks) والتي سُجّلت براءة إختراعها في الولايات المتّحدة، بالإضافة إلى العمليات التصنيعية لهذه المنتجات، إن توفرت. وبالإضافة إلى كل ذلك، تعرض الشركة إمكانية تأجير كامل مكتبة المواصفات والمعايير العسكرية الأمريكية، الحالية منها والتاريخية، في ألف لفّة مايكروفلم أخرى. كانت كلفة تأجير كامل هذه المكتبة من المواصفات والمعايير والفهارس، مع الإجهزة المتطورة لقراءة المايكروفلم وطبع محتوياته، بحدود ربع مليون دولار سنوياً.

من خلال وسيط في مدينة الخُبر في المملكة العربية السعودية، إستطعنا الحصول، في غضون شهرين من الزمن، على مجموعتين متكاملتين من هذه المكتبة، وبسعر واحد منها بعد التفاوض المستفيض. أصرّ وسيطنا على إستقدام ممثل للشركة المعنية إلى بغداد للتأكّد من أننا فعلاً جهازاً إدارياً في وزارة الصناعة العراقية، كما إدّعت طلبية تأجير المكتبة. قام ظافر بتلبية الطلب، وإجتمعنا معهم في غرفة أنيقة لمدير عام في وزارة الصناعة في مركز بغداد وأخذناهم في جولة تفقدية إلى الجناح المُخصص لإيواء المكتبة في أحد طوابق

وزارة الصناعة والذي تم تهيئته وإعداد مستلزماته بشكل عاجل.

أنيطت مسؤولية إدارة مكتبة المواصفات إلى ختام كاظم، والتي كانت قد تخرجت لتوّها من الثانوية إلا أنها كانت تتمتع بذكاء هادئ وصبر خلوق مكنّها من إتقان أسلوب إسترداد المعلومات من هذه المنظومة المُعقّدة نسبياً إلى الدرجة التي كانت تستطيع فيه، وخلال نصف ساعة من الزمن، أن تزوّد العالم أو المهندس الذي كان يبحث عن منتوج مُعيّن بقوائم مطبوعة لكلّ الشركات الأمريكية المنتجة له والسعر التقريبي له والمواصفات الصناعية التي تنطبق عليه بالإضافة إلى توفير النسخ الكاملة من تلك المواصفات. وتسري نفس تلك الخدمات على أي مادة عسكرية أمريكية. وبعد أشهر قليلة، زوّدتنا الشركة الأمريكية بخدمات مشابهة للمنتوجات الأوروبية واليابانية والمواصفات التي تنطبق عليها. وعلى خلفية هذه الخدمات، أقلعت عمليات شرائنا السرية في رحاب مفيدة.

أجريت جولة تفقدية ثانية على زملائي العلماء والمهندسين عارضاً عليهم مُقترحاً مُغرياً يتضمن قائمة بعناوين حوالى خمسين مجلة ودورية علمية وهندسية مرموقة. أعربت للراغبين منهم في إستلام النشرة الدورية المختصة في مجال أبحاثهم وأعمالهم عن إستعدادي لتزويدهم بها وبصورة منتظمة في حالة تقيّدهم بشرط واحد. تحتوي كل واحدة من هذه الدوريات على بطاقة مرفقة مطبوع عليها حوالى الخمسين مُربعاً مُرقماً بالتسلسل. وفي نفس الوقت، يتم ترقيم كل مقالة منشورة في الدورية وكل إعلان عن مؤتمر علمي أو عن معرض صناعي أو إعلان الدعاية لمنتوج معيّن أو مصدر علمي مذكور في إحدى مقالات تلك الدورية بأرقام مُتسلسلة مماثلة. وما على القارئ سوى تأشير المُربعات المُرقمة التي تعنيه مضمونها على البطاقة المرفقة ويرسل البطاقة بريدياً إلى ناشر الدورية ليحصل منهم مجاناً على نسخة كاملة من المقالة أو المصدر أو تفاصيل المؤتمر أو المعرض أو المنتوج المذكور في تلك الدورية. إشتَرِط على العالم أو المهندس الراغب في الحصول على الدورية التي تهمه بصورة منتظمة، وكذلك الإحتفاظ بها بصورة دائمة، أن يرسل لنا البطاقة المرفقة بها شهرياً ومؤشراً فيها رغباته من المعلومات التفصيلية، وبعكسه

سنعطي هذه الفرصة لزميل متلهّف آخر. كانت العقبة الرئيسة في تحقيق هذه الخطة هو عدم سماح تعليمات مكتبة منظمة الطاقة الذرية بإستعارة تلك النشرات الدورية المرموقة وقراءتها خارج أروقة المكتبة مما حدّ من شيوع قراءتها والإستفادة من خدمة البطاقات فيها. وللحصول على إستثناء خاص في هذه الحالة من إجراءات التدقيق المخزني الصارم التي وضعها ظافر على عمليات الشراء لعموم فعاليات المنظمة والمشروع، كان لا بدّ من الرجوع إلى جعفر لإستصدار قرار خاص يُتيح لنا دفع قيمة الإشتراك في هذه الدوريات الخمسين، على أن لا يُسجّل ورودها ضمن محتويات المكتبة ويُسمح للخمسين محظوظاً الإحتفاظ بها في مكتباتهم.

وبدأت البطاقات تتدفّق شهرياً بعد وضع قائمة بأسماء تمويهية تدلّ على إسم مُرسِل البطاقة وفعاليته في المشروع PC3، وقامت كل من خولة، أول منتسب في فعاليتي، ونسرين، ذات الشخصية القوية والكفوءة جداً، ولؤي عبد علي، صديق سلام توما الهادئ، والمزودين بدفاتر من الطوابع البريدية بتسجيل ومتابعة مُرسلي البطاقات وإرسالها إلى ناشري تلك الدوريات بإسم قنوات تمويهية لدوائر حكومية فعلية وحسب مواضيع المعلومات المطلوبة. وخلال كل أسبوع، تقوم شاحنتان صغيرتان بزيارتين إلى أكثر من اثني عشر مكتب بريد في أنحاء بغداد، ومُسجّل كل منها بإسم دائرة حكومية رسمية لتفادي إهتمام حتى العاملين في مكاتب البريد تلك، وجمع المعلومات التي كانت تنهمر في صناديق البريد حتى إننا تركنا بعض الحاويات الخاصّة لجمع بريد بعض الصناديق التي كانت تطفح من كثرة الرسائل فيها. وكانت تصلني مرّتين في الأسبوع، ثلاثة إلى أربع حقائب بريدية مكتظة وأقضي الليل بكامله في فتح الرسائل والإطلاع بسرعة على المعلومات التقنية والعلمية الواردة فيها ومن ثم أحيلها إلى الشخص الذي أرسل في طلبها بعد شطب إسمه الوهمي، إذ كنا قد أخفينا الأسماء الوهمية المستخدمة حتى عن طالب المعلومة. أتاح هذا الأسلوب للمنتفعين الخمسين وخلال عدة أشهر من تكوين مكتباتهم العلمية والتقنية الصغيرة المزودة بأحدث الإصدارات وتحت تصرفهم الشخصي وبكلفة طابع بريدي شهرياً لكلّ منهم.

جدول رقم ٢ : الاسماء الوهمية للفعاليات في أستخدام الكمات و بطاقات طلب المعلومات :

الفعالية	اسم رئيس الفعالية	العنـــــــــــوان
٤أ	د. محمد عبد الزهرة	MOHAMAD -------- SENIOR PHYSICIST
٤ب	د. عبدالله كندوش	QAWAN ------ SENIOR RESEARCHER
٤ج/ر	د. زهير القزاز	NAMIR ------ SENIOR CHEMIST
٤ج/و	د. رياض الجراح	OMAR ------ SENIOR CHEMIST
٤و	د. زغلول نعوم	RUSTAM ------ SENIOR ENGINEER
٤ز	د. غازي الشاهري	BAKRAM -------- SENIOR DESIGN ENGINEER
٢أ	د.ثامر نعمان مولود	AHMAD ------ SENIOR RESEARCHER
٢ب	د.خلوق رؤوف	BASSAM ------ SENIOR RESEARCHER
٢ج	د.باسل الساعاتي	CHASSAB ------ SENIOR CHEMICAL ENGINEERING
٢د	د.فاضل الجنابي	DAGHIR ------ SENIOR CHEMICAL ENGINEERING
٢و/م	مقداد القيسي	FAHAD ------ SENIOR MECH. ENGINEER
٢و/أ	زهير الجلبي	FAHMI ------ SENIOR ELECTRICAL ENGINEER
٢ز	د.حسام الجبلي	GHASAN ------ SENIOR METALLURGIST
٢ه	حارث عامر	HASHIM ------ SENIOR DESIGN ENGINEER
٢و	عماد خضوري	IHSAN ------
٢ز	يحيى لطيف جاسم	JAMIL ------ SENIOR ENGINEER
٢ط	محمد احمد فو'اد	KAMIL ------- SENIOR ELECTRICAL ENGINEER
٢ح	باسل محمود	LAITH -------- SENIOR ENGINEER
ه١٠٠	د. علا" محمود	TARIQ ------
ه٢٠٠	عبد الجبار الزبيدي	USAMA ------
الامداد الهاشمي	معمر	VAROUSH

قائمة بالأسماء الوهمية لفعاليات مشروع البتروكيمياويات 3 ورؤوساء الفعاليات عام 1988.

Location	Fax	Tel	PO Box	Telex	Symbol	Name

((سري للغاية))

جدول رقم ١ : القنوات المستخدمة في عمليات الشراء

الموقع	FAX	هاتف	صندوق بريد	تلكس	الرمز	أسم الفئة
شارع النضال وزارة الصناعة و التصنيع الطابق السابع		8885858	761	2794 ENGSERV	B *	مديرية الخدمات الهندسية والفنية وزارة الصناعات الثقيلة MINISTRY OF HEAVY INDUSTRIES ENGINEERING SERVICES DEPARTMENT
السعدون / كرادة خارج عمارة مشتان داود الطابق الثاني		7765448	14206	3512 [illegible]	C *	مكتب أحمد رشيد أحمد للتجارة والخدمات الفنية (لصالح وزارة الصناعة و التصنيع العسكري) BUREAU AHMED RASHID FOR TECHNICAL AND ENGINEERING SERVICES
شارع النضال			1340	2305 TALIMALI القديم حالي 2678 TALAM الجديد ساحل	D *	وزارة التعليم العالي و البحث العلمي MINISTRY OF HIGHER EDUCATION AND SCIENTIFIC RESEARCH
شارع النضال وزارة الصناعة و التصنيع الطابق الرابع / غرفة ؟	8874205	8874205 8872006/ 2275 2272	14271	2764 GED	F *	المديرية العامة للتجهيزات الصناعية وزارة الصناعات الثقيلة GENERAL DIRECTORATE FOR INDUSTRIAL SUPPLIES MINISTRY OF HEAVY INDUSTRIES
جادرية		7763290	255 القديم حالي 29049 الجديد ساحل 14284 بعد المعلم حالي	3976 SRC القديم حالي 4218 CNCSR الجديد ساحل 4244 SRCLB مفتوحات حساسة	ب ح *	مجلس البحث العلمي SCIENTIFIC RESEARCH COUNCIL
شارع السعدون مقابل ساحة النادي		7183290/ 146 مدى	198	2230 SCOP	ش ن	شركة المشاريع النفطية STATE ORGANIZATION FOR OIL PROJECTS الاسم : AL-[illegible]
الوزيرية مقابل الجامعة المستنصرية		4253445	11118	4058 ELIND	س * *	المنشأة العامة للصناعات الكهربائية STATE ELECTRICAL INDUSTRIES ESTABLISHMENT الاسم : علي محمد علي
الصناعي		7750080	521	2649 OILEQP	ع ن	شركة المعدات النفطية OIL EQUIPMENT COMPANY الاسم : [illegible]
شورجة مقابل جامع الخلفاء		8885141		4001 HED	ا ب *	المنشأة العامة لتوزيع كهرباء بغداد STATE DIRECTORATE GENERAL OF BAGHDAD ELECTRICITY DISTRIBUTION MINISTRY OF HEAVY INDUSTRIES الاسم : يوسف [illegible] يوسف
الزعفرانية			29042		ص ل	الصناعات الالكترونية ELECTRONIC INDUSTRIES CO. MR. F. TAQOU/IMPORT MANAGER
			5815	2182 MIDT	و ف	مديرية المعدات الفنية MINISTRY OF INDUSTRY AND MINERALS DIRECTORATE OF TECHNICAL EQUIPMENT

* : جهاز التلكس متوفر في المنشأة

قائمة بالأسماء الوهمية لقنوات شراء الأجهزة والمواد الحساسة عام 1988.

أدّى هذا التراكم المعلوماتي الوفير إلى وضعي في موقع محوري في تعقّب توفر المعلومات في المشروع، إذ توجّب عليّ حضـور اجتماعـات العصـف الفكري (Brain Storming) بقيادة جعفر والمساهمة في جلساتها العلمية والتقنيـة فيما يخص تحديد توفّر المصدر المعلوماتي المطلوب من عدمه. وعلى سـبيل المثال، عند مناقشة مواصفات منفاخ مرن من الحديد المقاوم للصدأ أو نحـاس خالٍ من الأوكسجين، ينحى جعفر بطرفه نحوي مُسـتعلِماً عـن تـوفّر هـذه المعلومات وأقوم بدوري بتسمية المهندس أو العالم الذي تتوفر لديه مثل هـذه المعلومات، أو الذي قد يدلنا إلى مصدر توفّرها، إذ كنت على معرفة بمحتويات مكتبات الخمسين عالم ومهندس ومعلوماتها الحديثة، ولم أتأخر عن حضور أي من اجتماعات العصف الفكري.

منذ منتصف السبعينات، كنت المسؤول في منظمة الطاقة الذرية العراقيـة عن الاتصال، عن طريق الإرتباط الهاتفي والمودم، مـع منظومـة إسـترجاع المعلومات DIALOG والتي كانت من أوائل قواعد المعلومات المتيسّر الـدخول بها من أرجاء العالم، قبل الإنترنت، والتي أسسها روجر سوميت في العام 1972 في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تحتوي على المئات من قواعد المعلومات في مختلف المواضيع العلمية والهندسية والطبية. إستعنت في البداية بمركز المعلومات في مؤسسة البحث العلمي عند التفتيش في قواعـد المعلومات لغرض التمويه. ولبعد موقع مؤسسة البحث العلمي وزيـادة وتيـرة طلب التفتيش في قواعد المعلومات، قامت منظمة الطاقة الذريـة، وبإشـتراك تمويهي ثاني لمؤسسة البحث العلمي، بإعداد غرفة معزولة نائية عـن مركـز البحوث النووية ومجهزة بمعدات الاتصال مع DIALOG. إحتفظـت بالمفتـاح الوحيد لتلك الغرفة التي كنت أزورهـا أسـبوعياً للتفتـيش عـن المعلومـات والمصادر بإستخدام الكلمات الدليليـة (Key Words). يتطلّـب الأمـر الإبـداع والإبتكار في إيجاد كلمات أو مصطلحات علمية شاملة عند الإستفسار والتي هي في نفس الوقت بديلة للكلمة الدليلة الحساسة، مثل البلوتونيوم، بأمـل أن تسـفر البيانات المسترجعة للمعلومات والمصادر في تغطية تلك الكلمة الدليلة الحساسة

والتي لم يكن من الممكن درجها علناً نظراً للإسترقاق الحتمي على عمليات الإستفسار. كانت عملية التفتيش وإسترجاع المعلومات عبر خط هاتفي دولي وبإستخدام مودم بطيء السرعة مُكلفة نسبياً. وفي منتصف الثمانينات، إحتوت DIALOG على حوالى 600 قاعدة بيانات في العلم والطب والهندسة وحُصر إستخدام الحساس منها، مثل قواعد البيانات الفضائية والصاروخية، بالولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبعض بلدان منظمة حلف شمال الأطلسي فقط. قام ظافر بترتيب إعداد محطة اتصال مع DIALOG في مدريد، عاصمة إسبانيا، لأتمكّن من التفتيش حتى في قواعد المعلومات الحساسة من هناك.

ولضمان الحصول على الكتب والتقارير والمقالات العلمية والهندسية المطلوبة بصورة مُعتمدة وسريعة، تم فتح العديد من الأرصدة لدى مجهّزي المعلومات في عدة دول من ضمنهم مكتبة الإعارة البريطانية، معهد الكهربائيين ومهندسي الإلكترونيات (IEEE)، مكتبة جامعة مشيغان للمايكروفلم (UMI)، ومجهّز الكتب بلاكويل ومجهّز التقارير مايكروإنفو في بريطانيا. عهدُت إلى عادل فياض أمر تعزيز رصيدنا سنوياً لدى هؤلاء المجهزين ليكون بحدود عشرة آلاف دولار في حساب كل منهم. وصلنا إلى مرحلة من الخدمات المعلوماتية بحيث كنا قادرين على الحصول على أي كتاب أو مجلة أو تقرير أو براءة إختراع خلال أسبوع واحد من طلبه من قبل علمائنا أو مهندسينا من خلال مكالمة هاتفية أو اشعار بالفاكس للمجهّز الذي يقوم بشحن المعلومة جواً.

كلفني جعفر بمهمة معلوماتية أخرى وهي الاتصال مع عدد من العلماء والمهندسين العاملين في الجامعات أو الدوائر الحكومية والذين يملكون المهارات والخبرات التي كنا نفتقدها ولكننا أضحينا بحاجة ماسة إليها في مشروع PC3. تطلّب هذا الأمر الكياسة والحذر. كان زملائي يشيرون إلى الخبير الذي له القدرة على إعداد الدراسة أو البحث المطلوب إنجازه. على ضوئه، أقوم في بادئ الأمر بزيارة شخصية له موضّحاً طبيعة العمل المطلوب تأديته والنتائج المتوقّع الحصول عليها ومدى الوقت المخمّن لتنفيذ المهمة بالإضافة إلى المكافأة الكبيرة التي ستمنح له عند إنجاز العمل. لم تكن أقسامهم العلمية أو الإدارية تعلم

بالضرورة تفاصيل هذه الترتيبات. تم التوصل إلى تكليف أكثر من إثني عشر عالمٍ ومهندسٍ لتنفيذ مثل هذه المهام والتي تراوحت ما بين تصميم المحطَة الفرعية الكهربائية في مجمع الطارمية لتجيز القدرة الكافية لتشغيل منظومات البغدادترون بأقراصها المغناطيسية الضخمة وإمتصاص تأثير حدة النبضات الكهربائية الحادة الناتجة عن التبديل السريع في إتجاه المجال المغناطيسي المطلوب لتعجيل أيونات نظائر اليورانيوم داخل الأقراص المغناطيسية، إلى تصميم المتفجرات العدسية المطلوبة في التفجير الإبتدائي للقنبلة.

وبحلول صيف عام 1990، غمرت المعلومات العلمية والهندسية الوثيقة الصلة بعمل العلماء والمهندسين كافة المعنيين العاملين في مشروع PC3، بالإضافة إلى إمكانية توفيرها لهم في فترة قياسية قصيرة عند الطلب. كلّف العمل لتطوير هذا النشاط حوالى النصف مليون دولار خلال ثلاث سنوات. رفع جعفر في صيف عام 1990 تقريراً إيجابياً عن هذا النشاط إلى حسين كامل، رئيس هيئة التصنيع العسكري والمسؤول أمام صدام حسين عن هذا المشروع، مشيراً إلى قيمة الثروة المعلوماتية التي توفّرت في فعالية 3و وإتقان إستخدامها ومقترحاً تعميم الفائدة منها ونشرها على مستوى القطر. وافق حسين كامل على مقترح جعفر وأوعز بإظهار فعالية 3و ومن سرية مشروع PC3 وإبرازها علناً على هيئة "مركز المعلومات المتخصص" التابع (من حيث الموقع فقط) إلى وزارة الصناعة والمعادن في وسط بغداد وتقديم الخدمات المعلوماتية مجاناً إلى كافة الوزارات ومراكز البحوث والجامعات العراقية. كانت فعالية 3و هي الأولى من فعاليات المشروع PC3، البالغ عددها حوالى خمسة عشرة فعالية علمية وهندسية، التي تظهر "علناً" حيث أوعز حسين كامل لباقي الفعاليات بأن تبرز بأعمالها علناً بعد أربع سنوات، في عام 1993، كمشاريع مدنية تعكس الخصوصيّات التقنية والعلمية لها والذي يُعدّ بمثابة التفكيك الكلّي لبرنامج الأسلحة النووية وإندثار مشروع PC3. إنتقلت بفعاليتي والعاملين الثمانية بمعيتي إلى وزارة الصناعة والمعادن في خريف العام 1991 وفتح مركز المعلومات المتخصص أبوابه لتجهيز المعلومات مجاناً في شهر تشرين الأول من تلك

السنة. لم يبقَ في التويثة سوى ختام والنسخة الثانية من مكتبة ميكروفلم للمعايير والمعلومات عن الشركات والتي بقيت في قبو مكتبة الطاقة الذريّة لخدمة مشروع PC3 وإلى ما بعد الحرب حين إلتحقت بنا بعد تعرّض المكتبة ومركز البحوث النووية للقصف.

التوثيق

كان النشاط المعلوماتي أعلاه جزء من مسؤولياتي في مشروع PC3 إذ شمل الجزء الآخر منه توثيق التقارير العلمية والتقنية الصادرة من نشاطات الفعاليات المختلفة في مشروع PC3 وأرشفتها وإخفائها قبل حرب عام 1991.

بعد أن وضعت أساليب وإجراءات توثيق التقارير العلمية والهندسية عند بدء المشروع وإلتحاقي به في عامي 1981 و1982، سلّمت تلك المسؤولية إلى آخرين بعدي أثر مغادرتي المشروع في العام 1983 لعدم متانة "حصانتي الأمنية". وعند عودتي إلى هذا النشاط في أيلول من العام 1987، لم تكن مهمة لمّ شمل فريق التوثيق مرة ثانية تحت إدارة حامد كاظم الدقيق في العمل والمُتمكّن من المسؤولية بتلك البساطة. بذلنا الكثير من الجهد لإسترداد فعّالية عملية التوثيق من الخلل الذي طرأ عليها خلال الخمس سنوات جراء عدم الإنضباط المُلتزم بسياقات العمل التي نصّ عليها الكُرّاس المعني بالتوثيق والمُعد في العام 1982 والتي أدّت إلى الفهرسة المغلوطة والخطأ في متابعة توزيع نسخ التقارير بالإضافة إلى العجلة في إصدار قسم منها قبل التدقيق العلمي المطلوب عليها. على أية حال، قمنا بمراجعة وتحديث سياقات التوثيق والفهرسة أثر التوجّه الجديد نحو إعتماد طريقة EMIS في الفصل الكهرومغناطيسي والتخلّي عن طريقتي PIG وTIG والأخذ في الحسبان الهيكل التنظيمي الجديد لمشروع PC3 بدلاً من الدائرة 3000 وضمان وجود المجموعة التامّة لتقارير المشروع في المواقع البديلة الثلاثة. كان موقع التوثيق المركزي، والذي حُفظت فيه النسخ الأصلية من التقارير وبطاقات المايكروفيش للخرائط الهندسية، في سرداب مبنى رقم 61 في مركز البحوث النووية والذي كان مقر

قسم الإلكترونيات برئاسة المرحوم باسل القيسي. وكان المقـر البـديل الثـاني للتوثيق في بناية الاتحاد العمالي أمام فندق الرشيد، وهو نفـس الموقـع الـذي أُستهدف من قبل ديفيد كاي في شهر أيلول 1991 والذي إقتنص فيـه تقـارير المشروع والذي سآتي على ذِكره. وكانت بناية الحياة، والتي تعود للمخـابرات قرب قصر الرئاسة الجمهوري في الكرخ، الموقع البديل الثالث للوثائق. بـذل حامد كاظم وبمعية عشرة موظَفين بشكل دؤوب، في سرداب البناية 61، علـى إستعادة متانة عملية فهرسة وحفظ التقارير ونسخ الخرائط الهندسية والكهربائية على بطاقات الميكروفيش وإعداد وتوزيع النسخ المطلوبة من التقـارير علـى المعنيين من العلماء والمهندسين والتدقيق والتأكد سنوياً من وجودها لديهم ومن ضمنهم جعفر ضياء جعفر وهمام عبد الخالق، رئيسا مشروع PC3.

على حدّ علمنا، لم يتم تسريب أي تقرير موثّق لمشروع PC3 إلـى أيـدي وكالات المخابرات الأخرى قبل حرب عام 1991 وإلى حين بدء عمـل فـرق تفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

ولم تنحصر مسؤولية التوثيق على ضمان النوعية العلمية للتقارير الصادرة عن الأبحاث العلمية والهندسية فحسب، بل شمل كذلك توثيـق التقـارير التـي يرفعها العلماء والمهندسون أثر عودتهم من السفر إلى خارج العراق لحضـور المؤتمرات العلمية أو القيام بعمليات التفاوض أو الشـراء السـرية للمعـدات والأجهزة والمواد الحساسة. في مُعظم الأحيان، وبعد المراجعة الدقيقة لمحتويات كافة التقارير المرفوعة للتوثيق، كان التقرير يُعاد إلى مُعِـدّه لتوضـيح نقطـة غامضة أو طلب تفصيل مفيد إضافي. وبعد توفّر القناعة بدقة وشمولية التقرير، أقوم برفعه إلى جعفر لمصادقته النهائية مُرفقـاً بـه قائمـة بأسـماء العلمـاء والمهندسين الذين نوصي بتوزيعه عليهم.

في العام 1988، ثارت زوبعة في فنجان حول سياق التوثيق مع المرحـوم خالد إبراهيم سعيد، والتي كان لها مردودات فادحة في العام 1991، إذ رفـض خالد أن تشمل سياقات التوثيق التي تم تحديثها على التقـارير الصـادرة مـن

مجموعته الرابعة المعنية بتصميم القنبلة، وذلك لقناعته بحساسيتها وعدم ثقته بقدرة جهة أخرى في الحفاظ على سريتها وإصراره على إتباع سياقات توثيق وحفظ الوثائق الخاصة بمجموعته بمنأى عن سياقات المجموعات الأخرى في مشروع PC3، مُشيراً أيضاً إلى بعد موقع عمله، في موقع الأثير، والذي هو على بعد حوالى الأربعين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من بغداد والذي كان على وشك الإنتقال إليه مع مجموعته. بذلت جُهداً مُستميتاً في معارضة ذلك المُقترح، عكسته عدة نقاشات حادة وحجج ضد أو مع المُقترح. أصريت على موقفي من أن يكون هناك مستودعاً وحيداً لتقارير مشروع PC3، والذي لم يشمل المجموعة الأولى المعنية بطريقة التخصيب بالطرد المركزي والتي كانت منفصلة كُلياً عنا وتحت إشراف حسين كامل. وبعد أسابيع من النقاش الساخن، تم التوصل إلى تسوية الموضوع ببعض التنازل من قبل كلا الطرفين حيث تم الإتفاق على أن تُقدّم المجموعة الرابعة عنوان ومُلخّص التقرير المنوي توثيقه إلى الفعالية 3و ليخضع إلى سياق الفهرسة والتوثيق المعمول بها في المشروع إلا أن مسؤولية إستنساخ التقرير وتوزيعه ومتابعة الجرد السنوي للحائزين عليه يبقى ضمن واجبات مجموعة التوثيق في المجموعة الرابعة والتي تخضع مباشرة لإدارة خالد إبراهيم سعيد.

وبينما نحن بصدد موقع الأثير، قد يكون من الملائم هنا التطرق لإدعاء باطل آخر لخضر حمزة في كتابه المُلفّق والذي بالغ من دوره الرئيسي في بناء وإدارة موقع الأثير في أواخر الثمانينات، بينما كان هو في الحقيقة يدور في دوامة مُفرغة من قلة العمل في قسم الفيزياء في مركز البحوث النووية في التويثة بُعيد إقصائه من المجموعة الرابعة في العام 1987. كما وكان خضر حمزة قد تقاعد من منظمة الطاقة الذرية العراقية في العام 1989 عندما كانت نشاطات موقع الأثير في أوج ذروتها، ولم يحظ بمكتب له في ذلك الموقع كما وأشكّ في أنه قام بأي زيارة عابرة لموقع الأثير.

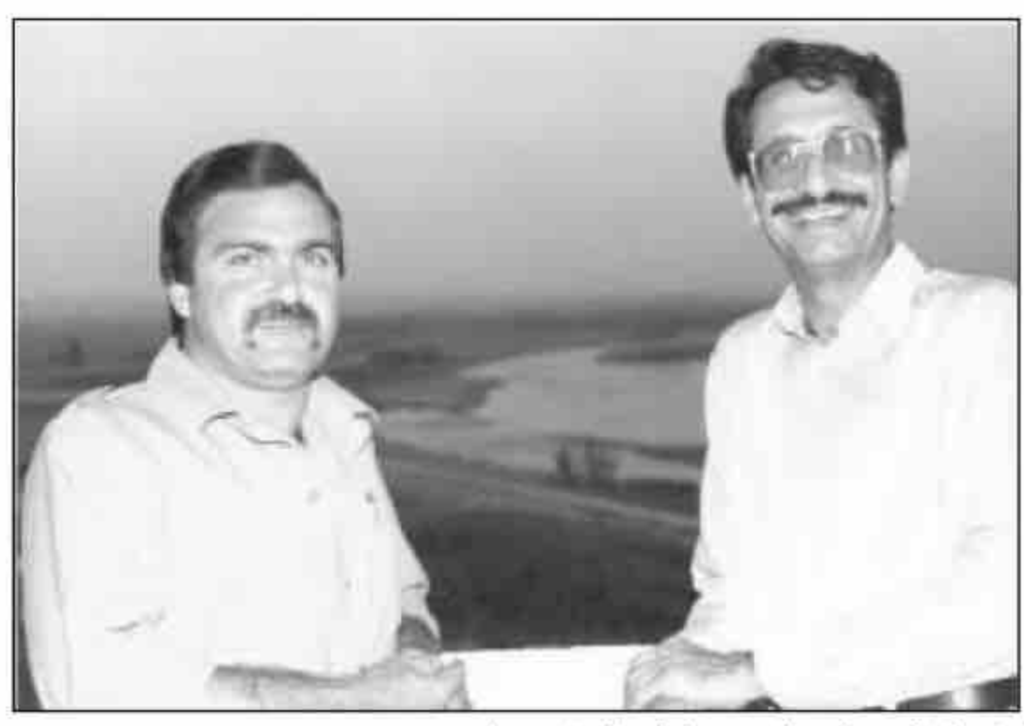
في أوائل العام 1990، جلب إنتباهي إمكانيات جهاز تخزين متطور من

إنتاج شركة كانون اليابانية التي كانت على وشك عرضه في السوق في صيف تلك السنة. أعلنت الشركة عن إمكانية جهازها، كانوفايل 150، من مسح وتصوير وجهي الورقة في آن واحد وبمعدل ستين ورقة في الدقيقة وخزن تلك الصور على أقراص مغناطيسية – ضوئية بمعدل عشرة الآف صورة في القرص الواحد. طلبت من ممثل الشركة في بغداد السماح لنا بإلقاء نظرة على أداء هذا الجهاز حيث قام على أثره في ربيع عام 1990 بشحن نموذج أولي له من اليابان لإطلاعنا وتدريبنا على إستخدامه. حضر الدورة التدريبية على إستعماله في وزارة الصناعة والمعادن كل من سلام توما ورفيقه لؤي وأنا حيث تبيّن لنا الأهمية الأساسية في إتباع فهرسة واضحة للوثائق المقروءة ضوئياً في الجهاز للتمكن من إسترجاع التقارير بصورة متكاملة لاحقاً. أشرت إلى بائعنا الياباني بإبتسامة إلى علامة مطبوعة بخط صغير جداً على جانب الجهاز تحذّر المشتري بأنّ "هذا الجهاز إستراتيجي وحسّاس ويتطلّب إجازة تصدير أمريكية خاصّة" علماً بأنّه من إنتاج وتسويق شركة يابانية، وتغاضى البائع بلباقة عن الإجابة عن هذه الملاحظة. إشترينا أول جهاز تم شحنه من شركة كانون إلى خارج اليابان في حزيران 1990 ومن ثم طلبت شراء جهاز ثانٍ مع قطع غيار تكفي لمدة ثلاث سنوات من التشغيل وخمسة أقراص مغناطيسية – ضوئية فارغة. قدّم ممثل الشركة القرص السادس الذي تدربنا عليه في إستخدام الجهاز كهدية رمزية، والذي أركنته جانباً على سجيتي في الإحتفاظ بمخزون محدود من المواد أوالحلول للإستعانة بها في حالات الطوارئ. وصل الجهاز الثاني على متن آخر طائرة من اليابان تحط في مطار بغداد الدولي في ليلة الثاني من آب عام 1990، ليلة دخول القوّات العسكرية العراقية إلى الكويت. أُغلق المطار في اليوم التالي وللسنوات الثلاث عشرة القادمة.

باشر فريق التوثيق بإشراف حامد كاظم وسلام توما بالعمل الحثيث، مع تلبد السماء بغيوم الحرب القادمة، بإستخدام كلا الجهازين في مسح وخزن حوالى 1600 تقرير صادر عن البرنامج النووي العسكري على مدى عشر سنوات من العمل والبحث والتي ملأت قرصين مغناطيسين– ضوئيين. وشملت

تلك الحملة تقارير المجموعة الرابعة بعد السماح لهم بخزن وثائقهم بأنفسهم على قرص خاص بهم. إلا أنني إحتفظت بكافة الأقراص الثلاثة في غمرة التوتر الذي صاحب قرب موعد إندلاع الحرب إذ كان علينا إخفاء وثائق المشروع المؤرشفة.

ذهبت مع سلام إلى سوق الحقائب قرب شارع المستنصرية وإشترينا ثلاثة صناديق معدنية كبيرة. كنت قد قمت بزيارات عديدة إلى موقع الصفاء في الطارمية على بعد 80 كيلومتراً شمال بغداد، حيث كانت وتيرة العمل على منظومات البغدادترون بإشراف جعفر وظافر على أشدّها. تخلل تلك الزيارات جولات صيد طيور القِطة مع ظافر في المنطقة المحيطة بالموقع. جلب إنتباهي مبنى حديث لمدرسة تقَنية، ألمانية التصميم والبناء، على بعد حوالى سبعة كيلومترات عن موقع الصفاء. تجولّت مع سلام في أروقة هذه المدرسة وعثرنا، ولسبب غامض حتى عن مدير المدرسة، على غرفة صغيرة، عديمة النوافذ ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر غرفتين، أي أنها كانت غرفة داخل غرفة ثانية داخل غرفة ثالثة. ستكون تلك الغرفة المنزوية مكان إخفاء تقارير برنامج السلاح النووي العراقي.



سلام توما، إلى يميني، الصديق الوفي المؤتمن عام 1992.

طلبت من ظافر بأن لا يُعلِم آخرين، وبالذات ضباط الأمن والمخـــابرات، عن أمر قيامنا بنقل الصناديق المعدنية المملوءة بالتقارير إلى مخبـــأ المدرســـة التقنية، إذ لم أكن أئتمِن مراتبهم، وبالذات الصغار وظيفياً منهم في تلك الأجهزة، والذين سيناط إليهم بالتأكيد مهمة "حمايتنا". وافق ظافر على طلبـــي المُخـــالف للتعليمات الأمنية بعد تردد قصير. تدبّرنا، سلام وأنا، أمر نقل الصناديق بمفردنا ورحّب بنا المسؤولون في المدرسة التقنية على أننـــا موظفـــون مـــن مركـــز المعلومات المتخصص الذي تأسس حديثاً في وزارة الصناعة والمعادن وكما دلّ على ذلك العنوان المخطوط على باب سيارة النقل الصغيرة التي يسوقها سلام. وبعد أيام قليلة، أعلمت ظافر بإتمام عملية إخفاء الوثائق وسلّمته نســـخة مـــن مفاتيح الأقفال المُحكمة التي قمنا بنصبها على أبواب الغرف الثلاث في حـــين إحتفظ سلام توما بنسخة ثانية من المفاتيح وأبقيت النسخة الثالثة منها معي. إلا أنني بقيت مُحتفظاً بكافة أقراص الخزن المغناطيسي – الضوئي المُحمّلة بصور 1600 تقرير والفارغة منها أيضاً.

بعد مضي أسبوع من إيداع الوثائق في مكمنها السري، حدث ما لم يكـــن في الحسبان. كانت المجموعة الرابعة قد أرسلت وثائقها، كما كنا نعتقد، لضمها مع بقية وثائق المشروع PC3 بهدف إخفائها. إلا أنه تبيّن بأنهم كانوا قد إحتفظوا بالحساسة جداً منها لديهم، ولسبب ما زلت أجهله، عَـــدلوا عـــن ذلـــك القـــرار وأرسلوا بقية التقارير الحساسة جداً منها مع مسؤول التوثيق فـــي المجموعـــة الرابعة والذي تركها في صندوق كرتوني مفتوح على منضدتي وغادر المكـــان راجعاً إلى موقع الأثير، بدون أي كتاب رسمي أو شرح أو توقيـــع بتســـليمها وإستلامها. إستبد بي الغضب على هذا العمل غير المسؤول والمتـــأخّر، وفـــي عصبية عمياء أرسلت سلام لأخذ الصندوق الكرتوني إلى المدرسة التقنية. وبما أن الصناديق المعدنية كانت مليئة بترتيب واضح وقوائم بفهـــرس محتوياتهـــا ملصق عليها، لم يعبأ سلام، والذي كان هو أيضاً على أشد حالة من الإنزعـــاج لهذا التصرّف العبثي، في إعادة ترتيب محتويات الصناديق المليئة إلى آخرهـــا وترك علبة الكرتون ببساطة فوق الصناديق وقفل راجعاً. شاء المصير أن يكون

هذا الصندوق الكرتوني هو نفسه الذي عثر عليه المفتش وعميل وكالة المخابرات الأمريكية ديفيد كاي بعد سنة. أدّى هذا الكشف إلى تحديد طبيعة موقع الأثير وبالتالي إلى تدميره بالكامل من قبل مفتشي الأونسكوم UNSCOM، وبأمر من (زيفيريرو) الذي كان أحد رؤوساء فرق تفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية في ذلك الوقت.

كما ذكرت سابقاً، إفتتح مركز المعلومات المتخصص أبوابه في مبنى وزارة الصناعة والمعادن في شهر تشرين الأول من العام 1990 بناء على توصية جعفر وموافقة حسين كامل لتقديم خدماتنا المعلوماتية إلى الوزارات ومراكز البحوث والجامعات. وبناءً عليه، نُقلت مسؤولية القسم إلى عادل فياض وسلمّت معاون رئيس الفعالية 3و، مشكور حيدر، مسؤولية التوثيق في PC3 وكذلك نسخ مفاتيح المخبأ في الطارمية، إلا أنني إحتفظت بالأقراص المغناطيسية – الضوئية الخمسة. وصل أمر تلك الأقراص إلى جعفر الذي أبدى إنزعاجه من إحتفاظي بها وطلب مني تسليم الأقراص الثلاثة المخزون عليها وثائق مشروع PC3 إلى عبد الحليم الحجاج، معاون خالد إبراهيم سعيد. إعترضت بشدّة على هذا الطلب بحجة أن الأقراص ستكون آمنة في موقعي الجديد في وزارة الصناعة والمعادن ولوجود جهازي قراءتها، الكانوفايل 150، هناك. إرتفعت نبرة صوت جعفر وكانت تلك حالة نادرة للغاية. وبجناح مكسور، سلّمت الأقراص الثلاثة إلى حليم، ودارت الأيام، وبعد مضي سبع سنوات كان جعفر ما يزال يفتش عن مصير تلك الأقراص بعد أن إستلمها حليم.

وكانت أصوات طبول الحرب تقترب.

خُصصت مساكن بديلة، في حالة نشوب الحرب، لعائلات العلماء والمهندسين القياديين ومسؤولي الإدارة العليا في المشروع في موقع الفجر قرب مدينة الشرقاط والتي تقع على ضفاف نهر دجلة على بعد حوالى 200 كيلومتر إلى الشمال من بغداد. كان الفجر الموقع البديل ونسخة عن موقع الصفاء في الطارمية الذي تم فيه نصب وتشغيل منظومات البغداد ترون وبدء الحصول على اليورانيوم عالي التغّنية. كان موقع الصفاء في المراحل الأخيرة من

الإنشاء إستعداداً لنصب منظومات إضافية من البغداد ترون فيه، وكان المُجمّع السكني الخاص بالموقع، والذي يستضيف حوالى خمسين عائلــة، علــى بعــد حوالى سبعة كيلومترات إلى شماله وقرب مدينة الشرقاط. كان كامل الموقع من السرية بحيث لم يُسمح لغير العراقيين بالعمل على إنشائه. تميّز رئيس الموقع، موفق مطلوب، بهدوء إدارته وضيافته وغمر الوافدين إليه بإبتسامته المعهودة.

في صباح يوم الأربعاء الذي سبق ليلة بدء زخات القنابل علــى بغــداد، سافرت إلى الشرقاط لحجز أحد البيوت هناك ولإعداد قائمة بالمواد التي نحتاج إلى جلبها معنا. كان الضباب الشديد يغطي الطريق بحيث لم يكــن بمقــدوري رؤية الخط الأبيض على حافة الطريق مما إضطرني إلى الإنحراف عن الشارع الرئيسي والإنتظار لساعة من الزمن في إنتظار إنقشاع الضباب الكثيف. وعندما رجعت إلى بغداد، تدبرّت مع سلام توما ضــمان ســلامة محتويــات مركــز المعلومات المتخصص حيث أحكمنا غطاء الحواسيب المخزونة فــي ســرداب الوزارة بأغلفة بلاستيكية ونقلنا معظم رفوف أفلام المايكروفلم إلى بيوتنا. وفي مساء ذلك اليوم، عرجت على منزل المرحومة والدتي وجلبتها إلى بيتنا حيــث إنهمكنا في تهيئة حقائب الســفر وجمــع الأوراق الرســمية المهمــة وشــراء البطاريات والشموع.

في الساعة الثانية والنصف من صباح السابع عشر من شهر كانون الأول عام 1991، تعالت صيحات صفارات الإنذار الباكية المروّعة ممزقة هدوء الليل بنغمات سوداوية غير عاطفية بالمقارنة مع بكاء النساء العجائز في موت فــرد من العائلة. سحبت أطفالنا المسحورين بالألعاب النارية التي جلبتها صــواريخ الموت بعيداً عن النوافذ خشية تحطّم الزجاج في وجوههم من عصــف موجــة أحدها. وفي ضوء الفجر الباهت، إذ إنقطعــت القــدرة الكهربائيــة وخطــوط الهواتف، حزمنا حقائبنا وغادرنا إلى الشرقاط مع أمّي.

ساورتني هواجس مُنذِرة بالشّر طول الطّريق إلى الشــرقاط. مــاذا لــو أخطأت القنابل الأمريكية "الذكية" هدفها في الهجوم على المفاعل الروسي فــي مركز البحوث النووية في التويثة واخترقت حاوية المفاعل الخرسانية مُطلقــة

سحابة ذات نشاط إشعائي مُدمّر؟ سيكون ذلك بمثابة حادثة "تشيرنوبيل" صغير يصيب بغداد (في عام 1986، وبسبب خطأ في التشغيل، إنفجر مفاعل كهرونووي قرب مدينة تشيرنوبيل في أوكرانيا في الإتحاد السوفياتي سابقاً مُطلقاً سحابة مُشعّة غطت معظم أنحاء أوروبا). في تحمّل مثل هذا المجازفة العمياء بالقصف حول وعلى مفاعل مركز البحوث النووية في التويثة، يبرهن العسكريون الأمريكان مرة أخرى على تراثهم الغاشم الإجرامي في استخدام أسلحة الدمار الشامل أنفسهم عبر تدمير هيروشيما وناجاساكي نووياً في اليابان ونشر مبيد الديوكسين السرطاني المعروف بإسم (Agent Orange) على قرى وغابات فيتنام.

تبيّن لنا لاحقاً بأن القنابل الأولى كانت قد سقطت فعلاً على بعد عشرات الأمتار من بناية المفاعل في التويثة وبصورة مباغتة وبينما كان المفاعل ما زال شغّالاً. هرب مشغلو المفاعل من البناية عند سقوط أولى القنابل بالقرب منهم ولكنهم عادوا وبشجاعة فائقة إلى غرفة السيطرة والتحكم في البناية وأغلقوا المفاعل بصورة طبيعية ووضعوا الغلاف الفولاذي فوق بركة المفاعل المفتوحة بينما إستمر تساقط القنابل حول بناية المفاعل فضربت قنبلة إحدى قاعة المفاعل. ولحسن الحظ، لم تخترق القنابل ذلك الغطاء الفولاذي القابع فوق سطح المفاعل ولم تتسبب في شرخ الغلاف الخرساني السميك الذي يحيط بحاوية المفاعل المملؤة بالماء الذي يُبرّد قلب المفاعل.

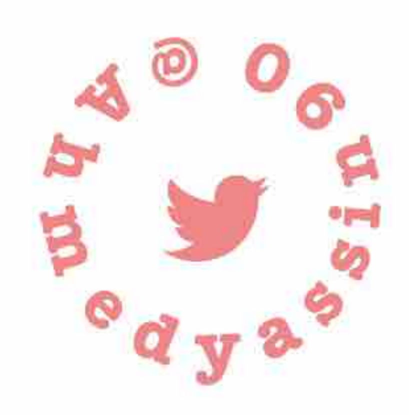
توقّفت مسيرة برنامج السلاح النووي العراقي في ذلك الصباح، ولم يُجدد العمل فيه بتاتاً، إلى الآن.

كم إقترب العراق من حصوله على القنبلة النووية بعد عشر سنوات من البرنامج المُكثّف لتطوير هذا السلاح؟

إستطاع فريق العمل في موقع الصفاء في الطارمية، بإشراف جعفر وظافر، من الحصول على الأغلب على حوالى خمسة غرامات من اليورانيوم 235 بالتغنية العسكرية المطلوبة، في حين يحتاج قلب القنبلة، مع تلفيات تصنيعها، إلى حوالي الثمانية عشر إلى العشرين كيلوغراماً منه.

أما بالنسبة إلى تصميم القنبلة، فلقد كانت فرق العمل في موقع الأثير، بإشراف المرحوم خالد إبراهيم سعيد والمُكلّفة بهذه المسؤولية، ما تزال في خضم التصاميم التجريبية للقنبلة ولم تتوصل بعد إلى التصميم النهائي لها، إذ كانت لا تزال هناك بعض الإعتبارات العلمية بخصوص الوزن الكليّ للقنبلة الممكن التوصل إليه بالإضافة إلى إختبارات أخرى للصواعق المتفجّرة الإلكترونية الدقيقة السيطرة والتي يؤدي تفجيرالعشرات منها آنياً في أنحاء القنبلة إلى تشكيل موجة عدسة الصدمة التي تضغط بدورها على كرة اليورانيوم في قلب القنبلة لزيادة كثافتها وصولاً إلى الكتلة الحرجة لبدء عملية التفاعل المتسلسل النووي. جرى العمل على مسوحات أولية لتحديد موقع صحراوي لإختبار القنبلة، في حالة التوصل إلى تصنيعها. يتطلب هذا الإختبار أيضاً مضاعفة كمّية اليورانيوم المطلوبة لتجهيز القنبلة الإختبارية. وأخيراً، كانت أنظمة التوجيه والسيطرة الصاروخية رهن التطوير وليست بالمستوى المُعتمد المطلوب.

وإجمالاً، كُنّا، في تخميني، قد مضينا في الشوط حوالى 10–20 بالمائة من حيث كان يجب أن نكون في حالة إمتلاك العراق للسلاح النووي، وكان سيتطلّب لتحقيق ذلك بضع سنوات أخرى من العمل والتطوير والإنتاج.


@Ahmedyassin90

الفصل السادس

التفكُّك والهروب

خلال حرب 1991

رغم توفّر التجهيزات الضرورية تحت ظروف الحرب الصعبة في موقع الفجر السكنيّ في الشرقاط، تحت الرعاية الكفوءة لمدير الموقع موّفق مطلـــوب، إلا أن مظاهر الحياة الطبيعية خارج الموقع السكني أخذت تتلاشى تدريجياً مع مرور الأيام والأسابيع. في الأيام الأولى مـــن الحـــرب، أســـقطت الطـــائرات الأمريكية شباكاً مزروعة بحبات من مادة الجرافيت على الشبكات الكهربائيـــة حول مواقع محطات الطّاقة في البلاد ممّا تسبب فـــي إحـــداث دوائـــر قصـــر كهربائي أدت إلى وقف تشغيل المحطات وحالت دون توزيع الكهرباء في أنحاء العراق وأُغرقت البلاد في ظلام دامس. وتعطلت شبكات الهاتف بفعل قصـــف مراكزها منذ اليوم الأول من أيام الحرب، وشحّت مادة بنزين السيارات، وكذلك وقود التدفئة في عِزّ الشتاء القارص.

عدت إلى بغداد عدة مرات أثناء الحرب لكي أتفقّـــد مركـــز المعلومـــات المتخصص في وزارة الصناعة والمعادن. لم يكن الوصول إلى بغـــداد خـــلال الحرب بالأمر السهل تحت رشق الرصاص وإنفجار القنابل الملقاة من الطائرات الحربية الأمريكية على طول الطريق، وما لدينا من وقود مُقنن بالكـــاد يكفـــي

للوصول إلى بغداد. وكان إشعال الحطب في موقد التدفئة المصدر الوحيد للإضاءة والتدفئة في بيتنا عند قضائي الليل فيه. وللإطمئنان على أقربائي وأصدقائي الذين غادروا بغداد في الأيام الأولى من الحرب ثم عادوا إليها بعد مرور بعض الوقت، كنت أستقل درّاجتي الهوائية عندما يرخي الليل ستاره وأسوق لوحدي في شوارع بغداد الخالية أتابع تقاطع نيران المدفعية المضادة للطائرات مضيئة السماء وهي تحاول أن تصيب أهدافها اللامنظورة، يتبعها وهج القنابل والصواريخ عندما تضرب هدفاً محدداً أو تسقط على غير هدى. في الليلة التي قضيتها عند صديقي منذر شماس في منطقة الجادرية، إرتعشت الأرض تحت أقدامنا عندما ضربت القنابل الجسر المُعلّق فوق نهر دجلة القريب منّا. وعندما نمت قرب ابن عمتي صلاح الصائغ، وكان قد أفرط الشراب في تلك الليلة، سمعته وهو يكيل اللّعنات على صدام حسين أثناء نومه مخموراً.

بدأت الأخبار تتسرب إلى مسامعنا وفي طيّاتها بعض مآسي الحرب. فإلى الجنوب من الشرقاط بحوالى 100 كيلومتر، وبالقرب من مدينة سامراء التاريخية، قصفت الطائرات الأمريكية مجمعاً سكنياً شبيهاً بمجمّعنا يعود إلى مؤسسة البدر الكهربائية في الأسبوع الأول من الحرب وقُتل فيه حوالى الخمسين من النساء والأطفال. وصلنا أيضاً خبر أخر عن هجوم مماثل وقع على مجمع عشتار السكني القريب من مركز البحوث النووية في التويثة الذي إستخدمه الفريق الفرنسي وعائلاتهم أثناء إنشاء مفاعلي تموز 1 وتموز 2، ثم أصبح سكناً للعلماء العراقيين العاملين في المركز وعائلاتهم. في كثير من الليالي كان منزلنا في الشرقاط يهتزُّ من الإنفجارات العنيفة التي خمنّا مصدرها قصف مخازن الذخيرة ومعسكرات الجيش التي تبعد كيلومترات عديدة عن موقعنا. وإستخدمت عائلتي عدة مرات "ملجأً تحت الارض" بنيناه بطريقة بدائية أمام بيتنا. لكن رغم الظروف الصعبة التي كنّا نمر فيها، لم تخلُ أوقاتنا من الأحداث المؤنسة. من الذكريات اللطيفة مشهد ظافر سلبي وأخويه يشويان (يسكفان) سمكتين كبيرتين أمام منزلهما والطائرات الحربية تحلّق فوقنا. كما وأمضينا نيران وأنا سهرات اجتماعية ممتعة في لعب الورق مع عائلتي صباح عبد النور



عائلتي أمام "الملجأ تحت الأرض" في موقع الشرقاط خلال حرب عام 1991.

وماهر سرسم، أصدقائي الأعزاء والعالِمَين في المجموعة الرابعة، لساعة متأخرة من الليل، نعود بعدها بعناية على ضوء الفانوس ونُبعد الكلاب الضَّالة بعصا أحملها.

تعكس قرية الشرقاط القديمة جذورها التاريخية في وجوه أبنائها. وتحيط المدينة مواقع تنقيب وآثار كثيراً ما ترددنا عليها مع قطعان الغنم السارحة. وفّر لنا موفق مطلوب، مدير الموقع، حافلة لنقلنا يومياً إلى داخل مدينة الشرقاط لتسوّق الطعام والحاجيات الضرورية وعانينا القليل ما عانى منه بقية العراق أثناء الهجوم الوحشي عليه.

في مطلع شهر آذار 1991، وفيما كانت الحملة العسكرية تدرك نهايتها، سافرت ثانيةً إلى بغداد لأتفقد مركز المعلومات المتخصص. عند الرجوع، توجهّت إلى موقع الصفاء في الطارمية، والذي كان تحت إدارة ظافر سلبي، للإنطلاق رجوعاً إلى الشرقاط حيث تبيّن بأن موقع الصفاء نفسه كان قد تعّرض للقصف العنيف قبل يومين. نحا ظافر بي جانباً ليُبلغني أنَّ موقع الفجر في الشرقاط، الذي ركنت إليه عائلات العديد من العلماء والمهندسين، قد تعـرّض للقصف خلال الليلة الفائتة، لكنه لا يعلم عن مدى الدمار الذي لحق بالموقع

وفيما إذا كان المجمع السكني نفسه قد أصيب أثناء القصف أم لا. جلست في الحافلة مع بقية العائدين إلى الشرقاط بهدوء ظاهري وبتوتر شديد داخلياً مُلجماً نفسي عن البوح بأمر قصف الشرقاط لعدم إثارة قلق المسافرين معي طيلة فترة السفر. كانت تلك أطول ثلاث ساعات مررت بها في حياتي. ما أن لفَّ الباص حول آخر منعطف في طريقه إلى المجمع السكني، جذبت إنتباه الركاب وأبلغتهم نبأ القصف حتى يتأهلوا لما يمكن أن يشاهدوه بعد لحظات. من حسن الحظ، لم يُطال القصف المجمع السكني بعكس التدمير الذي حلَّ في مُنْشآت وأبنية موقع الفجر الذي يبعد عن المجمع السكني بحدود السبعة كيلومترات. في اليوم التالي، غادر جميع السكان المجَمَع ولم يبقَ فيه سوى عائلتي وعائلة موفق مطلوب. إرتأت نيران وأمّي البقاء في الشرقاط نظراً لتحمّل الأطفال صدمة الهجوم بدون أي هلع أو فزع فلا داعي إذن للانتقال إلى أي مكان آخر.

توقفت الأعمال الحربية بعد يوم أو يومين من ذلك الحادث، وجاء ظافر إلى مجمع الفجر في زيارة رسمية قصيرة وصحبته في طريق عودته إلى بغداد تلبية لمهمة عمل. يقترب الطريق السريع إلى بغداد حوالى مائة متر من مصفاة تكرير النفط الواسعة قرب مدينة بيجي الواقعة على بعد حوالى خمسين كيلومتراً إلى الجنوب من الشرقاط. عند مرورنا قرب المصفاة، شاهدنا الآثار التدميرية الهائلة التي سببها القصف الشديد وحيطان النيران المشتعلة في النفط المسكوب ليصل إرتفاع لهيبها إلى ما بين 100 و200 متراً في الجو. عدنا نحن الإثنين إلى زيارة نفس المصفاة بعد شهرين لنشرف على أعمال إعادة تأهيلها والتي إضطلع بها علماؤنا ومهندسونا النوويُون. لمّا شاهدت عن كثب مدى الخراب الناتج، والأنابيب المُدمّرة والحاويات الحديدية وقد مزّقها الرصاص فباتت كالمناخل، أعربت عن شكوكي في إمكانية إعمارها لنتمكن من العمل والإنتاج من جديد. لكن ظافراً، الذي كان أكثر معرفة بقُدرات مهندّسيهِ وخبرات فنييّه العالية العاملين بإشرافه، قال بكل بساطة: "إن شاء الله تشتغل خلال ثلاثة شهور". وكان على حق.

بعد انتهاء الحرب بأيام قلائل، وبينما نحن في الحافلة مع أمتعتنا بمعية

العائلات الأخرى العائدة إلى بغداد، إلتفت إلى ماهر سرسم، صديقي المُقــرّب والفيزيائي الذي عُهِدت إليه مهمة البحث عن موقع مناســب لإجــراء تجربــة السلاح النوويّ، وأسريت له عن خشيتي من ردّ فعل غريزي عنيف من جماهير الشعب العراقي بعد هزيمتنا الشنيعة وقلت له بلهجة يغلب عليها التشاؤم: "ربُنا يُستر". لم أكن أعلم في حينها بأن فورة الغضب كانت قد طفحت في البصــرة بإنتفاضة عفوية وتحطيم صور صدام حسين عند مفترق أحد الطرق مما أشعل ثورة واسعة في صفوف أهل الجنوب الشيعة. بعد ذلك الوقت بعام أو عــامين علِمت بمدى وحشية ردّ فعل البعثيين وما فعلوه بالأهالي الثائرين، وعن مــدى إتساع الحركة الشعبية ومساهمة النساء فيها، وعن القبور الجماعية، وعن الدمار الذي حلّ بالمراقد الإسلامية المقدّسة في كربلاء والنجف الأشرف. كما وبلغني مدى الحنق على الأمريكيين الذين ســمحوا لطــائرات الحــرس الجمهــوري العامودية بالتحليق بحُريَّة في أجواء الجنوب لتُمعِنُ في دحــر الثــائرين. كمــا وعلمنا أن الأكراد في الشمال، حالهم حال العرب في الجنوب، كانوا قد صدَّقوا دعوة بوش الأب إلى الثورة ولكن عندما إنتفضوا بسلاحهم، تركهم الأمريكــان دون أي غطاء جوي أو عسكري ليلقوا نفس المصير المؤلم للثوّار في الجنوب. أثناء عودتنا من الشرقاط إلى بغداد، شاهدنا أعداداً كثيرة من دبابــات الحــرس الجمهوري الجديدة تسير عكس إتجاهنا، دون أي عائق، في طريقها إلى الشمال لقمع الإنتفاضة الكردية.

بعد مضي أسبوعين على إنتهاء الحرب، وبينما كنت أتبادل الحديث مــع بنت الجيران الجميلة زينب البياع، أفصحت زينب عن نبؤة مُنذِرة بالثبور: "ما دامت الإنتفاضات الشعبية قد فشلت في الشمال والجنوب، فإن صــدّام ســوف يزداد قوةً ويستمر في الحكم لسنوات طويلة قادمة". كان عُمر زينب آنــذاك لا يتعدّى الثمانية عشر ربيعاً. وبالفعل، دام حكم صدام لإثني عشر عاماً أخرى.

تحسُّباً مني لظروف أسوأ لا زالت في عالم الغيب، قمت بعد أيام قليلة من رجوعنا إلى بغداد في الحصول على إصدارات جوازات سفر جديدة لزوجتــي وأولادي. أمّا بالنسبة لي، وبما أنني أعمل في منظمة الطاقة الذرية العراقيــة،

فإن إسمي كان على لائحة الذين لا يجوز لهم الحصول على جواز سفر إلاّ عند السفر في مهمات رسمية وبمعرفة وموافقة أجهزة المخابرات والأمن. وكان هذا هو نفس السبب في معاناتنا الطويلة والمؤلمة أثناء محاولتنا الهروب سراً من العراق والتي خضنا غمارها جدياً بدءاً من العام 1995 ولم تتحقق إلاّ بصعوبة بالغة ما بين خريف عام 1997 وصيف عام 1998.

فور عودتي للعمل في منتصف شهر آذار من عام 1991، قدّمت طلباً للإحالة على التقاعد إلى جعفر ضياء جعفر، رئيسي الأعلى في مشروع البتروكيمياويات 3. بَدت الحيرة على وجه جعفر عندما أطلَعَ على طلبي أكثر منها دهشة، إذ فوجئ بما طلبته. ونظراً للعلاقة الشخصية التي تُربطُني به، شرحت له عن القرار الذي أخذته مع نفسي في الستينات على "أن لا أتزوج سوى إمراة عراقية، وأن أُربِّيَ أبنائي في بيئة عربية عراقية حميمة الثقافة والتقاليد، ولكن عاهدت نفسي على الكفاح حتى يحصلوا على أفضل سُبل التعليم التي يُمكِن لي ولأمهم ان نوفرِّها لهم، وذلك حسب تقاليد أسرتي". كما وشرحت له بأني مُدركٌ بأن تحقيق الموافقة على إحالتي على التقاعد سوف يستغرق أعواماً طويلة، نظراً للبيروقراطية السائدة والظروف التي نمرّ بها، لكن بعد مرور ست أو سبع سنوات سيكون أولادي على أعتاب دراستهم الجامعية بعد أن ينهوا الدراسة الثانوية، وهذا هو سبب تقديمي الطلب في حينها. بأدب وكياسة لم يرفض جعفر طلبي، إنما همّش عليه لإعلام سكرتيره "للحفظ، وعرضه عليَ مُجدداً بعد شهر"، إذ كان لديه مُهمّة جديَّة عليَّ إنجازها بسرعة وهي: "عقد المؤتمر الأول لإعمار وإعادة تأهيل قطاع الكهرباء خلال أسبوع واحد" لنبحث فيه مدى الضرر الحاصل في محطات الكهرباء وسُبل إصلاحها. لم يكن قد مضى على إنتهاء العمليات العسكرية سوى أسبوع واحد.

أثناء تلك الفترة القصيرة، إلتأم شمل مجموعتي في مركز المعلومات المتخصص وتضافرت جهودهم مُتمثلةً في إندفاع المُساعد المخلص سلام توما، وجهود أمينة المكتبة ناهدة إسماعيل وإخصائية البحث ختام حسن، والمهندس المُبدع وليد خالد وإثنين أخرين من الزملاء، في الإعداد للمؤتمر. واجهتنا العديد

من المشاكل والعراقيل. لقد كان عليَّ أن أدعو إلى المؤتمر كبار المهندسين ومدراء الأقسام في جميع محطات القدرة الكهربائية في العراق، بدون توفّر الهاتف أو وسائل الاتصال معهم، ما عدا جهود فريق الاتصالات، الذي تولاه المهندس القدير الوقور زغلول كسَّاب، والذين إستطاعوا أن يوفِّروا خدمات بدالة هاتف صغيرة الحجم تعتمد على الطاقة الشمسية، إلا أن خدماتها كانت تقتصر على مراكز مشروع PC3 وبعض الوزارات الأخرى في بغداد. وعليه أرسلت سلام في سيارته إلى سائر محطات الكهرباء المُتضررة في أنحاء العراق حاملاً بيده دعوات حضور المؤتمر.

حملة الإعمار

إنعقد المؤتمر في موعده المُحدد ولفترة ثلاثة أيام في مسرح قريب من وزارة الإعلام، مقابل فندق الميليا منصور حيث نزل المشاركون مجاناً. الحقيقة تُقال إن الجهود القديرة التي بذلها العاملون بمعيتي بدت واضحة لعيون المشاركين من خلال دقة التنظيم وكفاءة الأداء اللَّتين أدَّتا إلى نجاح المؤتمر على الرغم من محدودية إمكانياتنا. وتمكنَّا من إعداد وطبع إجراءات المؤتمر التي تضمنت أكثر من عشرين ورقة عمل شارك بها المجتمعون وتوزيعها على المشاركين خلال فترة أسبوع من إنتهاء المؤتمر. على غِرار هذا الإداء، إستطعنا تدريجياً إزالة شكوك كبار موظفي قطاع الكهرباء الذين لم يكونوا مقتنعين بإمكانية تحقيق طلب الإعادة السريعة لخدمات قطاع الكهرباء في البلاد، عندما لمسوا القدر العالي من الإنضباط ومدى فعالية العلماء والمهندسين في PC3 في إندفاعهم للمشاركة في إعادة بناء المحطات ومُنشآتها التي قُصفت أثناء العدوان. كانت قِوانا في أوج زخمها إستعداداً للعمل حيث إن برنامج السلاح النووي كان قد توقّف منذ الليلة الأولى للحرب بعد قصف معظم مُنشآتنا الحساسة. ومما ساهم في نجاح مساعينا وجود كميات كبيرة من قطع الغيار لمُعدات المحطات في مخازن تلك المحطات خاصة وإن تشييد هذه المخازن كان يتم عادة على مسافة بعيدة نسبياً عن المحطة الرئيسية، والتي سَلِمت من الدمار في هذه الحالة. كما وإن وفرة قطع الغيار التي كانت موجودة في تلك المخازن

جاءت بدورها نتيجة القوانين الحكومية المُتّبعة والتي كانت تنصُ على وجوب إستيراد ما يكفي من قطع الغيار لكل مُعِدّة أو جهاز تقني مستورد من الخارج لضمان إستمرارية تشغيله لفترة ثلاث سنوات.

على وقع خطى نجاح أعمال إعمار محطات الكهرباء التي أكتسبت دفعاً وحماسةً بجهود العاملين فيها بمعية كوادرنا، تمكنّا من عقد مؤتمرين آخرين في الأشهر الثلاثة التالية لمتابعة وتقويم وإعادة توزيع جهود إعادة إعمار قطاع الكهرباء. بناءً على ذلك، ومع بدء عودة التيار الكهربائي من جديد، إتسع نطاق عملنا ليشمل قطاع النفط، وقام مهندسونا وعُمّالنا الفنيون وخاصة ذوي الإختصاص في أعمال اللحام منهم بالمساهمة في إصلاح مصفاة بيجي المُدمرة الواقعة إلى الجنوب من الشرقاط ومصفاة الدورة القريبة من بغداد. كما وساهمت كوادرنا المُختصة في الاتصالات في إعادة تأهيل وتشغيل مباني وبدالات الهاتف.

في خلال فترة أربعة إلى خمسة شهور، تمَّ تزويد العراق بثلث طاقته الكهربائية التي كانت عليه قبل الحرب، كما وأُعيد تشغيل وإنتاج مصافي النفط في فترة زمنية مُماثلة.

بكل تواضع، يُمكن إعتبار جهود حملة الإعمار بُرهاناً يُفتخر به عن العزيمة الصادقة والمرونة الحقيقية والإبداع التي تتحلّى بها الروح العراقية، في ظِل نظام متماسك في تركيبه.

في تلك الأثناء، كان مفتشو الأمم المتحدة على وشك القدوم إلى بغداد. في شهر نيسان من العام 1991، أعدّ كل من جعفر ضياء جعفر ونعمان النعيمي، الكيميائي الرفيع المستوى في البرنامج النووي العراقي، مُذكرة تُحدد فيها جميع المراكز والمُنشآت العاملة ضمن برنامج السلاح النووي ونشاطات كل منها. رُفعت القائمة إلى حسين كامل، رئيس هيئة التصنيع العسكري، قبلَ تبني مجلس الأمن الدولي القرار رقم 687 لعام 1991 القاضي بتكليف فرق التفتيش مزاولة نشاطاتها في العراق. أصدر حسين كامل أمراً بالإفصاح فقط عن نشاطات ومواقع معينة وحجب ذِكر بقية المواقع الموجودة على القائمة، بما فيها مركز الأثير لتصميم السلاح النووي وما تنطوي عليه نوعية أعماله.

وفي تلك الأثناء أيضاً، تقدّم ظافر سلبي بطلب إحالته على التقاعد. كـان ظافر قد سمع عن طلبي المُماثل واتصل بي ليعرض علي مُقترحاً. يتمتع ظافر بمَلَكة صحفية فريدة، وربما لا زال يزاولها إذ إنه يُحب أن يسجلَ أفكاره كتابةً. تتميّز كتاباته السياسية بلمسات تجريدية محضة فتأتي الكلمات المصـوّبة فـي حبكة نظرية يصعب عليّ أحياناً هضمها. شجّعه خبرٌ مفاده قرب صدور قانون يفسح المجال لحرية الصحافة والسماح بإصدار صحف مستقلة. فعرض عليَّ أن يقوم برفع طلب معاملتي للإحالة على التقاعد إلى مرتبة إدارية أعلى من جعفر، وبالذات إلى حسين كامل، وذلك عندما يتوجه هو لبحث فحوى طلبه الشخصي بالتقاعد. ففي حال نجاح مسعاه عند حسين كامل وتمّت الموافقة علـى طلبـي للتقاعد، فإن عليَّ الموافقة على مساعدته في تأسيس صحيفته المُستقلة التي ينوي أن يؤسسها وأن أتولّى مسؤولية القسم التقني والحاسوبي فيها. بـادرت فـوراً بالموافقة على شروطه وفي خاطري قدراته الإدارية الممتازة وبراعته الفكرية. بعد شهور ستة، وافقَ حسين كامل على طلب ظافر التقاعدي (كان ذلـك فـي أيلول 1991)، بينما لسوء الحظ أمر بوضع طلبي على الرف – لدرايته بأهمية مركز المعلومات المتخصص في حملة الإعمار.

بعدما أيقنت من عودة شبكة الهاتف إلى البلاد، عزمت وبمبادرة شخصية بحتة بدءاً من صيف العام 1991 بربط جميع مراكز الأبحاث والجامعات فـي سائر أنحاء العراق بشبكة معلوماتية مُتكاملة. إستعملت لتحقيق هـذا الغـرض أجهزة التراسل (المودم) التي تربط الحواسيب الشخصية مع بعضها عبر خطوط الهاتف. قُمت على مدى عامين، وبمعية المهندس القدير والودود أياد محيميـد، من زيارة وتوفير وربط حوالى ستين مركزاً بحثياً وجامعة بخـدمات الشـبكة المعلوماتية التي تتيح للباحثين والطلبة والأساتذة بالاتصال حاسوبياً من خـلال الهاتف والتفتيش عن المعلومات والبيانات الموجودة فـي قواعـد المعلومـات العديدة المتوفرة على الأقراص المُدمجة (databases on CD-ROMs) الموجـودة في مركز المعلومات المتخصص في وزارة الصناعة في بغداد وطبـع نتـائج التفتيش على الطابعات المتوفرة لديهم في مواقعهم. ورغم الظـروف الصـعبة

آنذاك، كان بإمكاننا تحديث وشراء قواعد المعلومات عن طريق قنوات عـــادل فياض في الأردن. كان لدينا ما يزيد عن العشـــرين مـــن قواعـــد المعلومـــات للدوريات العلمية والهندسية، بالإضافة إلى خمسة ملايين براءة إختراع أمريكية، والنصوص الكاملة لجميع أطروحات الدكتوراة والماجستير في كافة الجامعـــات الأمريكية والعديد من الجامعات العالمية تعود إلى الثلاثينات من القرن الماضي، وملخَّصات عن أطروحات الدكتوراة الأمريكية تعود إلى سنة 1864، بالإضافة إلى المكتبة المُتكاملة للمواصفات والمعايير الصناعية الأمريكيـــة والأوروبيـــة والدولية على هيئة المايكروفلم والمايكروفيش.

بعد شهور قلائل من إنتهاء الحرب، كنا نفتح أبواب مركزنا فـــي الثامنـــة صباحاً لنجد صفّاً مُنتظراً يجمع ما بين عشرين إلى ثلاثين من مهندسي الدولـــة والطلاب والباحثين الجامعيين، أتوا جميعاً للحصول على معلومـــات مجانيـــة تُعينُهم على إعادة تأهيل القطاع الذي يعملون فيه أو كتابة إطروحاتهم الجامعية.

جاءنا في أحد الأيام ضابط يعمل في مركز أبحاث الكِنْدي العسكري، الذي يقع في الشمال قرب مدينة الموصل، حاملاً معه قطعة صغيرة مـــن المطـــاط الصلب تم إستردادها من حطام طائرة حربية أمريكية. طلب الباحثون في مركز الكِنْدي معرفة طريقة تصنيع هذه المادة. بعد فحص قطعة المطـــاط الصـــلبة، لاحظتُ وجود دمغة أو مهر على أحد جوانبها تحمل العلامة التجارية الخاصة بالشركة المُصنّعة لهذه المادة. بعد مراجعة فهرس العلامات التجارية الأمريكية الموجود لدينا، والعثور على إسم الشركة المعنية وتفاصـــيل منتوجاتهـــا علـــى المايكروفلم، قُمنا بإرسال خمسين صفحة عبر (الفاكس) إلى مركز الكِنْدي يشرح عملية التصنيع لنموذج المطاط الصلب برمَّتها. إستغرق البحث كله مدة نصف ساعة من لحظة وصول مندوب المركز إلى مقرّنا إلى إستلامهم التقرير الوافي حول طلبهم.

قامت ناهدة، أمينة المكتبة في مركزنا، وبجهد صبور وإتقان بتدريب أكثر من أربعمائة شخص من المراكز البحثية والجامعات علـــى إســـتعمال شـــبكة المعلومات. لم يتجاوز عدد العاملين في مركز المعلومـــات المُتخصـــص عـــن

العشرة، حيث منحتهم كافة الصلاحيات التي تُمكّنهم من تقديم الخدمات المعلوماتية مباشرة وبدون الرجوع إليّ إلاّ في الحالات المُستعصية، مما سمح لي ولأياد بالسفر والتنقل لتنفيذ نصب الشبكة في أنحاء العراق عبر سنتين من الزمن. وقُمنا أيضاً بكتابة وتشغيل نظام حاسوبي يعنى بحساب رواتبنا الشهرية، نظراً لتعذر القسم المعني بهذا الأمر في مشروع PC3 من القيام بذلك لتفكيك الحاسوب الرئيسي لديهم ونقله من مركز البحوث النووية. لم يَلقَ هذا النمط المرن في النهج الإداري المفتوح وغير المعتاد ترحيباً لدى الأجهزة الأمنية في هيئة التصنيع العسكري التي كنا مُرتبطين بها شكلياً في بداية الأمر ثم إنضممنا كُلياً تحت سيطرتها بعد فترة سنتين من إنتهاء الحرب وتفكك مشروع PC3 كُلياً.

الحجز من قبل حسين كامل

بدأ مفتشو الأمم المتحدة في الوصول صيف عام 1991، وباشروا في مقابلة بعض العلماء والمهندسين في مشروع PC3 والذي إستوجب سحبهم من فعاليات الإعمار التي زُجّوا فيها. إشتكى العديد منهم إلى جعفر من الحرج الذي جابهوه عند محاولتهم الإجابة الدقيقة على أسئلة المفتشين العلمية والهندسية وطلبوا من جعفر الرجوع إلى والإستعانة بالتقارير العلمية التي تم توثيقها عن نشاطات المشروع لتعضيد مناقشاتهم مع مفتشي الأمم المتحدة. كان جعفر عندئذ رئيس هيئة التصنيع العسكري، وتحت سلطة حسين كامل الأوسع، أثر نجاح جعفر الباهر في قيادة حملة إعادة تأهيل قطاع الكهرباء. وبعد أن تمكّن العلماء والمهندسون من إقناع جعفر بصحة حجتهم، ووافق جعفر بتسليم محتويات أحد مراكز التوثيق إلى مفتشي الأمم المتحدة على أن تشمل فقط التقارير الموثّقة عن النشاطات المعلنة التي حددها حسين كامل. وفي أواخر صيف عام 1991 أصدر جعفر قراراً مصيرياً إلى عادل فياض بإستعادة تقارير ووثائق المشروع PC3 من مكمنها لإنتقاء تلك المسموح تسليمها.

إستلم عادل فياض مسؤولية التقارير التي أُخفيت في المدرسة التقنية في الطارمية بعد إنتقالي إلى مركز المعلومات المتخصص في وزارة الصناعة في خريف عام 1990. بعد نهاية الحرب، طلب عادل فياض من مساعدي السابق،

مشكور حيدر، بإزالة كافة الوثائق من الغرفة الموصدة الغلق في المدرسة التقنية ووضعها في عربة قطار بضائع ومن ثم لحم أبوابه. إستمر القطار بالسفر من البصرة جنوباً إلى الموصل شِمالاً وبالعكس ساحباً شحنته الفريدة في العربة الموصدة الغلق. على أثر إستلام طلب جعفر، أوقف القطار في بغداد في ليلة من أواخر ليالي شهر آب عام 1991 وكُسرت الأبواب الملحومة ونُقلت المحتويات بكاملها، من الوثائق الورقية في صناديقها المعدنية، وحاويات الميكروفيش لخرائط التصاميم الهندسية، والصندوق الكرتوني الذي إحتوى على تقارير النشاطات غير المُعلنة للمجموعة الرابعة والتي تم إيداعها بإهمال على منضدتي، وأودعت في نفس الغرف السابقة، التي كانت كلها مخزونة فيها في بناية إتحاد نقابات العمال قرب مقر هيئة التصنيع العسكري، وذلك قبل نقلها إلى المدرسة التقنية في الطارمية.

تمَ كل ذلك بدون علمي وعلم سلام نظراً لخروجنا من الحلقة الإدارية المعنية بهذا الأمر. لذا لم يكن بمقدورنا أن نقدّم الإيضاحات في الوقت المناسب، وبسبب فترة الإرتباك والنشاطات المتعددة، لأسلوب خزن الوثائق لضمان القيام بعزل ما هو "مُعلن" وماهو "غير مُعلن" من تقارير المشروع في خضم ذلك الكنز من الوثائق المختلطة.

بعد أيام قلائل، وبصورة غير متوقعة تسلّق (دافيد كاي) وزمرته حائط مبنى إتحاد العمال في الفجر ووضع يده على كافة الوثائق بما فيه الصندوق الكرتوني، مما أدّى إلى مشادة كلامية ومواجهة شخصية بين (دافيد كاي) وجعفر تمَّ تصويرها وبثّها في التلفزيون. بعد ذلك بأسبوع، أغار المفتشون على بناية الخيرات في السعدون والتي تقع امام فندق المريديان المشهور وتجاور ساحة الفردوس حيث أسقط الاميريكيون تمثال صدام حسين. كانت تلك البناية في ذلك الوقت موقعاً مؤقتاً لكادر مشروع PC3 وعلمائه ومهندسيه بعد تدمير مركز البحوث النووية في التويثة. وإعتصم المفتشون في مرآب سيارات المبنى لعدة أيام يصوّرون الوثائق والمُستمسكات لمعلومات حاسوبية مفّصلة عن العاملين وطبيعة عمل مشروع PC3 ويبثون صورها مُباشرة عبر الأقمار

الصناعية إلى مقر وكالة المخابرات الأمريكية في (لانغلي) في الولايات المتحدة الأمريكية.

شكَّ حسين كامل بوجود تسرُّبٍ أمني في موضوع العثور على تقارير المشروع، فأمر بإعتقال إثني عشر شخصاً لهم علاقة بمهمات التوثيق من ضمنهم عادل فياض ومشكور حيدر وأنا. تمَّ إستجواب كل منًّا على حدة من قبل لجنة يرأسُها عامر العبيدي، نائب رئيس هيئة التصنيع العسكري في حينها والذي أصبح فيما بعد وزيراً للنفط عام 1996، واعتقله الأمريكيون في أيار من عام 2003. وبالرغم من زمالتنا أثناء الدراسة في جامعة برمنجهام، إلاّ انه لم يتردد في تأنيبي بغضب وإهانة بسبب جلبي لغليوني إلى جلسة التحقيق. حُجز علينا في مبنى مؤسسة الفاو في شارع فلسطين، ومُنع عنًّا الاتصال مع أهلنا لمدة ثمانية عشر يوماً. ظل مشكور حيدر يردد مقولته: "وقعنا بالجرخ" أي سنُسحق في رِحى نزوة طارئة لمزاج حسين كامل قد تؤدي إلى قتلنا، وإنهار بعض المحتجزين وبكوا بحرقة.

من نافذة الطابق الخامس من البناية التي كنا محتجزين فيها تحت حراسة دائمة، كنت أستطيع أن أرى سيارة نيران وهي متوجهة إلى عملها في الصباح، إلا أنها لم تكن تعلم شيئاً عن مكان وجودي وسبب إعتقالي طيلة مدة الحجز.

كان مصدر مواساتنا في تخفيف عبء الحجز عنا هو مبادرات الزميل إحسان فهد الحميمة، الفيزيائي في PC3، الذي أُوكلت إليه مهمة إدارية بمساندة جعفر في هيئة التصنيع العسكري في حينها. أعانتنا مرافقته وحضوره الدائم بإبتسامته الهادئة ومدّنا المستمر بـ "لفات الكباب والطرشي" على الإحتفاظ ببريق أمل في إنتهاء محنتنا. وأخيراً توصّل حسين كامل إلى القناعة بانَّ لا أحد من المحتجزين كان قد تسبَّبَ في أي تسرب أمني بخصوص العثور على وثائق المشروع، فأطلق سراحنا بعد أن أمر بتنزيل رُتَبنا الإدارية، بما فيه خالد سعيد رئيس المجموعة الرابعة وعُزِل جعفر من منصبه في هيئة التصنيع العسكري وتولى عامر العبيدي تلك المسؤولية مرة أخرى. تم تعيين جعفر في منصب المستشار العلمي في ديوان الرئاسة وأُوكلت إليه مسؤولية الإستمرار في حملة

إعادة إعمار وتأهيل قطاع الكهرباء. كما عمل جعفر أيضاً في أوائل التسعينات من القرن الماضي في مشاريع ري طموحة لتحويل المياه من نهر دجلة من نقطة إلى الشمال قليلاً من مدينة الشرقاط لتروي الصحراء الغربية الخصبة المجاورة لمدينة الحضر التاريخية (ويُطلق عليها إسم الجزيرة) والتي تبعد حوالى 100 كيلومترالى جنوب غرب الموصل والتي تقطنها في الغالب عشيرة شمّر. وشاءت الأقدار أن تلعب علاقة جعفر بشيوخ تلك العشيرة، والتي توطدت أثناء تنفيذه لمشروع ري الجزيرة، في مساعدته في الهروب مع عائلته من شمال العراق أثناء سقوط بغداد بأيدي الأمريكيين.

كنت دائم الإطلاع عمّا يجري من أبحاث في المشروع PC3، والتي لم تتطرق ثانية إلى الجوانب النووية العسكرية إطلاقاً وإنما تركزَت على حملة الإعمار، وكذلك على معظم الأبحاث العسكرية في هيئة التصنيع العسكري بحُكم تردد الباحثين على مركزالمعلومات المتخصص لينهلوا من ذخائره المعلوماتية وزياراتهم الشخصية لي في المركز. بقي الحال كذلك حتى العام 1994 عندما إنتقلت للعمل في وزارة الخارجية.

وبالرغم من إطلاق سراحنا من حجز حسين كامل، فلقد دأبت أجهزة المخابرات والأمن في مراقبة ومتابعة تحركاتي ونشاطاتي اليومية والذين أتعامل معهم شخصياً. وقد حاول جهاز المخابرات تجنيد عدد من الأصدقاء الذين يتعاملون معي لتحقيق غرضهم مثل سكرتيرتي المخلصة سلْمى، والتي كان لديها الشجاعة لتُبلغني عن مهمتها المطلوبة حالما إتصلوا بها بل وإعلامي بالتفاصيل الدقيقة عن أسلوب اتصالهم، رغم ما في ذلك من خطر عليها، وإطلاعي على ما قدمته لهم من معلومات لا قيمة لها. ومن الذين حاول جهاز المُخابرات تجنيدهم لأغراضهم التجسسية الصديق المُخلص حُسام عُبيد، الفلسطيني الأصل الذي شاركني في إدارة مكتب صغير لخدمات الحاسوب طيلة ثماني سنوات. حفظ حُسام سر الضغوط المُتكررة عليه من قبل جهاز المُخابرات ورفضه الحازم في التعاون معهم للتجسّسَ عليَّ إلى ما بعد هروبنا إلى عمّان في عام 1998. تألم حسام كثيراً عندما كان يُشاهدني لشهور وسنين أذرع

الرصيف أمام المكتب مُستغرقاً في أفكار عميقة والألم والإنقباض والضيق يعصف بكياني. أسرَّ لي حسام، بعد مقابلته لي في عمّان، عن أن محاولات جهاز المُخابرات المُلحّة كانت السبب الرئيس وراء مغادرته العراق في العام 1995 بحجة البحث عن عمل في الخارج، إذ إنه لم يقبل أو يرضخ لتهديداتهم. عندما عاد إلى العراق بعد عدة شهور، إستطاع حسام مرة ثانية أن يصمد أمام محاولات جهاز المخابرات لتجنيده من جديد لإعلامهم عن خُططي وتحركاتي واتصالاتي إلى أن تمكنتُ من الهرب، مما أشعل نيران غضبهم. بكُلِّ هدوء، عانقت حسام وقبّلت وجنتيه بعد ظهر ذلك اليوم الذي غادرت فيه بغداد بدون أن أنبس بكلمة عن نيّتي أو طريقة خروجي. إلا أنه حسَّ فوراً بما أنا مُقدمٌ عليه، فبكى بحرارة وأنا أعانقه خشية ما يمكن أن يؤول إليه مصيرنا فيما لو فشلتْ محاولتنا. في اليوم التالي لرحيلنا زاره سكرتير ضابط مخابرات كبير وكان عنيفاً في تهديده لحسام حتى يبوح عن طريقة هروبنا. وعندما تخطّى التحقيق الحاجز النفسي، وتحوّلَ إلى الأذى الجسماني، قرَّرَ حسام في إحدى الليالي أن يحمل متاعه ويرحل عن العراق.

إنني على يقين بوجود مُخبّرين آخرين حولي من الزملاء والزميلات الذين كانوا يتعاملون معي والمُكلّفين برصد تحركاتي واتصالاتي، وبالتالي ساهموا في زيادة حجم ملَفي في جهاز المخابرات، وإن لم أتأكد من شخصياتهم.

بعد إطلاق سراحي من حجز حسين كامل، إتصلً بي جعفر يستفسر فيما إذ ما كنت ما زلت مُحتفظاً بقرص مغناطيسي - ضوئي، علماً منه بعادتي في تهيئة البدائل للحالات الطارئة ولوقت الضرورة. كان لديَّ بالفعل قرص أخير منها كان قد تركه لي مندوب شركة كانونْ اليابانية كهدية لنا بعد تدريبنا على إستخدام جهاز الأرشفة، وبالتالي لم أدوّنه في قوائم جرد المُقتنيات.

كان جعفر قلقاً من أساليب المفتش (دافيد كاي) العدوانية، لاسيما وأن لدى جعفر العديد من وثائق المشروع الهامة والحسَّاسة ضمن مُقتنيات مكتبته الخاصة في منزله. أرسل جعفر سائقه المُخلص عمران، والذي هو نفس السائق الذي سبق وأن صاحبني في رحلة الكشف عن مكامن اليورانيوم، إلى منزلي

حيث كنت أحتفظ بأحـــد أجهـــزة الأرشـــفة (CanoFile) ضـــمن الإجـــراءات الإحترازية. جاء عمران يحمل صندوقاً مليئاً بالتقارير الحساسة والمُراســـلات المُهمة وعينُه لا تغيب للحظة واحدة عن محتويات الصندوق. وضعت الجهـــاز على طاولة مائدة الطعام وبدأ عمران يناولني الوثائق الواحدة تلو الأخرى لأقوم بفهرستها وخزنها على القرص الضوئي. لم أسمح في تلك الأثناء لأي شـــخص آخر في دخول الغرفة، حتى إن والدتي ناولتنا صينية الشاي مـــن عنـــد بـــاب الغرفة. وبينما كنت أقوم بعملية التخزين، سمحت لنفسي أن أقرأ بســـرعة مـــن على شاشة الجهاز ما يجري خزنه من المعلومات. لم أرتح لبعض ما جاء فـــي المُراسلات لما حوته من مبالغات مقصودة، أو من إستنتاجات طموحة مـــأمول تحقيقها، لما توصلنا إليه من نتائج فعلية في تشغيل وإستخدام البغدادترون فـــي عام 1990، والتي كانت موقعَّة من قبل جعفر وموجهَّة من حسين كامـــل إلـــى صدام حسين. كان من الممكن أن تُعطي هذه التقارير إنطباعاً مُغايراً عن حقيقة ما توصَّلنا إليه من نتائج، وبالذات لمن لا يملك الخلفية العلمية الكافية لإستيعاب مُفرداته. على أي حال، غادرَنا عمران بعد خمس ساعات من العمل المتواصل ومعه القرص الأرشيفي المليء بصور التقارير والمُراسلات وصندوق الوثائق الذي قام بحرقه بعد ذلك.

وزارة الخارجية

حصلت عدة حوادث جعلتني أنسلِخ عن قيادة مركز المعلومات المتخصص رغم توسّع خدماته ومساندته الفعّالة في نشاطات الإعمار والتي حـــازت علـــى تقدير الكثيرين. في نهاية صيف عام 1991، قام بزياتي مدير الجهاز الأمني في مشروع PC3 وطلب مني وبحزم أن أُسلّم جهازي الأرشـــفة (CanoFiles) إلـــى رجاله. جاهدت في محاولة معرفة أسباب هذا القرار المُفاجئ، وحاولت في ذات الوقت أن أوضح له أمرين. أولاً: إننا كنا قـــد إســـتخدمنا معظـــم الأقـــراص المغناطيسية – الضوئية التي إشتريناها في العـــام الماضـــي لأرشـــفة وثـــائق المشروع. ثانياً: تحتاج عملية الأرشفة إلى إتباع سياق ومُفردات عمل دقيقة في تحديد إسم التقرير وحجم وموقع الخزن على القرص وإلاّ سيصبح من العســـير

جداً العثور على وإسترجاع التقارير المخزونة من آلاف الصفحات المُتراكمة في القرص. إلا أن ذلك لم يشفع عند المدير أن يتنازل بالإفصاح عن سبب قرار مصادرة الجهازين، إنما وافق على مضض على عرض إقترحته بأن يقوم سلام توما بتدريب رجاله على إستعمال الأجهزة وأسلوب الأرشفة. إلا أنه لم يوافق بالسماح لسلام بتطبيق طريقة الفهرسة فعلياً على التقارير المنوي أرشفتها كيلا يسترق سلام النظر إلى طبيعة تلك الوثائق، إذ كان واثقاً جداً من قدرة رجاله على إستيعاب عملية الفهرسة وقيامهم بذلك دون عائق، كما وأعرب عن ثقته بإمكانية الحصول على أقراص إضافية لمهام أرشفة وثائقه. سلّمت الجهازين على مضضٍ إلى رجاله رغم قناعتي التامة من ان الفشل سيكون مصير جهودهم.

ونظراً إلى إستمرار عادل فياض في تدبير أمور مُشتريات المشروع PC3، فلقد أرسل اليَّ بعد أيام من مُقابلة مدير أمن المشروع عرضاً لشراء خمسين من الأقراص المغناطيسية – الضوئية من الأردن وذلك للموافقة على شرائها ضمن إجراءات سياق المُشتريات الصارم الذي إعتدنا على ممارستها. لكنني دُهشت عندما وجدت أن السعر المطلوب للقرص الواحد يزيد على ضعف المبلغ الذي سبق وان إشتريناه في العام السابق فرفضت الموافقة على طلب الشراء. لكن ذهولي إزداد عندما أتى عادل فياض بنفسه لزيارتي في مكتبي ونصحني بصوت خافت أن أتراجع عن قراري، موحياً بأن أمر هذا الطلب يعود إلى "جهات عُليا". أدركت على الفور بأن حسين كامل كان وراء كل هذه العملية وما صاحب ذلك من مدفوعات جانبية للوصول إلى السعر العالي. بدا لي من هذه النكسة في عملية الشراء النقيض التام لشرف التعامل مع الأمور المالية طيلة الخمسة وعشرين عاماً قضيتها في خدمة منظمة الطاقة الذرية العراقية، وتراءى لي من خلالها نتائج المَطبّات الاقتصادية الوعرة التي رافقت السنوات العجاف من الحصار الاقتصادي الغاشم وتحطيمها لقيم المُجتمع العراقي.

وبعد مرور بضعة أشهر وإذ بمدير أمن المشروع يعود الينا طالباً مساعدة سلام توما لعدم قدرة رجاله على إسترجاع ما قاموا بأرشفته وخزنه. عندما تفقّد

سلام الأمر، وجد الجهازين عاطلين عن العمل ومهجورين فـــي مخـــزن بـــين أكياس السُكَّر والأرز والطحين. تعطلَ الجهازان عن الأداء نتيجة تلقيم الوثائق وهي مشبوكة بدبابيس الربط دون إكتراث رجال الامن المكلَّفين بتشغيلهما مـــن فك الربط مما أدّى إلى عطل أجزاء حساسة في الجهاز. وكما توقعنـــا، تبـــيّن لسلام عدم إتباع رجال الأمن لتعليماته بشأن فهرسة عملية الأرشـــفة لضـــمان أسترجاع الوثائق. كانت تلك المحاولة جزءاً من خطة حســـين كامـــل لإخفـــاء التقارير والوثائق التي تخص برامج الأسلحة النوويَّة والبيولوجية والكيماوية في مزرعته الشخصية والتي اشتهرت فيما بعد بإسم (مزرعة حقل الدجاج). كمـــا وتبيّن لنا لاحقاً بأن مجموعة الوثائق هذه كانت تعود إلى فريق خالد سعيد فـــي المجموعة الرابعة وتضمنت مُعظمها أوراق إدارية غير ذات قيمة. على ضوء ذلك، أصرّيت على إسترجاع جهازي الأرشفة المعطوبين، وتبيّن بـــأن رجـــال مدير الأمن إستعملوا إثنين فقط من أصل الخمسين قرصاً التـــي تـــم شـــراؤها واختفت بقية الأقراص، إلا أنها ظهرت إلى الوجود بعد بضع سنوات وتمكّنـــتُ من شراء قسم منها محلياً كما سآتي على سرده. هنا برزت الموهبة الفطريـــة الفذّة للمهندس وليد خالد، أحد منتسبي مركز المعلومات المُتخصص، في تفكيك وتصليح أجهزة الأرشفة المُعقدّة وبدون توفّر أي خرائط توضيحية أو كهربائية لها وأفلح في تشغيل أحداها من قطع غيار الجهاز الثاني. كما وفتح حصـــولي مُجدداً على جهازي الأرشفة ومُهمة تصليحهما باب علاقة جيدة مع محمد سعيد الصحّاف، وزير الخارجية في حينه، ووزير الاعلام المشـــهور أثنـــاء حـــرب 2003. بقي الصحاف مُتوارياً عن الأنظار بعد سقوط بغداد إلى أن ظهر علـــى شاشتي "العربية" و"أبو ظبي" يوم 26 حزيران من العـــام 2003. فـــي حديثـــه لقناة "العربيَّة"، إدّعى الصحَّاف انـــه إتصـــل بـــالقوات الأمريكيـــة بواســـطة أصدقاء له فأستُجوِبَ من قِبلهم ثمَّ أُطلق سراحه. لم يكن إسم الصـــحَّاف علـــى لائحة بما عُرف برزمة المطلوبين العـــراقيين الخمســـة وخمســـين. ووصـــل الصحَّاف مع عائلته إلى دُبي في تموز من عام 2003، عازماً على إتمام كتابـــة مذكراته.



وزير الخارجية، محمد سعيد الصحّاف، يُقلدني وساماً في العام 1996.

عهِدتُ محمد سعيد الصحّاف بالصديق المُخلص وبمثابة الأخ الكبير، مولعاً بأمور الحاسوب، يتوخّى الدقة والإنتظام في العمل. وبالرغم من أن المراتب العالية في الدولة كانت تعني بالضرورة ساعات طويلة من العمل (أو على الأقل الدوام في مقر العمل) يومياً، إلا أن إدمان الصحّاف على العمل كان منقطع النظير. كان دائماً يتقبل النكتة الحلوة ليُتبِّعَها بضحكة من القلب، ويعامل مرؤوسيه بعطف ومساواة وأنما بحزم وبموجب القانون. لا أزال حتى اليوم أعتزُ بمساندته لي، وإهتمامه الأخوي لأموري خلال الأوقات الصعبة التي أثقلت بحملِها عليَّ.

أدت حادثتان عابرتان إلى إنسلاخي كلياً عن مركز المعلومات المتخصص وألقت بي إلى يدي الصّحاف الممدودتين.

كان الحادث الاول إستلامي تأنيباً إدارياً عن تقرير إنجاز عمل رفعته إلى هُمام عبد الخالق، الرئيس السابق لمشروع PC3. بعد حرب العام 1991 وتوقف برنامج السلاح النووي، عُيِّن هُمام وزيراً لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي

وأصبح فيما بعد وزيراً للإعلام حتى العام 2001 عندما خلفه الصحّاف فعاد إلى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. قام الأمريكان بإعتقال هُمام في أواخر شهر نيسان من العام 2003.

علمَ هُمام في العام 1992 بأني قد باشرت، وبمبادرة شخصية مني، في حملةٍ لربط جميع مراكز الأبحاث التابعة لهيئة التصنيع العسكري بشبكة حاسوبية عبر الهاتف مع قاعدة مركزية للمعلومات العلمية والهندسية في وزارة الصناعة. إستدعاني هُمام وطلب مني دراسة ربط ما يزيد عن عشرين من الجامعات والكليات العراقية في هذه الشبكة الواعدة. بعد مضي سنة من طلبه، رفعت إلى هُمام تقريراً مُتكاملاً عن إنجاز المُهمة التي إستغرقت ما يقرب السنتين من الجهد بمساعدة أياد محيميد، مع مُخطط للشبكة الحاسوبية موضحاً فيها الربط ما بين حوالى ستين وزارةً وجامعةً وكليةً ومركز أبحاث بقواعد المعلومات في وزارة الصناعة وتدريب المعنيين على إستخدامها. بعث هُمام هذا التقرير مع المخطط المرفق إلى عامر العبيدي، رئيس هيئة التصنيع العسكري، مُقترحاً عليه أن يوجِّهَ كتاب شكر وتقدير ومكافأة سخيَّة لنا على هذا الإنجاز. عوضاً عن ذلك، أرسل إليَّ عامر تأنيباً شديداً آخر (بالإضافة إلى خفض درجتي الوظيفية أثر التحقيق الذي قام به ومن ثمَّ الإفراج عنا من حجز حسين كامل) مع تخفيض إضافي في الراتب الشهري لأنني قمت بخرق أمني خطير، حسب إدعائه، بتحديد الأسماء الفعلية لكافة مراكز الأبحاث التابعة لهيئة التصنيع العسكري في ذاك المخطط الذي رفعته إلى هُمام.

كانت الحادثة الثانية أشد وقعاً. في منتصف العام 1993، قرر حسين كامل تفكيك المشروع PC3 كُلّياً وتجزئته إلى مراكز صناعية وهندسية، وحسب إختصاص فعاليات المشروع المختلفة، وربط كافة هذه المراكز بهيئة التصنيع العسكري رسمياً. إستوجب ذلك وضع كافة هذه المراكز الجديدة تحت هيمنة جهاز أمن هيئة التصنيع العسكري بدلاً من جهاز أمن منظمة الطاقة الذرية. لم يرق لوليد، مدير أمن هيئة التصنيع العسكري، أسلوب الإدارة الذي إتبعته في إدارة مركز المعلومات المُتخصص، والذي يعتمد على توزيع المسؤولية

والمرونة في العمل وعدم التقيّد بالتعليمات الإدارية المُتشددة والشبه عسكرية التي كانت سائدة في هيئة التصنيع العسكري. في غفلة من الأمر، إلتحق في مركزنا موظف للتدريب على منظوماتنا المعلوماتية. وبعد فترة قصيرة، أفصح سلام عن شكوكه عن المُهمة الفعلية للمنتسب الجديد وشكوكه في أنه في الواقع عينٌ لأمن هيئة التصنيع العسكري. كان هذا الشخص قد كتب العديد من التقارير إلى وليد، رئيس أمن الهيئة، عن كل شاردة وواردة في ما نقوم به يومياً في المركز. بناءً على شكوك سلام عنه، عملت له إختباراً بسيطاً فسقط فيه، فطردته على اثره فوراً من المركز. إلا أن قراري جاء متأخراً، إذ أمر عامر العبيدي بإجراء تحقيق شامل في نشاطات مركزنا تقوم به لجنة مؤلفة من خمسة من كبار موظفي هيئة التصنيع. دارت الإتهامات حول تجاوزات مُفترضة في مبالغ صرف الرواتب الشهرية للموظفين، والسفر داخل العراق في سيارة حكومية دون الحصول على إذنٍ مُسبقٍ من الجهات المعنية خلال عملي الدؤوب والمستمر في تأسيس الشبكة المعلوماتية في أنحاء العراق، والتساهل في التقيّد بأوقات الدوام الرسمي اليومي للموظفين في المركز، أضف إلى ذلك السماح لبعض الموظفات بالرقص في مكتبي. الإتهام الأخير عبارة عن مبالغة مُفبركة حيث سمحت لنفسي مرة بتشغيل قرص مُدمج (CD-ROM) غنائي لأُم كلثوم كنت قد إشتريته بسعر دينارين من "إسطوانات جقماقجي" في بداية شارع الرشيد، على الحاسوب الخاص بي، والذي كان شيئاً نادراً في بغداد في تلك الايام، ودعوت العاملين معي لمُشاركتي في الإستماع إلى صوت أم كلثوم الأزلي ومن ضمنهم أمينة المكتبة ناهدة الملتزمة دينياً. بعد التحقيق والتمحيص في سجلات المركز والإستماع إلى إيفادات العاملين فيه، لم يثبت للجنة التحقيقية أياً من تلك التُهم. مع ذلك، أصرَّ وليد على موقفٍ موّحد لتلك اللجنة ليَنقُذ به ماءَ وجهِه، وطلب منهم عقد اجتماع أخير وبحضوري لتوقيع الحاضرين على محضر للاجتماع يُثبّتُ فيه إستنتاجاتهم من التحقيق. إلا أنني رفضت طلبه بحضور ذلك الاجتماع لأني إعتبرت أن مسؤولية التوقيع هي على عاتق أعضاء اللجنة أنفسهم وليست على عاتقي. على أثر ذلك، إتصل بي عضو

مسيحي من أعضاء اللجنة ليُقنعني بالعدول عن قراري والموافقة على حضور الاجتماع لتتمكن اللجنة من إغلاقِ ملف الموضوع، فأذعنتُ لطلبه لشأن في ذهني. عندما التأم شمل أعضاء اللجنة في مكتبي، بادرت بالكلام إلى عضو اللجنة الذي كلمني في اليوم السابق، والذي يعود له فضل عقد الاجتماع، في لَكْنَة مسيحية – فأصابته الدهشة جراء ذلك لأنه من غير المألوف مثل هذا النمط من التخاطب في هذه الجلسات الرسمية، لكني كنت عازماً على أن أُبرهن للحضور على موقف مُعيّن. بعد الإنتهاء من مُخاطبتي إياه، تناولت ورقة بيضاء وسجّلت فيها تاريخ ذلك اليوم ووقعتها ثُمَّ ناولتها إلى وليد. أُسقط في يده، وسأل عن معنى هذا العرض. فأجبته: "إني أسمحُ لك في كتابة ما تشاء على هذه الورقة، وكلّ ما يخطر ببالك من إتهامات لي، مثل تحيّزي الطائفي في المُخاطبة (وكان ذلك أمر شاذ في الدوائر الرسمية العراقية، ومع الأسف أصبحت الطائفية الآن معيار الوظيفة) وبالفُسق وبالكَذِب، وما يمكُن أن يخطر على بالك من الصفات الأخلاقية، ولكني لا أسمح لك في أن تطعن لا في إخلاصي للعمل ولا في وطنيتي، وأرجو أن يؤدي ذلك إلى إعفائي من العمل في هيئة التصنيع العسكري، والحضور شهود على ما أقول". ثم نهضت وغادرت الاجتماع وإتجهت رأساً إلى الصحّاف.

كان الصحّاف قد دعاني قبل ذلك إلى وزارته لكي أُطلعه على عمل الجهاز الأرشيفي بناءً على توصية من عبد الإله الديوه جي، رئيس قسم الحاسوب الدائم في وزارة الصناعة والمعادن. كان للصحّاف ولعاً وإهتماماً شخصياً في الحواسيب الشخصية وتطوّرها وفوائد برمجياتها المختلفة والتي بدأت منذ شرائه لأول أنواع تلك الحواسيب البدائية في بداية الثمانينات عندما كان سفيراً للعراق في روما، بإيطاليا. إقترح الصحاف عليَّ مشروع تعميم المعرفة على إستخدام الحاسوب الشخصي من قبل الدبلوماسيين والعاملين في وزارة الخارجية، مع التخطيط لربط جميع أقسام الوزارة في شبكة حاسوبية بهدف إدارة الزخم العالي للمراسلات (كتب الصادرة) و(كتب الواردة) الرسمية، والعمل أيضاً على أرشفة ملفات الوزارة التاريخية الغنية، والتي تحتوي على المُعاهدات والإتفاقيات مع

الدول الأخرى، والملفات الشخصية لكافة الذين عملوا في الوزارة منذ تأسيس الدولة العراقية في العام 1921. كما وتعهّد على نفسه، بحكم صداقته لعامر العبيدي رئيس هيئة التصنيع العسكري، بأن يُقنعه بالسماح لي بزيارة وزارة الخارجية بضع أيام كل أسبوع للبدء في هذا المشروع. وكانت زيارتي له عقب مقابلتي الحادّة مع وليد مبعث لسروره العميق. وافق عامر على الإقتراح، والذي أصرّ أن يكون شفوياً كيلا يثير حفيظة حسين كامل، السلطة العليا في هيئة التصنيع العسكري، الذي لم يكن على علاقة شخصية جيدة مع الصحّاف. على أثر الحَدثَين السلبيين في علاقتي مع أجواء العمل في هيئة التصنيع العسكري، مددُتُ الايام المُتفق عليها لتشمل كافة أيام الأسبوع، أمام أنظار الجميع وبحماية الصحّاف ورغم تذمّر عامر وطلبه عدة مرات شفوياً بالكفّ عن ذلك التجاوز، والذي كنت أستجيب له لفترة أسبوع ثم (تعود حليمة إلى عادتها القديمة).

منذ بدء علاقتي الحميمة مع الصحّاف، أعلمته نيتي في تأمين تعليم عالٍ لأولادي في الخارج. كان الصحّاف مُتفهماً لرغباتي ووَعَد بمساعدتي على تحقيقها قدر ما تسمح به صلاحياته، وذلك ليس عن طريق ترك الخدمة المدنية في دوائر الدولة، وإنما بالحاقي في السلك الدبلوماسي، في نيويورك مثلا، للعمل مع صديق العمر وزميل الدراسة الثانوية، نزار حمدون. كان نزار يشغل منصب ممثّل العراق في هيئة الامم المتحدة في ذلك الوقت، وقد وافاه الأجل للأسف في الرابع من شهر تموز من عام 2003 بعد أن إستفحل به مرض عُضال. رسم نزار في وصيّته[31] خارطة وخطّة سياسية عراقية صميمة لإنتشال العراق من محنته وسقوطه، وما تزال أصداؤها الآن أكثر نُضجاً وأصالة من تخبّط وعنجهية المُحتلّين ومحاولات دروعهم اليائسة في إنقاذهم من

(31) "لن ينتهي الأمر إلا بإنتهاء صدام" عن وصيّة نزار حمدون في صحيفة الواشنطن بوست، 27 تمّوز 2003، صفحة. B04

"It's Not Over Until Saddam Is Over", Washington Post, Sunday, July 27, 2003; Page B04

www.highbeam.com/library/doc0.asp?docid=1P1%3A76205205&refid=ink_d6

محنتهم، والتي أدّت إلى سقوط عشرات الآف من الشهداء والمعوّقين العراقيين.

قبلت بعرض ووعد الصحّاف بالرغم من إدراكي لحدود قدرته في تنفيذها إذ يتوجب علينا التوجّه أولاً إلى حسين كامل للحصول على موافقته لنقل خدماتي من هيئة التصنيع العسكري إلى وزارة الخارجية، وهذه بذاتها كانت مهمة ليست بالسهلة إطلاقاً نظراً للفتور الحاد في العلاقة الشخصية بين الطرفين.

قام الصّحاف بتمويل تصليح جهاز الأرشفة الثاني العاطل في مركز المعلومات المتخصص وإشترى لوزارة الخارجية جهازاً مُماثلاً ثالثاً من الأردن. بدأنا في باستخدام الأجهزة الثلاث لأرشفة العدد الكبير من سجلات الوزارة التاريخية. في العام 1994، زارنا على حين غرة عبد الحليم الحجّاج، الظلّ المراوغ لخالد سعيد، وكان آنذاك نائباً لرئيس منظمة الطاقة الذرية العراقية ومُنسّقاً للمفاوضات مع مفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية، وأحضر معه القرص المغناطيسي – البصري الذي خُزن فيه كافة تقارير المجموعة الرابعة والذي كان أحد الأقراص الثلاثة التي عملنا على خزن كافة تقارير مشروع PC3 عليها قبل بدء الحرب. كنت قد إحتفظت بالأقراص الثلاثة بعيداً عن الصناديق التي إقتنصها (دافيد كاي) في أيلول من العام 1991، وعارضت بشدّة تسليمهم إلى عبد الحليم لولا توجيهات جعفر الصارمة.

طلب منّا عبد الحليم أن نعمل له نُسختين من القرص الذي كان بحوزته. كنت في واقع الأمر مُندهشاً لسهولة وصوله على حين غرّة بدون إذن أو إشعار مُسبق وحصوله على الموافقة لنسخ القرص الذي يحمله. على أي حال، وبما أن الأقراص القليلة الباقية لدينا كانت بالكاد تكفي لخزن سجلات الوزارة، أعلمته بضرورة حصولنا على المزيد منها. ما أن نشرت خبر الحاجة إلى تلك الأقراص حتى طَفَتْ على السطح رزمة كبيرة منها والتي هي الباقي من الخمسين قرصاً التي قام بشرؤها عادل فياض في العام 1991، ثُمَّ إختفت عندما أعطب رجال الامن التابعين لحسين كامل جهازي الأرشفة جراء سوء إستخدامهما. دفع عبد الحليم الحجاج ثمنها البخس بدون سؤال أو جواب.

بعد أن إستلم عبد الحليم النسختين المطلوبتين لقرص المجموعة الرابعة، تقـدم عبد الحليم بطلب آخر وافق عليه الصحّاف على الفور. طلب أن أصحبه إلى مركز البحوث النووية في موقع التويثة ومشاركته الاجتماع بممثلي الوكالة الدولية الدولية للطاقة الذريّة لأُسلّمَ إليهم نُسختَي القرص وأُردُّ على أية إستفسارت لديهم عن جهاز الأرشفة. دار إهتمام مُفتّشي الوكالة حول أعمال المجموعة الرابعة التي كانت قد كُلّفت بتصميم القنبلة، ولم يسألوا أو يبدوا إهتماماً بنشاطات تغْنية اليورانيـوم فـي مشروع PC3، والتي كانت مخزونة في القرصين الآخرين. تمَّ تسليم نُسختي قرص المجموعة الرابعة إلى ممثلي الوكالة الدولية، لكني لم أكن مُتأكداً في حينها إن كانوا على علمٍ بوجود القرصين الآخَرين، أو فيما إذا حصلوا عليهما لاحقاً، أو بالأحرى إن تم العثور عليهما كما سآتي على سرده.

إستجابة إلى إلحاحي المتواصل لعلّي أنتقل من هيئة التصنيع العسكري إلى وزارة الخارجية وأتمكّن من السفر إلى نيويورك، رضخ الصحّاف إلى طلباتي فقام بدوره وأقنع صديقه عامر العبيدي أن يجمع أطراف شُجاعته ويواجه حسين كامل بطلب النقل. غضب حسين كامل أشدّ الغضب عندما علم عن مكان عملي في العامين المنصرمين وردَّ طلب النقل بضربةٍ موجعة، إذ أمر فوراً بعـودتي إلى مركز المعلومات المُتخصص، والذي أصبح حينذاك جُزءاً مُكمّلاً لمركـز معلومات هيئة التصنيع العسكري وبإدارة أحد منتسبيه والذي كان يعني خسارتي لإمتيازات إدارة المركز والعديد من الإمتيازات المالية والإدارية الأخرى التـي كنت قد حصلت عليها.

صُعقت لهذا التطوّر السلبي في الأحداث وهرعت إلى عبد الإلـه الـديوه جي، وهو الذي سبق وأن عرّفني على الصحّاف، أطلُب مساعدته. كان حسـين كامل آنذاك قد عيّن عبد الإله الديوه جي مُديراً لمركـزٍ مـن مهامـه تحمّـل مسؤوليات الصيانة والواجبات التي كانت تقوم بها شركات الحاسوب الدولية من أمثال شركة (هيولت باكارد) وشركة (آي بي أم) وشركة (أن سي آر). قـدّمت طلباً للإلتحاق بهذا المركز إلا ان عبد الإله علِم بمحاولتي ووصلني في حينهـا خبر محاولته عرقلة طلبي، لأسباب هو أدرى بها مني، إلا أنه نفى ذلك لاحقـاً

في مراسلة حديثه منه. على أي حال، توجّهت إلى سلطة أعلى من عبد الإلـه، ولجأت إلى خالد إبراهيم سعيد الذي كان قد تبوأ منصباً إدارياً عالياً فـي هيئـة التصنيع العسكري. وحسب علمي، استطاع خالد بمراوغة ودراية إدارية في أن يطمس إندفاع عبد الإله ضد إلتحاقي في مركزه. فـي أواخـر العـام 1995، حصلت على مكتب في بناية المركز الذي كان يديره عبد الإله، وبقيـت معـي السيارة الحكومية ومُعظم الإمتيازات الأخرى.

ما أن إستقرَّ مقامي في العمل الجديد، حتى ثارت نفسي من جديـد علـى سوء المُعاملة التي تعرضّت إليها من قبل حسين كامل، ورفضت العمل للمـرة الثالثة خلال فترة خدمتي في الدولة. كنت أذهب إلى المكتب يومياً وأجلس خلف المنضدة، بدون تشغيل الإنارة، إلى أن ينتهي الدوام الرسـمي ويحـين موعـد المغادرة. إستمر هذا الحال لمدة ثمانية أشهر. حاول عبد الإله أن يُثنيني عـن عزمي ولكني أبلغته بأن الكيل قد طفح بقناعتي بالعمل الـوظيفي وإن لا حـلَّ للموضوع الاَّ بقبول إحالتي على التقاعد. فـي الشـهر السـادس لإعتصـامي الإختياري، نفذ صبر عبد الإله وتعهّد أن يُقنع عامر العبيدي بشـللي الـوظيفي ويطلب منه أن يفاتح حسين كامل بالأمر حتى يتخلَّصوا منـي. توجّـه عـامر العبيدي على مضض إلى حسين كامل في محاولة أخيرة لفـك إرتبـاطي بـه وإحالتي على التقاعد، إلا أن ردّ فعل حسين كامل كان برمي ملفّي الشخصي في وجه عامر العبيدي ناهراً إياه. طلب عامر من عبد الإله بإبلاغي بأن لا أكلمـه البتَّة ولا أطلب منه شيئاً بعد تلك المناوشة.

بعد شهرين من ذلك الحدث، وبينما كنت مع عبد الإله في سـيارته عصـراً، جاءَ على ذكر أمرٍ غير مُعتاد. يشهد عادةً 17 تموز و8 آب من كل سنة إحتفـالات حزب البعث بثورته وبإنتهاء الحرب الإيرانية، وتحتفل هيئة التصنيع العسكري بتلك المناسبتين باجتماع موسّع لمدراء دوائرها ومراكزهـا بحضـور حسـين كامـل للإستماع إلى الخطب المُملة. أفاد عبد الإله بأن حسين كامل لـم يحضـر إحتفـال الهيئة الموسّع لإحياء تلك المناسبة الكبرى صباح ذلك اليوم وقال: "وصلتنا إشاعة تُفيد بهروب حسين كامل إلى الأردن". إتصلت على الفـور بالصـحّاف الـذي

أمرني بالذهاب على عجل في اليوم التالي إلى عامر العبيدي والحصول على أمر رسمي يقضي بنقل خدماتي من هيئة التصنيع العسكري إلى وزارة الخارجية. تفضّل عامر العبيدي مشكوراً بالسماح لي في مُخاطبته مُجدداً ولا سيما وإنه كان قد جُرّد قبل يومٍ من منصبه كرئيس هيئة التصنيع العسكري وعُيّن وزيراً للنفط. ومع ذلك، أسخى عامر العبيدي في عطائه ووقّع أمر نقلي رسمياً بتاريخ رجعي. كان الصحّاف سعيداً جداً بهذه التطورات، وتنفيذاً لوعده فلقد أصدر أمراً بمنحي جواز سفر دبلوماسي، إستلمته بعد عدة أيام بدرجة "ملحق ثانٍ". كنّا في بداية شهر أيلول من عام 1995 وقد فاتني الإلتحاق بوفد وزارة الخارجية الدبلوماسي الذي كان قد غادر لحضور الدورة السنوية للهيئة العامة للأمم المتحدة والتي تُعقد في أواخر أيلول من كلّ سنة. وعدني الصحّاف بأن أكون قطعاً ضمن الوفد المُسافر إلى نيويورك في العام المُقبل.

خلال فترة الثلاث سنوات التي مرّت على عملي في وزارة الخارجية، وبفضل الرؤيا الواضحة التي يمتلكها الصحّاف وبمساندته السخيّة، إستطعنا أن ننجز نصب الشبكة الحاسوبية وربط جميع أقسام وزارة الخارجية وتدريب منتسبيها على عملية مسح (scan)، أو التصوير الحاسوبي، للوثائق وأرشفة المراسلات الرسمية اليومية من (صادرة) و(واردة) ووضع هذا الأرشيف بأمرة الحاسوب في مكتب الصحّاف، مما يعني أنه أصبح بإستطاعته الإطلاع فوراً على أي من المُراسلات المُتبادلة الخاصة بأقسام وزارته المختلفة. كما وقطع العمل على الأرشفة الصورية لأرشيف الوزارة خطوات متواضعة من التقدّم.

شغل مركز الحاسوب في وزارة الخارجية، بكادره المؤلف من ستة أفراد، صالة طعام الوزارة الفخمة. كان الصحّاف يمر لتفقد أمور المركز كلّ بضعة أسابيع وليطلب قائمة بالمعدات والبرمجيات الحاسوبية التي نزلت السوق حديثاً ليشتريها أثناء رحلاته المتعددة إلى خارج القطر. كما وإشترك في العديد من الدوريات المُتخصصة بعلم الحاسوب وكثيراً ما أدهشني قيامه بمطالعة العديد منها، رغم كثرة عددها وحجمها، وتعليقه على محتوياتها قبل تسليمها لي. من جراء مطالعتي لتلك الدوريات، كنت أقوم بإعداد القوائم المطلوبة من قبل

الصحّاف بأحدث البرمجيات وأجهزة الخزن التي أعتقد إننا بحاجة إليها في المركز أو يُستحسن إمتلاكها. ولم يَفت الصحّاف إقتناء أي من فقرات تلك القوائم إذ كانت زيارته بنفسه للمخازن المُتخصِّصة بحاجيات الحاسوب هي هوايته المُفضلة أثناء السفر.

كما وتمكّنا خلال تلك الفترة من تدريب حوالى مئتين وخمسين دبلوماسي على إستخدام الحاسوب لطباعة مراسلاتهم وتقاريرهم. ونتيجة لهذا الجهد بالذات، عضّني أحد ضباط المُخابرات عضّة بالغة بتوريده تُهمة مُلفّقة في سجلّي الشخصي في جهاز المخابرات لاحقتني سنوات طويلة وأوصدت الباب أمام محاولتي الهرب من العراق.

أُجريت الإنتخابات العامة لإختيار أعضاء البرلمان الوطني في أواخر 1995، وأُنيطت المهمة إلى كل وزارة بتحضير سِجلات حاسوبية بأسماء الناخبين المؤهلين لمنطقة جغرافية معينة في بغداد وحسب موقع كل وزارة. كان أعضاء حزب البعث المحليين يقومون بكتابة أسماء الناخبين ثُمَّ تُرسل اللوائح إلى الوزارة المعنية لتتحوّل حاسوبياً إلى قائمة بالأسماء المُسجلة ومُرتبة حسب الحروف الأبجدية. وبما ان حصة وزارة الخارجية كان طبع أكثر من أربعمائة ألف إسم، إقترحت على الصحّاف أن نستغلّ جهد الدبلوماسيين الذين تخرّجوا حديثاً من دورة التدريب على الحاسوب ليقوموا بهذه التمرين العملي، وبالتالي ننجز مهمتنا في وقتها ونعطيهم خبرة إضافية في إستخدام الحاسوب. وافق الصحّاف فوراً على المُقترح وأصدر أمراً إلى ثمانين دبلوماسي بإستلام الاقراص الحاسوبية الخاصة بالطبع مع التعليمات الضرورية بطبع وخزن خمسمائة إسم لكل منهم من مركز الحاسوب في الوزارة.

قَبِل المهمة أكثر الدبلوماسيين المعنيين وباشروا بالعمل عليها. وعندما سألني الصحّاف عن سير العملية بعد أيام قلائل، أبلغته ان خمسة وسبعين منهم إلتزموا بالأمر فيما عدا خمسة رفضوا تنفيذ تلك المهمة. سألني عندها بغضب: "من هم هؤلاء؟". لم أكن أعرفهم جيداً وإنما يعودون إلى قسم المُغتربين وذكرت له أسماءهم. ردَّ بسرعة: "هؤلاء كلاب المخابرات"، ثُمَّ رفع سماعة الهاتف. ما

أن تبيّن لي المأزق الذي وقعت فيه حتى رجوت الصحّاف بتهدئة أعصابه خوفاً من "أن عضَّ هؤلاء الكلاب سوف ينعكس عليَّ". لكنه كان صارماً ووعد بأن يحميني. هاتفَ رئيس القسم بلهجة تأديبية وأمره بأنَّ على ضباط المخابرات الخمسة أن يذهبوا إلى مركز الحاسوب ويتلقوا أقراص الخزن وقائمة الأسماء الخاصة بكل منهم خلال نصف ساعة، وإلا "راح أرجّعهم بالجلاليق منين ما إجَو" أي سوف يركلهم برجله ليعودوا من حيث أتوا.

رأيت بكل وضوح السمّ والشَّررَ يتطايران من عيني رئيس تلك المجموعة، صلاح عبد الرحمن الحديثي (الذي علمت فيما بعد انه كان مُكلَّفاً بملف الولايات المتحدة الأمريكية في المخابرات العراقية) عندما جاؤوا لإستلام حصتهم من الأسماء. أبلغني صلاح بكل غضب إن في أمرته في جهاز المخابرات ما يكفي من الطابعين ليقوموا بهذه المهمة. فرددت عليه وبدبلوماسية مَقولةً إستعرتها من مقولات صدَّام، فعزف عن الجواب. إلاّ أن الفأس وقعت في الرأس.

بعد مضي ثلاث سنوات من تلك الواقعة علمت بأنه كان قد بادر إثر تلك "الإهانة" له بتحرير تقرير رفعه إلى صدَّام يدَّعي فيه أن مقالاً قد نُشر في جريدة النيويورك تايمز الأمريكية جاء فيه طرح لإسمي مُنوّهاً بإحتمال أن أكون على علاقة بالموساد الإسرائيلي، وإنه (أي صلاح) يقوم الآن بالتحقيق في تفاصيل هذا الأمر بسريَّة وبجهود مكثّفة منه. كما وأشار تقريره إلى محاولة الصحَّاف تأمين منصب دبلوماسي لي في الخارج. كان تعليق صدَّام على التقرير بحبر أحمر بأن "ما يشوف الحدود بحياته"، أي لا يرى الحدود العراقية طول عمره. أُدرجت هذه الورقة في ملفّي الشخصي عند جهاز المخابرات دون علم الصحَّاف، وبها حُكِمَ بالفشل على كل محاولاتي للسفر إلى خارج العراق بغض النظر عمَّن يحاول من شخصيات أو جهات للتوسُّط في الأمر. انها إرادة صدام التي لا تقبل التحدّي. هكذا كانت طريقة صلاح الحديثي الشيطانية في رد الصاع لي وللصحَّاف بكيلٍ واحد.

أعرج هنا لسرد واقعة عائلية تعكس مدى الترابط والتسامح والتآلف بين الطوائف التي يفتخر العراقيون بها ويُجاهدون على التمسّك بها، لا سيما وإنها تتعرض للشرخ الشديد بفعل سياسات المُحتلّين الأمريكيين، ونشاطات المَخفيّين

ورائهم، من (كيان دولة) قريبة، والتي عشّشت مخابراتها الآن في شمال العراق، مع الأسف الشديد.

في ربيع عام 1995، إتصل بي أخي الحميم طالب البغدادي ودعاني لتأدية نذرٍ كان قد قطعه على نفسه عندما كان سجيناً بسبب تحدّيه لمقولة من مقولات صدّام: "من لا يعمل لا يأكل". سأل طالب طُلاب صفه في درس الاقتصاد في الجامعة المستنصرية: "ماذا عن الجندي من هذه المقولة؟ هل يعمل الجندي؟". أودِع طالب السجن لأشهر عديدة بعد مواجهة مع صدّام وتعرّض إلى التعذيب للدرجة التي قطع على نفسه النذِر بزيارة كلّ أضرحة الأئمّة الشيعة في جنوب العراق إن غادر السجن حياً. إلتمّ شمل أربع عائلات لطالب وإخوانه، عبد الهادي وعادل ومُقداد، وكامل أفراد عائلتي في حافلة كبيرة إستأجرها طالب لهذه السفرة وقضينا ثلاثة أيام لا تغيب طعم ذكرياتها في زيارة أضرحة الأئمّة والمَبيت في بستان أخيه عادل في الكوفة مُحاطين بحفاوة فخذ من عشيرة الخزرج، التي ينتمي إليها آل البغدادي، أو في بيوت أصدقاء آل البغدادي في النجف وكربلاء. كما وكانت نفس العائلات تقضي، ولسنين عديدة، طيلة أيام عيد الفطرِ المُبارك في قرية شقلاوة الركدية، وتعيش سوية في بيت واسع هناك، مُستمتعة بجمال الطبيعة الخلاب في شمال العراق تبَعاً لمواعيد حلول العيد.

دخل العراق في ربيع عام 1996 في مفاوضات مُطوّلة مع الأمم المتحدة بشأن مذكرة التفاهم لبرنامج النفط مقابل الغذاء. عُقدت تلك المفاوضات المُضنية في وزارة الخارجية، وبحكم منصبي كرئيس مركز الحاسوب في الوزارة حيث تأتينا مسودّات الإتفاقيات لطباعتها بالعربية والإنكليزية، أضحيت أحضر جلسات هذه الاجتماعات لكي أُساهم بفعالية أجدى في تحضير الوثائق التي يتم الإتفاق عليها. من خلال هذه الاجتماعات، تعرّفت على بعض رؤساء وكالات الامم المتحدة العاملة في بغداد. كانت رغبتي الطموحة جداً والبعيدة المنال في حينها بأن أتقاعد من خدمة الدولة وأن أعمل مع إحدى هذه الوكالات، حيث تزيد الرواتب فيها خمسين ضعفاً عن رواتبنا، ولكي تُتاح لي الفرصة الإستعانة بها

كمنصّة للقفز منها للعمل في فروع تلك الوكالة في الخارج. في نهاية ربيع العام 1996، حانت فرصة عمل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي(UNDP) في بغداد، وإتصلت بالصديقة شيرين الجاف التي كانت تعمل هناك أسألها عن إمكانية تقدّم نيران زوجتي لتلك الوظيفة. بكل جرأة ردّت شيرين بأنه يتعيَّن عليَّ أنا التقـدّم لهذا المنصب لانه يتناسب مع المؤهلات التي هم بِصدد التفتيش عنها. أبلغـت الصحّاف عن هذه الفرصة وطلبت منه الإذن بالترشيح لذلك المنصب، فأبـدى تشجيعه فوراً على ذلك وبالرغم من أنني كنت لا زلت موظفاً عنده، ولا سـيما بعد إكتمال مقومات الشبكة الحاسوبية في الوزارة وعملها بصورة مُرضية لـه. ولفتح المجال أمامي لتنفيذ تلك الخطوة، طلب الصحّاف مـن سـعد الفيصـل، الوكيل الأقدم في الوزارة والمسؤول عن الشؤون الأمنية فيها، أن يحصل على إذن من جهاز المُخابرات بالسماح لي بالعمل مع وكالة أجنبية (إعتقل المحتلّون الأمريكيون سعد الفيصل في نهاية أيار من العام 2003). عُقد لهـذا الغـرض اجتماع في مكتب سعد الفيصل تمخَّض عنه مقابلة قصيرة مـع ضـابط مـن المخابرات تلاه موافقة الجهاز على الترشيح للمنصب، وبدون أي شروط أو قيد.

تقدمتُ مع مائتين وخمسين مُرشحاً آخر من حملة شـهادات الماجسـتير والدكتوراة إلى تلك الوظيفة الوحيدة، مما كان يدلّ على الوضـع الاقتصـادي المُتردّي في البلاد خلال منتصف التسعينات. تقلصّت اللائحة إلى ثمانية عشـر مُرشحاً أدوا إمتحاناً شفوياً وآخر تحريرياً، وكنت واحداً من الثلاثة الباقين فـي المُنافسة لمُقابلة رؤوساء وكالات الأمم المتحدة العاملين في العـراق لإختيـار المُرشح الفائز بالوظيفة. إثر وِساطة مُكالمة هاتفية من خارج العـراق، وقـع الإختيار على صديق لي، رغم انه لم يفلح في إجتيـاز الإمتحـان التحريـري وتأخره في إكماله. ومهما كانت نتيجة تلك المنافسة، فلقد أدت المُقابلات الأخيرة مع رؤساء تلك الوكالات إلى ترك إنطباعات راسخة في أذهانهم عن مؤهلاتي وخبراتي. وكما بيَّنت الاحداث المُتسارعة في الشهور القليلة التالية، كان لتلـك المقابلات نتائج مصيرية.

في صيف العام 1996، وبعد مرور سنة على وظيفتي الجديدة فـي وزارة

الخارجية وبجعبتي جواز سفر دبلوماسي، إستطاع الصحّاف أن يدبّر لي أمـراً رئاسياً بمصاحبة وكيل الوزارة القدير، رياض القيْسي، في رحلة دبلوماسية إلى الخارج تبدأ من منتصف شهر آب 1996 تبدأ من نيويورك ومن ثـم موسكو وأخيراً القاهرة. جهَّزنا أوراقنا والتأشيرات المطلوبة مع تذاكر السفر وتحويل العملة الأجنبية المسموح بها. قبل سفرنا بيوم واحد، وفيما كنت مُجتمعاً مع رياض في مكتبه بصدد التفاوض مع السفير الروسي بشأن تفاصيل زيارتنا المُرتقبة إلى موسكو، طلب رياض من سائقه ان يذهب إلى دائـرة الجوازات للحصول على تأشيرتي خروج لكلينا. كان من شروط مغادرة العراق في ذلـك الوقت الحصول على تأشيرة خروج تبلغ رسومها 400 الف دينار عراقي للفرد. عاد السائق بعد ساعة ليبلغنا بأنه قد حصل على تأشيرة خروج لريـاض فقـط بينما اعترضوا على طلبي. كان السبب الذي قدّموه للـرفض هـو إنّ اسـمي المذكور في جواز السفر، وإن كان رُباعياً، إلاّ انه لا يحمل إسـم العشـيرة أو اللقب.

كان قد أعلمني والدي بأن إسمه هو يوسـف يعقـوب خـدوري يعقـوب خدوري... تمُسّكاً من أجداد عائلتنا بالتقاليد العربية بتسمية أكبر الأبناء بإسـم جده لأبيه. وكان جدّي قد شذّ عن هذا التقليد ثم ندم عليه وسمّى عمي، الأصغر من أبي، بخدوري. كما ويدّعي والدي بأن أصول عائلتنا تنحدر مـن عشـائر اليزيدية القاطنين في شمال العراق واللذين يعبدون الله والشيطان معاً، ويدّعون أن الله رحيم وكريم وبالتالي تقبل محبته. وعلى النقيض من ذلـك، عليـك أن تُرضي الشيطان حتى تتجنب شرّه وغضبه. خلال بحث والـدي فـي بعـض الوثائق القديمة، وجد أن عائلة خدّوري يزيدية وكان لها مركز قيادي قبل حوالى 300 سنة لكنها طُردت من العشيرة اليزيدية لأسباب ما زالت مجهولة حتى الان وإعتنقت الدين المسيحي. قسم من العائلة الكبيرة رحل جنوبـاً إلـى البصـرة، والقسم الآخر بقي في الشمال في الموصل. ينحدر مجيـد خـدّوري، المـؤرخ المشهور لتاريخ العراق والذي أشرف على رسالة الدكتوراة لأخي وليـد فـي جامعة (جون هوبكنز) في واشنطن، من الفرع الذي توطّن في الموصل، بينمـا

كنّا نحن أحفاد الفرع الذي أستقرَّ في البصرة. تجربتان مرّتا بي في هذا الصدد، أحدها حصلت أثناء مُصاحبة عبد الإله الديوه جي في إحدى زياراتي للموصل لربط جامعة الموصل بالشبكة الحاسوبية في أوائل التسعينات. عرَجنا على قريب له في أحد أقسام الجامعة للسلام عليه، وعلى إثرها إختلى القريب بعبد الإله يسأله: "من هذا اليزيدي الذي يُرافقك؟". المُفارقة الثانية إصطحابي أحد شباب قرية تلكيف في شمال العراق، عند زيارتي المُتكررة لمّربيتي كوزي، ليُرافقني في الذهاب إلى ديرٍ موغلٍ في القدم ومبني في وسط جبل قرب تلكيف. أثناء سيرنا إلى موقع الدير، مررنا بشيخين يزيديين يُهيئان الشاي على قارعة الطريق. إستجبنا لدعوتهما لتناول الشاي وإذ بأحد الشيخين يُمعِن النظر في تقاطيع وجهي ويعلن بتأكيد: "إنت يزيدي".

تلافياً لإستغلال لقب "التكريتي" من قبل عشيرة آل المجيد وفخوذ العشائر المجاورة في بسط النفوذ، أمر صدام في أوائل الثمانينات من القرن الماضي بحذف اللقب (أو الاسم العشائري) من الهويات الشخصية وإقتصارها على الإسم الرباعي للفرد، إنتهاءً بإسم والد الجد. تنتمي معظم العائلات العراقية إلى إحدى العشائر العربية العديدة مُتمسكة بإسمها في لقبهم أو تتمسك باللقب التاريخي الذي يُطلق عليها من قبل الآخرين للدلالة على حرفة رب العائلة أو ما شابه. كان إسمي في السجلات الرسمية بكل بساطة هو: عماد يوسف يعقوب خدُوري بدون أي لقب. في منتصف التسعينات، إضمحل تدريجياً تأثير قانون منع إستخدام الألقاب وعاد إستخدامها يتغلغل تدريجياً في الهويات الرسمية. عند حصولي على هوية تقديرية في العام 1995، إستغرب الضابط من عدم توفّر لقب لإسمي وتكرّم عليّ بإضافته على هويتي الجديدة بحيث أضحى إسمي في تلك الهوية: عماد يوسف يعقوب خدُوري خدُوري.

وعودة إلى رفض تأشيرة الخروج بسبب عدم ذكر اللقب في جواز السفر، فلقد تبرّعت بالذهاب مع سائق رياض القيسي مرة أُخرى إلى دائرة الجوازات مع الهوية الحاملة للقب للتغلب على إعتراضهم. لكن رياض القيسي، الذي يتمتع بخبرة أشمل في مثل هذه الأمور، هدّىءَ من روعي وصرّح لي بأن الموضوع

ليس شأن اللقب وأنما هو موضوع على الوزير أن يتصرَّف بشأنه، مما أثار دهشتي. فضَّ رياض الاجتماع مع السفير الروسي واتجه إلى مكتب الصحّاف الذي غادر الوزارة فوراً إلى القصر الرئاسي.

شرح لي الصحّاف في وقت لاحق من ذلك اليوم أسباب رفض تأشيرة الخروج. إدَّعى الصحّاف أن السبب هو الحملة العسكرية المُنطلقة نحو أربيل في الشمال لطرد أعوان أحمد الجلبي وعُملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من هناك، والتي إستدعت رفع المستويات الأمنية في البلاد. وبسبب خلفيتي العلمية الحسَّاسة، فإنه يصعب عليَّ الحصول على تأشيرة خروج في مثل هذه الفترة الحرجة. وللتخفيف من وطأة خيبة الأمل في السفر، وعدني الصحّاف بأن أكون ضمن وفده المُسافر إلى الأمم المتحدة خلال شهر، في أيلول من عام 1996، حيث توقّع أن تهدأ الأوضاع في ذلك الحين. أظنُّ أن الصحّاف، وما زلت مُقتنعاً حتى يومنا هذا، لم يكن يدري في ذلك الوقت بتقرير صلاح الحديثي السّام القابع في ملفي السرّي عند جهاز المخابرات.

وعندما حان موعد سفره أخيراً، وبعد محاولات حثيثة، إستدعاني الصحّاف إلى مكتبه في الساعات الأخيرة من الليلة قبل مغادرته. لقد فشل من جديد في الحصول على تأشيرة الخروج. كنت في حقيقة الأمر أتوقّع حدوث ذلك. فقلت له:"إلتقينا بالمودَّة، أرجو أن نفترق بالمودَّة" وسلّمته طلب إحالتي على التقاعد. وافق الصحّاف على طلبي بأسىً واضح.

إستطاع سهم صلاح الحديثي المسموم أن يصيب أول أهدافه في الصميم. ولم يكن ذلك السهم الاخير. فحسب ما قاله لي أبو ديار الذي عمل بإخلاص وشجاعة ليُخرجني مع عائلتي من العراق بعد ثلاث سنوات من تلك الحادثة: "إن وجود ذلك التقرير في ملفك الشخصي لدى المخابرات معناه أنك لن تتمكن، حتى في أحلامك، أن ترى الحدود العراقية".

في اليوم التالي، وبعد أن سلَّمت جواز السفر الدبلوماسي ذو العمر القصير والذي لم يُستَخدم أبداً، تسلَّمت بيدي أمراً طالما تقتُ اليه، وهو كتاب الإحالة على التقاعد مُوقّعاً من قبل طارق عزيز الذي كان قائماً بأعمال الوزارة أثناء

غياب الصحَّاف. غادرت الوزارة مُباشرة للقاء حبيب رجب، رئيس منظمة الصحة العالمية في بغداد الذي سبق وأن أعرب عن إهتمامه بخدماتي شرط حصولي على أمر التقاعد. وكان الرجل عند كلمته، وبدأت العمل في منظمة الصحة العالمية في اليوم التالي. كانت مهمتي الأساسية ربط مخازن وزارة الصحة المُنتشرة في أنحاء البلاد بشبكة حاسوبية عن طريق الهاتف لحصر ومُتابعة توزيع الأدوية والتجهيزات الطبية التي تُستورد بموجب برنامج الغذاء مقابل النفط، تحت رعاية منظمة الصحة العالمية، وتوزّع على تلك المخازن لتتدفق من هناك إلى مخازن (مذاخر) الأدوية والمُستشفيات في محافظات القطر.

علاوة على ذلك، وبعد أن حصلت على كتاب التقاعد، بدأت بالعد العكسي لإنقضاء عامين على تاريخ الإحالة على التقاعد حسب قرار حكومي في العام 1995 الذي فرض على جميع موظفي منظمة الطاقة الذرية العراقية، بما فيهم العاملين في مشروع PC3، مرور سنتين على تقاعدهم قبل أن يُحَقّ لهم الحصول على الجواز والسماح لهم بالسفر.

وبالرغم من رغبتي الصميمة في مُغادرة العراق بطريقة شرعية، إلا أنني بدأت مع نيران وبكل حذر البحث عن طريق للهروب من العراق.

الهروب

أثناء السنوات القلائل التي عقبت حرب 1991، بدأ أقران نيران في كُليَّة المنصور الجامعة، حيث كانت تُدرِّس علم لغات الحاسوب، بالإختفاء تدريجياً من العراق. غادر البعض بطريقة شرعية عبر الأردن والبعض الآخر بالخِفية والكُتمان. وبما أن السفر الجوّي كان ممنوعاً بسبب العقوبات المفروضة على البلاد خلال التسعينات، إنحصرت طرق الهروب عن طريق المُهرّبين الأكراد في الشمال عبر تركيا، وكان أحدً هؤلاء خضر حمزة الذي درَّسَ في ذات الكلية مع نيران، أو المُخاطرة الجسيمة عبر طريبيل، نقطة الحدود إلى الأردن، المُصانة من قبل ضباط الأمن والمُخابرات.

كانت نيران تنقل اليَّ أنباء تسرّب زملائها بأسلوبها المُقنِع الهادئ. إلا أن ما أثار إنتباهنا وحفَزنا على التفكير جدياً هو نبأ إختفاء صديقة نيران المُقربَّة، سميرة كتّولة وزوجها توفيق مع أطفالهما، على حين غرّة. كان الإثنان من حملة شهادة الدكتوراة، كما وسبق وأن عملا في منظمة الطاقة الذريَّة العراقية في الثمانينات من القرن الماضي. قررنا أن نبحث عن الطريق الذي سلكاه، لعل وعسى أن يُرشدنا إلى مُحاكاته.

تنتقل الأخبار بسرعة في بغداد حيث يصعُب إخفاؤها، صحيحة كانت أم مجرد ثرثرة وإشاعة، إلاّ فيما ندر من قُصاصات أخبار أجهزة المُخابرات والأمن. دلّتنا الأنباء على أن هناك من يُدعى أبو عبدالله في مدينة الموصل كان الوسيط والقناة التي تسرَبت من خلالها تلك العائلة إلى الخارج. وإستطعت بواسطة إبن عمّي سلام خدُوري الذي أوصلني إلى بعض المُهرّبين الأكراد من التأكّد من ذلك النبأ. أضف إلى ذلك أنَّ أبا عبدالله كان مسيحياً، وبالتالي أجدر بالوثوق بالنسبة لنا.

في نفس الوقت الذي كنت ونيران نُفكِّرُ فيه بطريقة نزوح عائلتنا، كان علينا أن نجِدَ الحلَّ لبعض المشاكل العويصة. المشكلة الأولى التي واجهتنا هي أن عُمر نيران في ذلك الحين كان 43 سنة، وكان القانون يمنع أي إمرأة دون سن الخامسة والأربعين من مُغادرة البلاد إلاّ بِصحبة الزوج أو الأب أو الأخ أو العم أو الخال. كان السبب المُعلن لذلك هو الحدّ من سفر بنات الهوى العراقيات إلى الخارج. أضف إلى ذلك المشكلة الثانية وهي حصول نيران على شهادة الماجستير في علم الحاسوب مما يُعرقِلُ نيلها تأشيرة خروج بسبب صدور قانون يَحظِر منحها للمُدرّسين الجامعيين الحاملين شهادات الماجستير أو الدكتوراة، إلا بموافقة وزير التعليم العالي والبحث العلمي، للحدّ من تسرّبهم إلى الخارج. والمشكلة الثالثة والأصعب تمثّلت بالإسم، إذ حُبكت أسماء أفراد عائلتي بملَفي الشخصي الموجود في أجهزة المُخابرات والأمن. لذا فإن أي محاولة للحصول على تأشيرة سفر لأي فرد منهم سوف تثير إنتباه تلك الأجهزة وتُعلن عن الرغبة في السفر بدون الحصول على الإذن المُسبق منهم.

وبالرغم من عدم قناعتنا التامة في الهروب عن طريق الشمال بسبب ما سمعناه من خطورة عبور الحدود العراقية التركية عبر طُرقٍ برية خافية تحت رحمة المُهرّبين، سافرت مع نيران إلى الموصل لمقابلة أبي عبدالله وزوجته، مصففة الشعر ذات الشخصية المُسيطِرة. حملت معي جوازات سفر أفراد عائلتي فقط، والتي حصلت عليها بعد حرب 1991 بأسبوع تحسُّباً لمثل هذه الظروف، إذ كان جواز سفري في خزانة مُدير أمن هيئة التصنيع العسكري. إنتشرت في غرفة إستقبال أبو عبدالله أدوات العمل التي يستعملها في مهنته هذه من جهاز تصوير فوري وحبر أبيض (لمحي الحبر) وأصناف من المحايات والأقلام وإستمارات طلب تأشيرة الخروج فارغة ومُهيئة للتعبئة. وأثناء تناولنا الشاي، تناول هو الجوازات التي معنا وجلس ليملأ طلبات تأشيرات الخروج لنيران والاولاد. أكّدَ لنا أبو عبدالله بأن إصدار تأشيرة الخروج لنيران من مكتب جوازات الموصل ستتغلب علي كافة مُشكلاتها إذ أنه سيَضمن عدم وصول معلومات طلبها لتأشيرة الخروج، ولأولادنا أيضاً، إلى قاعدة معلومات أجهزة المخابرات في بغداد. وأخذنا بكل ثِقة لزيارة مكتب جوازات الموصل، الذي يبعد بضع خطوات عن منزله، حيث لاقى ترحيب العديد من ضباط الأمن الذين إغتبطوا لرؤية دخلٍ إضافي يأتيهم بواسطة أبي عبدالله والذي تمكّن أن يحصل بسُرعة على كافة الأختام والتواقيع الضرورية على إستمارات طلب التأشيرة التي يحملها لأفراد عائلتي. عرض علينا أبو عبدالله وزوجته السيناريو التالي للهروب. بإستطاعته تأمين وصول نيران والأولاد إلى بيروت عبر تركيا وسوريا. في لُبنان، علينا إلتماس مُساعدة الجمعيات الخيرية المسيحية، وزوّدونا بأسماء بعض الكَهنة هناك، للحصول على مُعاملات هجرة إلى إحدى الدول الغربية، وأيضاً عبر جمعيات خيرية مسيحية دولية، بعد الذهاب أولاً إلى أي من الدول المجاورة مثل إيطاليا أو اليونان أو قبرص. وإذا دفعنا من المبالغ بما فيه الكفاية، يُمكننا أن نتقدم، من خلال الجمعيات المسيحية في لبنان، بطلب للحصول على الجنسية اللبنانية بِصفتنا المسيحية. وادّعى عبدالله بأن سميرة وتوفيق غادرا بهذه الطريقة إلى قبرص حيث كانا ينتظران المعاملات اللازمة

للسفر إلى المملكة المتحدة. توقَّفت (واسطة) أبو عبدالله ونفوذه عند حدود مكتب جوازات الموصل. إعتذر عن إصدار جواز سفر مزوَّر لـي بسـبب علاقتـي الحسَّاسة مع منظمة الطاقة الذرية العراقية وورود إسمي في العديد من قواعـد معلومات أجهزة الأمن والمخابرات. كان عليَّ أن أجد وسيلة للهروب بنفسـي وبدون تدخّله. شاركنا مُضيفينا طعام الغداء، ولم يتبَّق علينا سوى دفع مبلغ ألف دولار لكي تُختَم تأشيرات الخروج على جوازات السفر نفسها. إعتذرنا من أبي عبدالله وزوجته لحاجتنا إلى الرجوع إلى الفندق لقضاء قيلولة الظهر ولتسنح لنا الفرصة في التفكير ملّيّاً في عرضهما. كنت جالساً على شرفة الفندق أُحدِّق في أفق الموصل الفسيح عندما تقدّمت نيران منّي، فحدّقت فيها ملّياً وبدون تبادل أي كلمة هزّينا رأسينا رَفضاً ثُمَّ تعانقنا وعُدنا إلى بغداد.

بعد مرور عامين على تلك المحاولة، دُعينا أنا ونيران إلى مُناسبة وداعيّة في بيت شقيقة نيران، ناريمان وزوجها سعد يونو. كان الحفـل علـى شـرف صديق لِكُلينا، خالد رومايا، المهندس الميكانيكي الماهر في مشروع PC3، الذي كان في طريقه للسفر مع عائلته إلى الولايات المتحدة الأمريكيـة. إسـتغربت كثيراً الأمر – كيف إستطاع خالد أن يحصل على جواز سفره؟ أخـذني خالـد جانباً وهمَس في إذني التفاصيل المثيرة. في بادئ الأمر، إستطاع أن يحصـل على كتاب التقاعد بحجة تعرضه لمشاكل صحية كان يُعانيها منذ سـنين. ثُـمَّ إستطاع أن يكسب ثِقة خالد رشيد، مدير جهاز الأمن في هيئة التصنيع العسكري والذي يعمل في الواقع تحت إدارة جهاز المُخابرات. فبعد دمج مشروع PC3 مع هيئة التصنيع في العام 1993، أصبح جميع موظفي المشروع تحت إشراف خالد الأمني ونُقلت ملفاتهم الأمنية الشخصية من منظمة الطاقة إلى هيئة التصنيع. كُلَّ ما لزم للحصول على الجواز هو دفع مبلغ 400 دولار لقيام خالد رشيد بتسهيل الأمر من خلال إستغلال ثغرة إدارية في تعليمات جهاز المُخابرات لأمن هيئـة التصنيع العسكري، وكان لدى مكتب الأمن في هيئة التصنيع صلاحية عُليا على مديرية الأمن العام التي تصدر جوازات السفر. حتى لا يغرق جهاز المُخابرات في خضَم مُعاملات الموافقة على منح جواز السفر للعديد من منتسـبي هيئـة

التصنيع، فقد وضع الجهاز خطوطاً عريضة لخالد رشيد في هذا المجال حيث طُلب منه أن يرفع إليهم فقط تلك الطلبات المستوفية للشروط (بمعنى من أمضوا عامين بعد إحالتهم على التقاعد) لكبار الموظفين، أي بمستوى مديرعام فما فوق للنظر فيها ومنحهم الموافقة. فيما عدا هذه الفئة، فقد تُرك لخالد أمر التصرّف ببقية الطلبات ومنح الموافقة بعد تأكده من إستيفاء الشروط لطالب الجواز آخذاً بعين الإعتبار حساسية طالب الموافقة من المعلومات المتوفرة عنه في ملفه الأمني. سهّل مبلغ الأربعمائة دولار في التقليل من حساسية منصب خالد رومايا، الذي لم يكن مديراً عاماً، إلى المستوى الكافي لإصدار الموافقة من قبل خالد رشيد والإيعاز إلى مديرية الأمن العام بمنح خالد الجواز وتأشيرات الخروج له ولأفراد وعائلته.

ودّعَنا خالد رومايا بعد أن ترك لي رقم هاتف خالد رشيد الخاص، مع نصيحة بأن أذكر اسمه وأنّه هو الذي أعطاني الرقم عندما أتصل مع خالد. كنت قد حصلت على كتاب التقاعد في تلك الفترة وأعمل مع منظمة الصحة العالمية، وأعدُّ الأيام لإنقضاء فترة العامين. كان لا يزال أمام أكبر أولادي عامان حتى ينهيا الدراسة الثانوية. إحتفظت في مكان أمين برقم هاتف خالد رشيد.

في البيت المجاور لمنزل ناريمان، كانت تسكن شقيقة نيران الثانية، نورهان وزوجها عامر سمعان الذي يحمل شهادة الماجستير في علم الإحصاء ويعمل في تصميم الصواريخ في مركز يعود إلى هيئة التصنيع العسكري. لعامر شقيق أكبر كان قد حصل على الجنسية الأمريكية قبل عدة أعوام، وعمل على إثرها على الحصول على موافقة السلطات الأمريكية على هجرة أخيه عامر الموجود في بغداد، ووصلت الموافقة فعلاً إلى السفارة الأمريكية في عمّان. لم تنحصر مشكلة عامر في الحصول على جواز السفر بسبب إنتمائه لمركز حسّاس في هيئة التصنيع العسكري وإنما لم يكن عمر نورهان قد تجاوز الأربعين سنة. أضف إلى ذلك، لم يكن لديه من قوة الإرادة ما يكفي، حسب رأيي الشخصي، في الإقدام على مُغامرة الهروب مع بناته الثلاثة من الشمال أو عن طريق طريبيل.

بِحُكم علاقة الجوار مع الجيران، علِم عامر ونورهان بأن شخصاً مسيحياً يُدعى باسم إيشوع بطرس، والذي سندعوه بعد الآن بلقبه أبو ديار، قد إستطاع أن يُرحّل بعض أفراد الجيران، الذين كانوا ممنوعين من السفر، إلى الأردن وبدون أي متاعب. إتصل عامر ونورهان بأبي ديار. بكل ثقة في النفس، وهدوء في القرار، تمكّن أبو ديار من الإمساك بالأمور، وبتلابيب عامر، وسلّمه جواز سفر فيه صورته ولكن بإسم خال نورهان ويخوّله مصاحبتها إلى خارج العراق، بِحكم كونه خالها. في ذات الوقت، سلّم أبو ديار إلى عامر جوازاً صالحاً يحمل إسمه الحقيقي إلا أنه لا يستطيع إستخدامه في العراق لكنه يَصلح للسفر متى ما صار خارج القطر. بالاستعانة بجواز (الخال)، غادرت العائلة العراق وتمكّن أبو ديار من ختم جواز عامر الحقيقي عند الخروج من طريبيل ليُبرزه عند دخول منطقة الرويشد الحدودية الأردنية. بقي أبو ديار مع عامر وعائلته حتى إنتهاء معاملة هجرتهم ثم عاد إلى بغداد بعد سفرهم. بلغت أجرة مُساعدة أبو ديار لعامر ألف دولار.

كانت تلك التجربة بُرهاناً مُقنعاً لي ولنيران.

بعد الإستفسار عبر قنواته الخاصة، أعرب لنا أبو ديار عن إمكانية حصوله على تأشيرات الخروج لجوازات سفر نيران والأولاد الجاهزة بدون لفت أنظار أجهزة الأمن والمُخابرات، إلا أن مركزي الحسّاس في منظمة الطاقة الذرية ومشروع PC3 شكّل له صعوبة أكثر بكثير من حالة عامر في هيئة التصنيع العسكري، إذ ظهر إسمي بصورة مُترابطة في العديد من قواعد معلومات الأمن والمخابرات، مما أعاق قدرته على إصدار جواز سفر باسمي الأصلي، كما فعل لعامر، بالرغم من سعة دائرة علاقاته الخاصة بهذا الشأن. تأكّد له بأن الطريق الوحيد لإصدار جواز رسمي لي هو عن طريق وموافقة دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري. عرض عليَّ أبو ديار إصدار جواز سفر بإسم مستعار، وبهذه الوسيلة يمكنه إخراجنا جميعاً من العراق سوية عبر طريبيل، وبيُسر.

لم أكن أميل لذلك الخيار، إذ كنت أصِرُّ دائماً على مغادرة العراق بطريقة

شرعية، ولم يكن لديَّ ما أخفيه أو أخجل منه حتى أُبدِّلَ هويتي وأُعاني من تشابُكها لاحقاً، خاصةً وإني كنت قد أُحلتُ على التقاعد وبدأت عداً عكسياً لقضاء فترة العامين المطلوبة قبل التقدم رسمياً للحصول على جواز سفر أصيل، ولا زال أمام أولادي عام أو عامان قبل موعد إلتحاقهم بالجامعة. وعليه أعلمنا أبو ديار أنه بإمكاننا الإنتظار، إذ كنت ونيران في ذات الوقت نبحث بصمت عن الجهة التي نقصدها ما بعد الهروب. إحترم أبو ديار رغبتنا وأبدى إستعداده لتقديم أية معونة، رغم أن بوابات طريبيل الحدودية كانت تُغلق يومياً شيئاً فشيئاً وبإحكام.

نزولاً عند رغبة نيران وتشجيعها المُستمر لتقديم معاملة ما، ملأت أخيراً طلب هجرة إلى كندا على صفحة معلومات واحدة. أرسلت الطلب سراً في العام 1995 إلى القنصل الكندي في عمَّان بواسطة صُبحي أيوب، الصديق الأردني المُخلص الذي نثق به ونعتمد عليه كثيراً. إنتظرنا جواب القنصلية الكندية طيلة ما يقرب من عام، وبالرغم من رسالَتيْ تذكير، إلا أننا لم نتلقَّ أي جواب. لم يكن ذلك مجرد إنتظار، بل أعصاباً متوترةً وآمالاً هائمة حيث أن صبحي كان يسافر إلى عمَّان ويعود كل شهرين بخُفي حنين.

في مطلع العام 1996، وفيما كنّا نتسامر عبر السور مع جارتنا القديمة، لُمى الصائغ، عن تجربتها في الحصول على تصريح هجرة كندي، سألتنا بكل براءة عن عدد النقاط التي حصلنا عليها في محاولتنا المماثلة. نقاط؟ أي نُقاط؟ إن أي حديث في مثل هذا الموضوع وعن مثل هذه البلاد يتمُّ عادة في أقصى درجات السريَّة والكتمان وفي صوت خفيض، مما يوجب قدراً أقل من التفاصيل. دخلتْ لمى إلى بيتها ثم عادت بورقة من المعلومات يمكن بها حساب نقاط التأهيل التي يبدو أننا غفلنا عن عدّها قبلاً. ناولتنا لُمى الورقة بسرعة من فوق السور. عند حساب صفر لسني، لأني تجاوزت الخمسين، ونقطتين مقابل 25 سنة من الخبرة زائداً دكتوراة في تكنولوجيا المفاعلات النوويَّة (بينما تحصل شهادة في فن الطعام الفرنسي على 25 نقطة) بدا واضحاً أن المجموع الذي حصلت عليه والبالغ ثمانية وأربعين نقطة هو أقلُّ بكثير من الخمسة وسبعين

نقطة المطلوبة للتأهيل، لذا لم يعد مُستغرَباً عدم ردّ الكنديين على طلبنا. أصابني إحباط شديد لأني أضعت سنة كاملة حتى أُحيط علماً بهذه المعلومة. لكن نيران إستطاعت أن تتمالك نفسها وجلست تحسب نقاطها هي. بقي لها ستة أشهر حتى تبلغ الخمسة وأربعين سنة من العمر، فتخسر حينذاك نقطتين من مجموعها. لكن عندما جمعت ماجستير علم الحاسوب (الصادر من المملكة المتحدة) حصلت على 76 نقطة. إعتمادا على صُبحي، إستطعنا أن نبعث بطلب نيران للهجرة، وعندما رجع من عمّان بعد أسبوعين سلّمنا طلب الهجرة الكندي الرسمي المكوَّن من أربع صفحات. إن حصول نيران على شهادة الماجستير في علم الحاسوب التي أصرَّيت عليها عندما تزوجنا في العام 1976، مهّدت لنا درباً غير منظور، ومنحت إسرتنا منعطفاً جديداً في الحياة.

كان صُبحي نفسه يتحمَّل مخاطر جسيمة بحَملِه بريدنا إلى السفارة الكندية ذهاباً ونقل أجوبتهم إلينا إياباً، فإمكانية أي تفتيش دقيق على الحدود عند طريبيل كان يُمكن أن تُكلِّفه وإيَّانا الكثير من المُعاناة جراء تلك المُجازفة.

من البداية، أوضحنا الأمر بجلاء للكنديين من خلال طلب الهجرة بأن وضعي وخلفية عملي حساسة جداً. زِد على ذلك أن نيران كانت تدرِّس في كلية خاصة، وكان قد صدر مؤخراً قرارٌ يمنعُ سفر حملة الشهادات العُليا العاملين في الكليات والجامعات الخاصة والحكومية. لذلك طلبنا من الكنديين موافقتهم المُسبقة، أو على الأقل تأكيد إمكانية الحصول على الموافقة، للإعتماد عليها والمُخاطرة بهروبنا مرة واحدة من العراق، آخذين بعين الإعتبار قضاء أقصر وقت ممكن في عمّان تجنُباً لعيون عملاء المخابرات العراقية هناك وتفادياً لبطشهم. أقصى ماعرضه علينا الكنديون هو إجراء مقابلة لنيران في عمَّان، أما أنا فيُمكنني إجراء المقابلة معهم في أي عاصمة من عواصم العالم. ثُمَّ إستنتجنا من مراسلات لاحقة بأنه سيكتفون بمقابلة نيران عوضاً عن مقابلتنا معاً حتى يتمكنوا من منح قرار الموافقة. باشرنا العمل والتخطيط المُضني على هذا الأساس، لنجني الخيبة المؤلمة فيما بعد.

في صيف العام 1997 كنت أقترب من نهاية عام واحد من فترة العامين

ليتسنى لي بعدها الحصول على جواز السفر، وقد مضى عليَّ ستة أشهر في العمل مع منظمة الصحة العالميَّة. تمكنت في هذه الفترة من نصب شبكة حاسوبية عن طريق الهاتف وأكملت تدريب أكثر من ستين من الصيادلة والمُشرفين على مخازن الأدوية على إستعمال الشبكة وإدخال البيانات في قاعدة معلومات الأدوية والمُستلزمات الطبية في مراكز وزارة الصحة في كافة أنحاء العراق. وفوجئت بإستبدالي بنزوة شخصية حيث أُعطي منصبي إلى شاب مصري يبلغ من العمر 21 عاماً بإختصاص الحاسوب بواسطة عمّه المُستشار في منظمة الصحة العالمية الذي قام بزيارة لحبيب رجب، رئيس المنظمة في بغداد. وكما هو معلوم، فإنه إستعان بأسلوب (الواسطة) الشائع في منظمات الأمم المتحدة: عليك حكَّ ظهري حتى أحُكَّ لك ظهركَ. بتلك الروح من التعاون الخفي، أصبحت أنا إبن العراق دون عمل وبدون إبداء السبب الرسمي لإنهاء وظيفتي سوى التذرُّع بإنتهاء فترة عقدي مع المُنظمة، سيما وأن العمل لا زال في أوله.

كنتُ محظوظاً جداً لأن شيرين الجاف، والتي شجّعتني في البداية على العمل في منظمات الأمم المتحدة، كانت ما تزال تبحث عن مُراقِب وطني كفوء للعمل في إحدى فعاليات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP) في العراق لإعادة بناء شبكة الكهرباء الوطنية في وسط وجنوب البلاد، والتنسيق مع أعمال تنفيذها في الشمال الكردي تحت مظلة وتمويل برنامج النفط مُقابل الغذاء. كان لي شبكة واسعة من المعارف في محطات القدرة الكهربائية في العراق وخلفيَّة علميَّة مع الخبرة الوافية في إعادة تأهيل قطاع الكهرباء. كما أن إدارتي للمؤتمرات الثلاثة التي عُقدت في صيف العام 1991 إبان إنتهاء الحرب لإعمار تلك المحطات لاقى صدى جيداً مع وتيرة ونُظم العمل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، فإلتحقتُ بالعمل معهم بعد شهر واحد من إنهاء عملي في منظمة الصحة العالمية، في شهر أيار من العام 1997.

إتصلت بخالد رشيد في هيئة التصنيع العسكري على هاتفه الخاص، ونقلتُ له تحيات خالد روما يا الذي إستقرَّ في الولايات المتحدة. تلقَّى خالد التحية بلباقة، ثُمَّ التقينا وإتفقنا على أن ادفع له مبلغ 600 دولار بدلاً من 400 دولار التي دفعها

خالد رومايا حيث أن وضعي يُشكِّل مخاطرة أكبر بالنسبة له من الحالة الأخرى. كان طويل القامة، نحيف الجسم وسيماً. إنتهز فرصة عملي مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ليطلب، نيابة عن رفيقة له، أن أتوسَّط للعثور على عمل لها هناك. فتصنعتُ الإهتمام بالأمر دون أن أُسبِّبَ حرجاً لأحد. تعددت اتصالاته بهذا الشأن مما أجبرني، رغم قلة مهارتي في الشوؤن الأمنية، أن ألفت إنتباهه إلى أن الاتصالات الهاتفية قد تكون مكشوفة وخطِرة على كلينا. إلا أن علاقته العاطفية مع صديقته طمرت من حذره، ولدرء ذلك الخطر أذعنت لرغبته وطلبتها للمقابلة. كان ذوقه في إنتقاء النساء رفيعاً بالفعل. كان عليَّ أن أطيل من وعودي لها حتى أحصل على جواز سفري. قمت بعدة زيارات مسائية إلى مكان سكنه المتواضع في حي الشوّاكة الشعبي في الكرخ، حيث كان يُقيم مع زوجته في عراك صاخب مستمر، مُتزوداً بما يكفي من قناني البيرة للتداول في أمور الحصول على جواز السفر.

مع إقتراب نهاية العامين من إحالتي على التقاعد وإستيفائي لشرط الحصول على جواز السفر، أعدَّ خالد رشيد كتاباً سرياً إلى مديري جعفر ضياء جعفر يطلب منه البتَّ فيما إذا ما زال بحوزتي معلومات سريَّة عن برنامج السلاح النووي قد تحول دون إصدار جواز السفر، وأرسله باليد إلى مكتب جعفر لتفادي البريد الرسمي. وبناءً على نصيحة من خالد، تابعتُ سير الإجابة على الكتاب عند كل منعطف ومحطة، مُشيراً بكياسة إلى أصدقائي الذين يتعاملون مع الموضوع في مكتب جعفر بالحفاظ على كتمان مضمونه حتى لايصل أمره إلى جهاز المخابرات. إذ إنه بالرغم من أن صلاحيات خالد كانت تخولّه بمتابعة أمر رفع منع السفر للمنتسبين الذين هم في مستواي الإداري، إلاَّ أن كشف أمر الرسالة لعيون جهاز المخابرات قد يُعيق جهده في إستغلال الثغرة الإدارية المتاحة له.

أعلمتُ جعفر بموجب ضرورة الحفاظ على سرية الطلب، إلا أنه لم يستعجل في الرد عليه حيث كنّا في صدد إعداد تقرير مُتكامل ونهائي لمُجمل النشاط النووي، قبل وبعد حرب 1991، لتسليمه إلى مفتشي الوكالة الدولية

للطاقة الذرية. ومن أجل ذلك، عُقِدَ العديد من الاجتماعات مع المعنيين من منتسبي مشروع PC3 المُنحل، وكان البعض منهم ممن لم ألقاهم منذ عدة سنوات لتوزعّهم على المراكز الصناعية والهندسية المختلفة. قضينا العديد من الساعات في البيت السرّي في منطقة الجادرية لمراجعة وتدوين المعلومات المستخلصة من التقارير والوثائق وما علق بالذاكرة. من الأمور العالقة والغامض مصيرها كان حال أقراص الأرشفة التي طلب مني جعفر تسليمها إلى عبد الحليم الحجاج قبل بداية حرب 1991. أغضب جعفر أمر إختفاء القرصين الأولين منهما والتي تحوي تقاريرالمجموعتين الثانية والثالثة ولم ينفع تذكيري إياه على إعتراضي العنيد بتسليم الأقراص الثلاثة في المقام الأول إلى عبد الحليم قبل بدء الحرب. أخيراً، عقد جعفر اجتماعاً موسّعاً مع من بقي من فريق حامد كاظم الذين أسهموا في خزن الوثائق على أقراص الأرشفة وجهات أخرى ذات علاقة عسى أن يصل إلى نتيجة حاسمة لينتهي من وضع تقريره النهائي عن الموضوع. إستُدعي المعنيون من مقار ونواح بعيدة بعد مضي سبع سنوات على الأمر، وشمل الاجتماع أيضاً ثلاثة ضباطاً كباراً من جهاز المخابرات وظافر سلبي، رئيس المجموعة الثالثة، والمسؤول عن نشاط (3و) للتوثيق والمعلومات الذي كان تحت إشرافي المباشر، وبحضور عبد الحليم الحجاج. كانت مناقشة الجمع حادة ولاذعة حيث تسلّح عبد الحليم بسكوت لامبالي. أدهشني أمر لجوء عبد الحليم إلى مثل هذا الغطاء المخابراتي من العيار الثقيل ليتستر خلفه. حصل جدال عنيف بين ظافر سلبي من ناحية وضابطين من جهاز المخابرات من ناحية ثانية بشأن أمور فرعية – مثل مصير محطة الاتصال الحاسوبي بقواعد المعلومات في إسبانيا، والتي كان يُفترض أن أكون مسؤولا عنها. وكانت هناك إدعاءات تهكمّية أخرى وإدعاءات مضادة لها بين رئيس المجموعة الثالثة والمخابرات عمن يجب أن ينال الثوابَ في الحصول على أجهزة حسَّاسَة من اليابان مثل أجهزة التصوير الفائقة السرعة لتصوير عمليات التفجير. بعد ثلاث ساعات من الاجتماع، دعا جعفر إلى فضّه مُحبَطاً، ولم نتمكن من الوصول إلى قاع الحقيقة، ولا أن نعرف ماذا حلَّ بقرصي الأرشفة المفقودين، بعد أن إستطاع

عبد الحليم أن ينفض يديه وينسلخ من الموضوع كمن يسحب شعرة من خلطة عجين.

على أي حال، وبعد أن إنتهينا من تحضير تقريرنا النهائي وتقديمه إلى الوكالة الدولية للطاقة الذريَّة، سحب جعفر طلب خالد رشيد ووقع إفادته مؤكِّداً بصدق على عدم إمتلاكي لأي من أسرار برنامج السلاح النووي حيث أن جميعها قد تمَّ الكشفُ عنها في التقرير الذي سُلِّم مؤخراً إلى مفتشي الوكالة. جهدَ مُدير مكتب جعفر، زغلول كسَّاب الرفيع الخُلق، على الحِفاظ على سرية الكتاب وبعث بعمران، سائق جعفر الموثوق به وزميلي في رحلات التنقيب عن اليورانيوم، ليوصل كتاب البراءة بتوقيع جعفر وموافقته على رفع الحجز عن سفري إلى خالد رشيد. كما ورفض عمران أن يودع الكتاب في إستعلامات بريد هيئة التصنيع العسكري كما هو السياق المُتَّبع، بل أصرَّ على أن يسلمه بيده إلى خالد رشيد.

أصدر خالد أمر رفع منع السفر وبمنحي الجواز إلى مديرية الأمن العام، وأبلغني برقم الأمر وتاريخه حتى أتأكَّد من وجود أحد أعوان أبي ديار لينتشلوا هذا البريد الخاص فور وصوله ويتعاملوا معه بهدوء. فوجئت مديرية الأمن العام بأمر سحب إسمي من قائمة الممنوعين من السفر حيث أن معلوماتهم كانت تشير إلى أهمية دوري في البرنامج النووي وطلبوا من خالد تأكيد رفعه منع السفر عني. أجابهم خالد رشيد مباشرةً وبلهجة حادة مؤكداً صلاحياته فوق مديرية الأمن العام، فامتثلوا للأمر.

فجأة ظهر أمامنا حائط مسدود لم نتوقعه. لم يستطع أبو ديار من إكمال معاملة إصدار جواز السفر لأني كنت قد حصلت سابقاً على جواز سفر دبلوماسي، ولا يُمكن إصدار جواز مدني إلاَّ بعد إعادة الجواز الدبلوماسي. كنت قد سلَّمت ذاك الجواز إلى وزارة الخارجية لإعادته إلى دائرة الجوازات فور إحالتي على التقاعد وحصولي على براءة الذمَّة من وظيفتي في وزارة الخارجية. إلا أن دائرة الجوازات لم تتسلَّم ذلك الجواز الدبلوماسي.

عِدتُ إلى وزارة الخارجية حيث صرفت عدة أيام عصيبة أُراجِع فيه

الملفات الإدارية لما قبل عامين من الزمن. تبيّن أن الوزارة كانت قد أصـــدرت فعلاً كتاباً رسمياً بإعادة الجواز ومُرفقة معه الجواز نفسه. إلا أن لا الجواز ولا الكتاب قد وصلا إلى دائرة الجوازات. كانت تلك حيلة مسمومة أخرى قام بهـا أحد عملاء صلاح الحديثي المزروع في القسم الإداري الذي إنتشل ذلك الكتاب وما يحويه ليتأكد صلاح الحديثي من عدم قدرتي نهائياً على نيل أي جواز سفر بعد أن يُفقد أثر الجواز الدبلوماسي. بعد حصولي علـــى نســخة مـــن الكتـــاب الرسمي بإعادة الجواز، مشفوعة برزمة من النقود، إستطاع أبـــو ديـــار مـــن إختراق جدار الخبث اللئيم المنيع.

زارنا أبو ديار في أواخر شهر آب من عام 1997 ومعه جواز سفر أصلي لي وعليه تأشيرة الخروج مُعلِّقاً: "إنك مُدين طيلة حياتك إلى فضلِ خالد رشيد". عندما عرضت الجواز على خالد رشيد، تناوله من يدي وقبَّلـــه. إشـــتريت لـــه سيارة تقديراً لخدماته وقدَّمها بدوره هدية إلى أخيه. تباهى خالد في حينها بأنـــه يستطيع ان ينجز أكثر من ذلك من أجلي، إن لزم الامر، مثل فكِّ قيد ســجلات نيران والأولاد. إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل الذريع عندما طرقنا بابه لتنفيذ ذلك لاحقاً.

إقتضت خطة المُغادرة على إخراج نيران أولاً إلى عمَّان لتتمكن من مقابلة الكنديين وتحصل على موافقتهم لهجرة عائلتنا. ساعتئذ، أهرع بالخروج مع بقية العائلة لإكمال معاملة الهجرة والمغادرة فوراً إلى كندا لتجنّب إطالة الإقامة في الأردن خشية بطش عملاء المخابرات المنتشرين هناك. كانت إحدى الوثـــائق المطلوبة من قبل الكنديين هي شهادة حُسنِ السلوك من الشرطة العراقية تـــنصّ على أن نيران لم ترتكب جُرماً شائناً.

إرتكبنا حماقة لا مُبرّر لها.

قدَّمنا في ربيع 1997 طلباً للحصول على تلك الشهادة رســمياً وبطريقـــة إعتيادية إعتقاداً منا، وبنيّة بريئة، أن العملية بسيطة. إلاَّ أنها سببت هلعاً لأبـــي ديار الذي كنا قد بدأنا نخطو أول خطوات تبادل الثقة معه وباشرنا في إطلاعه على خططنا لمغادرة العراق وعلى محاولة الحصول على أوراق الهجرة إلـــى

كندا. إلا أننا لم نكن على دراية بما يحيط بنا من شِباك ومصائد. فور ما أبلغنا أبو ديار عن أمر تقديمنا الطلب للحصول على شهادة حسن السلوك حتى هبَّ وأسرع إلى دائرة الشرطة ليسحب الطلب الذي قدمناه، لكنه أمسى مُتأخراً يوماً واحداً إذ كانت المعاملة قد بدأت مسيرتها والتي تبدء بإعلام أجهزة المُخابرات ومديرية الأمن العام تلقائياً بأمر ذلك الطلب الذي يدُلّ على نية صاحبه الهجرة إلى الخارج. لم نكن في سذاجة برائتنا قد إستنتجنا هذا المسار، علماً أن منح تأشيرة خروج لنيران، وبعد الحصول على موافقة سفرها بالرغم من شهادة الماجستير التي تحملها، يعتمد مباشرة على موافقة مديرية الأمن العام. أضف إلى ذلك أن مغادرتها الفعلية عبر الحدود العراقية تعتمد على موافقة جهاز المخابرات.

إستدعانا ضباط مديرية الأمن العام لإستجواب نيران وأنا ثلاث مرات خلال شهر واحد. في كل مرة، كنّا نُبلِّغ ابا ديار بموعد الاجتماع هاتفياً فيُسرع هو إلى مقرهم في مركز شرطة منطقة بغداد الجديدة ليمهّد الطريق أمامنا من خلال معارفه وعلاقاته في المركز وبشيء من النقود. كنا نصل إلى المركز أحياناً قبل خروج أبي ديار، ونبقى نحوم حول الموقع حتى نرى سيارته تغادر المكان لندخل بدورنا للإستجواب. أصبحت قضيتنا لدى رجال الأمن بقرة حلوباً تدر لهم بعض المال.

كان الأمر أشدُ صعوبةً عند جهاز المخابرات وريثما يرتّب أبو ديار أمره هناك، طلبت مساعدة الصحّاف في هذا الأمر فتجاوب معي ودلّني على صديق له مُتنفذٍ في جهاز المخابرات، إسمه محمد الدوري (أبو عمر)، ليتابع لنا مسار طلب حصول الموافقة على منح شهادة عدم المحكومية، قدر تعلّق الجهاز بالأمر. إلا أنه سرعان ما إتضح بأن ملف نيران في جهاز المُخابرات قد إستقر، وبدون أي حركة، على مكتب أبو مُهنّد، أحد كبار ضباط الجهاز والذي برز فيما بعد كألدّ الأعداء في منعي من مغادرة العراق. إستطاع أبوعمر بدماثة خلقه من أن يرتّب لي عدة مكالمات هاتفية مع أبي مُهنّد ليطلُب مني في كل مرّة إعادة شرح سبب ذهاب نيران إلى الأردن (وكان جوابي للحصول على عمل

كأستاذة في إحدى الجامعات هناك) ويُعدني بأن يرسل موافقته في اليوم التالي أو في الأسبوع القادم ويتركني آمل في هطول المطر صيفاً.

خلال تلك الفترة، إنغمرت في سلسلة من الإجراءات الإدارية المُعقّدة، وبمساعدة من شخصيات نافذة في جامعة بغداد، للحصول على سجلات نيران العلميَّة من جامعة بغداد. إستغرقت المحاولة أسبوعين تخلّلتها زيارات وإسترضاءات عديدة، فلقد صدر قانون يمنع إصدار سجلات التعليم إلا لطلاب البعثات الرسمية للحدّ من هجرة حملة الشهادات. إقتضت الخطوة الثانية الحصول على موافقة وزارة البحث والتعليم العالي لإعفاء نيران من قرار منع سفرها إلى الخارج بصفتها التدريسية. في هذا الحين بلغت نيران خمسة وأربعين عاماً من العمر. حملتُ إلتماس نيران وذهبت إلى هُمام عبد الخالق، وزير التعليم العالي والبحث العلمي ورئيسي السابق طيلة عشرين عاماً في منظمة الطاقة الذريَّة العراقية. سخرَ هُمام من محاولتنا تبرير سفرها بحجة حصولها على وظيفة تدريسية في الأردن بمردود مالي أعلى منه في العراق. على أي حال، ولردّ جميل الأعمال التي قُمت بها له خلال فترة عملي معه، وقع همَّام أمر موافقته مُعرِباً عن قناعته بأنها سوف تتخلّى عن محاولتها العقيمة وتعود كي تستقرّ في بغداد بعد عناء الفِراق.

بحصولنا على الموافقة من هُمام، ونيلِ أبي ديار على إذنٍ من مديرية الأمن العام، تمكّن أبو ديار من الحصول على تأشيرة خروج لنيران صالحة لفترة شهر واحد تنتهي مُدّتها في السابع من أيلول عام 1997. لم تستطع نيران الإيفاء بموعد المُقابلة الأول مع الكنديين المُحدد لها في تموز 1997 بسبب هفوتنا الساذجة لإستصدار شهادة حسن السلوك من دوائر الشرطة بطريقة قانونية إعتيادية وتخبطنا في تصحيح الأمر. سافر صُبحي أيوب إلى عمان لإيصال رسالة إلى الكنديين نلتمس المعذرة عن عدم الإيفاء بموعد المقابلة ونرجوهم إنتظار وصولها إلى عمّان قبل تحديد موعد مُقابلة جديد لها.

إلا أن إمساك أبي مهنّد لمُعاملة نيران في جهاز المخابرات كانت خانقة بوعوده العقيمة المُستمرة والمُحبِطة. وبان الأمر جلياً بأن هدف أبي مُهنّد من

التأخير هو إشهاره لسلاح الوقت في إفشال أي تقدّم في إجراءات سفر نيران لا سيمّا وأنه كان من الصعوبة البالغة، إن لم تكن مُستحيلة، تمديد تأشيرة خروج نيران لشهر إضافي آخر. بأسلوبه الواثق القدير، تمكّن أبو ديار من إنقاذ نيران من براثن جهاز المخابرات. في مطلع شهر أيلول، طلب أبو ديار ثانية جواز سفر نيران الذي كنا متمسكين به، وسلمناه إياه بوجل ولكن بدون تردد. لقد استطاع أن يدفع مبلغاً سخيًا من المال إخترق بموجبه طبقة من ضباط المخابرات الذين تمكّنوا من تزوير موافقة الجهاز على سفر نيران وأُرسلت الموافقة إلى مديرية الأمن العام لتبليغ نقطة الحدود في طريبيل. تمّ ذلك بدون علم أبي مُهنَّد، وقد جرى الماء من تحت قدميه، ظناً منه بأن تمسكّه بملف نيران كفيل بتحقيق مأربه، ولم يدرِ بأمر حصول الموافقة إلاّ بعد مُغادرتها.

زارنا أبو ديار ليلاً، وهو نادراً ما يقوم بذلك، وأبلغنا بأن على نيران أن تجهزَ للمُغادرة خلال يومين. ووعدها بأن ألحق بها مع الأولاد في غضون أسبوع من سفرها وحالما يُكملُ أمر تأشيرات الخروج على جوازات سفرهم. كانت تلك الفترة عصيبة وحافلة بالتوقعات لقرب إنتهاء صلاحية تأشيرة خروج نيران في السابع من شهر أيلول. في صباح يوم السبت، السادس من أيلول، توقفت سيارة أجرة أمام بيتنا مع شروق الشمس حتى لا يلحظها أحد من الجيران. كان أبو ديار في سيارته الخاصة بصحبة صديقه أبو هديل الذي كان في طريقه إلى طريبيل ليُباشر العمل كرئيس قسم الجوازات في النقطة الحدودية. غادر أبو هديل ونيران في سيارة الأجرة بعد وداع ما بين مُنذرٍ ومُبشّر. عند وصولهم إلى طريبيل، إعترض أحد ضباط الجوازات على عبور نيران الحدود، رغم كِتاب السماح الذي تحملِه من مديرية الأمن العام، لعدم تبيان بيانات الحاسوب على الشاشة أمامه لإذنِ جهاز المخابرات. تَدخَّل أبو هديل وأمره بالاتصال هاتفياً مع مقر مديرية الأمن العام في بغداد، حيث كان أصدقاء أبو ديار على الجانب الاخر من الهاتف في الإنتظار. أكد له ضابط الأمن في بغداد أمر وجود موافقة جهاز المُخابرات ووعده بإرساله له عند تحديث بيانات الحاسوب اليومية عصر ذلك اليوم، وبالفعل تمَّ ذلك لاحقاً. بعدها رافق أبو هديل نيران حتى الحدود الأردنية.

رغم فرحتنا العارمة، إلتزمت أنا والأولاد الصمت وبدأنا بتجهيز حقائبنا ريثما ينتهي أبو ديار من متابعة تأشيرات خروج الأولاد. كان عليه أيضاً إصدار جواز سفر جديد لنوفة التي كانت مُدرجة في جواز سفر أمها لأنها كانت في الخامسة من العمر عندما أصدرتُ جوازاتهم عام 1991. عمل أبو ديار وصحبه في الأمن على تعديل بسيط في الرسالة التي أرسلها خالد رشيد بحيث أضافوا أسماء أولادي الثلاثة في نهاية كتاب الموافقة الصادر بشأني. كانوا على أشدّ الحذر من عيون ووشاية ضباط جهاز المُخابرات المزروعين في صفوف ضباط مديرية الأمن العام.

حدَّد أبو ديار يوم الخميس الموافق الحادي عشر من أيلول لمُغادرتنا غير المُعلنة. خلقت الأعذار للغياب من العمل في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومن مكتب الحاسوب مع حسام. عند ظهيرة يوم الأربعاء، وبينما كدنا ننتهي من تحضير حقائبنا، دخل علينا سعد يونو زوج ناريمان شقيقة نيران، وقد إبيضَّ لون وجهه الأسمر. تنحَّى بي جانباً لينقل اليَّ الخبر التعيس.

في ساعة متأخرة من ليلة الثلاثاء، وصل رسول شخصي من مكتب المُساعد الخاص لصدام حسين، وسكرتيره الموثوق به، عبد الحميد محمود حمود (سأشير إليه من الآن وصاعداً بلقبه المعروف به، عبد حمود، والذي أُسِر بدون أي مقاومة في منزل في تكريت في حزيران من العام 2003) يحمل أمراً مكتوباً بخط اليد، وممهوراً بتوقيع عبد حمود نفسه، يطلب فيه مُصادرة وإستلام جوازات كل من يمامة وتمَّام ونوفة عماد خدّوري.

قبض رسول عبد حمود على جوازات السفر الثلاثة وغادر دائرة الأمن العامّة. إستدعى ضباط الأمن المذهولون أبا ديار على الفور في منتصف الليل وباشروا بعجالة في محي أي أثر لمُعاملة إصدار جواز نوفة وتأشيرات الخروج كيلا يُداهموا في الصباح التالي بحملة تفتيشية لتقصي كيفية الإصدار والكشف عن تواطئ أبو ديار وصحبه في ذلك. سهروا طوال تلك الليلة وأفلحوا في تطهير كلّ الآثار قبل فتح أبواب الدائرة في الثامنة من صباح اليوم التالي. صُدِم أبو ديار بهذه التطورات وإتصل بسعد لإعلامي بالنبأ وتحفّظه عن مقابلتي

شخصياً لبعض الوقت ريثما يتحرّى عن مصدر تسرّب خبر السفر والعمل على تهيئة الجوازات.

صُعقت بهذا الخبر وحدّقت ملياً بأولادي الذين تجمّعوا أمامي، ثُمَّ أخـذت نفساً عميقاً جداً إذ أدركت على الفور عمق الحفرة التي سقطنا فيهـا. الآن قـد بدأت رحلتنا مع الألم والعذاب. كُلُّ ماجرى من قبل بدا وكأنه نزهة عابرة.

بعد مرور عدة أيام من الإنتظار المشوب بالقلق الشديد، ولمّا إطمأنَّ أبـو ديار أن الوشاية لم تصدر من داخل مديرية الأمن العام نفسها، إتصل ليُبلغنـي بكلِّ ثقة أن مصدر ما حدث هو إما أحد الجيران الجواسيس أو من خلال أحـد زملاء نيران في الكليّة ممن إفتقدوا حضورها في العمل ووصل الخبر بسرعة فائقة إلى عبد حمود. أشدُّ ما أزعج أبو ديار هو درجة حساسية وضعي التـي أوجبت هذا المسلسل من الاجراءات غير المسبوقة. حاول مرة ثانية أن يُقنعني أنه ما دامت دروب الهرب مفتوحة أمامه بفضل علاقاته الواسعة حتـى ذلـك الحين، فإنه يَحثّني بالأخذ بنصيحته والسفر بجواز مزوّر وبإسم آخـر. أعـدت مُراجعة تحفّظي على مُقترحه من جديد وتقييم جدوى تحوّلي إلى لاجـئ بإسـم مُستعار وإحتمال أن أُضيّع فرصة الهجرة إلى كندا بعد أن أحمل إسـماً جديـداً مُخالفاً لإسمي الحقيقي المُثبَت على العديد من الوثائق والهويّات التي حضّـرتها وترجمتها إلى اللغة الإنكليزية. كررت له رفضي لإقتراحه إلا أننـي وعدتـه بمحاولة إسترجاع جوازات أولادي عن طريـق أصـدقائي واتصـالاتي فـي المناصب الحكومية العُليا. من ناحية أخرى، لم يذكر كتاب عبد حمـود جـواز سفري بالذات، والذي كان موجوداً بقرب جوازات أولادي، مما يعني أن جهـد خالد رشيد كان مُحكماً، طالما ظل أمر الجواز خافياً عن علم جهاز المخابرات حتى ذلك الحين.

نقلتُ الاخبار الماحقة إلى نيران بواسطة البريد الإلكتروني من مقر عملي في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. كانت نيران تمكث حينها مع عائلـة حسـام الكريمة، شريكي في مكتب الحاسوب. شجّعتها على تحمُّل هذه النكبة وان تبحث عن عمل لها لحين نتدبَّرَ طريقنا في الخروج. حصلت نيـران علـى وظيفـة

تدريسية في جامعة البلقاء في مدينة السَلط تُدرّس فيها لغات الحاسوب. وبعد اتصالها مع السفارة الكندية في عمان، حدد لها الكنديون موعداً للمقابلة في شهر كانون الثاني 1998 بدلاً من الموعد الذي لم تستطع تلبيته قبل شهور قلائل. عاد الأولاد إلى مدارسهم وكان على يمامة التقدم إلى إمتحان البكالوريا للدراسة الثانوية وعلى نوفة إجتياز سنتها الإبتدائية الاخيرة. وبمعونة رشوة مالية مُناسبة، تمكنّت من نقل دراسة تمَّام إلى كلية بغداد الثانوية، التي كنت قد درست فيها. وإستعنت بخدمات سيدة نشيطة تدعى ريتا لتعمل عندنا مرتين في الأسبوع في تنظيف البيت وطبخ ما تيسّر من وجبات طعام لتُغطّي بقية أيام الأسبوع. وإنبرت عائلة نيران، من أخوات وخال وبنت الخالة، بتقديم يد المُساعدة والعون في قضاء مستلزمات الأمور اليومية بشهامة وعون لا يقدران بثمن.

إلا أنني بدأت أغوص غرقاً في مستنقع الكآبة الحادة.

ما أن ثبَّتُ مواقع خطواتي ولملمت شمل الأمور العائلية التي انفرطت بسبب هذه المصيبة حتى بادرت الصحّاف وأطلعته على الغارة التي حصلت في مكتب الجوازات وطلبت منه بجرأة أن يتدخل ليعيدها إليَّ. بثباته المعهود والمُشرِف، وعد بتلبية الطلب بالرغم من مخاطر ووعورة ذلك السبيل. إتصل الصحّاف مرة ثانية بمحمد الدوري (أبو عمر) في جهاز المخابرات وطلب منه أن يتدخّلَ للمُساعدة في الأمر. دعاني أبو عمر لزيارته في مكتبه في مقر الجهاز الذي يقع بالقرب من مطعم المنصور الذي ضربه الأمريكيون بالقنابل في محاولة ثانية لقتل صدام قبل إحتلال بغداد في نيسان 2003، إعتقاداً منهم انه كان يعقد اجتماعاً فيه مع ولديه، لكنهم قتلوا سبعة عشر مدنياً كانوا بقرب المطعم بدلاً منه. يُقال إن صدام كان قد دخل المطعم مع ولديه تاركاً حمايته الخاصة أمام المبنى، ثمَّ ترك الثلاثة المكان فوراً عبر الباب الخلفي للمطعم قبل دقائق من سقوط قنابل تفجير المخابئ الشديدة المفعول عليه. كما ويُقال إنه كان قد دعا لهذا الاجتماع كطُعمٍ حتى يتأكد من خبر وصل إليه عن تواطؤ رئيس حرسه الخاص بتبليغ الأمريكيين عن تحركاته ومواقعه. ويُشاع أن صدام أرداه قتيلاً مباشرة بعد ذلك الهجوم الفاشل.

بناءً على إصرار الصحّاف، رغب أبو عمر، وقد تشـوّش عليـه الأمـر لغرابة الطلب، في أن يتقصّى الحقيقة مني مباشرة، فدعاني إلى مقابلته في مقر الجهاز للتداول في الموضوع. قررت أن آخذ معي جواز سفري حتى أُبرهِن له على صحة إدعائي وسلامة موقفي الرسمي. إرتاع أبو ديار جداً من هذا القرار. أيعقُل أن أحمل جواز سفري الثمين الذي دأبت على إخفاء أمره عنهم إلى داخل جهاز المخابرات؟ إذ بإستطاعتهم، وبكل سهولة سحبه مني وإتلافه. أصـريت على موقفي إذ كان لا بُدّ من إقناع أبو عمر بسلامة موقفي لمد يد العـون فـي إسترجاع جوازات أولادي.

صعقت المفاجأة أبو عمر وكاد أن يقفز عن مقعده عندما عرف بأني أحمل جواز سفر رسمي، وطلب أن يراه بأم عينيه حتى يصدِّق كلامي. سمحت له أن يلمحه ويسجّل رقمه وأنا ممسك بالجواز بكلتيّ يديّ وبجرأة عقيمـة خشـية أن يأخذه مني لو قرر ذلك. وعندما علِم بأسلوب تدخل عبد حمود بالموضوع، بردَّ أبو عمر من أملي في الإستعادة السريعة للجوازات إلى حدودها الدنيا، لكنه وعد بكل شجاعة أن يبذل أقصى جهده في مُتابعة الموضوع، خدمةً منه للصحَّاف. ما أن إطمأن إلى صحة الثغرة الإدارية التي نفذت منها محاولة خالد رشيد، طلـب مني أبو عمر أن أحصل على كتاب موافقة من جعفر ثانيـة، ومُعنـوّن إليـه شخصياً، لكي يبرهن للآخرين صحة الجواز الذي أحمله، وأمّلني بأن تنفيذ هذه الخطوة ستزيد كثيراً من فرصة إستعادة جوازات أولادي. شعرت وكأني فـي لعبة (الحيّة والسلّم) وقد إنزلقت إلى الخانة الأولى من اللعبة فـي أسـفل ذيـل الأفعى.

إحتاج إقناع جعفر ليُعيد إصدار براءة ذمتي من حيازتي لأسرار السـلاح النووي إلى جهد كبير، لاسيما وأن موضوع جوازي أصبح معروفاً بعد كتمانه الأمر، والثغرة الأمنية التي وجد نفسه فيها بتهمة مساعدتي خفية في الموضوع. أقنعت جعفر بسلامة الموقف الرسمي من الحصول على الجواز وعدم تزويـر إصداره. كتب جعفر رسالة في غاية الجرأة في الدفاع عني، بل أخذ موقف تأييد لرغبتي ورغبة عائلتي في الهجرة من العراق، بمعنى آخر كان يحـثُهم علـى

إعادة جوازات أولادي. سلّمني زغلول كسَّاب كتاب جعفر وأبلغني عن قـــرار جعفر أن تكون هذه هي المرة الاخيرة التي يُدافع فيها جعفر عـــن محـــاولاتي للهجرة. ولزيادة الطين بلّةً، رفض أبو عمر أن يتسلّم رسالة جعفر من يدي، بل أصرَّ على أن يأتيه الكتاب عبر القنوات الرسمية. إمتعض جعفر كثيراً من هذا الطلب وكأنه تحدٍّ إداري من ضابط في جهاز المخابرات لمنصب جعفر، وهـــو المُستشار في ديوان الرئاسة وبدرجة وزير. وبالرغم من ذلك، فلقد إمتثل جعفر للطلب وبكل شهامة، وإن رشقني بنظرة قاسية غير راضية.

إلا أن بؤرة المشكلة، أبو مُهنَّد، كان غاضباً جداً ومسروراً في ذات الوقت.

كان قد إستشاط غضباً بعد أن علِم بأن الإحتفاظ بملفٍّ نيران، الذي كـــان قابعاً على منضدته، لم يفلح في منع إصدار موافقـــة الجهـــاز علـــى الســـماح بمرورها إلى الأردن. وتبيَّنَ لنا لاحقاً بأن خبر مغادرتها قد وصله عبر تقريـــر من أحد جيراننا البعثيين الذي يقطن على بعد خمسة بيوت عنّا، وعُـــرِف عنـــه لاحقاً بانه مُخبِر. إلا إننا لا ندرِ إلى الآن مصدر الخبر الذي دقَّ عنده جـــرس الإنذار لدى أبي مُهنَّد بقرب حصول أولادها على جـــوازات ســـفرهم. ومـــن الأرجح بأنه كان على ثقة من بُعد المنال من حصولي على جواز سفر رسمي، وإستطاع ان يُغطي على فشله في عدم قدرته على منـــع نيـــران مـــن الســـفر بمُصادرة جوازات سفر أولادها. ولربما خمّن بانني سوف أحاول الحصول على جواز سفر مزوَّر وبإسم مُستعار وأغادر العراق عن طريق الشمال، طالما أنني أحمل جوازات سفر الأولاد مختومة بتأشيرات الخروج الرسمية. من المُـــرجَّح شبه اليقين أن أبا مهنَّد هو الذي دفع عبد حمود للتدخل الســـريع وفـــي الوقـــت المناسب. لم يعلم ابو مهنَّد كم كان الحظ إلى جانبه تلك الليلة حين أفشل خطـــة سفرنا المقررة في اليوم التالي، ولم يكن بالتأكيد على علم بحيازتي على جـــواز سفر رسمي، أضمه في يدين شديدتي الشغف والحرص. ما حيَّرنا هـــو كيفيـــة وصول إيعاز أبي مهنَّد السريع إلى عبد حمود بعد أيام قلائل فقط مـــن ســـفر نيران، والحظوة والمكانة التي كان يتمتع بها لدى عبد حمود حتى يكتب بخـــط يده أمر مصادرة الجوازات ثُمَّ يبعث رسوله بهذه السرعة.

لقد صرفت آلاف الدولارات على محاولاتي لمغادرة العراق. دفعت نصف تلك المبالغ، عن طريق أبي ديار، إلى العديد من ضباط المُخابرات والأمن حتى يتمكن أبو ديار من تصريف أموري معهم ومتابعة ملفاتي وهي تدور بين أجهزتهم المختلفة. حسب معلوماتنا، كان في العراق ثمانية عشر جهازاً مخابراتياً وأمنياً، بعضه يتجسَّس على البعض الآخر. كان أبو ديار وأنا على يقين من مُراقبة ثلاثة أو أربعة أجهزة منها عن كثب لكل اتصالاتي ونشاطاتي. ومع ذلك، كُنّا نُرجّح وجود جهاز مخابرات بمرتبة أعلى يُهيمن على الأجهزة الثمانية عشر الأخرى، وبالإشراف المُباشر من قبل مكتب عبد حمود. بالإضافة إلى ذلك، لم يكُن ضباط ذلك الجهاز معروفين لأيٍّ من أجهزة المخابرات والأمن الأخرى. فالأحداث التي مرّت بها قضيتي أعطتنا من الدلائل ما دفعنا إلى ذلك الإعتقاد، وما كانت ضربة الحظ التي نجح فيها أبو مهنَّد بمصادرة جوازات الأولاد إلا واحدة منها.

وقف الصحّاف بثبات إلى جانبي خلال هذه المحنة مُقدّماً العون والسلوان على الألم والكآبة التي ألمّت بي رغم ما قد ينعكس ذلك سلباً عليه شخصياً. لقد ساند قضيتي بشجاعة حتى بعدما تركت العمل معه وإلتحقت ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائي، ومدَّ نفوذه إلى حيث تصل يداه حتى أنه وصل إلى عبد حمود الذي كان على علاقة جيدة معه. كانا يسهران معا للسمر والشراب في بعض الليالي. كنت أحياناً أجالس الصحّاف في مكتبه متأخراً في الليل أُدقق في برامجيات الحاسوب الجديدة التي جلبها معه من السفر ونصبها في حاسوبه الشخصي في مكتبه في الوزارة. عندما يهاتفه عبد حمود للدردشة، كان الصحَّاف يسايره ويرد عليه محيياً بلقب (دكتور)، حيث حصل عبد حمود على (شهادة دكتوراة شرف) من جامعة البكر العسكرية التي كانت تبذل بمنحها إلى المُقربين من صدام مثل عُدي، إبن صدام السَّادي، وعبد حمود لقاء بحوث يقوم الغير بإعدادها. أعطتني هذه العلاقة الخاصة بين الصحَّاف وعبد حمود مساحة ضيقة من الأمل بإستعادة جوازات الأولاد ممَّا إنعكس على موقف أبي ديار الذي بات صبوراً ومُتفهّماً لرغباتي وموقفي. كما وكان موقف رياض القيّسي، وكيل وزير الخارجية، بخلقه الرفيع وذكائه المُتميّز مُشرّفاً بمساندته لقضيتي،

كما انه مدَّ يد العون في تصويب اتصالاتي مع جهاز المخابرات.

أدّت مواقف الصحّاف الثابتة ورياض المُشرِفة إلى جانب قضيتي بإستمرار إلى أن يقوم بعض ضباط جهاز المخابرات بتزويدي بفتات دائم من الأمل الضئيل، والتي بانت طبيعتها الحقيقية لاحقاً.

ذات الوقت، عثر أبو ديار على طريقة يقترب فيها من رافع الدحّام، رئيس جهاز المخابرات الجديد (قُتل فيما بعد بالسُمّ، كما أُشيع). كان لأبي ديار صديقاً حميماً على علاقة وثيقة برافع الدحّام. كانت أواصر علاقتهما من المتانة لدرجة زيارتهما البعض في دورهم دون سابق موعد. صادف وأن تعرّفت ذات مرة على رافع الدحّام، وكان حينها سفيراً للعراق في تركيا، خلال إحدى زياراته إلى مكتب الصحّاف. لم يكن غريباً، بحكم علاقتي القريبة من الصحّاف، أن أمكُث في مكتبه أُعالج مشاكل حاسوبه الشخصي أثناء مُقابلته لزائريه في مكتبه.

على أثر الإلحاح من قبل صديق أبي ديار والصحّاف ورياض القيّسي على رافع الدحّام دِفاعاً عن قضيّتي، طلب الدحّام ملّفي الموجود بحوزة جهاز المخابرات للإطلاع على مُفردات مشكلتي. ولمّا اقتنع بصحة إدعائي، حمل الملف وذهب إلى قُصَّي، ابن صدام المسؤول الرئيس عن شؤون جهاز المخابرات. راجع قُصَّي الملف وأعلن للدحّام انه أيضاً لا يرى سبباً يوجب بقاء جوازات سفر أولادي في الحجز، لكن طالما أن عبد حمود هو الذي أصدر أمر المصادرة، فإنه لا يملك السلطة لنقض قرار عبد حمود. إلى هذا الحدّ وصلت قوة عبد حمود في البلد!

عندما زار الصحّاف ورياض القيسي رافع الدحّام في المستشفى أثر إصابته بجلطة قلبية خفيفة، أفشى لهما بموقف قُصَّي من قضيّتي. كنت قد عرفت بهذه الواقعة قبلهما عن طريق صديق أبي ديار.

كان موعد مُقابلة نيران في السفارة الكندية، الذي حُدد في كانون الثاني من عام 1998، يقترب مِنّا. إقترح أبو ديار عليَّ حلاً جريئاً. بإمكانه أن يحصل لي على جواز مزوَّر وبإسم مُستعار لمُغادرة العراق خلسة، ويسافر معي إلى عمّان لأحضر المقابلة مع نيران ثُمَّ نعود بعدها إلى بغداد. تستغرق الرحلة كلّها بضعة

أيام، نُتلِف بعدها الجواز المزوَّر. تشاورتُ بالأمر مع نيران من خلال البريد الإلكتروني السرّي. إعتماداً على وعد الكنديين لنا، والذي فهمنا منه أنه بإمكانها إجراء المقابلة بمفردها، رأت نيران انه لا داعي للمجازفة بمثل هذه الرحلة المحفوفة بالخطر. إستغرقت مقابلة نيران عشر دقائق فقط حيث بادروها بالسؤال عن عدم وجودي والأولاد معها، وإدَّعوا بأننا قد أسأنا الفهم لرسالتهم لأنه لا يمكن لطلَب الهجرة أن يأخذ مجراه دون وجودنا معها. ثم أنهوا المُقابلة بدون تحديد موعد جديد لإجرائها.

قذفت بي صدمة النبأ وعدم تحديد الموعد لمقابلة أخرى في عمق جديد من أعماق اليأس والكآبة. تمنعك الكآبة من نِعمة النوم. عندما تغوص في أعماق وحدَتك المُعذِّبة، تنفِر من مواجهة الآخرين لعدم قدرتك أو رغبتك في مخاطبتهم، وتجِد أن لا ملجأ لك الاّ السرير للإنزواء والإعتصام فيه مُعظم ساعات اليوم، ناهيك عن ساعات الليل. وحينها تصبح الوسادة أداة للتعذيب، فما أن تضع رأسك عليها حتى تهاجمك العديد من الأفكار والخيارات وحسابات المخاطر ونتائجها المخيفة وشؤون الحياة اليومية، تتقاذف كُلها بشدّة حول كُلّ ذرة من خلايا الدماغ كأنها بحر تتلاطم أمواجه العاصفة في رأسك المُنهك، وتبقى مصلوباً لساعات عديدة بين إنعدام التعب والنوم طالما يتقلّب رأسك على تلك الوسادة اللعينة، وترفض أن تنهض من السرير كي تتجنب الحديث إلى أي انسان، وخاصة في مُحيط الوجس من الوشاية الذي كُنّا نعيش فيه في ظلّ عيون وآذان أجهزة المُخابرات والأمن.

كان أبو ديار الدواء المُهدِّىءَ لكآبتي والسلوانَ الغزير في تحمّلي لِمحنتي وسَندي في الثبات على صبري.

في العديد من الأمسيات، كان أولادي يرونني وأنا أتسللَ من البيت مُتجهّماً دون أن أُحيِّ أحداً منهم. كانوا يتألمون لمنظر كآبتي فيتركوني لحالي وهم يدركون بأنني ذاهب لمُقابلة أبي ديار، لأني نادراً ما كنت أترك البيت لسبب آخر محاولاً تجنب الآخرين ما إستطعت إلى ذلك سبيلا. كنت أقود سيارتي المسافة القصيرة إلى وسط منطقة بغداد الجديدة نحو محل يعود له ولأخوته لتصليح مضخات مياه

مبردات الهواء. كان المحل الصغير، الذي لا تزيد مساحته عن مترين عرضاً وثلاثة أمتار طولاً، يقع في شارع ضيق بالكاد يسمح بمرور سيارة واحدة، والماء يجري في خندق بوسطه. وبإقترابي من المحل وكُلّي أملٌ بأن ألمح سيارة أبي ديار، كان قلبي يغرق في مزيد من الحزن أو يضيء فرحاً عندما أشاهد سيارته الكورولاً الخضراء جاثمة في مكانها المعتاد. ألِف جيران المحل الطيّبون، الخبّاز والمكوى وأصحاب المحلات الصغيرة الأخرى، وجهي وباتوا يحيُّونني بلطف ويقدّمون لي الشاي عندما يكون محل أبي ديار وإخوته مُغلقاً بإنتظار عودتهم. كان مُجرّد مشاهدة أبي ديار قادماً بإتجاهي، في مشيته البطيئة الدائرية، تكفي لرفع معنوياتي بقفزات واسعة ورسم الإبتسامة على وجهي وأنا أعانقه مُقبّلاً. لم يخفَ ذلك عن أولادي عند عودتي للبيت ليباشروا بالحديث معي وسرد متطلباتهم.



أبو ديار وإبني تمّام في السويد حيث هاجر أبو ديار مع عائلته عام 2003.

لمّا علِم أبو ديار بصدّ الكنديين لنيران بسبب عدم حضورنا المُقابلة معها، تقدَّم بإقتراح ذكي بديل يوائم رغبتي في الخروج من العراق بإسمي الصريح وبجوازات رسمية. لِما لا أقبل بعرض خالد رشيد قبل عدة أشهر بإمكانية مُساعدته في رفع منع السفر عن نيران والأولاد لإصدار جوازات سفر جديدة للأولاد عوضاً عن تلك القابعة عند عبد حمود؟ فلقد تغلَّب خالد على موجة غضب جهاز المخابرات عندما فتحوا تحقيقاً بشأن حصولي على جواز السفر، وأطلَعَهم على كل الوثائق التي صدرت منه، وحسب تعليماتهم. فلم تكن الغلطة منه إذا هم تركوا ثغرة في تعليماتهم ولم أكن بدرجة مدير عام أو أعلى من ذلك مرتبة للحصول على موافقتهم على إصدار الجواز. نجت رقبة خالد رشيد هذه المرة من السكين، ولكنهم، وحسب سياقات عمل المُخابرات الخبيثة، قاموا بزرع مُراقِب عليه في دائرته، وبدون علمه، حتى يصطادوه إذا ما تجاوز الخطوط الحمراء مرة اخرى.

كُلّ ما طلبه أبو ديار هو قيام خالد رشيد بإعداد كتاب ثانٍ موجّهاً من دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري إلى مديرية الأمن العام يَعطِفُ فيه على كتابه الأول حول رفع منع السفر عني مُضيفاً عليه بأن قرار رفع منع السفر يسري على أولادي أيضاً. قبل شهور قلائل، كان أبو ديار قد بادر وأضاف أسماء أولادي (زوراً) على رسالة السماح الأصلية التي أصدرها خالد رشيد بغرض الحصول على تأشيرات الخروج لجوازات يمامة وتمّام وإصدار جواز جديد للصغيرة نوفة، والتي أوشكت ان تُوقِعه مع صحبه في دائرة الجوازات في التهلكة عندما إنقضّ مُراسل عبد حمود على الجوازات وإستولى عليها. إحتاج أبو ديار إلى كتاب رفع منع السفر عن الأولاد صادرٍ بشكل رسمي عن دائرة أمن هيئة التصنيع العسكري ليتمكّن مع صُحبه من إصدار جوازات جديدة لهم، بطرقهم الخفيّة داخل مديرية الأمن العام.

عاودت زيارة خالد رشيد في منزله في منطقة الشوّاكة الشعبية مع قناني البيرة. في أواخر عام 1997، وصلت خُطى مفتشي الامم المتحدة قريباً من مقر هيئة التصنيع العسكري وضاعفوا من الضغط الدبلوماسي حتى يدخلوا حرمها.

صدر أمر مُفاجئ عصر أحد الأيام إلى خالد بإخلاء كافة الملفات الأمنيـــة مـــع وثائق مختلفة من دائرة الأمن في الهيئة لخزنها مؤقتاً في موقع بـــديل، فباشـــر نقلها إلى منزله أولاً إستعداداً لتسليمها إلى الموقع البديل في صباح اليوم التالي. وفي خلوة داره، فتّش في أوراق ملفّي الأمني حتى عثر على رســـالة صـــلاح الحديثي السّامة والمُذيلّة بأمر صدام بالحبر الاحمر بعدم السماح لـــي بمُغـــادرة العراق بتاتاً. ورغم عظم المخاطرة، فلقد قام خالد بِسلت الرسالة مـــن الملـــف وإتلافها. إنني أُدين بذلك كثيراً إلى خالد، وكما أكدَّ لي ذلك أبو ديار بعد عـــدة شهور من الواقعة.

إلا أنه لم يفُت على خالد مُعاتبتي لعدم تدبير أمر إيجـــاد فرصـــة العمـــل لرفيقته في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ممـــا أدى إلـــى خلافـــات بينهمـــا. إضطررت على أثرها معاودة الاتصال معها ومُقابلتها مُجدداً لإصلاح ذات البين بينهما عارضاً جَزرة الوظيفة أمام ناظريهما مرة ثانية.

أعدّ خالد الكتاب المطلوب وأعطاني رقمه وتاريخ إرساله إلـــى مديريـــة الأمن العام. قمت على الفور بالاتصال مع أبي ديار لتسليمه هـــذه المعلومـــات والذي توجَّه بدوره رأساً إلى صُحبه في مديرية الأمن العام ليتأكد من وجودهم في إستقبال الكتاب عند وصوله وتحويله إلى مساره الصحيح.

زارني أبو ديار في منتصف تلك الليلة وهو في حالة من الغضب والغليان الشديدين، مع انه نادراً ما يُفصِح عن مثل هذه العواطف. فالرقم والتاريخ اللذين أعطيتهما له كانا على مظروفٍ لكتابٍ في غاية الحساسيَّة والسريَّة، ولو إرتبط إسمي بأي شكل من الأشكال مع ذلك الكتاب لواجهت عقوبة الموت حتماً. هدر أبو ديار: "ما الذي حصل بحقّ الله؟".

في الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي كنت في سيارتي أُراقب خروج خالد رشيد من داره للذهاب إلى العمل. بعد ساعة من الإنتظار المتوتر، واجهت خالد أمام عتبة بيته وأخبرته بما حصل. صُدِمَ خالد بِفداحة الأمر وإمتقع وجهه. صحبته بسيارتي إلى مقر هيئة التصنيع العسكري، وأصرَّ خالد على أن أنتظره

في موقف بعيد للسيارات يقع بالقرب من مبنى إتحاد نقابات العمال، بينما قطع هو المسافة إلى مكتبه مشياً على الأقدام. إنتظرت ساعة كاملة في الموقف وأنا أُدخِّنُ الغليون وأستنشق دخانه وكأنه يمُدّني بسلسبيل الحياة.

رجع خالد بوجه عبوس أرمد من الغيظ. وبادرني قائلاً: "إستبدل هؤلاء الأنذال المظروف الذي أعددته لكتابك بمظروف الكتاب السرّي للغاية بعد أن غادرتُ المكتب في السادسة مساء البارحة". وأضاف: "قسَماً بحياتي، أُعدك بأن أبحث عمّن فعل هذه المكيدة وسأقتله. إنما من هذه اللحظة أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفني، مع السلامة".

لم ألتقِ مع خالد رشيد بعد ذلك أبداً. لقد أفلح عميل عبد حمود بمهمته، وبجدارة.

ظلَّ عبد حمود مُتقدّماً عني وعن أبي ديار بخطوة واحدة في محاولاتنا الخروج من العراق. فحتى لو أفلحنا في الحصول على جوازات سفر الأولاد عبر كتاب خالد رشيد، لوقعنا في مصيدة شيطانية أقامها عبد حمود لإفشال هروب غير المُخوّل لهم بالسفر، وليس بالذات لعائلتنا. لقد أنشأ في شهر شباط من عام 1998 حاجزاً منيعاً عند معبر الحدود إلى الأردن يمكنه من إصطياد المُغامرين بالتسلل عبر طريبيل. كان شرح أبو ديار لتفاصيل المَصيدة مُدعاة لإحباط أقسى العزائم. فقد نُصب كُشكان بمساحة مترين طول في مترين عرض لكل منهما مزوّدان بمكيِّف للهواء عند مدخلي طريبيل، كنقطة لوقوف المغادرين من العراق والقادمين من الأردن. تقبع خلف كل كُشك سيارة تضمّ إثنين من ضباط عبد حمود يُراقبان الكُشك أربع وعشرين ساعة في اليوم، مع بقاء محرك السيارة، ذات الزجاج المعتم، شغالاً لتزويد الضابطين بالتبريد أوالتدفئة الضرورية، حسب حرارة الطقس. يحتوي كل من الكُشكين على حاسوب، مع مُشغلّه، يضم قاعدة للمعلومات فيها أسماء الأشخاص الممنوعين من السفر، أو الذين في إنتظار رجوعهم من السفر، والتي تصدر عن عبد حمود ذاتياً وحصراً. على سائق كل سيارة مُغادرة أو داخلة إلى نقطة حدود طريبيل أن يتوقف أمام الكُشك وينزل لوحده من سيارته ليُقدّم جوازات سفر المُسافرين معه

إلى مُشغِّل الحاسوب الذي يقوم بتمهّل بمُطابقة أسماء المُسافرين مع الأسماء المُدرجة في قاعدة المعلومات لديه. يكفي دوران رأس المُشغِّل ونظرة واحدة منه إلى الضباط الجالسين في السيارة خلفه لتجعل السيارة الواقفة بهدير محركها بأن تقفز إلى الإمام ليلقوا القبض على المُسافرين ويسوقونهم رأساً إلى بغداد لينزلوا في ضيافة عبد حمود الشرسة. مُنعَ مُشغِّلي الحاسوب وضباط عبد حمود القابعين في سياراتهم من التعامل والإحتكاك بتاتاً مع موظفي مديرية الأمن العام أو ضباط جهاز المُخابرات الآخرين في طريبيل، خشية تسرّب الأسماء المُدونة في قاعدة المعلومات إليهم. كانت بالفعل مَصيدة مُحكمة وذكيّة من بنات شيطان أفكار عبد حمود، ودليل آخر على مرتبةِ جهازه المُخابراتي الخاص به.

أيقن أبو ديار أن هذا السياق الجديد سوف يُصعّب كثيراً من هروبنا، إن دعت الحاجة، بصورة خفيّة. أمست مصائد عبد حمود تضيق من حولنا، وقد أُضعت الكثير من الوقت الثمين وتقلّصت مسارات مناورات أبو ديار. وبالرغم من كُلِّ ذلك، بقي عندي أمل ضئيل في محاولات الصحّاف ورياض القيسي لإعادة جوازات سفر أولادي المُصادرة كي نتمكن يوماً من مغادرة العراق بصورة شرعية.

في هذه الأثناء، قام أبو ديار، بناءً على توسّطي، بتهريب طبيبين أرمنيين إلى الأردن. كان الطبيبان الشابان أبناء عم هاسميك، زوجة إبن خال والدتي فاروق بزوعي، اللّذين كانا على علم بجزء من تفاصيل محاولاتي ترك البلاد لثقتي العالية بهما. طلبت هاسميك المساعدة من الذي يقوم بمساعدتي لتسهيل هروب أبناء عمومتها. كان لدى أبو ديار موقفاً حاسماً في أن يقتصر مساعدته على تهريب المسيحيين فقط، وذلك بسبب تعرضّه إلى حالة تمّييز ديني سيئة الأثر حصلت له في مطلع التسعينات. أضف إلى ذلك، إنه كان يأتمن المسيحيين بأن لا يُخبروا السُلطات عنه.

بعد عودته مُباشرة من الأردن، قام أبو ديار بزيارتي في منتصف ليلة رجوعه لإحتساء الشراب، مما إستنفر تحسّبي ووجسي من الأخبار التي يحملها في مثل هذه الزيارات غير العادية. لقد إتصل أحدهم به أثناء وجوده في عمان

وطلب منه أن يَعرِض عليّ خياراً آخر للهروب ويستفسر مني عمّا اذا كنت موافقاً على عرضهم أم لا. أبلغني أبو ديار الرسالة بلهجة محايدة، ثُمَّ انتظر حتى أُعطيه الجواب. فلقد اتصل أحد عناصر المؤتمر الوطني العراقي المعارض والذي يرأسه أحمد الجلبي بأبي ديار كي يجُسَّ نبضي ويُبلِّغني بأنهم على إستعداد لإنتشالي وأولادي من بغداد وتهريبنا عبر الشمال في ظِلِّ حمايتهم. لقد وصل اليهم خبر عمَّا أحاول القيام به، بطريقة ما، فتقدَّموا عارضين خدماتهم.

كان أحمد الجلبي زميلي في الدراسة بدءاً من الإبتدائية في مدرسة (مدام عادل)، وتخرّجنا معاً من نفس الصف فيها عام 1956. كما وكنّا معاً في السنة الثانوية الثالثة في كلية بغداد في شهر أيلول من العام 1958 عندما دخل والده مع مدير المدرسة إلى الصف صباح أحد الأيام وإصطحب معه أحمد وأولاد أخواله، غازي علاوي ومهدي البصّام، خارج المدرسة وأرسلهم إلى المملكة المتحدة لمتابعة دراستهم. تقابلنا من جديد في جامعة شيكاغو خلال الستينات حيث كان أحمد يدرس لنيل شهادة الدكتوراة في الرياضيات، وكذلك في بيروت عام 1966 في نهاية إحدى جولاتي الصيفية، ذات الإبهام السفري المجاني.

قدَّم أبو ديار عرض المؤتمر الوطني العراقي بأسلوب دبلوماسي وإنتظر جواباً مني. لم أتردد البتة في إعطائه الجواب. بما أن أحمد الجلبي يتعامل مع المخابرات المركزية الأمريكية فلن يكون بوسعي التعامل معهم أبداً. نهض أبو ديار من على كرسيه وقبّلني وقال لي: "هذا عهدي بك وهو نفس شعوري"، وأضاف لو أنك قررت غير ذلك وفكّرت في قبول عرضهم لكان ذلك آخر لقاء بيني وبينه. وطمأنني أبو ديار قائلاً: "سوف نتدبر الأمر سويّاً".

نمت نوماً هانئاً وعميقاً في تلك الليلة.

لجأت إلى بعض المنافذ المُتيسّرة أنشدُ السلوى والإبتعاد عن هموم ونوبات الكآبة التي كانت تغمرني بثقلها وعذاباتها خلال تلك الايام.

في صباحات أيام الجمع، كنت أصحب الاولاد إلى شارع المُتنبّي قرب سوق السراي ليتجوّلوا فيه ويشتروا من الكتب والمجلات المعروضة على

الرصيف، بينما كنت أجلس في (قهوة) مقهى الشابندر على رُكن الشارع مُقابل بناية السراي، أشرب الشاي وأُدخّن النارجيلة. وفي العديد من تلك الزيـارات، كنت ألقى في المقهى (دنيس هاليدي) الأيرلندي الأصل ومدير برنـامج الـنفط مقابل الغذاء العائد إلى الأمم المُتحدة (UNOHCI). (عانى مبنى الـ UNOHCI دماراً هائلاً أدّى إلى إصابات مميتة وجرحى كثيرين جراء إنفجار شاحنة كبيرة في 19 من شهر آب 2003). كان إنساناً متواضـعاً وحميمـاً ومنفتحـاً علـى الآخرين، يُسهلُ الإقتراب إليه والتعامل معه. تطرقنا أثناء تناولنا الشـاي فـي القهوة، وأيضاً عند تناول الغذاء سوية في مطعم الـ (UNOHCI)، عن أسـباب رغبتي في مغادرة البلاد وعن مشاكل إضطراب قطاع الكهرباء بحكمِ علاقتـي في العمل على مُعالجة وضعه ضمن نشاطات برنامج الأمم المتحدة الإنمـائي. أبديت له وبصراحة ملاحظاتي القاسية عـن عبـد الله عـودة، الأمريكـي – الفلسطيني الأصل ومدير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي آنذاك. كان لدنيس نفس الإنطباعات عن قصور عبد الله عودة في أداء أعماله وإن أحبَّ أن يسمع تأكيداً من طرف آخر يعمل بأمرة عبد الله. في إحدى جلسات التسامر فـي المقهـى، قدمّت لدنيس كتاباً مصوراً كنت قد إشتريته للتو من شارع المُتنبّي عن المعِدان (عرب الأهوار) عنوانه " العودة إلى الأهوار"، من تأليف الرحالـة الإنكليـزي (كافن يونج). فرح دنيس كثيراً بالكتاب لإفتتانه بمنطقـة الأهـوار ووعـد أن يهديني، بعدما أطلع على ولعي بها وهي مهترئة في قدمي، زوجاً من (الكالات) وهو الخُفّ الكردي الشعبي، كان قد إشتراها من قرية (طوَيلة) قـرب الحـدود الإيرانية، والتي صادف أنها كانت أكبر من مقاس قدميه. إعتدت إنتعـال هـذا النوع من الكالات طيلة عقدين من الزمن اشتريتها خلال زياراتي المتعددة إلى (طوَيلة). كانت تلك النوعية من الكالات أجود الأنـواع فـي شـمال العـراق والمصنوعة يدوياً من الحرير (البريسم) وتُحكَمُ إستقامتها بعضوٍ من جسم الثور، ثمَّ إفتقدتها حين توقفَت عن زيارة تلك المناطق الكردية بسبب فُقدان الأمان حول تلك المنطقة. إنني ما زلت بإنتظار وصول هديته.

كان السلوان الثاني الذي يهبُّ عليَّ بعطر هوائه المنعش والمُريح يأتي من

جهة صديقي الطيّب والشهم الودود، ضياء الطائي، مدير مكتب سفريات (السهم الأزرق) الكائن في شارع السعدون وعلى بعد مسافة قصيرة من مكتب برنامج الأمم المُتحدة الإنمائي. لعدة مرات في الأسبوع الواحد، كنت أترك عملي في وسط الصباح وأمشي إلى مكتبه القريب. بمُجرّد أن يلمحني داخلاً مكتبه، يمُد يده لتناول (الطاولة) ويباشر في نصبها حتى قبل أن أجلس أمامه، بدون إلقاء التحية من فرط كآبتي، ونبدأ باللعب. يهرع مساعده في المكتب ليمُدّني بالشاي والنارجيلة. وبعد أن نلعب مبارة مثيرة أو اثنتين، أترك المكان كما جئت، ولكن مع تحية الوداع. بعدها، جرّني ضياء للإنضمام إلى شلّة من أصدقائه التي تمارس لعب الورق (البوكر) مساء كلّ يوم اثنين في بيت الأرستقراطي المتواضع والفاضل حكمت طُعيمة، ذو الأصول البغدادية العريقة. كان ضياء كريماً جداً في تعاطفه معي. إنما، وعن دون قصد، جرحت مشاعره بالعمقِ عندما زارني في عمّان فيما بعد مع صديقنا العزيز أُسامة النائب، وألمحت له عن شدّة الضغوط التي ألَمَّت بي والشكوك التي ساورتني حول من الذي يُفشي بتحركاتي وخططي إلى جهاز المخابرات، بحيث حامت أفكاري المُنهكة في وقت ما بالشكوك حوله. كنت من شدّة الوجس بحيث كنت أشكُ حتى في نفسي خشية أن أبوح بشيء من أسراري خلال النوم والتي قد تُسجّل دون علمٍ مني لتصل إلى جهاز المخابرات. صُدِم ضياء بهذا الإعتراف واعتبره إهانة مريرة لشَخصِه ولم يكلّمني بعدها، ولحدّ الآن. كانت تلك غلطة العُمر التي آسف لها كثيراً.

ثم كان هناك ابن خال الوالدة، فاروق بزوعي وزوجته النشطة هاسميك وشقيقته الحنون، أميرة – إسم على مُسمًى. كانت عائلة بزوعي محور إحدى تقاليدنا العائلية للترحال في ربيع كل عام، أثناء عيد الفصح، لقضاء خمسة أيام جميلة في إحدى مُدن الشمال. كنا نسافر بقافلة من خمس إلى ست سيارات تضم عائلات آل خدوري وآل عباجي وآل بزوعي وبعض الأصدقاء الحميمين. حظينا خلال تلك السفرات العائلية بذكريات طيبة لا تُنسى مقرونة بجمال الطبيعة الأخّاذ في جبال شمال العراق وزرنا خلالها، وعلى مدى العقدين من الزمن، مُعظم مُدن وقُرى الشمال، ومن ضمنها قرية (طويلة) الكُردية لشراء

الكالات وقرية (تلكيف) المسيحية الآشورية حيث تقيم مُربّيتي الطيبة الذكر، كوزي، التي تعدّت التسعين من العمر. كنت أقوم بزيارتها سنوياً وأترك لها قليلاً من المال ليُعينها في مصاريف العيش لعام آخر في كوخها الصغير محاطة بعناية جيرانها وخيرات ماعزها ودجاجاتها.

في كثير من الليالي كنت أصطحب الأولاد لتناول العشاء في أماكن مفضلة، خصوصاً بعد زيارة عابرة لأبي ديار ترتفع معها معنوياتي وتنشّط من عزمي. كنّا عندما نزور بيت فاروق بزوعي، تُبادر نوفة بطرق بابهم بنغمة خاصة بها تدلّ على الزائرين. كانوا يُرحّبون بقدومنا ببشاشة دائمة، ثمّ تُفرش السفرة على طاولة نحاسية دائرية يصَفُ عليها ما لذَّ وطاب من الصحون الصغيرة المليئة بالطعام الشهي. أو كُنّا نذهب إلى مطعم سروان الكردي في الكرخ عبر جسر ساحة التحرير حيث نغوص بأطباق التكّة والكباب وخبز التنّور الساخن ونتخاصم على قِسمة (شيش الليّة) أي الشحم في ذيل الخروف. أحياناً كنا نرتاد مطعم مُتنقل يُنصَب في الليل فقط في (ساحة التحرّيات) القريبة من منزلنا حيث تُشوى التكّة أمام ناظرينا مع شراب مُنعِش من لبن الخراف.

في إحدى تلك الزيارات إلى بيت فاروق بزّوعي، ونحن مُجتمعين حول طاولة الطعام اللذيذ والإسترخاء يسود الجو، مالَ عليَّ فاروق، الذي كان يُتابع جهودي المُتعثّرة وعزيمتي التي لا تَكلُّ بهدف الرحيل ويرى آثار القلق والكآبة على محياي، وسألني بحذر شديد لقلقه على سلامة الأولاد وحَذَّرَه من ما يخبؤه المُستقبل القريب لنا من أخطار: "هل تستطيع أن تضمن ترحيل الأولاد بأمان وسلامة؟ هل تستحق العملية، في حال فشلها، مثل هذه المجازفة؟ هل يمكنك الحصول على عمل يؤمّن تكلفة مواصلة الأولاد لدراساتهم؟". كان جوابي لفاروق: "إذا لم أتمكّن أنا، مع إمكانياتي، من تحقيق ذلك، فمن ذا غيري يستطيع أن يقوم بذلك؟". ردّ عليَّ فاروق غير مقتنع بعمق إصراري: "إن شاء الله". ما زال يمامة وتمّام، الإبنة الكبرى والصبي، الذين كانا من العمر ما يسمح لهما بإلتقاط ما يدور من كلام حولهما، يتذكران لهجتي المليئة بالتحدّي والعزم في ذلك الوقت.

وكان هناك أيضاً بيت الشهم خُوشابا، الدائم الشباب رغم عبوره السبعين من العمر. كانت ريتا وميتا (ماري) خوشابا من أعزّ صديقات نوفة، بل أشبه بأختين لها. وكانت نجاة، والدتهما المغّربية الأصل، رائعة في ضيافتها وإبتسامتها الدائمة والندّ المُناسب لزوجها المُتفائل دوماً. لم يفلح خوشابا، أثناء تناول الشراب معه في ليالي عديدة، من إقناعي بدوام الوضع في العراق والإندماج في الأعمال الحُرّة معه والكفّ عن التفكير بالرحيل.

من أجل تعزيز الحُجّة في مُغادرة العراق رسمياً، ناشدت مساعدة حميد جعفر، الشقيق الأصغر لجعفر ضياء جعفر والذي يرأس شركة للنفط في الشارقة، أثناء زيارة قصيرة له لبغداد. إلتقيت بحميد في منزل أخيه الأكبر يحيّ جعفر، الذي كان بحق السَّند الرصين لي ومازال الصديق الكريم. طلبت من حميد موافقته على إعداد عقدٍ أصليٍّ لي يعرض عليّ العمل في شركته في مجال الشبكات الحاسوبية لعل وعسى أن يُقنِع المعنيين في جهاز المخابرات وجهاز عبد حمود بصدق نيتي وتمسّكي بموقف مغادرتي العراق بصفة رسمية وقانونية. تجاوب حميد مشكوراً مع طلبي وأبدى إستعداده لتلبيته. بذل كلّ من ولديّ جعفر، صادق وأمين، الوقت الثمين والجهد الوافي لإعداد عقد عمل قانوني ومُصدّقٌ قانونياً من قبل الجهات الرسمية وسفارة العراق في لندن بأمل مُساعدتي في إقناع المعنيين بأمر مُغادرتي. كما وجازف أمين يوماً وحمل معه بكل شجاعة، خلال إحدى رحلاته المكوكية إلى بغداد، كافة التقارير والمقالات العلميّة التي كتبتُها، عبر منطقة الحدود في طريبيل المُعرّضة للتفتيش الدقيق وسلّمها إلى نيران أثناء وجودها في عمّان.

أخيراً وافق خصمي اللّدود أبو مُهنّد على مقابلتي وجهاً لوجه بعدما تعرّض لسيلٍ من الضغوط و(الواسطات) من لدن الصحّاف وأبو عُمر ورافع الدحّام. رتّب لنا سكرتيره سياق اللقاء والذي نصّ على لقائي به أولاً في مقر جهاز المُخابرات ثم أتبعه بسيارتي إلى مكان الاجتماع في بيت في حي سكني لا يبعد كثيراً عن مقر الجهاز كان يملكه بائس متوسط الحال صودر منه منزله لسبب ظالم من الأسباب. سجّلت رقم لوحة سيارة السكرتير علّني أتعرف من خلالها

على إسم مُديره الحقيقي، إذ لو أفلحت في ذلك لربما تمكنت من أن أُزيد من ضغوط المعارف النافذين عليه بَدلاً من إسم حركيٍّ تتفاجأ بعدم التعّرف عليه من قبل ضباط مُخابرات آخرين يعملون في مقر الجهاز، والذي أثار إستغراب أبي ديار كثيراً. وصل أبو مهنّد متأخراً ربع ساعة عن موعده، وجلسنا في غرفة غير مريحة قدّم لنا فيها سكرتيره الشاي ثم تركنا بمفردنا. كان في الثلاثينات من عمره، طويل القامة، قويُّ البنية، ملامح وجهه شديدة القسوة، وإن ظهر مؤدباً. شرح لي في فترة المجاملة الأولى بأنه قد تدرّب لفترة من الزمن في يوغسلافيا ليصبح طياراً. حدّقت في عينيه الميتتين مُتسائلاً مع نفسي: كم من الناس عانت من تعذيبك أو ماتت تحت يديك؟

كانت تلك الجلسة من أقسى المُقابلات التي أُجبرتُ على تحمُّلها. إستطاع أن يُحجِّمني إلى أن إنهارت دموعي، دون أي تعاطف مع توسّلاتي لإستعادة جوازات إبني وبناتي الإثنتين إذ صدَّ ضميره المتحجِّر عنه كلَّ إحساس وصدى إنساني. توسلّت إليه من منطلق أبويّ ومسؤوليتي العميقة تجاه أولادي فيرد عليّ: "إن من حق الحكومة وحدها أن تقرر متى يجب أن تُغادر". أشرت له كيف إننا تحولنا من عُلماء إلى قِطع أثرية عِلمية تصلح لعرضها في المتاحف بسبب إبتعادنا عن مصادر العلم طيلة سنوات الحصار وكبر السن ونفاد همّة ومفعولنا العلمي. تمسّك بالقول إن من حق الدولة إستخدامنا بأي وجه ولآخر قطرة حياة يمكن عصرها منّا. عرضت عليه عقدي للعمل في الشارقة بدون أي جدوى، فغضّ النظر عنه وكأن لسان حاله يقول: "إنقَعه وإشرب ماءه". كان طلبي، بالنسبة إليه، طريقاً مسدوداً. ثُمَّ إصطنعَ إستغرابه عندما نوّهت له من أن بإمكان عبد حمود حسم الموضوع وردّ بسرعة بأن لا علاقة لعبد حمود في هذا الأمر، وهكذا كشف على إنه يعمل لصالح عبد حمود وإن عبد حمود بات ملاذي الاخير في الأمر. لم يتمكن أبو ديار أن يتعرّف من رقم لوحة سيارة السكرتير على الشخصية الحقيقية لأبي مهنّد. لقد كان أكثر من ضابط مخابرات، وظلَّ لغزاً مُحيراً لنا، وجزءًا من جهاز عبد حمود الأمني الخارق. لا أعتقد ان لقاءً ثانياً بيننا سيبُشّر له بأي خير. عدت مرة أخيرة إلى الصحّاف آملاً بجدوى علاقته مع عبد حمود.

بمرور الأشهر والتعثّر في عملية إستعادة جوازات سفر الأولاد، بدأت نيران تعاني من وحدة موحشة حادّة إلى الدرجة التي إقترحت عليّ أن تعود إلى بغداد. لم يتصل بها الكنديون منذ فشل المُقابلة (أو بالأحرى اللامقابلة) في شهر كانون الثاني ولا نعرف وضع طلبنا للهجرة بالنسبة لهم. حاولت دعم معنوياتها إذ كنت قد أخذت العزم على أن لا أتخاذل في هذا القرار، وأرسلت لها بضع قطع من الحُلي الذهبية التي تحبُها في علبة سجاير معدنية مع سعد، سائق برنامج الأمم المُتحدة الإنمائي الذي كان يسافر دوماً إلى عمان. أخبرني سعد لدى عودته عن بُكاء نيران المرير عندما ودَّعها، مما زاد من أوجاعي.

جاء موسم إمتحانات الأولاد وإنبرت كلّ من ناريمان، شقيقة نيران، وابنة عمّها ندى جاهدتين لتزويدنا بالطعام طيلة أيام الأسبوع. حتى خال نيران المُسّن، المرحوم وحيد وزوجته الحميمة خيريّة، كانا يقطعان بغداد عرضاً بسيارة جاوزت الثلاثين من عمرها ليحضرا لنا الطعام مرة كل أسبوع أو أسبوعين. وقد أنقذا بذلك حياتنا عند مُغادرتنا.

نصّت تعليمات الصّحاف لسكريتره بالسماح لي بدخول مكتبه في أي وقت أصل فيه إلى الوزارة، وكان ذلك عادة بعد الساعة التاسعة مساءً، للتداول معه في هوايته المفضلّة في تشغيل البرامجيات الجديدة التي تنظّم أعماله الكتابية والتوثيقية والتي يجلبها معه من الخارج. كنت أُثقّل عليه بإفراغ ما في جعبتي من همّ وكآبة مع إرتشاف فنجان من القهوة العربية، بينما واصل هو في مساعيه الحميدة مع عبد حمود من جديد. كان الصحّاف كثير الترحال في تلك الفترة، وأضحى غيابه المُتكرر عبئاً ثقيلاً على كاهلي. بقيت نيران تتابع يومياً ذهاب وإياب الصحّاف من خلال البريد الإلكتروني. من ناحية أُخرى، نفد صبر عبدالله عودة، مدير برنامج الامم المتحدة الإنمائي الفاشل، وسعى للتخلّص مني بتهديده بفصلي في بداية كلّ شهر، بعكس نائبه العطوف النبيل (بيتر كوينبرغ) الهولندي الأصل الذي تمسّك بي ضدّ عبد الله وشدّ بأقوى ما يتمكّن من مراوغة إدارية. كان بيتر الشخص الوحيد الذي يمكن أن أثق به بشأن هروبي، بالإضافة إلى أبي ديار. كتبت لبيتر مرتين أو ثلاث مرات على ورقة أمامه أُبلِغه فيها عن

إحتمال غيابي عن العمل لعزمي على الهروب في اليوم التالي بغرض تغطيته أثري للأيام التي تليه. ما كُنا لنجرأ حتى على الهمس عن هكذا أمر خشية أن يكون مكتبه مُخترقاً بأجهزة التنصت.

في ليلة من ليالي منتصف شهر تموز عام 1998، قمت بزيارة الصحّاف ليلاً كعادتي. لقد وعده عبد حمود بالإفراج عن ملفّي خلال الأيام القليلة القادمة، والذي كان نفس ما يردده طيلة الأشهر الثلاثة المنصرمة. بكل حماس دخلت غرفة سكرتيره وتوجهّت إلى مكتبه، فإذا بصوت سكرتيره يطرق إذناي، بنغمة ترنيمية فيها نوع من الشعور بالذنب، يطلب مني الجلوس برهة لتناول الشاي ريثما ينتهي الصحّاف من اجتماع له مع أحد السفراء. ضبطت أعصابي وجلست إمتثالاً لطلبه. إلا أنني سرعان ما إستأذنت منه للذهاب إلى دورة المياه، وتوجهّت رأساً إلى الباب خارجاً من وزارة الخارجية إلى غير رجعة قاصداً أبي ديار. دُهش أبو ديار عندما وجدني أطرق بابه ليلاً لأني نادراً ما زرته في بيته لكيلا أكشف عن علاقتنا أمام أعين جيرانه، وطمأنته بأني قد اوقفت سيارتي من باب الحرص في شارع بعيد عن مسكنه.

أبلغت أبا ديار بأني قد إتخذت قراري النهائي. بِتُ مُقتنعاً أن الصحّاف كان ضحية سلسلة من أكاذيب عبد حمود دون أن يشعر الصحّاف بذلك، وما كانت وعود عبد حمود سوى سُراب من الأمل لتفتيت عزمي. أعربت لأبي ديار عن حِسّي بإستشعار خطر قريب من نغمة طلب سكرتير الصحّاف المتواضعة طالباً مني الإنتظار خمس دقائق. علينا الهروب وبأسرع وقت ممكن، إذ فقدت الأمل كُلياً بإستطاعة الصحّاف إستعادة جوازات سفر أولادي من عبد حمود. طلب مني أبو ديار أن أؤكد له قراري في صباح يوم الغد، وطمأنني عن إستعداده الدائم لهذه المُهِمّة.

في اليوم التالي، إتصل بي صديق أخي وليد، عبد الإله التكريتي وكيل وزير النفط، هاتفياً لينقل لي رسالة شفوية من أخي. سبق وأن قمت بزيارات متفرقة لعبد الإله في وزارة النفط لمساعدته في تشغيل بعض البرامجيات الحاسوبية. هاتفني من مكتبه إلى بيتي ليُبلغني بأنه قد إلتقى مؤخراً بوليد في

إحدى المؤتمرات وأن وليد ينصحني بأن لا أغادر العراق سراً لأنها مغـامرة محفوفة بالمخاطر وأن من الصعب عليّ أن أجد عملاً في الخارج. تجمّد الـدم في عروقي وأنا أسمع نصيحة وليد هذه تصلني عبر هاتف حكومي. بـدون أي تردد، إنطلقت أُشتّم وألعَن أخي وليد لأنه تجرأ وفكّر بمثل هذا الموضوع. كيف يتجرأ وليد بحقّ السماء على التفكير بإنّني قد أتْركُ العراق خفيةً؟ ونزلت علـى أخي لعنات من العيار الثقيل لمُجرد تخيّله بأني قد أسلك طريقاً وعراً كهذا. ثـمَّ أردفت بعدم حاجتي لنصائحه طالما أنني لا أضمِر شيئاً مما يظُنّه.

أدركت في قرارة نفسي أنَّ فورة غضبي هذه لم تكن كافية للآذان الأخرى المتنصتة على خط الهاتف. إنما ما الذي دفع بعبد الإله حتى يرتكب غلطة أمنية فادحة مثل هذه؟ ربما عنده شيء يبغي هو أن يخفيه، أو أن يُظهر لمن يسـمعه أنه أكثر وطنية مني؟ إضطّربَ أبو ديار عند سماعه الأمر، وإضطرَّ إلى دفـع مبلغاً كبيراً من المال لخنق تلك المكالمة ومن ثَمَّ وأدها في مقرّها.

بعدها بأيام قلائل، طلب مني أبو ديار بالعمل على إعادة تأشيرة الخـروج التي حصلت عليها قبل عام، وهي عبارة عن صفحة مرفقة بجواز سفري، وان أستعيد رسومها. كان أمراً غريباً في حينها، ولكنه دون شك ذكياً. شعرت وأنا أُتابع مُعاملة إسترجاع مبلغ الأربعمائة الف دينار، والتي هي رسـوم تأشـيرة الخروج التي سبق ودفعتها، بأن عيوناً عديدة كانت تتابع خطواتي بإهتمام، وان كانت لا تصدق ما أقوم به. إستغرقت العملية يومين في الأروقة الرسمية لخزانة الدولة أمام القشلة (مقر الحكومة في عهد الإنتداب الإنكليزي). وأخيراً أبلغـت ابا ديار عن إلغاء تأشيرة الخروج وإستعادة رسومها ظهر يوم الخميس.

طلب مني أبو ديار أن أُسلِّم جواز سفري فوراً إلى محل أخيه في بغـداد الجديدة. وفي ذات المساء، ترك لي رسالة يطلب فيها أن أحضر له مبلغ مليون وأربعمائة ألف دينار نقداً. ملأت عدة أكياس من البلاستيك بالـدنانير العراقيـة وسلّمتها له. ما كان منه إلاّ أن أعاد ليَّ جوازي وعليه أربع تأشيرات خروج لي ولأولادي. لقد إستطاع أن يُضيف أسماء وصور يمامة وتمّام ونوفة إلى جوازي مع تأشيرات خروج لنا جميعاً مختومة عليه بكامل المبلغ. وجب علينا أن نغادر

في خلال يومين، مما يسمح له بتنبيه أصحابه في طريبيل عن موعد وصـــولنا وإعدادهم لإستقبالنا. بقى علينا محنة إجتياز كُشك عبد حمود اللعين.

في ليلة الجمعة من آخر أيام شهر تموز عام 1998، طلبت من جديد إلـــى الأولاد أن يعيدوا تجهيز حقائب السفر، التي بقت مفتوحة علـــى الارض فـــي غرف نومهم طيلة الأحد عشر شهراً الماضية، مراراً ما تُفتحُ ثُمَّ تُغلقُ إستعداداً لسفرٍ غير مُتحقق. إنصاعوا للأمر دون أن ينبسوا بكلمة عن إحتمال فتحها مرة ثانية بعد عدة أيام. كنت قد رتبتُ الأمر مع ريتا التي كانت تساعدنا فـــي إدارة شؤون المنزل، أنه في حال قدومها إلى البيت ولم تجد أحداً منا، أن تنتقل لتعيش مع عائلتها في بيتنا حماية له، بل كنتَ قد جهَّزت أوراقاً رسمية لها منـــذ عـــدة شهور تُثبت بأني أدفع لها أجراً شهرياً مقابل حراستها للمنزل.

في صباح يوم السبت، الأول من شهر آب، ذهبت ويمامة إلى جامعة بغداد لتسجيلها في قسم هندسة الحاسوب بعد أن نجحـــت بتفـــوق فـــي الإمتحانـــات الوزارية، مُدركاً أن هناك من يتابع خطانا من مكان إلى مكان. بعد ذلك إتجهت إلى مقر عملي في برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لأبلغهم عن عزمـــي قضـــاء عطلة قصيرة الأمد مع أولادي في الموصل في الشمال، بينما كتبت حقيقة الأمر على ورقة صغيرة أمام بيتر وعانقته مُغادراً، ومن ثَّمَّ عدت إلى البيـــت. عنـــد الظهيرة رأيت أن من واجبي أن أذهب لوداع صديقي العزيز ضـــياء الطـــائي، مُقدّراً رقة إحساسه، ومدى عونه ومساندته المستمرة. كان النهار حـــاراً جـــداً بحيث تعدّت درجة الحرارة الخمسين مئوية. تعطّلت مضخة الوقود الأولى فـــي سيارتي ثُمَّ تبعتها المضخة الإحتياطية الثانية من شدة الحرارة على بعد مئـــات الأمتار من منزلي. إضطررت إلى الإستعانة بالجيران لسحب سيارتي عائداً إلى البيت وأُلغي زيارة ضياء، ولم أكن أجرأ على توديعه عبر الهاتف لتجنب الآذان المتنصتة. لو سمح لي القدر بزيارته وإلقاء تحية الوداع عليه، لربما غفر لـــي هفوتي فيما بعد في الأردن عندما زلّ لساني عن شكوكي فأصبتُ موجعاً فـــي ثقته. واحَسْرَتاه، لقد وقع الضرر.

بعد عودتي إلى البيت، إتصل بي هاتفياً خال نيران ليُعلمني بقدومـــه مـــع

زوجته لزيارتنا في الغد ومعهما وجبة من الكُبَّة (أكلة مصــلاوية). أصــرَّيت بحرارة على انه لا داعي لقيادة سيارتهم العتيقة تلك المسافة الطويلة في حرّ لا يُطاق، ووعدته بدلاً من ذلك أن أمرّ عليهم عند ظهيرة الأحد لإستلام الكُبَّة. لكنه أصر على أن يأتوا إلينا ليخففا عني بعض العبء. أفلحت أخيراً فــي إقناعــه وأكدت له بحزم عن عزمي زيارتهم في اليوم التالي. يبدو أن حديثنا المتبادل قد أقنع من كان يتنصُتُ على هاتفنا بأننا باقون في تلك الليلــة فــي بغــداد، ولا يستوجب الحذر مما ينبيء بهروبنا. إنني مدين لتلك المكالمة الهاتفيــة العفويَّــة بإنقاذنا من مخالب المُخابرات.

إتصلت بناريمان، شقيقة نيران، ورحبت بطلبي إستعارة سيارتهم الثانيــة ليوم واحد. أخذت بعدها إبنتي يمامة عند العصر لوداع مينا رمزي، الصــديقة الوحيدة، فيما عدا حسام شريكنا في محل الحاسوب، التــي إستشــعرت قــرب مغادرتنا البلاد وهي تعانقنا وتقبلنا. بعدها زرت حسام الذي عانقني بحرارة وهو يبكي قلقاً علينا.

زارنا أبو ديار في تلك الأمسية يحمل (ركيّة) بطيخة كبيرة بينما كنت في الشارع خارج البيت أتسامر مع الجيران. طلبت سكيناً وشاركت الجيران فــي تناولها. كانت الركيّة إشارة السرّ بيننا والتي تعني بأنه قد إستطاع تأمين جميع الترتيبات اللازمة لمغادرتنا، وموعد مُغادرتنا هو الساعة الثالثة فجراً.

على أثر تهريب أبو ديار للطبيبين الأرمنيين وكسب ثِقة آل بزوعي، قرَّرَ أبو ديار بأن تكون نقطة إنطلاقنا من بيت فاروق بزوعي، وليس من بيتنا الذي يجزم بأنه تحت المراقبة المستمرة من قبل الجيران.

إضطررت في تلك الليلة أن اقوم بعدة رحلات، ذهاباً وإياباً من بيتنا لأنقُل بالخفية، وبعيداً عن تلصص عيون الجيران، العدد القليل من حقائبنــا المُعــدّة للسفر إلى بيت فاروق. عند إقتراب منتصف الليل، ذهبت إلى منزل أبي ديــار لإصطحابه. زيادة في الحرص، لم يسمح لي أبو ديار في رؤية أُسرته أو توديع أم ديار المحبوبة، بل قابلني في نهاية الشارع الذي يقطنه بعد أن أبلغ أهل بيته بأنه ذاهب بمفرده إلى الموصل في سفرة قصيرة لقضاء بعض الأعمال.

بقي علينا تدبير أمرٍ أخيرٍ في طريقنا إلى بيت فاروق، إذ بشّرني أبو ديار باتصاله الهاتفي، قبل ساعة من لقائنا، مع رفاقه في طريبيل والذين أعلموه بأنهم قد أفلحوا أخيراً في إختراق عُصبة عبد حمود – ولأول مرة – وبطلب المسؤول عنهم مبلغ ألف دولار أمريكي نقداً، ودون مساومة، رسماً لمرورنا عبر كُشكهم. توقفنا لشراء علبة سجائر (كنت) لنفرّغها من محتوياتها ونحشوها بعشرة أوراق نقدية من فئة المئة دولار، حسب تعليمات آمر عُصبة عبد حمود. كانت المجازفة كبيرة لي ولأبي ديار ورفاقه لأنها كانت المرة الأولى التي يتم فيها التعامل مع هذا الشخص القادر ببساطة أن يَغدُر بنا جميعاً ويقبض أضعاف هذا المبلغ من عبد حمود مُكافأة له على الوشاية بنا. من الناحية المقابلة، في حال كتمانه خبر مُغادرتنا، فإنه سيفتح له باب التعاون مع رفاق أبي ديار وكسب ثقتهم ليدرّوا عليه بسيلٍ من الزبائن والرزق الدائم. كان شرطه لمعاونة رفاق أبي ديار هو أن يؤكدوا له بأنني لست مُلاحقاً بجرم ولا أنتمي إلى المعارضة، كما أكدّوا له بأني أحمل جواز سفر رسمي.

نزل أبو ديار عند منزل فاروق حيث كانت تنتظرنا هناك سيارة ذات دفع رباعي مع سائقها الأردني وقد إستقرّت فيها حقائبُنا. ذهبت لإعادة سيارة ناريمان إلى بيتها الذي لا يبعد كثيراً عن بيت فاروق. كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحاً، وناس حارتهم مجتمعين في الشارع لإنقطاع التيار الكهربائي يتسامرون وينعمون بنسيم الفجر البارد. إنتابتني موجة من القلق والترقّب الشديدين. ففي مُقابل بيت ناريمان بالضبط كان يسكن ثامر نعمان، رئيس قسم الفيزياء في مشروع PC3 الذي عمل تحت إشراف جعفر، والذي إنتقل حديثاً إلى هذه الحارة. لا شك أن الأمر كان سيبدو له غير طبيعي لقيامي بإرجاع سيارة ناريمان في الساعة الثانية والنصف صباحاً لأركنها في بيتها ثمَّ أترك المكان بحذرٍ مُودّعاً بنباح عدد من الكلاب الضّالة في نهاية شارعهم. من حسن الطالع كان ثامر قد بات الليل كله في فراشه ولم يُشارك في تجمّع الجيران الذين لم يهتمّوا بأمري. عند الثالثة صباحاً، قَبلّنا فاروق وهاسميك وأميرة بزوعي قبلات الوداع وإنطلقت بنا السيارة. من باب التيمُّن وأمل

رجوعنا إلى بغداد في المُستقبل بالسلامة، ألقت هاسميك خلف سيارتنا المُغادرة بضعة أسطل مليئة بالماء.

كان الموعد مع ضابط مخابرات عبد حمود عند الكُشك في طريبيل في الساعة الثامنة صباحاً تماماً، وهو موعد إستلام وسيطنا لنوبة عمل النهار.

قبل الوصول إلى طريبيل بنصف ساعة، إستدار أبو ديار ناحيتي في المقعد الخلفي، وكان يلعب الطاولة مع نوفة قرب السائق، وخاطبني وملامح الجدّ تغطي وجهه، قائلاً: "بقى لدينا نصف ساعة نقضيها معاً قبل عبور الهاوية، وأود قبل الوصول الإفصاح لك عن أمرين، لو أعلمتُك بهما في بغداد لكان على الأغلب أن تُصاب بإنهيار عصبي وربما تفقد إرادتك في إكمال هذه المسيرة"، وموجهّاً نظره إلى السائق الأردني الذي يثق به ليغلق إذنيه.

كان أول الأمرين يوم تنبّهت غريزتي للخطر المُحدق في مكتب الصحّاف عندما طلب مني سكرتيره الجلوس لبضع دقائق لتناول الشاي. كان يقبع على المكتب أمام السكرتير كتاب من عبد حمود يأمر بالقاء القبض عليَّ إذا ما دخلت وزارة الخارجية من جديد، حيث يظهر أن عبد حمود كان قد ملَّ من إلحاح الصحّاف عليه بشأن قضيتي. كان الأمر فقط بحاجة إلى إطلاع الصحّاف عليه ليهمّش بالموافقة ليتوجّب وضعه حيزَ التنفيذ لأنه أمر صادر من مكتب صدام حسين. وكان من حسن حظي أنني تركت الوزارة قبل أن يضطر الصحّاف لتنفيذه، وفعلت خيراً بأني لم أعدْ بعدها إلى مبنى وزارة الخارجية.

كان الأمر الثاني هو إزالة خالد رشيد للتقرير المسموم الذي وضعه صلاح الحديثي من ملفي الأمني في هيئة التصنيع العسكري. يبدو إنه كانت هناك إشارة إلى وجود ذلك التقرير عند مديرية الأمن العام المسؤولة عن إصدار جوازات وتأشيرات السفر، ولكن بما انهم لم يستطيعوا العثور على أصل الكتاب، فقد سهُلَ عليهم ذلك من إزالة الإشارة إليه من الملف عندهم. ساعد هذا الأمر كثيراً في معالجة أمر إصدار تأشيرات الخروج لي ولأولادي. ولو كان التقرير قد بقي في مكانه وعليه تعليق صدّام بمنعي من السفر بالحبر الأحمر، لما تمكّنَ أبو ديار أبداً من إنجاز ما حقَقه بشأن جوازي.

قبل الثامنة بخمس عشرة دقيقة كنّا ننتظر في السيارة عند محطة الوقود القريبة من الكُشك ونحن نراقبه من بعد. في الثامنة تماماً مشى الضابط إلى الكُشك وأخذ مكانه أمام شاشة الحاسوب. تحركت سيارتنا بإتجاه الكشك. نزل السائق من السيارة وقدّم الجوزات التي بيده إلى الضابط القابع خلف زجاج الكُشك. هبط عليَّ في تلك اللحظة هدوء غريب مُخدّرٍ عبرّ عن ثقتي الكاملة بأبي ديار الذي كان يتابع المشهد بحذر ويراقب الضابط بعيني صقر. تصفّح الضابط الجوازات وضرب على لوحة مفاتيح الحاسوب ثم إبتسم وأعاد الجوازات إلى السائق. تحركت سيارتنا إلى منطقة الأمن في مبنى الجوازات. أسدل أبو ديار جميع ستائر السيارة وأمرنا بعدم النزول من السيارة البتة. دُهش سائقنا من أمرِ أبو ديار غير المُعتاد لكنه لم يعترض ولم يعلّق على الموضوع.

بعد نصف ساعة من الزمن عاد أبو ديار وبصحبته أبو هديل، ضابط الأمن المسؤول عن نقطة طريبيل والذي تمكّن من إخراج نيران منها قبل أحد عشر شهراً، مع إثنين من زملائه اللذين نجحا في إختراق الطوق الذي ضربه عبد حمود عند الحدود. كان أبي هديل يقضي الشهر الأخير من فترة إنتدابه في تلك النقطة الحدودية، وكان سيصعُب على أبي ديار بعد إنتهاء مهمة أبو هديل من المرور بسهولة عبر تلك النقطة. ترك أبو ديار علبة السجائر عند ظلٍّ عبد حمود في الكُشك، وخُتم الجواز بالخروج رسمياً. قام أبو هديل ورفيقيه بتقبيلي من خلال فتحة شبّاك السيارة متمنين لنا التوفيق. ودعّتهم بحرارة من موقعي داخل السيارة دون الترجّل منها كما تقضي اللياقة وغضضنا الطرف عن مساحة من تقاليدنا الاجتماعية بسبب تعليمات أبي ديار. لن أستطيع أن أنسى في حياتي دفءَ قبلاتهم، والتي ربما عكست غبطتهم من تمكّنِهم من إفلاتي من شبكة عبد حمود. ودلفنا إلى الجانب الأردني من الحدود.

الأردن

نادى ضابط المخابرات الأردني، وكان بدوياً من طلّته، على إسمي وساقني والأولاد وأبي ديار إلى غرفة التحقيق. أعلن الضابط أن جوازنا مُزوّر،

فعمر يمامة كان قد تعدّى الثامنة عشر ربيعاً والقانون العراقي لا يسمح بإضافة إسم من تجاوز ذلك السن إلى جواز آخر، بل كان يجب أن يكون لها جواز سفر خاص بها. ثُمَّ إدعى عدم وجود ختمٌ ظاهر على صور الأولاد المُلصقة على جواز سفري، مما يعني أنني قد قُمت بإلصاق الصور على الجواز بيدي، كما وإن خط كتابة أسماء الأولاد يختلف عن بقية الخط في الجواز. وبناء على ذلك، يجب علينا العودة إلى طريبيل.

بكل هدوء أنكرت معرفتي بأي خطأ حاصل في إصدار جواز سفري. تدخّل أبو ديار وقال للضابط "إننا عبرنا الحدود العراقية منذ عشرين دقيقة فقط، لا شك إنه كان بإمكان ضباط الجوازات العراقيين من إكتشاف مثل هذا التزوير لو صحّ ذلك. لماذا لا تستعمل الهاتف وتتصل معهم للتأكّد من الأمر؟". كان أبو ديار قد طلب من رفاقه البقاء قريباً من الهاتف الذي يربط بين نُقطتي الحدودين لمدة ثلاث ساعات بعد مغادرتنا تحسُّباً لمثل هذه الإحتمالات غير المتوقعة.

غاب الضابط الأردني لمدة نصف ساعة وعاد وتعبير "وجدتُّها" يعلو وجههُ. إدَّعى بكل ثقة إننا نحاول التهرّب من قانون الغرامات المفروض على المُقيمين في الأردن اللذين يَمكُثوا فترة تتعدى الفترة التي تُسمح لهم بزيارة الأردن. لذلك – في اعتقاده – قُمت أنا بلصق صور الأولاد على الجواز بعد انتهاء فترة الزيارة حتى أُخفي حقيقة فترة إقامتهم في الأردن وبالتالي أتجنّبُ دفع الغرامة المُستحقة على إقامتهم غير القانونية.

لو كانت هذه هي مشكلتي على الحدود السورية، لفهمت على الفور مغزى هذا الشرح اللامنطقي والذي معناه ضرورة وضع مبلغ من المال في طيّ الجواز بينما أتظاهر بتقليبه للتأكد من إدعاءاته. إنما وجودي في الأردن، وإدراكي بالجذور البدوية للضابط الماثل أمامي منعاني من المجازفة بإثارة غضبه بتقديم رشوة له. أدركت على الفور بأنه قدَّم هذا التفسير إنقاذاً لماء وجهه بعد أن حجزنا وقتاً طويلاً وربما إتصلَ فعلاً مع ضباط الحدود في طريبيل وتأكد من سلامة جواز السفر. لذا بادرت وأظهرت له هوية العمل الرسمية التي تسمح لنيران بالعمل رسمياً في الأردن كمُحاضِرة في جامعة السلط. وبكل تواضع أشرت له أننا في طريقنا لدخول

الأردن، ولسنا خارجين منه، لنزور أم الأولاد لنقضي معها بضـــعة أســـابيع قبـــل عودتنا إلى العراق في نهاية شهر آب، أي مع بدء العام الدراسي الجديـــد. إرتـــاح الضابط لهذا الشرح الوافي وسمح لنا بالعبور. ما أن توغلّنا بضع كيلومترات داخل الأردن حتى إستدار أبو ديار اليَّ قائلاً: "مرحباً بك في بلاد أبي عبد الله"، ويقصـــد الملك الراحل حسين، والد الملك الحالي عبد الله.

بعد أيام قلائل، وفيما كنا نشرب ونتسامر، صارحني أبو ديار بالآتي: "ما صلَّيت في حياتي لمريم العذراء بمثل الحرارة التي صلّيتُ لها بها عندما نـــزل السائق إلى كُشك عبد حمود وبيده الجوازات ليناولها إلى الضابط". أنْ يُصـــرِّحَ رجل يمتلك شجاعة أبي ديار بهكذا شعور جعلني أدرِكُ جَلياً خطورة مُغـــامرة إجتيازنا هاوية عبد حمود. لقد أفلحنا في العبور من خرم إبرة رفيعة.

في غضون أربع وعشرين ساعة من إنطلاقنا من بيت فاروق بزوعـــي، علِم عبد حمود بأمر مغادرتنا وأرسل فوراً خمسة من ضباط جهازه في القصر الجمهوري إلى طريبيل ليتحرَّوا الأمر. وصل الوفد إلى طريبيـــل ظهـــر يـــوم الإثنين ومعهم نسخ من صور الأولاد الحديثة، والتي اُخِذت لهم قبل أســـبوعين فقط في محل تصوير بسيط قرب شركة باتا في شارع الكرادة خارج (مما يدّل على تتبعهم أمر حركتنا)، وأُضيفت لاحِقاً إلى جوازي. توزعوا في كافة أنحاء طريبيل يسألون كل ضابط من ضباط الجوازات فيما إذا شاهدوننا نعبر نقطـــة الحدود مؤخراً، وهم يعرضون عليهم صورتي وصور الأولاد. طبعاً لم يشاهدنا أحّد إذ كنَّا قابعين في السيارة ذات الدفع الرباعي وستائر الشبابيك فيها مغلقـــة بإحكام. أقسمَ الضباط الكبار اللذين ودَّعونني بالقبلات الحارة بأنهم لم يروني قطّ في حياتهم.

أعطيت جواز سفري لأبي ديار قبل عودته إلى بغداد لختم صـــور الأولاد بصورة صحيحة إذ كان البعض من الأختام بحبر خاص لا يظهـــر إلا تحـــت الأشعة فوق البنفسجيّة. لم أرغب سوى تجنب المسألة عنـــدما أغـــادر الأردن لاحقاً. أبدى أبو ديار إستعداده لتلبية رغبتي، وأعاد علي الجواز بعد عشرة أيام مع سائق سيارة أجرة وهو يلمع بالأختام المطلوبة.

إختتمنا يوم الأحد الطويل والمثير، في الثاني من شهر آب عام 1998، بلقاء حار مع نيران والدموع تنهمر، إذ لم تكن على علمٍ بموعد قدومنا وقدمت مُسرعة من جامعة السلط التي تبعد عن عمّان، وإحتفل بنا الجيران في البناية حيث إستأجرتُ شُقّةً لنا وجعلوا من مناسبة لمِّ الشَمل عيداً مُرتجلاً لنا. تركت الشقة لبضع دقائق وبعثت برسالة (فاكس) إلى الكنديين اُبلغهم فيه بنجاحنا أخيراً في الهرب. لم تكن نيران قد تلقّت منهم أي كلمة خلال الأشهر السبعة الماضية، ولم نكن على يقين فيما إذا ما ظلَّ ملف الهجرة عندهم مفتوحاً أم لا. في صباح اليوم التالي تلقّينا منهم مكالمة هاتفية تطلب مني الحضور إلى السفارة الكندية في عمّان.

ظننت في بادئ الأمر أنهم لم يذكروا سهواً حضور نيران (صاحبة طلب الهجرة الأصلي) والأولاد وذهبت إلى المقابلة بمفردي، حيث إرتبطتْ نيران مع الأولاد لقضاء بعض طلباتهم، على أن يتبعوني خلال نصف ساعة. أُدخلت للمُقابلة التي إستغرقت ثلاث ساعات، فيما بقيت نيران والأولاد قابعين في قاعة الانتظار.

واجهني دبلوماسي كندي رفيع المستوى بالسؤال مباشرة: "سوف أسألك ثلاثة أسئلة. أذا كذبت بشأن أي منها فالأفضل لك أن تنسى طلب الهجرة الذي تقدمتم به. هل أنت عضو في حزب البعث؟ هل عُينت إدارياً بدرجة مدير عام في الدولة؟ هل لك علاقة مع جهاز المخابرات أو مديرية الأمن العراقي؟". ما أن أجبت بالنفي على الأسئلة الثلاثة حتى تبدّل جو المُقابلة وإنساب السخاء الكندي.

أشدُّ ما أقلقني طيلة إقامتي في الأردن كان همُّ سلامتي الشخصية، وكذلك بدا الأمر بالنسبة للكنديين. دعاني الدبلوماسي الكندي في اليوم التالي ليُبلّغَني بحصوله على تصريح خاص من حكومته يسمح لي بالسفر إلى كندا خلال أربع وعشرين ساعة من إبلاغهم برغبتي، وعلى نفقتهم الخاصة، إذا أيقنت بضرورة ذلك حفاظاً على سلامتي. كانت المشكلة في إتخاذ هذا التدبير هي أنها تمنحنا هوية اللجوء السياسي، وهي مرتبة أقلُّ حظوة بكثير، متى ما وصلنا إلى كندا،

من مرتبة المهاجر العادي التي تستغرق معاملة إكمالها في الأردن فترة ستة أشهر. تُرِكَ لي إختيار القرار.

تشاورت في الأمر مع أبي ديار. فقام على الفور وإتصل بأصدقائه في بغداد، مُتحدثاً إليهم بلغة مُشفَّرة ليتحسس الهاجس الأمني بما يخص سلامتي. علم أبو ديار منهم بإرسال عبد حمود بلجنة تحقيق في أمر سفرنا إلى الحدود في طريبيل دون أن تصل إلى أي نتيجة. كما إستشار أبو ديار دِبلوماسياً يثق به يعمل في دائرة أمن السفارة العراقية في عمّان وتبيّن له إستطاعة ضابط الأمن في السفارة من متابعة التوجيهات الأمنية العادية، ولكنه لا يقدر على معرفة تعليمات عبد حمود الخاصة أو إختراق نطاق رجاله.

وضع أبو ديار المخاطر الأمنية المحيطة بإقامتي في الأردن أمامي بوضوح. إعتقدَ آنذاك أن إحتمال تعرّضي لإعتداء مباشر قد يصل إلى خمسين بالمئة، وعليَّ أنا إتخاذ القرار. راجعت الوضع مع نيران وقرَّرنا المجازفة والبقاء في عمّان. لقد تحملنا، وخاطرنا كثيراً، ولا يجب أن ينتهي بنا الأمر كلاجئين سياسيين. أعربت عن شكري للكنديين على ماعرضوه علينا، وأفصحتُ لهم عن عزمنا على متابعة الاجراءات من مقابلات، وفحوصات طبية، وستة أشهر من الانتظار. خلال أسبوع واحد من مكوثي في عمّان حصلت على وظيفة تدريسية في جامعة عمّان الأهليَّة لمعرفتي الشخصية برئيسها من أيام جامعة مشيغان، وزمالته لأخي وليد. وإنتقلنا من مقر سكننا، ولعدة مرّات، خلال فترة الستة أشهر التي قضيناها في عمّان.

تبيّن لنا لاحقاً من قيام ضباط المُخابرات بالتحقيق القاسي مع زملائي في برنامج الأمم المُتحدة الإنمائي، وبالذات مع صديقي العزيز أياد مُحيميد الذي شاركني في نصب الشبكة الحاسوبية في أنحاء العراق والذي أفلحت في تعيينه كسائق مع برنامج الأمم المُتحدة الإنمائي. كما وأمر عبد الله عودة، مُدير البرنامج الركيك، نائبه بيتر أن عليه الاّ يتصل بي بتاتاً بواسطة البريد الإلكتروني. رفض بيتر الإنصياع للأمر، عندئذ أبلغه رئيسه بأنه سوف يقوم عن طريق وزارة الخارجية بالطلب بإعلانه شخصاً غير مرغوب فيه لشكّه في

مُساعدتي في الهروب، فيُجبره بذلك على مغادرة العراق إنتقاماً منه. دُهِش بيتر بأن يتطور الأمر إلى هذا الحدّ ولكنه ثبت على موقفه، وتخاذل عبد الله عن تنفيذ وعيده. بقي بيتر مخلصاً في علاقته واتصالاته معي، وزارني مع أفراد أسرته عندما سافروا عبر الأردن وبعد وصولنا إليها بعدة شهور. حاول عبد الله عودة بخبثه المعهود إعتراض تسليم راتبي الأخير المُستحق من برنامج الأمم المُتحدة الإنمائي، لكن تهديدي برفع دعوى عليه إلى سكرتارية الأمم المُتحـدة أتّهِمـه بأعمال تهريب أعلم بها وتحرش جنسيّ فاضح في المكتب، منعه مـن تنفيـذ رغبته ورضخ أخيراً بدفع راتبي بناءً على توصية مديرة البرنامج في عمّان بعد أن إطّلعت على تفاصيل إتهاماتي.

كما وتعرّضَ حُسام عُبيد، شريكي الأردني في محل الحاسوب الفلسـطيني الأصل، الذي لم تكن لديه أي فكرة عن طريقة هروبنا إلى ضغوط شديدة تعدّت إلى الأذى الصارخ. علِمت فيما بعد أنّ سكرتير أبي مهنّد، الذي قادني إلى ذلك اللقاء المقيت مع رئيسه قبل بضعة شهور، هو الذي قام بتعذيب حسـام نفسـياً وجسدياً. لقد قام بزيارة حُسام في اليوم التالي لهروبنا ومكث في المكتب طيلـة عدة أيام ينتظر مُكالمتي الهاتفية لحُسام لأطمئنه على سلامتنا وليستقصي عـن مكان وجودنا وطريقة هروبنا. قضى وقت إنتظاره بإستحواذ مـا أملكـه مـن حواسيب وطابعات ليزرية التي أملكها من المحل وصـادرها لنفسـه. وجّـه سكرتير عبد حمود التُهمة إلى حُسام بالمُساعدة في تزويدنا بجوازات سفر أردنية مُزوّرة تمكنّا بواسطتها من الهروب عبر الشمال. ما أن عَبرت ضغوطه عتبـة الحاجز النفسي، وبدأت مرحلة العذاب الجسدي، حتى قرر حُسام بأنه نال ما فيه الكفاية من تعامل جهاز المخابرات معه وأتخذ قراراً بالرحيل. حمل حُسام حقيبة ملابسه وغادر العراق إلى غير رجعة في منتصف ليلة حالكة، بعد أسبوع واحد من رحيلنا.

عانيت خلال الأسبوع الأول من إقامتي في عمّان من كوابيس تتفجَّرُ أثناء نومي وكأنها البراكين، من أثر الخوف المكبوت. كنت أُفيق من النوم مُبتلاً من العرق بعد أن أرى في أحلامي بأني قد عُدت إلـى العـراق وعلـيَّ الـذهاب

لمُراجعة مقر جهاز المخابرات. بدأت عُقَد كآبتي وإجهادي المُتواصل في التفكك والإنحسار.

إستطاع صديق العمر ظافر سلبي، رئيسي المُباشر في مشروع PC3، بعد سبع سنوات من الإحالة على التقاعد أن يحصل على جواز سفره. كان شــهماً وجريئاً بأن يتكرّم في القيام بزيارتي أثناء رحلته الأولى خارج العــراق وهــو يحمل جواز السفر الجديد، في وقت يدرك فيه كل الإدراك مدى الغضب الذي قد يحلُّ بعُصبة عبد حمود من جراء اتصاله بي بعد هروبي.

كنت قد أعددت خِطاباً إلى الصحّاف قبل سفري، وطلبــت مــن فــاروق بزوعي وإخته أميرة بتسليمه إلى الصحّاف بعد مُغادرتي بيتهم ليلــة هروبنــا المصيري، لكنهما إمتنعا عن تنفيذ ذلك. تجرأت وعرضت على ظافر أن يوصل تلك الرسالة إلى الصحَّاف عند عودته. وعلى عهدي به كصديق عُمر مُخلص، ورغم إحتمال تعرضه إلى غضب وإنتقام جهاز المخابرات، وافق ظافر علــى حمل الرسالة إلى الصحّاف وإلى هُمام عبد الخالق (الذي كان وزيراً للإعلام في حينها)، وهذا هو نصها:

السيد وزير الخارجية المحترم

أودّ في مُستهل شهادتي هذه أن أُعبّر لكم عن جزيل شُكري وإمتنــاني لجهــودكم ومُتابعتكم أمر رفع منع السفر عن عائلتي، وأُكرر شكري هذا كذلك إلى الــدكتور رياض القيسي.

الله يعلم والصحّاف والقيسي يشهدان كم حاولت أن أتشبث بوطني قانونياً بكل مــا أملُك من قوة وصبر وإيمان وبأنيابي، ولكنهم تمكّنوا من أن يقلعوا حتــى جِــذور أسناني.

سأموت خارج وطني ولكن حُبّي للعراق لن يموت لأني تأكدّت من وجــوده فــي حليب أولادي.

منذ الستينات وعندما كنت طالباً في الولايات المتحدة الأمريكية، أخذت قراراً على نفسي بأن لا أتزوّج إلا بعراقية وأن يتربّى أطفالي في حنين ودفء العراق.

عندما قدّمت طلب تقاعدي لأول مرة في صيف عام 1991 وسألني د. هُمام عــن السبب، أعلمته بأني مُدركٌ بأن الطلب سيستغرق 6–7 سنوات ليتحقــق، وعنــدها

أكون قد أوفيت أعلاه فيما يخص ترعرع أولادي في العراق ويحين ضمان دراستهم العليا في الخارج وبكل ما أوتينا، أنا ووالدتهم، من قوّة وبقية عمر. أجابني د. هُمام في حينها: "لن يُصدّقوك". ولكن هذا حدث، ويا لسذاجتهم.

خسارتي من هذا هو مرور السنين القليلة الثمينة الماضية، وبالذات مُعاناة كافة أفراد عائلتي خلال أشهر السّراب الماضية، والتي كنت أسعى صبوراً خلالها أن أستوفي كل الشروط القانونية لرفع قيدِ منع السفر، مؤمناً بالقانون، مع شديد الأسف والندم. وكذلك خسرت عشرات الملايين من الدنانير وعقدِ عمل في الشارقة. وخسرت وطني وخسر العراق أولادي.

ماذا إستفادوا؟ ماذا رَبحوا؟

أطلب من سيادتكم وصيّة أخيرة، عسى أن تتحقق. أرجو من سيادتكم الطلب بوضع نسخة من هذه الشهادة في كلّ إضبارة من أضابيري الأمنية، في ديوان الرئاسة، في جهاز المُخابرات، في مديرية الأمن العام، في هيئة التصنيع العسكري وفي منظمة الطاقة الذرية، للتاريخ وللمُستقبل، ولكي أقطع دابر أي شرير قد تسوّل له نفسه بالطعنِ بحُبّي وإنتمائي للعراق وشعبه.

والسلام.

العراقي
عماد يوسف يعقوب خدّوري
تموز 1998

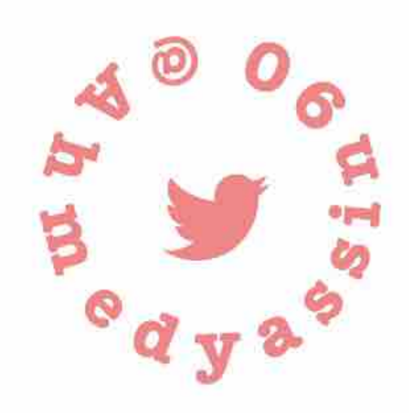
إستلمنا بواسطة والد نيران، الذي سبق وأن هاجر مع أولاده الثلاثة قبل سنوات إلى الولايات المتحدة، أوراق الهجرة إلى أمريكا أثناء إقامتنا في الأردن. كانت نيران ميَّالة بطبيعة الحال إلى الإلتحاق بعائلتها. أمَّا من ناحيتي، فقد كان لديَّ قناعة قويَّة وخوف عميق من "طريقة الحياة الأمريكية" يمنعاني من الحكم على أولادي بالعيش طيلة حياتهم في مجتمع يحكُمه الإستلاب والعنف المُتحيّز. لذلك وقفت صامداً ضد تلك الخطوة.

عاد أبو ديار إلى الأردن بعد شهرين وبصحبته مجموعة أخرى من المسيحيين الذين أفلح في تهريبهم. نقل إلي آنذاك خبراً مُشجّعاً يُفيد بتوصّل عبد حمود بعد تحقيقات مُكثّفة إلى نتيجة مفادها ان السائق "صلاح" الذي يعمل

لصالح إحدى منظمات الأمم المتحدة في بغداد قد قام بتهريبي مع أولادي إلى مدينة أربيل في الشمال خلال تنفيذه إحدى المهمات هناك. ومن أربيل، تمكنّا من التسلّل إلى تركيا بجوازات أُردنيّة مزورة. همّش عبد حمود هذه الملاحظات على ملَفّي، مُضيفاً: "تُغلق القضية".

لا أعلم من هو "صلاح"، لكني أدعو الله أن لا يكون قد أُصيب بمكروه من جراء هذا التحقيق. بعد تلك الاخبار بدأت أستعيد هدوئي، ثُمَّ انتقلنا من شقتنا إلى منزل آخر حرصاً على مزيد من التّمويه.

كان موظفو السفارة الكندية متعاونين معنا جداً وقاموا مثلاً بالاتصال مع الطبيب الذي أجرى فحوصاتنا الطبية وطلبوا منه أن يبعث بفحوصاته بالبريد المُستعجل إلى فرنسا لتحليل النتائج بهدف إستعجال الحصول على الموافقة على الهجرة. كما وسافر أحد كِبار الدبلوماسيين إلى دمشق خصيصاً حتى يجلب إلى عمّان بيديه تأشيرات الهجرة لنا. بعد مرور ستة أشهر بالضبط على دخولنا الأردن، غادرنا إلى تورنتو، كندا.


@Ahmedyassin90

الفصل السابع

الخاتمة

كندا

ليس من السهل تهجئة إسم (ميسيساجا) بالإنكليزيـــة، ضـــاحية المدينـــة الواقعة إلى الغرب من تورنتو عاصمة مقاطعة أونتاريو الكندية، وما كنّا نعلم شيئاً عنها البتّة عندما سجّلت إسمها في إستمارة طلب الهجرة على أنها مقصد وجهتنا في كندا. فخالي ألبير عباجي العراقـــيّ التقاليـــدِ والعُـــرف والكَـــرم، وزوجته التي لا يُمكن نسيانها المرحومة جوزفين برجـــوني، الســـيدة التـــي إفتتحت أول صيدلية تُديرها إمرأة في العراق قرب محلات حافظ القاضي في وسط شارع الرشيد في العام 1946، والبارعة جداً فـــي تحضـــير مـــأكولات السفرة العراقية، كانا يقطنان في تلك الضاحية منذ هجرتهما إلى هنـــاك فـــي ثمانينات القرن الماضي مع أولادهما، فأدرجنا عنوان بيتهما كمَرجعٍ لنا. قبل مُغادرتنا عمّان بأيام معدودة، راجعت خريطة للعالم ليقع نظـــري لأول مـــرّة على موقع مدينة تورنتو. على أرض مطار (بيرسون الدولي)، كـــان خـــالي ألبير، الذي جاوز الثمانين من العمر (أطال الله من عمره) وولديه نمير وغدير في إستقبالنا. أصرَّ خالي، تمسّكاً بالتقاليد العراقية الكريمـــة وبحُكـــم منزلتـــه كخالي الكبير، على أن يُستضيفنا في شقّته حتى نجد سكناً مناسباً لنا.

صادف وصولنا مع هبوب عاصفة ثلجية تُغشي البصر من شدّة ثلجها وتُفقدك التوازن من عصف رياحها. صدحت نوفة، الإبنة الصغرى ذات الإثني عشر عاماً، بالبكاء الحار مُرددةً: "ليس لي أصدقاء هنا ولا أعرف تكلم الإنكليزية. أُريد أن أعود إلى بغداد".

لكنها صَمدت وإزدهرت. نشرت نوفة على الإنترنت صفحتين بالإنكليزية عن إحتلال العراق[32]، سأستعرض الثانية منهما والتي كتبتها في شباط من العام 2004 في الذكرى السنوية على الإحتلال، والموسومة:

أستأذيهُم المُحاولة؟

"ما زالت الحرب في العراق مُستعِرّة منذ سنة. وبإمكان الحكومة الأمريكية أن تدّعي ما تشاء بأنها لا ترغب سوى إنهائها. في الحقيقة: إنها لم تنتهِ، ولن تنتهِ إلا بعد أن يُدرِك الأمريكيون بأنهم لن يستطيعوا السيطرة علينا واغتصاب تقاليدنا عنوة ويضعون قدمهم على أرضنا متوقعين منا الإنحناء أمام أسلحتهم ونقودهم. لذا، فإن هذه الحرب ستدوم لفترة أطول من أن تعيش عيوني لرؤية إنتهائها. إنها حقيقة مؤلمة للغاية.

تُؤذينا أكثر حالة أطفال العراق، أولئك الذين فقدوا الفرصة لتحقيق حلمهم في الحياة وهم يخوضون الآن شعور من يُشهِر السلاح بوجه إنسان آخر. إنهم يقومون بذلك بعد أن أيقنوا بأن عليهم المقاومة ضدّ "مُحرريهم" الذين رُحِّب بهم بإلتباس في البداية ولكنهم أطالوا مُكوثهم حتى بان بوضوح بأن هدف قدومهم كان لغزو العراق وليس لتحريره.

لن ترضخ حضارتنا العريقة في القدَم لكي تُداس بسهولة من قبل من لا يُقدِّرون حتى معايير تُراثهم هم لحضارتهم الحديثة النشأة. أُريد أن أوضح بأن ليس كل الأمريكيين على هذه الشاكلة، إذ إن الكثير منهم يملكون ثقافة عالية وعقلانيين ويكنّون الحب العميق لتُراثهم.

بيدَ أنني أُدين، كمسيحية، التجاوزات المُبتذلة لبعض الأمريكيين في العراق، اللذين يُفترض بأنهم قدِموا لنشر الديمقراطية فيه، بإخراج القرآن الكريم عنوةً من

(32) مقالتان لنوفة خدّوري في 2003 و2004.

http://www.redress.btinternet.co.uk/nkhadduri.htm

حقائب السيدات ورميه على الأرض لإعتقادهم الخاطئ بأنه العائق لنشر ديمقراطيتهم في أرضنا. إنهم يشعرون بالحاجة إلى إرتجال تُراثنا العراقي الذي يمتد إلى 6000 سنة خلت والمُتجذّر في قلوب العراقيين. إلا أنّ ذلك سيتعذّر عليهم.

لا أستطيع أن أفهم خطة الحكومة الأمريكية لكسب ثقة الشعب العراقي عندما تترك آثارنا التي جُبلنا منها بأن "تُنقل" من أرضنا إلى بلاد أخرى بسبب عدم إكتراث الحكومة الأمريكية بحمايتها أو إنها تعتبرها "أكثر أماناً" في موقع آخر. ومن عديم الإحساس أيضاً عدم إدراك خطأ قيام الذكور من الجنود بلمس جسد إمرأة في الشارع بحجّة التفتيش عن السلاح.

وبالرغم من طول الطريق المطلوب لكسب ثقة الشعب العراقي، إلا أنه ليس بالعملية الصعبة جداً. هذا إقتراح أقدّمه للحكومة الأمريكية للنظر فيه: تقوم الحكومة الأمريكية الآن بإرسال نجوم الغناء الأمريكي لأداء حفلات موسيقية للترفيه عن الجنود الأمريكيين الذين يُعانون من العُزلة عن ديارهم. هل يؤذي توفير كلفة سفر وإقامة هؤلاء الفنانين وصرفها على طبع كُتيّبات توزّع على الجنود الأمريكيين توضّح لهم فيه ما هو مقبول وما هو مرفوض في المُجتمع العراقي؟

إذ يبدو بأن فترة بقاء مُعظم الجنود الأمريكيين ستطول أكثر بكثير من تلك المُخطط لها في العراق، ولن يفلحوا في إيقاف شعورهم بالعزلة والكآبة من خلال جَلْب قِطَعٍ صغيرة مُتناثرة من ثقافتهم إليهم. من الأجدر بالحكومة الأمريكية أن تجعل بقاء جنودها في العراق أهون شراً بإعطائهم بعض النصائح عن طريقة الإستحواذ على رضى العراقيين، والتي هي الضرورة الأساس إذا ما رغبوا في تعاون العراقيين معهم.

إذا كان بإمكان الحكومة الأمريكية فقط أن تستوعب الحقيقة بأنه سيستحيل عليها تحطيم ثقافة وتراث العراق ومُعتقدات العراقيين في طريقتهم في الحياة، فإنه سيكون أسهل لها العمل على إرساء الديمقراطية فيه. سيوفّر ذلك الكثير من الدماء العراقية والأمريكية. ألم تكن هذه غاية هذه الحرب؟ لوقف الإرهاب وسفك الدماء البريئة؟ أو هل كانت بسبب أسلحة الدمار الشامل؟ أو بسبب إرتباط العراق بتنظيم القاعدة؟ أم بسبب الإستحوذاء على نفط العراق؟ أو ربما... يبدو أنني ضيعّت سبب شنّ هذه الحرب، حالي حال العديد من شعوب العالم."

كان السبب الرئيس لإختيارنا الذهاب إلى كندا هو تقديرنا بتـوفّر أفضـل الفرص لتأمين التعليم العالي لأولادنا هناك إعتماداً على المستوى العلمي العالي للجامعات الكندية والمساعدات المالية التي تقدّمها الحكومة الكندية إلى طـلاب الدراسة الجامعية بالإضافة إلى مجانية المرحلة الثانويَّة، إذ كانت مواردنا المالية لا تسمح البتّة في تحقيق هذا الهدف، خِلافاً لذلك. إدراكاً مني لأهمية إجادة اللغة الإنكليزية كأحد متطلبات القبول الجامعي للطلبة الأجانب هو إجتيازهم إمتحـان اللغة الإنكليزية (TOEFL)، وعبر خبرتي الشخصية في أهميـة هـذا العامـل لتخطّي المرحلة الجامعية، كنّا قد خصصنا مُدرساً قديراً، الأستاذ لورانس، لتعليم يمامة وتمّام اللغة الإنكليزية، صيفاً وشتاءً، خلال الأربعة أعوام الأخيرة التـي عشناها في العراق. وأثناء مكوثنا في عمّان لفترة ستة أشهر، وبالرغم من تفوّق يمامة في تخرجّها من الثانوية وتأهيلها للدخول إلى الجامعة، نصحناها بالتسجيل في صفوف مُتقدمة لتعلّم اللغة الإنكليزية خلال تلك الفترة بدلاً مـن الإلتحـاق بجامعة أردنية. وحتى بعد وصولنا إلى كندا وتشوقّها للدخول رأساً إلى الجامعة، إلا أننا كبحنا رغبتها وأصرينا على أن تُعيد السنة الثانوية الأخيرة قبل دخـول الجامعة للتأقلم على طريقة التعليم الجديدة ولتتخطى العتبة الأخيرة من إجادتهـا اللغة الإنكليزية. أثمر هذا الإصرار بتفوّق يمامة في دراستها الجامعية وتخرّجها هذه السنة في هندسة البرامجيات مع مجموعة مُتبقية من عشرة طلبة بعـد أن دخل تلك الدورة خمسة وثمانون طالباً قبل أربعة سنوات.

نجح تمّام في الثانوية الكندية بعلامات جيدة، إلاّ أنه لم ينل معدّلاً مُماثلاً في إمتحان (TOEFL) ليسمح له بدخول الجامعة، وإن كان بإمكانه الإلتحاق بإحدى الكليّات. قررنا أن عليه إعادة الفصل الاخير مـن السـنة الثانويـة النهائيـة، بالإضافة إلى أخذ دورة مركزّة في تعلّم اللغة الإنكليزية في صيف ذلك العـام. وعندما إدّى الإمتحان مرة أُخرى عند إنتهاء تلك السنة، لم يفلح مرة ثانية فـي الحصول على الدرجة اللازمة لدخوله الجامعة. عندما راجعت نتائج إمتحانـه، لاحظت بأنه قد أفلح بتميّز في جزء الإنشاء منه، وهو أحد الحقول الخمسة التي يتألّف منها الإمتحان. كانت تلك معلومة كافية لي لأهمية هذه الفقرة في الدلالة

على إجادة اللغة. بكل ثقة طلبتُ منه أن يعيد الإمتحان بعد شهر واحد من أداء إمتحانه الاخير. وفعلاً، نجحت المحاولة وإجتاز إمتحان اللغة بدرجة عالية وهو الآن في المرحلة الجامعية الأخيرة في مجال علم الحاسوب. أقرضت الحكومة الكندية مشكورة تمّام ويمامة ما يكفيهما من المال لإكمال دراستهما الجامعية، لا سيما وإن الحكومة تعضد بدورها مُعظم كلفة الدراسة الجامعية.

ما أن بدأنا نشعر بالإستقرار بعد شهرين من وصولنا حتى هَممت بدراسة خارطة المنطقة التي نعيش فيها لا سيّما وإني لم أعِر هذا الموضوع أي إهتمام قبل ذلك لحَصر فكري طيلة الوقت قبله بمخاطر الهروب والحفاظ على كُتمان دربه. كنت وجِلاً من المجيء إلى كندا لقلّة معلوماتي عن الحياة الكندية، حيث إنتابني القلق من قُربها من الولايات المُتحدة الأمريكية وتحسُّبي من تلوثها الحضاري "بطريقة الحياة الأمريكية"، التي ضمرت المُقت لها، بحكم الجوار الذي يمتد على طول أكثر من ستة آلاف كيلومتر.

خلال السنوات الخمس الأخيرة، تحول التهيّب والتورّع الحذر إلى الإحترام والإعجاب العميقين بالحياة الكندية، والحبور بأني أصبحت عراقياً- كندياً.

لم أتخلَّ عن عادتي بمتابعة قراءة الصحف اليومية كما فعلت بشغف منذ عقود، وحصرتها في قرأة جريدة (تورنتو ستار) الليبرالية والتي أمست وسيلتي العملية للتواؤم مع المجتمع الكندي. مع مرور الوقت، إكتسبتُ هذه الجريدة ثقتي بطريقة عرضها المتوازنة للأحداث، والنوعيَّة والمِهنيَّة في تغطيتها للأخبار، ونضوج المستوى الصُحفي عند المُعلّقين فيها ومعايير رسائل قرائها المُنتقاة من قبل مُحرري الجريدة. لمست من خلال ذلك كلّه تواضع الكنديين بالرغم من تميزّهم الحضاري، مما يدلّ بدوره على متانة وقوة ورُقيّ مجتمعهم، وطريقة تفكيرهم بأنفسهم وبجيرانهم ومكانتهم في العالم حيث تحتل شجاعة الصراحة والنقد الذاتي من أولويات سِماتهم.

من مُميزات المجتمع الكندي البارزة للعيان إعطائهم الأولوية لما يطلقون عليه الفُسيفساء الحضاري "Cultural Mosaic" في إحترامهم لِتعدُد الحضارات وتقاليد الشعوب. ونظراً لقُدسية دستورهم المُقر عام 1867 وعدم رغبتهم في

تحوير نصّه، فقد أضافوا ورقة عليه في العام 1982 بما يُسمّى "الميثاق الكندي للحقوق والحريّات" يُكرّس فيه حقوق الأقليات في المجتمع الكندي، والتي تزدهر وتحسُ بها يومياً. وليس من باب المُبالغة القول إن كندا تجعلك تشعر وكأنها الدولة الأقرب لمثالية الأمم المُتحدة.

في أواخر عام 2002، وقبل الغزو الأمريكي للعراق، أُجريت لي مقابلة مع برنامج أمريكي إذاعي. في آخر المُقابلة سألتني المذيعة: "لقد درستَ وعشتَ لعدة سنوات في جامعات كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. كيف تشعر الآن وهاتان الدولتان تنويان شنَّ الحرب على العراق قريباً؟" كان جوابي الفوري: "أني أُقدِّرُ تواجدي في كندا". فُوجئتْ المذيعة بهذا الإنعطاف المفاجئ في الحوار، واستعادت المبادرة لتسألني: "وكيف ذلك؟" أجبت: "إن طريقة الحياة الأمريكية مُشتقّة من الدستور الأمريكي الذي يُقدّس ثلاثة أمور في شعاره: "الحياة، والحريَّة، والسعي نحو السعادة". بإعتقادي شخصياً أن هذا السعي للسعادة يتم الآن على حساب الآخرين. هنا في كندا، يحتضن الدستور أيضاً ثلاثة رموز كنواميس أساسية يسترشد بها الكنديون وهي: "السلام، والنظام، والحكومة الصالحة"". ساد الصمت برهة ثم تبعتها بكلمة "شكراً لك". تمَّت إذاعة النصف الساعة التي إستغرقتها تلك المقابلة، لكن بدون الحوار الأخير.

أدى نشوئي الأصيل في المجتمع العربي ومن ثَمَّ إحتكاكي العميق بالمجتمعات الغربية، الأمريكية والإنكليزية والفرنسية والكندية منها، إلى تعمّقي في فهم التمييز ما بينها والإختلاف الجذري، بكل ما تعنيه من دلالات، بين "المُجتمع العائلي" في بلادنا العربية و"المُجتمع المدني" الغربي، وسيكون هذا الأمر موضوع كتابي الثاني، إن سنحت لي الفرصة بتحقيق ذلك.

بعد وصولنا إلى كندا بشهور قلائل، زارنا في بيتنا إثنان من العاملين في خدمة المخابرات الكندية. رحبنا بهما بلطف ودعوناهما إلى تناول القهوة. علّمتني تجاربي السابقة ان أظلَّ بعيداً عن مثل هذه العلاقات، حيث نشأت لديَّ حساسية وريب من أجهزة المخابرات. كانوا على معرفة تامة بخلفيَّة حياتي. كان الغرض من زيارتهم لتنبيهي عن قيام أحّد العراقيين بمراقبتي وربما بريدي

الإلكتروني أيضاً وكان يبعث بتقاريره إلى أحد الموظفين في السفارة العراقية في العاصمة أوتاوا. قدموا لي المعلومات التفصيلية عن هذا التحرّك وطمأنونني بأني في ظلّ حمايتهم ونصحوني بالحيطة والحفاظ على إنزوائي قدر الإمكان. أبلغت المبعوثين ان هذا هو بالضبط منهاج تحركاتي، ثُمَّ تشجَّعت وأعطيتهما سيرتي الذاتية لعلهما يُساعداني في الحصول على عمل في لجنة الطاقة الذريّة الكنديّة، لكن لم يتحقق ذلك. من هاتف عمومي إتصلت بالرقم الذي حصلت عليه من مبعوثي المخابرات الكندية، وسألت عن الشخص الموكّل بمراقبتي. بعد تبادل التحيات المألوفة، طلبت منه تبليغ تحيتي بالإسم لموظف المُخابرات في السفارة العراقية ومنها أكّد لي علاقته به. دون أن أُبيّنَ له عن هويتي، ودون أي غموض في لهجتي، حذّرته بعواقب شنيعة إذا ما إستمرَّ في مراقبة تحركاتي وإرسال التقاريرعني، وأغلقت سماعة الهاتف بدون أن أُجيبه عن إستفساره عن إسمي وأنا اتوعده بالسوء إذا ما تابع هذا العمل لأني أعرف عنوانه. أعتقد انه توقَّفَ عن التجسس عليَّ، وربُما على عدد آخر من العراقيين.

بقيتُ مُنزوياً ساتراً ماضي حياتي لمُدة ثلاث أعوام ونصف.

الظهور في العَلن

في أواخر شهر آب من عام 2002، إستمعت إلى الرئيس بوش وهو يعلن على الملأ ولأول مرة عن توعّده بشن حرب ضد العراق لأسباب مُحمَّلةً بالتضليل المُتعمّد والمعلومات المغلوطة. إدَّعى بوش في كلامه أن العراق ما زال نشطاً في إحياء برنامجه للحصول على السلاح النووي، وأوضح أن الحرب ضد العراق قد تنشب بسبب حيازته، حسب إدعائه، على أسلحة الدمار الشامل، وبضمنها الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية. نظرتُ في عيني نيران وأعلنت لها: "هذه هي نهاية إنزوائي".

في تلك الليلة، وخلال ساعتين كتبت أولى مقالاتي "**عدم تملّك العراق للقُدرة النوويّة**". شملت فقرتا المقال الأولى والأخيرة منه، على تلخيص لأكثر مجريات أحداث العام التالي، وعلى الأرجح لوقت أطول.

أشارت الفقرة الأولى بتشاؤم مُنذِرٍ إلى "إن عاصفة الحرب التي تُثير أجوائها كلّ من الحكومتين الأمريكية والبريطانية ضد العراق، وخصوصاً فيما يتعلق بتملّك العراق لقُدرات سلاح نووي، تبعث على التشكيك الجدّي حول مصداقية مصادر مُخابَراتهم بالإضافة إلى ضحالة تحليلاتهم الرَثّة التي تفتقر إلى التفسير العلمي الرصين لما يجمعونه من معلومات. وبما أنهم يتذرعون بشحة المعلومات من مصادر من داخل العراق، لذا ربما لم يتأخر الوقت لتصحيح هذه الحملة التضليلية".

توقعت الفقرة الأخيرة بألمٍ أنّ "بوش وبلير يجُرّان شعبيهما إلى الحرب من الأنف، ويُغلّفان إلحاح وطنيتهما الجوفاء بتقارير مُخابراتهم المغلوطة. إلا أن الإمبراطورين يمشيان في العرض دون ملابس"، وفي ذلك إشارة إلى الحكاية عن الإمبراطور الذي أوهمه خياطه بأنه قد حاك له حُلّة مصنوعة من خيط ذهب خاص واهي وألبسه إياه ليستعرضه أمام شعبه، ليكشف طفل ببرائته عن عورة الإمبراطور.

أشار المقال أولاً إلى الوضوح الساطع لإفتقار أجهزة المُخابرات الأمريكية لمعلومات موثوقة عن قُدرات العراق النوويّة التي كانت في ذروة نشاطها لأكثر من عشر سنوات خلال حقبة الثمانينات. وقد بات ذلك جليّاً من فشل الغارات الأمريكية أثناء حرب 1991 في إستهداف كافة المنشآت العديدة المُكرّسة لهذا البرنامج، بالرغم من ضخامتها، وإفلات البعض المُهم منها من الدمار.

ثُم قارن المقال بين ضحالة تلك المعلومات المُخابراتية مع إنعدام البصيرة عند أجهزة التحليل لديهم في الإستدلال بحقيقة ما حصل للعناصر الأساسية الضرورية لاعادة إحياء أي برنامج للسلاح النووي، إذ فشلت في إستيعاب الصورة البائسة التي وصل إليها الكادر العلمي النوويّ في العراق والوضع المعاشي المُزري للعديد من العلماء والمهندسين الذين كانوا يبحثون عن فرص لائقة للعمل خلال التسعينات، بالإضافة إلى إندثار الإدارات القيادية والإدارية للبرنامج، وتداعيات الغارات الأمريكية وتدمير مفتشي الأمم المتحدة للبُنية التحتية بالكامل لبرنامجنا التسليحي الذي لم يبقَ منه سوى حطام تلك المُنشَآت والتقارير المحفوظة والذكريات.

أرسلت المقال للنشر إلى عدد من الصحف المرموقة مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست الأمريكيتين والإندبندنت والغارديان والتايمز الإنكليزيتين. من باب التنويه بمصداقية خلفيتي العلميَّة، أشرتِ في طلبي لنشر المقالة إلى إمكانية قيام الصحيفة بالاتصال مع أساتذتي في جامعة برمنجهام (ديريك بينون ومالكوم سكوت) واللذين ما زالا في مركزيهما التعليمي في الجامعة. لم أتلقَ رداً من أي منهم طيلة شهرين من الزمن رغم العديد من رسائل التذكير والإلحاح بواسطة البريد الإلكتروني، بل لم يتكرَّم أي منهم حتى بالاتصال بأساتذتيّ للتأكد من هويتي. وبعد يأسي من إستلام أي ردٍ منهم، بعثت بالمقال إلى صحيفة (تورنتو ستار) الكندية في نهاية تشرين الأول من عام 2002. كنت قد بعثته أولاً إلى أحد المعلّقين السياسيين المرموقين عندهم ممن أستحسن كتاباته، إنما يبدو أن رسالتي ضاعت في زحمة ما يتلَّقاه من بريد يومي. أعدت الكرّة ولكن إلى رئيس التحرير في صحيفة التورنتو ستار هذه المرّة، الذي بعثه بدوره إلى (بيل شيلر)، رئيس المحلّلين السياسيين في الجريدة. جذب المقال إهتمام بيل شيلر على الفور وتلقيت جواباً هاتفياً منه يطلب إجراء مقابلة صحفية لتُرافق المقال. جاءني (كيفن دونوفان) مُراسل الصحيفة على عجل وقابلني في حدائق كلية (سينيكا)، حيث أُحاضر فيها في موضوع الشبكات الحاسوبية، وأجريت مقابلة معه إستغرقت حوالى الساعتين ليتبيّن مدى مصداقيتي، ووعدني المحرر بنشر المقالة خلال يومين. عدت إلى منزلي لأجد ما يدلّ على إقتحام الشبكة الحاسوبية المُصغَّرة التي تعتمد عائلتي عليها للاتصال بالإنترنت وزرع بعض البرامجيات على حاسوبي الشخصي التي تُمكّن مَن دسّها التنصّت والتلصص على محتويات حواسيبنا. إتصلت فوراً بالمحرر وطلبت منه التريّث وعدم نشر أي خبرٍ عني ريثما أستعيد أمن الشبكة وقلع المزروع فيها. بعد عدة محاولات عقيمة لإستئصال ما غرسوا من برامجيات مدسوسة للتنصُّت والتجّسس، إضطررت إلى أن أمسح كافة محتويات القرص الصلد (الصلب) في حاسوبي الشخصي وأُعيد نصب الشبكة من جديد مع حواجز وقائية منيعة. إستغرق مني الأمر شهرين لأستعيد عافية شبكتي وبناء ممر آمن إلى شبكة الإنترنت العامة.

في ذات الوقت، اقترح عليَّ المرحوم صباح الروماني، الصديق الكريم، العراقي الصبا، السوريّ المقام، ان أُفكِّر بنشر المقال في موقع (www.yellowtimes.org)، وهو موقع صحفي مستقلٌ على الإنترنت للأخبار يهدف إلى تزويد قرائه "بوجهات نظر غير مألوفة ليتابعوا من خلالها الأحداث، وتُشجِّع القارئ على إعتماد تفكير جديد عن مُسببات وآثار تلك الأحداث". إستهوتني منصَّة هذا الموقع، وخاصة مواقف المقالات المنشورة فيه والمُدافعة عن القضية الفلسطينية، وبعثت اليهم مقالتي الراكِدة. بعد أسبوعين من الإنتظار تحَّريت عن سبب التأخير في نشرها وتبيَّنَ بأن المقالة قد إستقرّت على منضدة رئيس تحرير الموقع (أيريك ماركواردت) وقد أُهملت في إحدى زواياها. أرسلت له رسالة إلكترونية مُفحمة أفلحت في قدح الشرارة التي أوجبت نشرها في الواحد والعشرين من تشرين الثاني من عام 2002، ثُمَّ أتبعتها بتسعة مقالات أخرى[33] مع تسارع الأحداث التي أدَّت إلى إحتلال العراق وما هو أبعد منه، كما وجَذبت مقالاتي الضيق والعداء إلى الموقع (yellowtimes.org) تسبب في إغلاقه عدة مرات خلال تلك الفترة.

إلا أن حجم البريد الإلكتروني الذي إنهمر على الموقع جراء نشر المقالة الأولى كان مثيراً. وبكل إمتنان، لم يحمل أي منها في ذلك الحين أي لهجة وقحة أو مشينة، لربما بسبب وعي ونوعية قُرّاء ذلك الموقع. بعد أيام قلائل، ومُتشجّعاً بزخم الصدى الجيّد الذي لاقاه المقال الأول، إتصل بي (أيريك) طالباً مني تحضير مقال ثانٍ. رددت عليه بالقول إن المقال الأول الذي نُشر لتوه قد غطّى خبرة ثلاثين عاماً من عملي في لجنة الطاقة الذريّة العراقيّة، وأنه ليس

(33) يُمكن الإطلاع على كافة المقالات التي نشرتها بالإنكليزية حول هذا الموضوع في موقع هذا الكتاب على الإنترنت www.iraqsnuclearmirage.com، وسأتبعها بصفحة اللغة العربية عن هذا الكتاب، أو عند إجراء تفتيش (Search) في موقع www.yellowtimes.org عن كلمة Khadduri والتي تُعطي قائمة بالمقالات التسعة التي نشرتها على ذلك الموقع بالإضافة إلى ترجمة بعضها إلى لغات أخرى. كما ويُمكن الإطلاع على كافة المقالات مُدرجة في صفحة واحدة في أي من الموقعين التاليين:

www.reality-syndicate.com/syndicatepress/khadduri.htm

www.redress.btinternet.co.uk/ikhadduri.htm

من السهل عليّ كتابة مقال آخر تعقيباً عليه. إلا أنه تمسك بمقترحه وبإلحاح شديد. تذكرت آنذاك بأني كنت قد كتبت مراجعة نقدية حادة قبل أكثر من سنة ونصف خلت لكتاب"صانع قنبلة صدام" من إعداد خضر حمزة وبتعاونه مع جيف ستاين، مسؤول سابق في المُخابرات العسكرية الأمريكية، والصادر في عام 2000 والذي ضخّم فيه بشكل سافرٍ من دوره في برنامج السلاح النووي العراقي وفي تأجيج حملة الإدعاءات حول إعادة تفعيله وأحجم عن ذكر السبب الحقيقي في إبعاده عن البرنامج في العام 1987.

أرسلت المقالة في حينها إلى سعد البزاز، رئيس تحرير جريدة الزمان الإلكترونية الصادرة في لندن، لنشرها تحت عنوان "صانع القُنبلة أم خادم (السي أي أي)؟"، وفيها تورية على كلمتي (الصانع) و(الخادم) باللهجة العراقية، إلا أنه إرتأى نشرها في 19 شباط من العام 2001 تحت عنوان "حول كتاب خضر حمزة عن البرنامج النووي العراقي: هل هو صانع القنبلة.. حقاً؟" لكاتب بإسم مُستعار، سليم جعفر العامري. وقد لخّصت ذلك المقال بالإنكليزية فيما بعد. تطوع (أيريك) في مُراجعة الترجمة المختصرة وصرف بعض الجهد في تنقيحها وإعادتها لي. بما أن الأصل كان بالعربية، واللغة العربية لغة غنيَّة مُعبِّرة، لم يُعطِ التلخيص لها بالإنكليزية المفعول الذي أبتغيه. وحتى لا تفقد المقالة شيئاً من قوّتها، كتبت إليه بالبريد الإلكتروني بأني سأقوم بترجمة كامل المقالة من العربية. سمح لي بساعتين فقط قبل أن يُصدرَ الصفحة الجديدة على موقعه. وصلته المقالة المُترجمة في الوقت المحدد، ونُشرت مقالة "**صانع قنبلة صدام مليءٌ بالأكاذيب**" في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام 2002.

تتطرق المقالة إلى بعض الأحداث المُشتركة التي إحتككت بها مع خضر حمزة خلال عقدين من الزمن أثناء عملنا في مركز البحوث النووية في التويثة والتي دلّت على ضعف وإهتزاز شخصيته. إن أسلوبه في التباهي والتبجّح والحذر في آن واحد، جعله قريباً من وسط البرنامج النوويّ العراقي، وإنما لم يلعب أي دورٍ بارزٍ أو قياديٍ فيه. كما أنَّ جموحه إلى الشهرة إنطفأ بسرعة بعد أن قام في العام 1987 برفع تقرير إلى صدام حسين يُوشي فيه بأن برنامج

السلاح النووي، وقد بلغ العام السادس من عمره تحت إشراف جعفر ضياء جعفر، قد أمسى مُتعثرًا. أدّى ذلك إلى تغيير شامل في أسلوب العمل في البرنامج، وكما تم التطرّق إليه في الفصل الخامس من الكتاب، وتسليم حمزة دوراً قيادياً إذ بات رئيساً لفريق تصميم القنبلة النووية. لم تدم له هذه المسؤولية إلاّ شهوراً قليلة بسبب إرتكابه جنحة سرقة لأجهزة تبريد ونُحيَّ جانباً، ولم يشارك في نشاطات برنامج التسلح النووي المُتسرِّع الذي شمل حوالى 7000 من العلماء والمهندسين والعاملين خلال السنوات الثلاث التي سبقت حرب عام 1991.

هرب حمزة من العراق في العام 1994 لوحده تاركاً عائلته خلفه وحاول عبثاً الإلتجاء إلى المخابرات المركزية الأمريكية من خلال العلاقات الوثيقة لقياديّ جبهتي "المعارضة العراقية" المقيمتين في لندن، أحمد الجلبي وأياد علاوي، مع أجهزة المُخابرات الأمريكية والإنكليزية. لم يلقَ إدعاؤه بأنه "صانع قنبلة صدام" الكثير من التجاوب من لدن وكالات المخابرات الأمريكية والبريطانية بسبب إطلاعهم على تفاصيل نشاطات برنامج السلاح النوويّ العراقي، والتي أضحت معروفة لهم من خلال فعاليات فُرق تفتيش الأمم المُتحدة بعد حرب عام 1991، وتبيان ضآلة دوره في ذلك البرنامج. يأس حمزة من اللجوء إلى أجهزة المُخابرات وذهب للتدريس في جامعة ليبية حيث كانت تتابع تحركاته هناك السيدة فوزية، الفلسطينية الأصل وعميلة المخابرات الأمريكية.

على أثر ظهور إسمه في عدد من الصحف الإنكليزية في العام 1995 والتي يدّعي فيها تفعيل العراق لبرنامج تسليحه النووي بعد حرب عام 1991، وتشكيك الوكالة الدولية للطاقة الذرية لمصداقية تلك الوثائق[34] (والتي طُمِست نتائج تحقيقها في حينه)، بعث صدام إليه بابنه لعله يقنعه بالعودة إلى العراق. رفض رجاء إبنه

(34) "مُطوّع لحرارة معركة العراق: أرسل البنتاغون "مزوّر الوثائق" إلى العراق"، سولومان هيوز، صحيفة التريبيون، 19 حزيران 2003.

globalresearch.ca/articles/HUG306A.htm

"Forged for heat of Iraq battle: Pentagon sent the man at the heart of a 'fake documents' scandal to Iraq", by Solomon Hughes The Tribune, 19 June 2003.

رغم ما ينطوي على ذلك من مخاطر شديدة على أسرته التي تركها خلفه في العراق وعاد إبنه كسير القلب إلى بغداد. توجه إلى رومانيا يبحث من جديد عن ملجأ له وطرق باب وكالة الطاقة الذرية الدولية وأجهزة المُخابرات الأمريكية والإنكليزية، ولكن بدون جدوى. وكما يرسم القدر، تواءمت خطوته اليائسة مع هروب حسين كامل إلى الأردن في صيف 1995 حيث كشف عن إخفاء بعض وثائق برامج الأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية العائدة لفترة الثمانينات في حقل دواجن مزرعته قرب بغداد. على إثرها، سحبته المخابرات المركزية الأمريكية إلى جانبها، ودون جهد أو غسل للدماغ، حولّته إلى مُرواغ مُتمرّس.

في أوائل عام 1995، هرع إلى بغداد فريق من مُفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وبأيديهم تقرير من حوالى عشرين صفحة صادر على ما يبدو منه عن مشروع PC3 في أوائل عام 1993 موثّق فيه نتائج أبحاث ومراسلات لفُرَق من المجموعة الرابعة، التي كانت مناطة إليها مسؤولية تصميم وتصنيع القنبلة النووية، والتي توحي بمُتابعة العراق نشاطاته بالخفية في هذا المجال خلال عامين بعد إنتهاء الحرب. ونظراً لمسؤوليتي السابقة في توثيق كافة تقارير المشروع، طُلب مني، وفريق عمل في المشروع، البتّ في أمره. للوهلة الأولى، دُهِشنا للدقة المتناهية في تزوير ترقيم التقرير والأختام المُستخدمة وسياق كتابة التقرير والتي توحي كُلّها لقارئ التقرير عن أن التقرير صادر فعلاً من فعالية التوثيق (3و) في مشروع PC3. إلا إننا سرعان ما إنتبهنا إلى إستخدام مُصطلحات إيرانية، بدلاً من العربية، لبعض الكلمات التقنية الواردة في التقرير، وعلى سبيل المثال أُستخدم مُصطلح (القُبَة) بدلاً من مُصطلح (نصف الكُرة) المُعتمد في أدبياتنا على جُزئي قلب القنبلة. جلب عبد الحليم الحجّاج قاموساً إيرانياً-عربياً وبرهَن لمُفتشي الوكالة على أصول تلك الكلمات. حمل المفتشون التقرير معهم وأُغلق الموضوع. أكدّت الوكالة الدولية للطاقة الذرية مؤخراً[35]

(35) "الطريق إلى طهران"، أندرو كوكبرن، صحيفة الغارديان، 26 مايس 2004.
"The trail to Tehran", by Andrew Cockburn, The Guardian May 26, 2004.
www.guardian.co.uk/Iraq/Story/0,2763,1224824,00.html

بأن مصدر ذلك التقرير لم يكن سوى خضر حمـزة. كما وأكـدّت الأخبـار والأحداث مؤخراً عن تواطىء أحمد الجلبي مع جهاز المُخابرات الإيرانية لفترة تمتد إلى تلك الحقبة من الزمن. وتُشير المقالة في المصدر 35 في الصفحة 255 إلى احتمال تواطؤ خضر حمزة مع أحمد الجلبي في تلك الخُدعة الباطلة غيـر المُشرِّفة. ولأحمد الجلبي دور مكثّف في تأجيج الإعلام المُلفّق حول إعادة تفعيل برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية بسبب علاقاته الوطيدة مع أبرز المُحافظين الجُدد الذين قادوا الحملة الإعلامية لإحتلال العراق مثل ولفوفتز وتشيني وبيرل، حيث تم تسريب هذه الإفتراءات إعلامياً ولفترة ما يقارب العشر سنوات وبشكل خاص عبر (جوديث ميلر) الصحفية في جريدة النيويورك تايمز والتي ذهبـت بنفسها إلى العراق بعد غزو العراق لمد يد العون والإرشاد لقوات الإحتلال في حمى العثور على أي دليل مادي للأسلحة المذكورة في مقالاتها العديدة، بـدون جدوى[36].

أعرب حسين كامل بدوره عن إستخفافه بمصداقية خضر حمـزة. فأثنـاء تصريحاته إلى (زيفيريرو)، رئيس فريق مفتشي الوكالـة (UNISCOM/IAEA) في عمّان[37]، قدَّم حسين كامل الإنطباع الآتي عن نزاهة خضر حمزة:

" البروفسور زيفيريرو – لخضر حمزة علاقة بهذه الوثيقة.

(ملاحظة: من الأرجح أن تكون ورقتين من تلك التقارير المُلفّقة المنشورة في الصحف الإنكليزية)

اللواء حسين كامل – كنا ندعوا هذا الشخص بإسم حـازم. إنّـه أسـمر

---

(36) "حرب جودي ميلر"، أندرو كوكبرن، 18 آب 2003.

"Judy Miller's War", By Alexander Cockburn, August 18, 2003

www.counterpunch.org/cockburn08182003.html

"كيدُ بنات الإمبراطورية الأنغلوأميركية للعراقيين"، محمد عارف، جريدة الإتحاد 29 تموز 2004.

www.wajhat.com/details.asp?id=6033&journal=07/29/04

(37) أونسكوم/الوكالة الدولية للطاقة الذرية، حسّاسة، ملاحظة للملف، 1995.

UNSCOM/IAEA Sensitive, Note for the File, 1995.

casi.org.uk/info/unscom950822.pdf

وأضخم مني حجماً. إنَّه كذَّاب مُحترف. كان قد إشتغل معنا ولكنه كان عـديم الفائدة ويطلب دوماً الترقيات الوظيفية لنفسه. كان مُستشاراً لي، لكنه لم يستطع أن يُقدّم لنا شيئاً. نعم، إسمه الأصلي خضر، لكننا أطلقنا عليه إسم حازم. إلتحق بجامعة بغداد، ثمَّ غادر العراق. وحتى تمَّ إستجوابه من قبل فريق قبل مغادرته، وسُمِح له بالرحيل بعدها."

بدأ نجمه كمحاضرٍ في البروز على منصّات المؤسسات الأمريكية اليمينية، وعلى سبيل المثال، محاضرته في مؤسسة Carnegie Endowment Institute[38] في نهاية عام 2000 حيث إدعى في حينها باطلاً بأنه كان مُساهماً، بعد حـرب عام 1991 ولحين هروبه في العام 1994 (علماً بأنه كان محاضراً في كلية أهلية في بغداد طيلة تلك الفترة)، في تطوير منظومة التغنية الغازية وبعيداً عن أنظار مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية، كما وحذّر المُستمعين من أن العراق مـا زال مُستمرّاً على العمل في هذا المجال ومن الممكن أن يحصل، خلال سـنتين أو ثلاث سنوات، على نواة القنبلة النووية. وعندما سُئل عن مقترحـه لوقـف البرنامج النووي العراقي، ركّز حلّه على قيام الإدارة الأمريكية بقلـع العلمـاء والمهندسين العراقيين من العراق إذ إنهم بصدد إعادة بناء المُنْشَـآت النوويـة وتشغيل منظوماتها. وختم محاضرته بإمكانية تمكّن حصول العراق حينئذ (عام 2000) على السلاح البيولوجي أيضاً.

ثم صعّد حمزة من تهويلاته في مقابلات عديـدة[39] باسـطاً ومُضـخّماً الأطروحات الأمريكية حول علاقة العراق مع القاعدة وبن لادن وإمكانية توفير العراق للمواد الجرثومية التي نُشرت في أمريكا عقب أيلول عـام 2001، كمـا وردد مجمل إفتراءاته تلك على لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأمريكي

(38) مُحاضرة لخضر حمزة في معهد كارناجي في تشرين الثاني 2000.

Presentation by Khidir Hamza, Carnegie Endowment, 2 November 2000.

www.ceip.org/files/projects/npp/resources/hamzatranscript.htm

(39) مراجع عديدة لإفتراءات خضر حمزة وعلاقة ذلك مع أحمد الجلبي.

www.pbs.org/search/search_results.html?q=khidir+hamza&btnG.x=8&btnG.y=6

عام 2002 والذي كان بصدد إتخاذ قرار تخويل الرئيس بوش بإحتلال العراق.

في شهر آب من عام 2002، ردّد خضر حمزة في مُقابلة إذاعيـة[40] مـا قدَّرته المخابرات الأمريكية: "لا أظن أنه [صدام] يملك حالياً [سـلاحاً نوويـاً]، ولكن لا أعتقد انه سيمضي وقت طويل قبل أن يحصل عليه – خـلال سـنة، وربما سنتان. تُقدّر المُخابرات الألمانية أنه بحلول عام 2005 سيكون عند صدام ثلاثة رووس نووية". شاهدت خضر حمزة يُعيد بكل صفاقة إدعاءه هـذا قبـل أسبوع واحد من غزو العراق في آذار 2003، في برنامج الـ CNN's-Crossfire التلفزيوني الأمريكي حين ألح المُراسل على أن يجيب خضر حمزة على سؤال محدد: "ما برح لك ولعدة سنوات خلت الإدعاء بأن العراق على وشك إمـتلاك السلاح النووي خلال بضع سنوات. هل يمتلك العراق السلاح النـووي الآن أم لا؟" أضطر حمزة للجواب بالنفي ولكنه سارع وإستدرك وتوعّـد: "هـل انـت مستعد أن تنتظر سنتين للتأكد من أن العراق لن يمتلك السلاح حينئذ؟" بمعنى انه بمقدور العراق امتلاك السلاح النووي خلال سنتين فقط.

جاء في أحد التقارير أن مساعد وزير الدفاع (بول ولفويتز) رأس حربـة المُحافظون الجُدد هو الذي إختار حمزة شخصياً ضمن فريق إعادة بناء العراق. كان خضر أحد (العراقيين) الذين أُختيروا ليرشدوا مكتـب (إعـادة الإعمـار والمساعدات الإنسانية) الفاشل والذي أُعيدت تسميته (سـلطة الائـتلاف المؤقتـة) برئاسة (بول بريمر) بعد طرد (جاي جارنر) السريع. عندما سُئل متحدث البنتاغون (دانييل هتلاج) إذا كان من المُلائم إرسال حمزة إلى العراق بعد إكتشاف مشـاركته في تزوير الوثائق عن السلاح النووي العراقي، أبدى ثِقته في قُدراتـه وأضـاف: "أُختير الدكتور حمزة ليكون عضواً في فريق شـركاء التحـالف الأمـريكيين والعراقيين، وقد جاء بناءً على خبرته الواسعة في إدارة الحقل النووي".

(40) "صانع قنبلة صدّام: ما زال العراق يعمل على إنتاج قنبلة نووية بحجم تلك التي أُلقيت علـى مدينة هيروشيما"، 16 آب 2002.

"Saddam's Bomb Maker: Iraq Working on 'Hiroshima Size' Nuke", August 16, 2002.

virus.lucifer.com/virus/2034.html

رجع خضر حمزة إلى العراق في نيسان 2003 خلف دبابة أمريكية ومن أولى مهامه في بغداد كان تفتيت ما تبقّى من منظمة الطاقة الذرية العراقية ومن ثمّ إلغائها (رسمياً) في منتصف شهر آب من العام 2003 بمساعدة ربيبه الفيزيائي خليل الشكرجي، زميلي في الثانوية والمُلقّب بأبي سيفين لِحدّة لسانه في قطع أصدقائه وأعدائه.

على عكس جهاره المتواصل طيلة السنوات السابقة، إلتزم خضر حمزة الصمت المُطبق أزاء إدعاءاته المُلفّقة المُتواصلة حول السلاح النووي العراقي ورفض الإدلاء بأي تصريحات صحفية عنها[41] حتى بعد رجوعه المُتخاذل إلى الولايات المُتحدة الأمريكية في حزيران من العام 2004 بعد إنتهاء فترة عقده مع (سلطة الائتلاف المؤقتة) وقبضه لمئات الآف الدولارات لقاء خدماته الخسيسة.

عودة إلى بدء ظهوري الشبه علني في أواخر عام 2002، وأنا ما زلت مُنهمِكاً وقلقاً في آن واحد على أمن شبكتي الحاسوبية المنزلية عندما وصلتني رسالة إلكترونية في شهر كانون أول من عام 2002 من مُفتّش يعمل في قيادة (فريق عمل العراق) التابع للوكالة الدولية للطاقة الذرية التي كانت تُمشّطُ أراضي العراق بحثاً عن تفعيل العراق لبرنامجه التسليحي النووي في خريف عام 2002.

قرأ هذا الخبير مقالتيَّ الاثنتين عن "عدم إمتلاك العراق للقُدرة النوويّة" وعن خضر حمزة، وأعرب عن إعتقاده الشخصي بصحّة ما تضمنته مقالتيَّ من حقائق وإستنتاجات. تمكنّا من التوصّل إلى وئام وإنسجام سريعين. سألني عن موقفي من قبول إجراء مقابلة مع مفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا، النمسا ضمن مهامهم في التحقيق مع العلماء العراقيين الذين ساهموا في برنامج السلاح النووي العراقي وبالتالي مع لجنة (UNMOVIC) التي أوكلت من

(41) "ما زالت الولايات المُتحدة الأمريكية تحتجز ثمانية عُلماء عراقيين"، دافني لينزر، صحيفة الغارديان، 9 كانون الأول 2003.

"U.S. Still Holds 8 Iraqi Scientists", by Dafna Linzer, The Guardian, December 9, 2003.

www.guardian.co.uk/worldlatest/story/0,1280,-3481758,00.html

قبل مجلس الأمن بالتفتيش عن كافة نشاطات أسلحة الدمار الشامل العراقية. وافقت على مُقترحه بشرط أن تتمَّ المقابلة في تورنتو، لأني لم أكن بعد مطمئناً على سلامتي خارج كندا. بذل الخبير جهداً كبيراً في ترتيب ذلك اللقاء المُرتقب.

في هذه الأثناء، إتصلت بي الصحافية الأمريكية الأصل (ميشيل جانسن) وزميلة أخي وليد المُقيم في قبرص، وأقنعتني بأسلوبها اللبق في إجراء مُقابلات صحفية عبر البريد الإلكتروني لتعميم آرائي وتحليلاتي حول حملة التضليل المُتسارعة الخطى التي تشُنّها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. قامت (ميشيل) بنشر العديد من المقالات الصحفية مُرددة تفنيدي وتحليلاتي لحملة التضليل خلال شهري كانون الاول من عام 2002 وأوائل كانون الثاني من عام 2003 في صحف مختلفة في إيرلندا، وبريطانيا، والأردن، ومصر، والهند. شعرت بالرضى لإستطاعتي نشر آرائي من خلال قلم ميشيل وأنا في عُزلتي الكندية تحت مظلة الآمان فيها.

مع نهاية شهر كانون الثاني من العام 2003، تزاحم حدثان في دفعي للخروج كُليّة من شُبه عُزلتي والجهار العلني بموقفي. ما أثار حنقي أولاً الطريقة الفجّة التي إقتحم بها فريق الـ (UNMOVIC) الملغوم بعُملاء المُخابرات الأمريكية حرمة منزل فالح حمزة، خبير اللِّيزر الذي لم يكن له ضلع في برنامج السلاح النوويّ العراقي، وبثّ التصوير العلني لخصوصيات منزله وغرفة نومه. برروا غارتهم تلك بإدعاء عثورهم على وثائق في منزله تُشير إلى تورّط العراق في برنامج خفيٍّ لتغنية اليورانيوم بإستخدام الليزر. لقد قام فالح فعلاً بإجراء بعض الأبحاث في هذا المجال في عقد الثمانينات، إلا أنها لم تؤدِ إلى نتائج واعدة وتوقفت أبحاثه على إستخدام هذه الطريقة في التغنية كُلياً في العام 1987. كُنّا نحن، أعضاء الفريق النوويّ العراقي المُكلّف بإعداد التقرير النهائي والشامل لتاريخ كامل البرنامج النووي العراقي والذي قُدم إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية في شهر تشرين الأول من العام 1997، قد أشرنا إلى هذه الأبحاث في متن التقرير وذكر توقّفها قبل عقد من الزمن. لم تكن الوثائق والتقارير في بيت حمزة بالسريّة ولم يكن لها علاقة بمشروع PC3 أو برنامج السلاح النوويّ العراقي.

ارتبط الحدث الثاني مع معلومات تلقّيتُها من طرف كلٍ من الصحفية ميشيل وزميلي في الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ففي شهر كانون الثاني من العام 2003، كانت ميشيل مُرابطة في عمَّان، تحاول جاهدة دخول العراق وهي تنتظر تأشيرة الدخول التي تمنحها السفارة العراقية في عمّان. لمَّا أخبرتني ميشيل خبر قُرب مرور الصحّاف بعمَّان وهو في طريقه إلى أحد المؤتمرات، طلبت منها أن تحاول فقط إيصال رسالتي الإلكترونية تلك إليه. نجحت في مسعاها عندما أعطت الرسالة إلى زميل صحفي لها كان على موعد لمُقابلة الصحّاف وسلّم الرسالة مع تحية شفوية مني له. كانت تلك البادرة كافية في حصول ميشيل على تأشيرتها في اليوم التالي. أعربت ميشيل عن إمتنانها، وأرسلت لي من بغداد قائمة بحوالى ثلاثمائة موقع قام بزيارتها فرق تفتيش (UNMOVIC) والوكالة الدولية للطاقة الذرية خلال الأشهر المُنصرمة الماضية. بعثتُ بقائمة تلك المواقع إلى زميلي في الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فييناً للتعليق عليها. ترك زميلي القائمة جانباً وأفشى لي عن حقيقة مُدهشة قبل يوم واحد من تقديم (بليكس)، رئيس (UNMOVIC)، لتقريره إلى مجلس الأمن في نهاية شهر كانون الثاني من عام 2003. أزاء إلحاح (بليكس) المتواصل وإصراره على المُخابرات الأمريكية والبريطانية بتزويد فرق التفتيش الموجودة على أرض الواقع في العراق بالمواقع المُشتبه بها، فإنهم قد استلموا منهم في مُنتصف شهر كانون الأول من العام 2002 قائمة بخمسة وعشرين موقعاً، وقد أُحيط أحدّها بالسريَّة والكُتمان المُتناهي. زار المفتّشون جميع تلك المواقع خلال شهر كانون الثاني من العام 2003، ولم يجدوا أي دليل على إعادة إحياء برنامج السلاح النووي قطعياً، مما دعا البعض منهم إلى تعبير قيمة المعلومات التي تُزودّهم بها المُخابرات الأمريكية بأنها "كالقُمامة بعد القُمامة بعد القُمامة".

وبالرغم من هذه الحقائق الدامغة، لم يتعرّض (بليكس) في تقريره إلى مجلس الأمن في 27 كانون الثاني 2003 إلى قائمة المواقع الخمسة والعشرين الخالية من أي أثر لأسلحة الدمار الشامل ولا إلى الموقع (السرّي جداً) الذي لم يعثروا فيه على أي شيء مما إدَّعته معلومات المُخابرات الأمريكية والبريطانية.

بل ساهم في إثارة قضية فالح حمزة على أنها محاولة متأخرة من جانب العراق لتغنية اليورانيوم، فألقى بالتالي وقوداً على نار حملة المعلومات المُضلِّلة. الحقُ يُقال إن محمد البرادعي، رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية والمسؤولة عن ملف التفتيش عن السلاح النووي، بادر وعاتبَ (بليكس) في اليوم التالي على خطابه أمام مجلس الأمن لانَّه تجنَّب الإشارة إلى معرفة وكالته المُسبقة بتفاصيل موضوع فالح حمزة، وأن الثلاثة الآف صفحة من الوثائق كانت عبارة عن تقارير علمية منشورة وأوراق ماليّة شخصية لفالح، وأن أبحاث فالح القديمة العهد لا دخل لها بتاتاً في برنامج السلاح النووي.

كان لتركيز (بليكس) على ذكر موضوع فالح حمزة من ناحية، وتجاهله ذِكر فشل العثور على أي أثر لأسلحة الدمار الشامل في قوائم المواقع المُقترحة من قبل المُخابرات الأمريكية والإنكليزية من ناحية ثانية، العامل الحاسم الذي دفعني للمُجاهرة بإنتقاداتي بِشكلٍ علني وجليّ.

في نفس ذلك اليوم، إتصلت هاتفياً بـ (بيل شيلر)، رئيس المُحررين السياسيين في صحيفة التورنتو ستار، وتقابلنا لأول مرة في لقاء إستمر عدة ساعات. وفي اليوم التالي إستأنف (كيفن دونوفان) مقابلته الأولى معي، والتي كنت قد وأدتها قبل شهرين من الزمن، وتوّسع فيها. قام (سكوت فرجسون) المُخرج التلفزيوني في محطة تلفزيون المدينة الكندية (Canadian City TV) والذي لم يكلّ من ملاحقتي طيلة فترة الشهرين من الزمن، بالتنسيق مع صحيفة التورنتو ستار حتى لا يضيِّع عليه فرصة أول إعلان عن ظهوري في العَلَن. في صباح يوم الجمعة 31 كانون الثاني 2003، صدرت صحيفة التورنتو ستار وعلى صفحتها الاولى مقالة مُطوّلة عني، كما وبثَّ تلفزيون المدينة في برنامجه "كندا صباحاً" في الساعة السابعة صباحاً مُقابلة مُستفيضة إستغرقت النصف ساعة[42]. ذهبت بعدها مُباشرة لإلقاء مُحاضرتي في كُلية (سينيكا) ودُهشت

(42)"لا يمتلك العراق السلاح النووي"، مقابلة تلفزيونية على قناةCTV مع عماد خدوري، 13 كانون الثاني 2003.

"Iraq has no nuclear arms, says former scientist", CTV interview, 31 January 2003.

www.ctv.ca/servlet/ArticleNews/story/CTVNews/1044020356093_17///?hub=World

لمعرفة العديد من طلابي في حصة الساعة الثامنة صباحاً بهذا الأمر من خلال قرائتهم للمقال الصحفي أو مُشاهدة المُقابلة التلفزيونية. غزتنا بعدها أطقم التلفزيون والإذاعة لأجراء المُقابلات العديدة في البيت أو في مراكز بثّها. وإعترافاً مني بالجميل، أود تسجيل تقديري إلى رئاسة كليَّة (سينيكا) في الدفاع عن موقفي أمام هجمة المُكالمات الصهيونية الكندية المُعادية ومنع مُضايقة الصحفيين لي في حرم الجامعة.

بعد أيام قلائل إتصل بي زميلي في الوكالة الدولية للطاقة الذرية ليُبلغني في بريد إلكتروني خاص: "يبدو أن العملية كلّها عبارة عن لُعبة سياسية مُحبكة، إذ لا يجدّ أحداً في منع الحرب القادمة. حاولت ان أكون فنياً صارماً في حُجّتي لإجراء المُقابلة معك، ولكني على يقين الآن من أن السياسين سيبلعوننا في نهاية المطاف، وللأسف كانت نيّتي في إجراء المُقابلة معك إحدى ضحايا هذه المعمعة".

طرأ بعدها بعض الأحداث الدالّة والتي أفصحت عن الجانب القاتم لبعض أجهزة الإعلام الأمريكية. منذ صدور أولى مقالاتي في شهر تشرين الثاني من العام 2002، دأبت إحدى المُراسلات بإسم عربي تعمل في قناة CNN التلفزيونية في مقرّهم الرئيس في أتلانتا – جورجيا في الولايات المُتحدة الأمريكية بالاتصال مراراً لإجراء مقابلة معي. كنت في وقتها ما زِلت أُعاني من ترميم الخرق الأمني لشبكتي الحاسوبية المنزلية، وظلّت تلُح عليّ طيلة الشهرين وتؤكد على إهتمامهم بإجراء مقابلة معي حالما أُقرر الظهور علناً. وبعدما قررت على ذلك، تفضّلت وأجرت معي مُقابلة تمهيدية تتحرّى أثناءها عمّا أود الكلام عنه عند تسجيل المُقابلة الفعلية. إعترضَتْ بشدة على إثارتي دور "المُحافظين الجُدد" في خلق وتأجيج أجواء العدوان على العراق، وأموراً أُخرى وددت الخوض بها لأهميتها من وجهة نظري. رفضتُ أن أتراجع عن موقفي، بينما أصرتْ هي بحرارة على تجنب الخوض في تلك المواضيع، وأكّدت بأن عليّ التطرق فقط إلى الخطوط العريضة التي رسمت لي مواضيعها. كان ذلك آخر اتصال لي مع قناة الـ CNN التلفزيونية.

من جهة أُخرى، أرسلت قناة CBS الأمريكية التلفزيونية إثنين من مُراسليها من نيويورك لإجراء مُقابلة تمهيدية معي بهدف تقييم جدوى تصويرهم حلقة كاملة عني ضمن برنامجهم "ستون دقيقة" الشهير في أمريكا. قضيت معهم أُمسية كاملة وعصر اليوم التالي تحت وابل أسئلتهم وإستجوابهم. على إثر ذلك، أقنع المُراسلَين (أيد برادلي)، مُقدِّم برنامج "ستون دقيقة"، بأهمية وموثوقية ما لدي قوله ثم عادا إلى نيويورك لترتيب تصوير المُقابلة في تورنتو، والذي أصريْت عليه لعدم إرتياحي من فِكرة الذهاب إلى نيويورك في حينها. إتصلا بي هاتفياً في اليوم التالي للسماح لأحد "خبرائهم" في واشنطن، والذي كان ضمن فرق التفتيش(UNSCOM) في أوائل التسعينات، بتقويم مصداقيتي. تحدثنا هاتفياً لمدة ساعة وبعد أيام قليلة إستلمت الرسالة الإلكترونية الآتية منهم تُبلغني بإلغاء المُقابلة المُتّفق عليها:

"يعود سبب الإلغاء إلى موقف مفتش الأسلحة الذي تعاقدنا معه لتقييم كلامك. لقد أُعجب (ستيف بلاك)، وهو الشخص الذي تكلمتَ معه، بصراحتك ووفرة معلوماتك إذ يعتقد إنك مُلِمٌّ تماماً بما حصل في برنامج السلاح النووي العراقي ولغاية عام 1991. لكن يظنُّ (ستيف بلاك) بأنك ما إن أعربت عن رغبتك في مغادرة البلاد مُباشرة بعد إنتهاء حرب عام 1991، فإنك لم تعد بعدها في مركز يسمح لك معرفة ما قرَّرته الحكومة العراقية فيما يخصّ الإستمرار أو إعادة تفعيل برنامج السلاح النوويّ. يعتقد (ستيف بلاك) بأن هناك دلائل كثيرة تُشير على قرار الحكومة العراقية بالحفاظ على برنامج سلاحها النوويّ حتى أواخر التسعينات. إنه يعتقد أيضاً أن هناك كمية كبيرة من الوثائق السريّة حول هذا الأمر والتي لا ترغب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية حالياً في الكشف عنها. من نافل القول، إن حقيقة معرفته في هذه الأمور تفوق كثيراً من إلمامي بها، لذا فإني لست في مركز يؤهلني لأدحض وجهات نظره وتوصياته.

إني أُقدم لك بالغ الإعتذار عن الوقت الذي إستغرقناه معك لتقويم الموضوع. تحادثت مطولاً مع (ستيف بلاك) وزميله، ويبدو جلياً أن علينا إزالة شكوك هذين المستشارين قبل أن نتمكّن من إجراء المُقابلة. هناك إحتمال آخر: أن نحاول إعداد حلقة عن العلماء الهاربين، من أمثال خضر حمزة، وموثوقية المعلومات التي قدّموها. إلاّ أن تلك قصة أخرى".

لم يكن من الصعب قراءة ما بين السطور وعلاقة (ستيف بلاك) و"زميله" بوكالة المُخابرات الأمريكية. كان ردّي المُفعم بالغيظ والألم كما يلي:

شكراً لمحاولتك.

بحقِّ السماء، هل يُمكنك أن تسأل (ستيف بلاك) و"زميله"، ما الذي كان بالإمكان الحفاظ عليه في أواخر التسعينات ما عدا التقارير الموجودة في أيدي الوكالة الدولية للطاقة الذرية؟ أين هي المباني والمؤسسات وأشباح العلماء والبغدادترونات الخفيّة لإحياء هذا البرنامج؟ من الواضح أن إدعائه بوجود "كميات كبيرة من المعلومات السرِّية التي لا تريد الحكومة الأمريكية الكشف عنها" ما هي إلا غطاء جيد يُستَّر به موقفه المُلفَّق. هل يستحق الأمر هذا القدر من "الكُتمان" أمام التحدّي الجدّي المُتواصل من قبل (بليكس) والبرادعي للولايات المُتحدة الأمريكية وإنكلترا بالكشف عن ما يخفونه من معلومات ليتسنى لهم إدانة العراق؟ أم أنها خطة مُضللة "مُتعمّدة" حالها حال "الأدلّة" المُلفَّقة عن حشود القوات العراقية على الحدود السعودية في آب من عام 1990، وكذلك "حاضنات الرضَّع" التي أُتهم الجنود العراقيين باطلاً بتدميرها في مستشفى الكويت؟ أم أن رواتبهم من "حكومة الولايات المتحدة الأمريكية" يزيد عن الكفاية لينبروا بالإدلاء بمثل هذه التكنهات الجوفاء؟

أمّا بالنسبة لحجّته في إنه "عندما أعربت عن رغبتك في مغادرة البلاد لم تعد في مركز يسمح لك بالتأكيد ما إذا كانت الحكومة العراقية قد عَزمت على متابعة البرنامج النووي أو إعادة تفعيله"، فكيف يتسّنى لهم كتم ذلك عني لا سيّما وإني كنت قد قُمت بزيارة كل العلماء والمهندسين النوويين العراقيين أثناء التسعينات خلال قيامي بمدّ الشبكة الحاسوبية في أنحاء العراق وكنت أتجول في مركز البحوث النووية في التويثة لحين مُغادرتي العراق في صيف عام 1998؟

ما هذا الإنجاز الإسطوري الخارق الذي قامت به الحكومة العراقية حتى يُخفوا عني ذاك الدليل الموجود الآن في خزائن كنوز وكالة المخابرات الأمريكية؟

ما حُججه إلا مزحة فاسدة، أم أنها مُخلَّلٌ محفوظ لتسهيل هضم التلفيق؟

على أي حال، أُقدّم مؤاساتي العميقة إلى قناة CBS التلفزيونية.

عماد خدّوري

تمكّنت قناة CBS من إيجاد موضوع بديل للحلقة التي كان من المُزمع مُشاركتي فيها بعرضهم لمُقابلة مع حسين الشهرستاني والتي إدّعى فيها علمه، عن شاهد عيان، بوجود سراديب مَخفيّة تحت الأرض في بغداد بطول عدّة كيلومترات مُمتلئة بالأسلحة البيولوجية والكيميائية. لم تكُن أجوبة حسين الشهرستاني، بعد إستفسارتي منه عن مِصداقية هذا الشاهد بالكافية، حسب تقديري، لشخص في مستوى حسين العلمي ونزاهته.

كنت قد أبقيت على بُعدٍ الطلبات المُلِحّة لإجراء مُقابلات مع قناة فوكس للأخبار الأمريكية المشهورة بولائها الصهيوني بناءً على طلب قناة CBS لتكون هي القناة الأمريكية الأولى التي تقدِّمُني إلى الجمهور الأمريكي. ولكن بعد فشل أمر المُقابلة مع CBS، وافقت على دعوة قناة فوكس لي بزيارة نيويورك لإجراء مُقابلة حيّة مع (جون كاسيش) في برنامجه "من وسط أمريكا مع جون كاسيش" ليوم السبت الموافق الأول من شهر آذار عام 2003. وافقت على الذهاب إلى نيويورك، بالرغم من تحفّظاتي الشديدة في التواجد بالقرب من أنفاس وكالات المُخابرات الأمريكية، للقيام بالزيارة الأخيرة لصديقي العزيز المرحوم نزار حمدون الذي كان موجوداً هناك لتلقي العلاج من مرض خبيث ألمّ به.

لأُحضّر نفسي للمقابلة مع قناة فوكس الإخبارية، والتي يُعرَف عنها مواقفها اليمينية المُتطرّفة، تعمدّت مُشاهدة برامج القناة ليلة الجُمعة قبل يوم المُقابلة من غرفة الفندق في نيويورك، لأتحسَّس مسارها ومواقفها. أثار إستيائي الشديد تحريض مُقدِّم أحد البرامج في إثارة مُساندة جمهوره لشنّ الحرب على العراق لحُجّة أمريكيّة النزعة تقرب من التحريض على إقتراف جريمة حرب. أسهب مُقدّم البرنامج في تعداد تفاصيل الخسارة المالية التي يُمكن ان يتكبدها دافع الضرائب الأمريكي، والتي تصل إلى عدة بلايين من الدولارات، فيما لو قرّرت الولايات المتحدة الأمريكية أن تُغيّر من موقفها وتُعدِل عن مُهاجمة العراق في هذه المرحلة وتقوم بسحب مئات الآلاف من قواتها ومُعداتها من حول العراق. فإن عدم مُساندة الحرب، بالنسبة له، ستعني خسارة مالية لأمريكا، وبذا يصبح هذا العامل الماديّ البحت المسوّغ المُقنِع لضرورة شنّ الحرب. أحيا هذا المنطق

البشع لإستئصال أي مُعارضة للغزو الإجرامي للعـراق ترسـبّات كراهيتـي "لطريقة الحياة الأمريكية".

منذ بداية اللقاء مع (جون كاسيش)، بدا التحيُّز السافر لمقدّم البرنامج والتي تجاوزت جلياً التحذيرات التي وصلتني عنه مُسبقاً. إلا أن أسئلته المُنحازة كانت أكثر وقاحة مما توقعت، وعندما لم أتغاضَ عن صدّها، حدا به أن يصرخ فـي وجهي أمام جمهوره: "من أنت، بحق الجحيم، حتى تناقض تصريحات خضـر حمزة والهاربين العراقيين الآخرين الذين يعلمـون بحيـازة العـراق للسـلاح النووي؟" مُستنكراً جُرأة من يتحدّاه لإنحيازه الأعمى. كان جوابي له: "إذا كانت هذه المعلومات متوفِّرة لديهم، لماذا لم يقدّموها إلى الآن إلى مفتشـي الوكالـة الدولية للطاقة الذرية وفرق UNMOVIC المتواجدين الآن على أرض العراق؟"، ولكنه لم يتركني أُكمّل جوابي حتى يُعلن عن إنتهاء المُقابلة.

بعد أسابيع على غزو العراق، وبدء التشكيك المُتصاعد عن مِصداقية إدعاء وجود السلاح النووي هناك، وجدتْ محطة فوكس الجرأة للاتصال بي مرّة ثانية لأجراء مقابلة أخرى مع (جون كاسيش). إستفسرت منهم فيما إذا عثر (كاسيش) على مجموعة أخرى من الهاربين في طيات كُمّه. ومن الإنصـاف فـي هـذا المجال ذِكرِ قيام (كاسيش) أثناء المُقابلة ثانية بالإستشهاد بشكل كامل وبدون أي تحريف لبعض السطور من مقالاتي الشديدة الإنتقاد لجريمـة حـرب إحـتلال العراق. وفي مُقابلة ثالثة، إعتذر مني (كاسيش) أمام جمهـوره لتشـكيكه فـي مصداقيّتي وبأني كنت دائماً على حقَ في الإدعاء بعدم وجود أسـلحة الـدمار الشامل في العراق. فبادرته على الفور بالسؤال: "لماذا إذن لا يعتـذر الـرئيس بوش عن ذلك؟". بادر (كاسيش) في إنهاء اللقاء.

على النقيض الصارخ من إنحياز مؤسسات الإعلام الأمريكيـة الكُبـرى بترديدها لتلفيقات حكومتها ومُساندتها لشنِّ الحرب على العراق، أود أن أُشـيد بالإنفتاح والمهنيّة العالية والكَرَم الذي بَدرَ من (أيريك مـاركويردت) رئـيس تحرير موقع (www.yellowtimes.org) في مدينة شيكاغو فـي نشـره الفـوري لمقالاتي ودعمي في موقفي من خلال العديد من المُقابلات التي أُجريت لنا سوية

عبر الإذاعة. وعندما أُجبر موقعه على الإغلاق "لأسباب فنية" في العديد من المرات والأيام فور نشره بعض مقالاتي، تقدَّم نورالدين محمد الصابر من (Redress Information and Analysis) في إنجلترا للمساعدة بالتبرّع بتخصيص صفحة كاملة على موقعهم على الإنترنت لنشر كافة مقالاتي. وعلى نسقٍ مُماثل، تقدّم (جيسون كروس)، الطالب في ولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعهَّدَ بإستضافة كل مقالاتي في صفحة ذات تصميم جميل على موقعه (Reality-Syndicate)

(رجاءً مُراجعة المُلاحظة السفلى رقم 30 في بداية هذا الفصل).

اليهم جميعاً... أنا ممتنٌ لكم جداً وشاكرٌ فضلكم.

في الخامس من شهر شباط عام 2003، قام وزير الخارجية الأمريكي (كولن باول) بإلقاء خطابٍ مسرحيٍّ سقيم يُهوّل فيه ما إدّعاه عن شواهد تدلّ على خطى العراق المستمرة في برنامج الحصول على السلاح النووي. على أثر ذلك فوراً، نشرتُ مقالة "**خُدعة القنبلة النووية**" على موقع (Yellow Times) في السابع من شهر شباط عام 2003.

تُشير المقالة إلى: "إن الشواهد القليلة الواهية التي لوّح بها باول على أنها "الحقائق" حول إستمرار العمل في برنامج السلاح النوويّ العراقي، لا تخدم في الواقع سوى إضعاف الإتهامات الأمريكية والبريطانية وتكشف عن ضحالة محاولتهم الفاشلة في تغطية حُججهم العاريّة عن الصحّة بورقة من التين".

واستطردت المقالة في الردّ على إدّعاء باول بأنه قد فُرض على العُلماء العراقيين التوقيع على شهادة إقرارٍ تحت طائلة عقوبة الإعدام إذا لم يتقيَّدوا بعدم الإفصاح عن أسرار برنامج السلاح النووي إلى مفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية، إذ إن الحقيقة تكمن في عكس ذلك تماماً. كانت الإفادات الأربع أو الخمس التي طُلب منا التوقيع عليها، والتي كان أولّها في خريف عام 1991، تقرّ بمعرفتنا بعقوبة حكم الإعدام فيما لو لم نُقدِّم جميع الوثائق والتقارير الحسّاسة حول برنامج السلاح النووي، إن بقي قسم منها في حوزتنا. دُعينا لآخر تلك الاجتماعات للتوقيع على مثل هذه الإفادة في خريف عام 1997، وبمعية كافة

العلماء والمهندسين في هيئة التصنيع العسكري والذين كانوا على صلة ببرامج أسلحة الدمار الشامل في الثمانينات، والذين قارب عددهم الخمسمائة. طُلب منا، وللمرّة الأخيرة، بالرجوع إلى بيوتنا والدور التي نزورها للتأكد من عدم حيازتنا على مثل هذه الوثائق. وكفرصة أخيرة لغضّ النظر عن تواقيعنا على الإيفادات السابقة، سُمح لنا، وفي حالة عثورنا على وثائق وتقارير كانت خافية عن أنظارنا سابقاً، بوضعها في ظرف مُغلق وإيداعها بدون ذِكر إسمنا في مكان مُحدد لا يخضع للرقابة. فلو أن أجهزة مُخابرات باول كانت قد سلَّمته نُسخ أصلية عن هذه الإفادات وحصل على ترجمة عربية صحيحة لفحواها، ولم يعتمد على أكاذيب هؤلاء "الهاربين" الذين تدفعهم مصالحهم الذاتية أو المنافع المادية لرفع مكانتهم أمام "ولّي نِعَمهم"، لما وصف هذا الإدعاء "بالشهادة"، إن التزم هو بالحد الأدنى من قول الحقيقة. ينطبق الحال أيضاً على ذكره وتهويله لوثائق "عملية التخصيب بالليزر" التي سطا عليها فريق (UNMOVIC) بطريقة جيمس بوندية في بيت فالح حمزة في شهر كانون الثاني من عام 2003، لأنها بالتحديد لم يكن لها صلة ببرنامج السلاح النووي وبالتالي لم يكن من داعٍ، من وجهة نظر فالح، أن تُسَلَّم تلك الوثائق إلى الحكومة، فحفظها في بيته.

أثار هذا النمط من الإدعاء فيما بعد شكوكي حول بقية الوثائق وبعض قُطع منظومة "التغنية بأسلوب الطرد المركزي" التي أخرجها مهدي شُكُر غالي العبيدي من تحت شُجيرة ورد في حديقة بيته في شهر أيار من عام 2003، وجاهد في تسليمها إلى المُحتلّين الأميركيين الذين صدّوه في بادىء الأمر. كنت قد أعربت عن شكوكي حول هذا الأمر إلى الفيزيائي الأمريكي (ديفيد آلبرايت)، المُفتّش السابق ورئيس معهد العلوم والأمن الدولي (ISIS) في واشنطن (والذي كان أول من آوى خضر حمزة للعمل في معهده)، والذي كان قناة الاتصال بينه وبين السلطات الأمريكيّة بعد تعثّر محاولته الاتصال معهم، ومهّد لظهور مهدي إلى العلن. وتَساءلتُ: "لماذا أُعفي مهدي من تلك العقوبات التي سرت علينا في حالة قيامنا بإخفاء الوثائق في بيوتنا والتي وقّعنا عليها كلّنا أربع أو خمس مرات؟ هل يُمكن أن يكون حسين كامل قد منحه مثل هذا الإعفاء الخاص؟ وفي

تلك الحالة، لماذا لم يثق حسين كامل بأحد وقام بنفسه، وعلى مدى عامين، في إخفاء مُعظم الوثائق عن أسلحة الدمار الشامل في مزرعة الدواجن التي يملكها، وليس عند مهدي؟ أم انَّ مهدي قد تحمَّل مخاطرة كبيرة وخبَّأ هذه الوثائق بنفسه وعلى مسؤوليته حتى يتمكّن من المساومة مع الأميركيين على هربه وعائلته من البلاد بعد سقوط صدام؟". أجابني (ديفيد آلبرايت) في رسالة خاصة بعثها في شهر حزيران من عام 2003 مؤكداً لي عدم إفتعال مهدي لهذا الأمر، إستناداً إلى إدعاء مهدي بأنه كان قد حصل على موافقة حسين كامل قبل إخفائه تلك الوثائق.

لم تُقنِع هذه التبريرات أيضاً (سكوت ريتر) المُفتّش السابق في UNSCOM وعميل وكالة المخابرات المركزية الأسبق الذي غيَّر موقفه كُليَّةً في العام 2000 من قضية أسلحة الدمار الشامل العراقية. عبّر (سكوت) عن شكوكه تلك في مقابلة تلفزيونية مع (وولف بليتزر) من طاقم قناة تلفزيون (CNN) في الحادي عشر من تموز 2003[43] وقال: "عندما تبحث مليًا في قضية مهدي العبيدي، أعتقد أنك ستجد بانه لا يقول الحقيقة كلها. لقد أحتفظ العبيدي بتلك المواد ببادرة شخصية منه".

على إثر إهدائهم تلك الوثائق، أسرع الأمريكيون، على حدّ علمي، بإخلاء مهدي وعائلته إلى الكويت حيث مكثوا لبضعة أشهر، بدون السماح له بالاتصال والكلام مع أي وسيلة إعلام، ثمّ نُقلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليستقرّوا فيها تحت رقابتهم، وحيث قام وللمرة الأولى بسرد بعض ذكرياته[44].

عودة إلى إدّعاء باول الآخر في خطابه أمام مجلس الأمن بأنّ العراق

(43)مقابلة سكوت ريتر مع ولف بليتزر على CNN في 11 تموز من عام 2003 على إثر مُساهمة سكوت ريتر في المؤتمر الصحفي لمركز TrapRock للسلام في 9 تموز من عام 2003.

http://trackport.org/ahdio/ritter.mp3

(44) "الهدف الخطأ" جيسون فيست في 13 تمّوز 2004.

"The Wrong Target", by Jason Vest, 13 July 2004.

www.prospect.org/web/page.ww?section=root&name=ViewWeb&articleId=8097

حاول أن يحصل منذ العام 1998 على اليورانيوم بدرجة عالية من التغنية والقابل للإستخدام في برنامج لصنع القنبلة النووية (وقد أبتعدَ عن عمد، كما تبيّن بعد مرور خمسة أشهر، عن ذِكر مهزلة وثائق "الكعكة الصفراء" النيْجَريّة المزوَّرة التي إبتلى بالتلويح بها كلٌ من الرئيس بوش وتوني بلير وكونـدوليزا رايس مُستشارة الأمن القومي للرئيس بوش)، حيث رفعت مقالتي تحدّياً لبصيرة أجهزة مُخابراته: "أين هي القاعدة العلميّة والهندسيّة الضرورية لدعم مثل هذا البرنامج العسكري الضخم في التسعينات، خاصة وعندما كان جلُ الكادر العلمي والهندسي يعيش في ظروف فُقرٍ مُدقع طوال العقد المنصرم ويجاهدون لإعالة أُسرِهم بمبلغ عشرين دولار في الشهر الواحد بعد أن صدئت معلوماتهم وضمرت خِبراتهم تحت ضغوط نفسية هائلة وهم يفكرون بمصيرهم عند تقاعدهم في ظل رواتب تقاعدية لا تتجاوز الدولارين في الشهر؟ أين هي القيادات العلمية والهندسية والإدارية التي يُقدّر لها أن تُديرَ مثل هذا البرنامج بعد أن تقاعدت أو إنعزلت القيادات السابقة له أو تحولّت إلى وظائف مدنية تحت أنظار فرق تفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرّية؟ ثُمّ أين هي المباني والبُنية التحتية الضرورية لإسناد مثل هذا البرنامج؟ لقد تمّ تدمير مُعظم أبنية ومُنْشآت برنامج السلاح النوويّ والتي شُيّدت في الثمانينات إمّا عن طريق ضربها بالقنابل الأميريكية خلال الحرب أو تم الكشف عنها وتدميرها من قبل مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية. من المُستحيل إخفآء مبانٍ ومُنْشآت من هذا الحجم. وما على باول إلا أن يُلقي نظرة واحدة على مُنْشآت الأسلحة النووية في كوريا الشمالية، أو في إسرائيل، ليدرُك إستحالة إخفاء مثل هذه المباني خاصة تحت أنظار مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية المُنتشرين في أنحاء العراق". ما كان على باول سوى أن يُجهدَ نفسه بسؤال مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية المُنتدبين من قبل الأمم المُتحدة، وبناءً على إصرار الولايات المُتحدة الأمريكية، ليتلقّى أجوبة "غير مُتوفّرة" عن كل الأسئلة التي طرحناها أعلاه.

كما وأشارت المقالة إلى إضاعة باول لوقت العرض في خطابه وهو يُهولّ من الإستخدام المُحتَمل لأنابيب الألمنيوم في عملية تغنية اليورانيوم بواسطة

الطرد المركزي، والتي روَّج لها دَجَلاً مركز المُخابرات الوطني التابع للجيش الأمريكي[45]، وكان من الأجدر به أن يُلقي نظرة سريعة قبل أسبوع واحد من إلقاء خطابه إلى تقرير أولّي صادر عن الوكالة الدولية للطاقة الذرية والذي أشار فيه بعدم صلاحية إستعمال هذه الأنابيب في تطوير السلاح النوويّ وإنما إستوردت من قبل العراق لإستعمالها في الهندسة العكسية لتصنيع صواريخ 81 ملم[46].

أُختتمَت مقالتي بمقولة مؤلمة، إذ كان باول قد صرّح في خطابه إلى مجلس الأمن: "دعوني الآن أنتقل إلى الأسلحة النوويّة. ليس لدينا ما يُشير إلى أن صدام حسين قد تخلّى فعلاً عن برنامجه للحصول على السلاح النووي". يدعوك مثل هذا التصريح في العام 2003 إلى الضحك على حدّ قول المثل العربي: "شرُّ البليّةِ ما يُضحك". وعبرّت في حينها في عدة مُقابلات على الإذاعة والتلفزيون من تحسّبي من أن أنهر من الدم قد تسيل في حالة إحتلال العراق وبروز المُقاومة.

بعد أسبوع واحد من نشر المقالة أعلاه، قدَّم محمد البرادعي، رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية، تقريره الشهري عن نشاطات تفتيش فرِقه في العراق إلى مجلس الأمن الدولي في الرابع عشر من شهر شباط عام 2003. لا أشكُّ في أن الإستنتاجات التي أوردتها كلمة رئيس الوكالة قد سبّبت الكدر إلى الرئيس بوش

---

(45) "بين التخمين والحقيقة الدامغة: صعوبة الفصل بين الإثنين في قصة أنابيب الألمنيوم العراقية"، بيل نيكولز وجون دايمند في مجلة الولايات المتحدة الأمريكية اليوم في 1 آب، 2003.

"Speculation, fact hard to separate in story of Iraq's "nuclear" tubes", by Bill Nichols and John Diamond USA Today, August 1, 2003.

www.usatoday.com/usatonline/20030801/5374348s.htm

(46) "تقدّم سير عمل الأمم المتّحدة في نزع السلاح العراقي: تقرير تقييم" ديفيد كورترايت، أليستير ميلار، جورج لوبيز، وليندا جيربير، في 28 كانون الثاني، 2003.

"The Progress of UN Disarmament in Iraq: An Assessment Report", by David Cortright, Alistair Millar, George A. Lopez, and Linda Gerber, January 28, 2003.

www.fourthfreedom.org/pdf/inspections_report.pdf

وإلى كولن باول، إذ أن تحرّيات فرقه في العراق قد أبادت الكثير من ضباب التلفيق الذي بذلوا الكثير من الجُهد في تكثيفه حول موضوع السلاح النووي المزعوم وجوده في العراق في سعيهم المحموم إلى الحرب، والتي وردت في خطاب كولن باول إلى نفس مجلس الأمن قبل أيام قلائل. ولأُلقي المزيد من الضوء على خطاب البرادعي وتشكيكي في مِصداقية كولن باول، كتبت مقالتي "**إنهيار خُدعة القنبلة النووية**" المنشورة في السادس عشر من شهر شباط 2003، حيث أشرت خصيصاً في نهاية المقالة إلى سجلٍ باول اللاّأخلاقي في نشر المعلومات المغلوطة، إذ لم تكُن هذه المُمارسة بالجديدة إليه.

يقول المؤلف (جيف سيمونز) في كتابه بعنوان (التنّكيل بالعراق)[47]: "لقد كذّبت واشنطن بإمعان وعلى نطاق واسع لكي تكسب المساندة الدولية المطلوبة لشنّ حرب الخليج عام 1991. فعلى سبيل المثال، إدّعت الولايات المتحدة الأمريكية بأن لديها صورٌ فضائية تُظهِر حشوداً عسكرية عراقية على الحدود السعودية – العراقية. ولكن عندما حصلت صحفية جريئة على عينات لهذه الصور لمنطقة الحدود المعنية وللأيام المذكورة من مركز التصوير الفضائي الروسي (Soyuz Karta)، لم يَظهر ما يُثبِت ذلك الإدعاء".

يُشير (جيف سيمونز) في ذلك إلى مقالة كتبتها الصحفية (ماجي أوكين) ونُشرت في صحيفة الغارديان الأسبوعية في يوم السادس عشر من كانون الأول من عام 1995، والتي أشارت فيها إلى أن تلك الصحفية الجريئة كانت (جين هيلر) من صحيفة (سانت بيترسبرج تايمز) في ولاية فلوريدا الأمريكية والتي أقنعت صحيفتها بتزويدها بمبلغ ألف وخمسمائة دولار لشراء تلك الصور من المؤسسة الروسية بعد أن رفضت وزارة الدفاع الأمريكية ولعدة سنين من تزويدها بنسخ من الصور التي زعمت بأنها تدلّ على وجود

(47) "التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة"، جيف سايمنز، دار نشر ماكميلان، لندن 2002.
"*The Scourging of Iraq: Sanctions, Law and Natural Justice*" by Geoff Simons, MacMillan, London, 2002.
www.thetruthseeker.co.uk/article.asp?ID=45

الحشود العسكرية العراقية على حدود المملكة العربية السعودية. في نهاية الأمر، إعترف القائد الأمريكي في العام 1995 – والذي لم يكن سوى كولن باول نفسه – بأنه لم يكن هناك في حقيقة الأمر أي حشود للقوات العسكرية العراقية على الحدود السعودية، ولكن خبر ذلك الدليل المزعوم، قد أدّى، بالنسبة له، الغرض من نشره في حينها، أي التحريض لشنّ الحرب على العراق.

وأشرت في المقالة إلى تصريح مُتهكّم، نُشر في صحيفة التورنتو ستار عن لسان كولن باول في الرابع عشر من شهر شباط عام 2003، وكان في حينها لا يزال مَلسوعاً من وطأة تقرير البرادعي أمام مجلس الأمن وفضحه المحدود لإدعائاته الباطلة بشأن السلاح النووي العراقي، أنه "يجب أن يظلّ إستخدام القوة السبيل الأخير لنا. لقد وعظت بذلك طيلة حياتي العمليّة كجندي وكدبلوماسي". ومع تلبّد غيوم الحرب على العراق، دعوت في نهاية المقالة: "يجب عدم السماح هذه المرة للتاريخ أن يُعيد نفسه"، ويُشهَر الكذِب في إعلان الحرب.

بعد مرور شهر على إلقاء كولن باول خطابه أمام مجلس الأمن، قدّم البرادعي تقريره الثالث إلى المجلس في السابع من شهر آذار عام 2003، ونقض فيه مُعظم ما تبقّى من "شواهد" كولن باول المُلفّقة عن متابعة العراق لبرنامج التسلح النوويّ بعد نهاية حرب 1991. وحان الوقت المناسب لي لتسمية الأمور بأسمائها ونشرت مقالة "**ورقة تين العقم الأخلاقي**" على موقع yellowtimes.org في العاشر من شهر آذار عام 2003، أشرت فيها إلى أن خبراء الوكالة الدولية للطاقة الذرية تمكّنوا من التحقّق من تزوير وثائق النيجَرْ خلال ساعات قليلة فقط من إطلاعهم عليها، بعد أن زوّدتهم بها أجهزة المُخابرات الأمريكية والإنكليزية، وهو إنجاز إستعصى على ما يبدو على قدرات مُحققي تلك المخابرات طيلة أشهر من الإطلاع عليها. وبالرغم من ذلك، وصل الخبر المُلفّق إلى طاحونة المعلومات المُضلِّلة بإدارة طباخي المخابرات المُحافظين الجُدد في وزارة الدفاع الأمريكية لتوضع على طبق

أمام بوش ليقدّمها في خطابه عن "حالة الإتحاد" أمام الكونغرس الأمريكي في شهر كانون الثاني من العام 2003. وبدون أي ورع، ألقى الرئيس بوش خطاباً في نفس اليوم الذي قدم فيه البرادعي تقريره، في السابع من آذار عام 2003، يصوّر فيه تجمّع سحب حرب إجرامية داكنة ضد العراق، وكأنها شروط لعبة بوكر بالنسبة له إذ تحدّى دولاً أخرى أن تظهر "أوراق اللعبة" التي بيدها بينما تُبقي الولايات المتحدة وإنكلترا أوراقهما مخفيةً عن النظر. وبهذه المُناسبة، أُغفل عن تحذير آخر توقعّته في تلك المقالة: " لكي لا يفوت الأمر على الرئيس بوش، فإنه يلعب لعبة الروليت الروسية وقد سقطت ورقة التين عن عورته"، إشارة إلى تلك اللعبة التي يَدار بها مُسدّس محشوٌ بطلقة واحدة تُطلق على من يتوجّه إليه فوهة المُسدّس بعد وقوف دورانه.

وفي اليوم التالي لتقديم البرادعي تقريره، وبعد أن أسفرت جهود زميلي في الوكالة الدولية للطاقة الذرية في إقناع الوكالة بضرورة الإطلاع على معلوماتي عن برنامج السلاح النووي العراقي، سافر من نيويورك إلى تورنتو (جاك بوت)، مُعاون البرادعي ورئيس (فريق عمل العراق) التابع لمفتشي الوكالة، لعقد لقاء ودّي معي. كُنّا نعرف بعضنا البعض من بغداد حيث عمل مُفتشاً في العراق لعدة سنوات. إستغرق اللقاء سبع ساعات إستعرضنا خلالها معظم تفاصيل برنامج السلاح النووي قبل عام 1991، إذ كان مُلماً بتفاصيل عدم إحيائه بعد ذلك التاريخ، ولم يحتاج إلى الكثير من معلوماتي عنها. كان في حوزتي بعض المعلومات عن الفترة التي سبقت حرب عام 1991 والتي وجدت وقعها في أُحجية كان يجمع أطرافها. وبأمل ضعيف في صدّ موجة المعلومات المُضللة لطوفان الحرب المُقبلة، شجّعني (جاك بوت) على إقناع زملائي الآخرين بأن يتقدّموا للإدلاء بمعلوماتهم إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية لتعزيز موقف الوكالة أمام مجلس الأمن بتأديتها مهمة مُقابلة العلماء العراقيين المسؤولين عن برنامج السلاح النووي. وقد أفلحت قليلاً في تحقيق ذلك مع بعض الزُملاء الذين غادروا العراق، إذ إن درجة الإمتعاض والمرارة من تعجّرف وخشونة المفتشين في التعامل مع

زملائنا في العراق، بالإضافة إلى الرواتب العالية التي كان يتقاضاها المفتّشون من أموال العراق تحت غطاء برنامج النفط مقابل الغذاء، قد أثارت النفور الشديد ورفض الزملاء الذين بقوا في العراق إجراء تلك المقابلات، والذين أعابوا على المواقف الهزيلة للوكالة الدولية للطاقة الذرية وتخاذلها أمام الولايات المتحدة الأمريكية بعدم البت بوضوح وشجاعة بخلوّ العراق من السلاح النووي أو برنامج إعادة تفعيله بعد أكثر من إثنتي عشرة سنة من التفتيش وإجراء المُقابلات معهم.

إلا أن قرع طبول الحرب المدوي أفلح في طمس الحقيقة، وإزداد تصاعد وتيرة الكذب والتلفيق. ففي السادس عشر من شهر آذار عام 2003، وقبل 48 ساعة فقط من إنتهاء فترة الإنذار التي أعلنها بوش قبل غزوه للعراق، إدّعى نائب الرئيس تشيني وبصفاقة في مُقابلة له مع قناة MSNBC في كاليفورنيا بأن محمد البرادعي كان على خطأ في تقييمه لبرنامج السلاح النووي العراقي أمام مجلس الأمن وإن أجهزة المُخابرات الأمريكية تمتلك الدليل القاطع على إعادة العراق إحياء برنامج أسلحته النوويّة. ولكي أُجهض تمرير الآعيبهم الملفّقة، نشرتُ في التاسع عشر من شهر آذار عام 2003 مقالة "**سلاح تشيني النووي المُزيَّف**" والذي أشرت فيه مُحذّراً إلى أن القوات الغازية لن تجد أي أثر لإحياء برنامج السلاح النووي العراقي، اللهُمّ عدا دلائل مُزيّفة قد يقوم الأمريكيون أنفسهم بزرعها داخل العراق حال دخولهم إليه.

سأُعيد هنا الفقرة الأولى من الكتاب: "سيبقى العشرون من آذار عام 2003 يوماً سيئ الصيت عند شعب العراق كما هو حال الحادي عشر من أيلول عام 2001 لدى الشعب الأمريكي. ففي هذين اليومين، شعرَ كُلّ من الشعبين بهول صدمة الإرهاب الجماعي الذي غزاه في عقر داره. وبينما وصلت المصداقية الأخلاقيّة للولايات المتحدة الأمريكيّة، حسب تصوّري، إلى ذروتها في يوم العاشر من أيلول عام 2001، أرى العراق ينحدر حثيثاً نحو الدرك الأسفل بعد إحتلاله – إلاّ أنه سينهض من جديد"، وما زالت المصداقية الأخلاقيّة الأمريكية في تدهورٍ مستمر وشلالات الدم تسيل.

الحزن آنياً على العراق

سبّب نشر مقالاتي أعلاه في ردود فعل غير مُنصِفة من قبل بعض أصدقائي المقرّبين، من عراقيين وكنديين على حدّ السواء، مما إضطرني إلى إضافة التذييل (Postscript) الآتي للمقالات التي نشرتها، وقد أرسلته إلى مجموعة مختارة من الأصدقاء العراقيين والكنديين قبل أسبوع واحد من غزو العراق، في الثالث عشر من شهر آذار عام 2003:

"هناك إفتراض مطروح يقول إذا أعرب إنسان عن معارضته على ذبح الأمريكيون للعراقيين، فإن عليه ان يُقرن قوله دوماً بصبِّ اللّعنة على صدّام حسين في ذات الوقت، وبعكسه سيُسوّق الإتهام إليه بأنه يُدافع عن صدام ونظامه. يُمكن تلخيص هذا الشرط غير المُنصف بهذا القول المُفعم بالغضب من صديق عراقي مُعذَّب: "لقد شاهدت شريط (فيديو) المُقابلة معك كُلّه. إنه مُثير حقاً، لكني أجد من المثير أيضاً أنك لم تذكر ولا حتى كلمة واحدة عن صدام وعن الرُعب الذي سبَّبَه لشعب العراق!! ولا كلمة واحدة..!! أعتقد أنه يجب على كلّ عراقي الاّ يفوّتَ أي فرصة ليقول للعالم ما فعله صدام للعراق ولشعب العراق".

أرسل لي آخرون من أصدقائي العراقيين وغير العراقيين بتعليقات مُشابهة لما ورد اعلاه، وحاولوا أن يدفعوني إلى التنديد بصدام في كل مرة أفتح فيها فمي أو أكتب كلمة أُناقش فيها عدم وجود السلاح النووي العراقي، وكأنه قميص عُثمان. أعتقد أن مقترح أصدقائي هذا يعكس درباً مسدوداً في منطق تفكيرهم، كما يتبين من هذا السِجال[48].

إنني أتحسس وأشعر بألم إخواني العراقيين. لقد عان البعض منهم أكثر مما عانيت أنا وعائلتي على أيدي مخابرات صدام وأجهزته الأمنية. غادرنا العراق دون معرفتهم ودون موافقتهم وخاطرنا بحياتنا من أجل ذلك، في حين فقد آخرون أفراد عائلاتهم وأقربائهم في مثل هذه المحاولات. إنني أتقبّل وبرحابة صدرٍ ضيق أُفقهم الذي يلِّح على لعن نظام صدام ليل نهار، وان يُخصِّصوا كل نَفَسٍ في صدورهم

(48) "العقلية والممارسة الأمريكية على المكشوف من خلال حوار خيالي وواقعي بين طفل أمريكي وأبيه "الكاتب البرازيلي فريه بيتو، ترجمة وإعداد المهندس نور الدين عواد.
www.albasrah.net/maqalat/_mukhtara/arabic/1004/noraldin_271004.htm

لتنفيس ألمهم وغضبهم العميقين، لكن إذا كـان بإمكـانهم أن يضـعوا عـواطفهم الصادقة جانباً ولو للحظة واحدة، أطلب منهم التروّي وان يتحققوا من حقيقة إفتقار الأمريكيين إلى أي خطة صالحة تنوي خير العراق والعـراقيين بعـد ان يلقـوا بالالآف من قنابلهم على مُدننا، ويطلقوا صواريخهم المُدمِّرة على شعبنا. سـيوقع هذا الغزو بعشرات الآلاف من القتلى العراقيين[49] وسيُهزَم فلول الجيش العراقـي الممزّق بسهولة. **وسيشهد العراق والشعب العراقـي حالـة مـن السـقوط فـي المجهول.. في هاوية سحيقة.**

تتطلّع كلٌ من تركيا وإيران وإسرائيل (مع ما تحفظه في جعبتها مـن مخططـات ضدّ الفلسطينيين أثر إحتلال العراق) إلى إقتطاع أجزاء من لحم العراق لقضـمها. أما النفط، فقد جرى الإحكام عليه مُسبقاً.

لا أريد الردّ على مواقف غير العراقيين الآن، فهؤلاء لديهم مـن قصـر النظـر والأنانية ما يكشف عن عداءٍ أعمق بُعداً. في كلا الحالتين، إننـي أرفـض حَـلّ منطقهم الأُحادي المُفلِس، أي "ما دُمت لا تتفق معنا فلماذا تركت العراق إذاً، ولماذا لا تعود الآن إلى العراق؟".

لم يكن إعلان الحرب القادمة إبن لحظته. بل إنه فرصة مؤاتية حطّـت رحالهـا إثر أحداث شهر أيلول عام 2001. لقد زُرعت بـذورها فـي بدايـة التسـعينات من قبل زمرة من المُحـافظين الجُـدد الأمـريكيين أصـحاب الفكـر اليمينـي الذين تربطهم عواطف قوية مع الفِكر الصـهيوني ويـربط بعضـهم فِعـلاً مـع المصالح الإسرائيلية. قام هؤلاء على وضع مُخطـطٍ لإعـادة تشـكيل الشـرق الأوسط من خلال عملهم في مشروع (القـرن الأمريكـي الجديـد) مـع معهـد المشاريع الأمريكي (The American Enterprise Institute) وما شابهه فِكـراً مـن مؤسسات يمينية.

---

(49)بلغ عدد القتلى العراقيين فقط خلال الفترة من آذار ولغايـة تشـرين الأول 2003 حـوالى 37000 شهيد. إستُقي هذا الرقم من زيارة والإطلاع على سـجلات المقـابر والمستشـفيات ومُقابلة الشهود في كافة محافظات العراق: "من فمك أدينك.. أسلحة الدمار الشامل الأمريكية" أ.د. محمد العبيدي، موقع www.iraqpatrol.com، وعلى موقع english.aljazeera.net في 31 تمّوز 2004.

www.iraqpatrol.com/php/index.php?s=26f80da2d5a0503ef7609b293e3b860 2&showtopic=3753

english.aljazeera.net/NR/exeres/66E32EAF-0E4E-4765-9339-594C323A777F.htm

لقد تمكّن هؤلاء من التسلّق وإحتلال مناصب إدارية عُليا في وزارة الخارجية الأمريكية والبيت الابيض، وعلى الأخصّ في البنتاغون حيث وزارة الدفاع الأمريكية. من ضمن هؤلاء المُحافظين الجُدد: ريتشارد بيرل - رئيس مجلس تخطيط سياسة الدفاع في البنتاغون، وبول ولفيتز نائب وزير الدفاع، وولـيم كريستول - رئيس مجلس مشروع القرن الأمريكي الجديد، ودوغلاس فايث - مساعد وزير الدفاع ومستشار التخطيط في البنتاغون، ولويس ليبي - رئيس مكتب تشيني نائب الرئيس وآخرين غيرهم. يُمكنك الحصول على المزيد من خططهم وتقاريرهم وفكِرهم من خلال زيارة بعض مواقع هذه المؤسسات على الإنترنت، وعلى سبيل المثال: www.aei.org و www.newamericancentury.org.

على الرغم من مساندة الإعلام الأمريكي الشرسة لمُخططاتهم ونشر أكاذيبهم، لكنها لا تستطيع إخفاء الكثير من المُغالطات والهفوات في طروحاتهم. إلا أن جرائم الحرب التي يزمعون إرتكابها في العراق ستقع لا محالة.

تهدف مقالاتي الخمسة التي نشرتُها لحدّ الآن، وتصريحاتي المُتعددة للإذاعة والتلفزيون، إلى دحض إدعاءاتهم وتعرية المعلومات المُضلّلة الموجهّة إلى الشعب الأمريكي وإلى الآخرين لتعميّة رؤاهم عمّا يجري في حقيقة الأمر.

سوف تكشف الأيام قريباً عن الهوية الحقيقية لهؤلاء المُحافظين الجُدد وسوف يرميهم التاريخ جانباً، عاجلاً أم آجلاً، وعسى أن يَمثّلوا أمام هيئة محكمة حرب دوليّة مع صدام حسين.

وسينهض الشعب العراقي من جديد".

بعد ثلاثة أسابيع من إحتلال بغداد، في آخر شهر نيسان من العام 2003، نشرتُ مقالة "**سَراب أسلحة الدمار الشامل العراقية**". بعد سرد أسباب ومراحل ظهوري العلني والوصول إلى تصريح نائب الرئيس تشيني السافر بتشكيكه في مُصداقية النتائج التي توصّل إليها البرادعي ومُفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وتأكيده على حيازة أجهزة المُخابرات الأمريكية ما يدل على تفعيل برنامج السلاح النووي العراقي، أشرت إلى قصف القوات الأمريكية، وللمرة التي فقدنا عدّها، مركز البحوث النووية في التويثة ودخول القوات الأمريكية إليه. قام جنودهم المراهقون، وبكل غباء، بكسر أقفال وأختام الوكالة الدولية للطاقة الذرية والتي كانت قد وضِعت لأحكام السيطرة على المقبرة النووية ذات

الثلاثين سنة عمراً والتي تضم عشرات الأطنان من النفايات السائلة والصلدة ذات الإشعاع العالي مما تسبب في تلوّثهم الإشعاعي، ومن ثم فتحوا المجال أمام السارقين للدخول إلى الموقع والسطو على محتوياته وتلويث أنفسهم ونشر التلوّث الإشعاعي بين أفراد عائلاتهم. وأضفت: "وبعد مضي الشهر على الإحتلال، ما زال المحتلّون عاجزين عن تقديم أي دليل عن السلاح النووي العراقي المزعوم. ما الذي يدعو تشيني الآن للصمت المطبق أزاء ذلك وعدم البوح بأسرار جهاز مُخابراته التي أعلن عنها قبل يومين من الحرب؟ فمع وجود الجنود الأمريكيين المحتلين في العراق، زالت حتى ذريعة التستر خلف حُجّة "الأمن القومي" الأمريكي للحفاظ على سرية معلوماتهم، والتي كانوا يغطون بها عورة كذبهم".

وبالإضافة إلى عدم العثور على ذريعة السلاح النووي العراقي، فلقد برز حدثان مهمين خلال الشهرين الماضيين مما زاد اقناعي أيضاً بعدم وجود أسلحة كيمياوية وبيولوجية عراقية منذ عام 1991. كان الحدث الأول خبراً نُشر في مجلة نيوزويك الأمريكية في الثالث من شهر آذار عام 2003 والذي كُشف النقاب فيه عن محضر إفادة حسين كامل، المسؤول الفعلي عن كافة الأسلحة النووية والكيمياوية والبيولوجية خلال الثمانينات ولحين هروبه إلى الأردن حيث حقق معه رؤوساء فرق التفتيش ودوّنوا إفادته في عام 1995. أكّد حسين كامل في تحقيقه هذا عن قيام العراق بتدمير كل أسلحته الكيمياوية والبيولوجية والرؤوس الحربية التي صُنّعت لإيصالها بعد إنتهاء الحرب في عام 1991. كل ما كان قد تبقى من برامج تطوير هذه الأسلحة هو خرائطها وتقاريرها المحفوظة ورقياً أو على أقراص الحاسوب أو أفلام المايكروفلم. لقد أمر حسين كامل بتدمير تلك الأسلحة بُغية إخفاء وجود هذه البرامج عن المفتشين بأمل إعادة العمل عليها بعد إنهاء المفتشين مهمتهم ومغادرتهم العراق. كما وأكّد جون باري، كاتب هذا الخبر، بأن وكالة المخابرات الأمريكية (السي أي أي) والبريطانية (أم أي 6) كانوا قد حصلوا على نفس هذه المعلومات مُسبقاً، بالإضافة إلى تأكيد أحد الفارين بمعيّة حسين كامل من تنفيذ عمليات تدمير هذه

الأسلحة. إلا أنه تم التكتّم والكُتمان على هذه المعلومات المهمة والدالّة طيلة فترة الثماني سنوات المنصرمة من قبل مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية وأجهزة المُخابرات الأمريكية والإنكليزية بهدف مُماطلة العراقيين وطمعاً في الحصـــول على المزيد من المعلومات التي نضبت، وتسهيل مهام تلفيقهم الأخبار المغلوطة بشأن أسلحة الدمار الشامل العراقية.

أشارت مقالة نيوزويك إلى عثور (كلين رانكـــوالا)، الباحـــث فـــي جامعـــة كامبريدج في إنكلترا، في السادس والعشرين من شباط عام 2003 على نسخة حيّـــة من أوراق إيفاد حسين كامل مع رؤوساء مُفتشي الوكالة والتي كانت على مطبوعة بهيئة وثيقة داخلية "حساسة" ونشرها للملأ على الإنترنت[50]. وسبق لرانكـــوالا أن كشف في أوائل ذلك الشهر أيضاً عن زيف تقرير لجهاز المُخـــابرات الإنكليـــزي، والذي إعتمد عليه توني بلير في خطابه أمام البرلمان الإنكليزي في شهر أيلول من عام 2002 لتهويل أسلحة الدمار الشامل العراقية، وإقتباسه نصاً، وإلى حـــدّ بعـــض الأغلاط المطبعية، فقرات عديدة لمعلومات عتيقة من إطروحة طالب عراقي قـــام بإعدادها في إحدى جامعات كاليفورنيا عام 1991.

في الصفحة السابعة من وثيقة إفادة حسين كامل، طرح المُفتّش الروســـي، وإسمه سميدوفيج، سؤالاً واضحاً على حسين كامل: "هـــل دُمّـــرت الأســـلحة ورؤوسها الحربية؟". "لم يبقَ منها شيئاً" كان جـــواب حســـين كامـــل. أصـــرّ سميدوفيج: "هل كان هذا قبل أو بعد بدء عمليات التفتيش؟". أجاب حسين كامل: "بعد زيارات فرق التفتيش". وإعترض سميدوفيج: "لم نعثر على أي أدلّة عـــن عمليات تدميرها". صحّح حسين كامل من جوابه: "نعـــم، تـــم تـــدميرها قبـــل وصولكم. ولقد عثرتم أنتم على موقع تدميرها". إستدرك سميدوفيج: "هل تعنـــي أنه كان هذا هو الموقع في شمال بغداد؟". أجاب حسين كامل: "حصل التـــدمير أثناء شهر قدومكم، وبدأنا بتدمير الرؤوس الحربية لها ولا أذكر تفاصيل أكثـــر

(50)وثيقة تحقيق رؤوساء فرق تفتيش الوكالة الذرية للطاقة الذرية مع حسين كامل في عمّان في عام 1995.

www.fair.org/press-releases/kamel.pdf

عنها". وبدلالة مهمة أخرى لم أتمكن من توثيق مصدرها، وصلت أخبار عن قيام الحكومة العراقية في كانون الثاني من عام 2003 بجمع شمل بعض الضباط والجنود من كافة أنحاء العراق من الذين ساهموا في عمليات تدمير هذه الأسلحة والرؤوس الحربية ويسّروا لفرق التفتيش مُقابلتهم. إلا أن الأمريكيين من مُفتشي UNMOVIC رفضوا تحقيق تلك المُقابلة مُتهمين مُسبقاً غِشّ الحكومة العراقية بهؤلاء الشهود.

ما كان إيفاد حسين كامل لوحده كافياً لي للإجهار عن خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل بالرغم من أهمية إعترافه وعلمنا بقيام حسين كامل بالكشف عن معلومات مهمة أثر هروبه، وإن لم يكن يتيسّر لنا معرفة تفاصيلها.

كان الحدث الثاني، والذي جرى في منتصف شهر نيسان من العام 2003، هو مِسكُ الخِتام في قناعتي بفشل مسعى المُحتلّين في العثور على أي من أسلحة الدمار الشامل التي وعدوا أنفسهم بها.

كان الفريق عامر السعدي، المهندس الكيميائي والمستشار العلمي في الحكومة العراقية، الأول من قائمة الخمسة والخمسين المطلوبين من قبل القوات الأمريكية، من الذين إستسلموا للقوات الأمريكية بعد إحتلال بغداد على إثر علمه بإدراج إسمه ضمن أوراق لِعب تلك القائمة وتوسّط زوجته الألمانية مع قناة فضائية ألمانية عاملة في بغداد. كان الفريق عامر السعدي المُتكلّم الأكثر رزانة وهيبة وصراحة في التفاوض مع المُفتّشين خلال عقد التسعينات. كما وكان قد ساهم شخصياً في البرنامج التسليحي البيولوجي منذ الثمانينات، وعلى إطلاع وافٍ على بقية برامج التسليح بموجب منصبه العالي في هيئة التصنيع العسكري. كنت أعرفه شخصياً وأكن إحتراماً عميقاً لإستقامة علمه ومبادئه.

في مُقابلة تلفزيونية دامت عشر دقائق مع القناة الألمانية قبل ولوجه في سيارة المُحتلّين الأمريكيين وإصطحابهم له إلى السجن، قال الفريق عامر السعدي: "كنت دائماً أقول الحقيقة. لا توجد أي أسلحة كيميائية أو بيولوجية في العراق. ليس لدي شيء لإخفائه. سيثبت الزمن صحة إدعائي هذا".

وبالفعل، فإن الأيام أثبتت صِحّة كلام الفريق عامر السعدي، والذي كـان يردده طيلة أكثر من عشر سنين، وسببت الكدر لبوش وبلير. إن أمل الأمريكيين والبريطانيين في العثور على أسلحة الدمار الشامل العراقية ما هو إلا سـراب واهن، ما عدا تلك التي قد يقومون هم بدسّها على أرض العراق.

لن يسع رامسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي، الذي أعلن بعد الإحتلال عـن إعتقاده بوجود تلك الأسلحة في مناطق قرب بغداد وحول تكريت، إلا التراجـع إلى الموقف الهش القائل: "إننا نحتل دولة لتدمير أسلحة الدمار الشـامل فيهـا، ولكنني أشكّ في إمكانية العثور عليها ما لم يدلّنا العلماء العراقيين إلـى مكـان وجودها". وبالرغم من إعلانهم عن تخصيص مُكافأة بقيمة مئتي ألف دولار لمن يُدلي لهم بتلك المعلومات، يبقوا هم الخائبون في غيّهم.

وإنتهت المقالة بالسؤال: "لقد كذِب بوش وبلير ومسؤوليهم الكبـار علـى شعبيهما وأججوا نار حرب وإحتلال وإقترفوا جريمة حرب سافرة. هل هذا هو نموذج "الديمقراطية" الموعودة للعراق "المُحرر"؟".

ما زال الفريق عامر السعدي رهن الإعتقال الأمريكي إلى الآن في سجن إنفرادي[51]، بالرغم من إنتهاء الجاسوس الأمريكي (دافيد كاي) من مهمته فـي التحرّي عن أسلحة الدمار الشامل بعد إحتلال العراق، والتي كلّفـت الولايـات المُتحدة الأمريكية حوالى 900 مليون دولار، وتقديمه تقريره في نهاية شهر أيلول من عام 2003 بالخلاصة والتوصّل إلى صِدق كلام الفريـق عـامر السـعدي، وبالرغم أيضاً من تصاعد حملات الإعتراض من قبـل العديـد مـن العلمـاء والمُفكرين العراقيين البارزين والأجانب على التعسّف الأمريكي في إطالة فترة إعتقال الفريق عامر السعدي بدون أي مسوّغ قانوني أو توجيه أي تهمـة لـه

(51)"لا عزاء للعالم العراقي الذي كان على حق بشأن أسلحة الدمار الشـامل" جوناثـان سـتيل، صحيفة الغارديان، 5 مايس 2004.

"Why being right on WMD is no consolation to Iraqi scientist labelled enemy of America" Jonathan Steele in Baghdad, May 5, 2004

www.guardian.co.uk/international/story/0,3604,1209418,00.html

سوى وجود إسمه على قائمة المطلوبين الخمسة والخمسين (الأمريكية البُدعة) والتي غُرّ بها الفريق عامر السعدي، مع شديد الأسف، لثقته في "العدالة الأمريكية".

حفزّتني القناعة بخلو العراق من أسلحة الدمار الشامل بالتنقيب عن خلفية الخلل الذريع في المعلومات المُخابراتية وتأجيج أجهزتها للمعلومات المُضلِّلة التي سبقت إحتلال العراق، وأدرجت ما توصلت إليه في مقالة "**غلق دائرة الأكاذيب**" المنشورة في شهر أب من العام 2003 على موقع الإنترنت الإنكليزي لقناة الجزيرة العربية[52]. لم تدرك دوائر المخابرات الغربية والإسرائيلية[53] مدى التطوّر الذي وصلت إليه برامج الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية خلال الثمانينات، وبالتالي لم تعلم ثانيةٍ عن حجم ما أُتلف من هذه المواد بعد حرب عام 1991. لم يكن بمقدور المُحلِّلين العاملين في تلك الدوائر إستيعاب إمتلاك العراق لهذه التقنيات وقيامه بتدميرها بنفسه في صيف عام 1991[54]، ويُعزى السبب الرئيس في ذلك الفشل المُخابراتي إلى عدم تمكّنهم من إختراق السور الأمني المُحكم الذي أحيطت به هذه الفعاليات وإفتقار وجود جواسيسهم على الأرض داخل هذه البرامج، فلم يحصلوا على الصورة الحقيقية لما جرى قبل عام 1991، وما جرى بعد حرب 1991.

عقب أحداث الحادي عشر من أيلول من العام 2001، كوَّن وزير الدفاع

(52) "غلق دائرة الأكاذيب" عماد خدّوري، موقع "الجزيرة" الإنكليزي، 10 آب 2003.
"Circle of lies coming to a close", by Imad Khadduri, 10 August 2003
english.aljazeera.net/Special+Reports/Circle+of+Lies.htm

(53) "طروادة وصحفيون وجواسيس ودمى: قصة "أسلحة الدمار الشامل" العراقية" بول بيلس، 16 تموز 2003، ويعتمد في المقالة على ما ورد في كتابين لفيكتور أوستروفسكي "عن طريق المكر By Way of Deception" و"الجانب الآخر للمكر The Other Side of Deception".
www.redress.btinternet.co.uk/pjballes10.htm

(54) "أنهى العراق برنامجه النووي في العام 1991" مقابلة قناة BBC الإذاعية مع جعفر ضياء جعفر في 11 آب 2004.
"Iraq ended nuclear aims in 1991", BBC interview with Jafar Dhia Jafar on 11 August, 2004.
news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/3556714.stm

(دونالد رامسفيلد) ونائبه (بول ولفويتز) هيئة مُخابراتية عُليا من مجموعة صغيرة من أنصارهم من المُحافظين الجُدد وأطلق عليها إسم مكتب الخطط الخاصة (Office of Special Plans)[55]. كان الهدف الرئيس لهذه المجموعة المُنتقاة من العقائديين هو إعتراض تدفق المعلومات المُخابراتية من وكالة المُخابرات المركزية CIA ومثيلتها العسكرية وكالة مُخابرات الدفاع Defence Intelligence Agency، وإنتقاء فقط ما ينسجم منها مع تطلعات وسياسات المُحافظين الجُدد المتواجدين في أعلى مراكز الإدارة، في البيت الأبيض والبنتاغون وفي مكتب نائب الرئيس تشيني، وقد اعتمدوا في ذلك كثيراً على المعلومات المُلفقة التي كان يقدّمها المؤتمر الوطني العراقي برئاسة أحمد الجلبي إلى وكالات المُخابرات الأخرى.

شغل (أبرام شولسكي) مركز مدير مكتب الخطط الخاصة، وهو الخبير الأكاديمي في أعمال الفيلسوف السياسي ومُلهِم فِكر المحافظين الجدد، (ليو ستراوس). كان (أبرام) قد خدم في البنتاغون بإشراف مساعد وزير الدفاع (ريتشارد بيرل) خلال فترة رئاسة ريغان، ثمَّ التحق بعدها بمؤسسة (راند)، حضينة أفكار اليمين العسكري الأمريكي. في نهاية خريف عام 2002، إرتفعت مكانة مكتب الخطط الخاصة في سلّم أولويات المعلومات المُخابراتية التي كانت تصل مُباشرة إلى الرئيس بوش[56] بدون تقييم آخر لها من قبل وكالة المُخابرات

---

(55) "الجواسيس الذين دفعوا للحرب"، جوليان بورجر، صحيفة الغارديان، 17 تموز 2003.
"The spies who pushed for war", by Julian Borger, The Guardian, Thursday July 17, 2003

www.guardian.co.uk/Iraq/Story/0,2763,999737,00.html

(56) "ماسورة الموقد" سيمور هيرش في مجلة النيو يوركر في 27 تشرين الأول 2003. كيف مُسخت المعلومات عن أسلحة العراق بفضل الصراعات التي دارت بين إدارة الرئيس بوش ووكالات المُخابرات.
"The Stovepipe" by Seymour Hersh, the New Yorker, 27 October 2003. How conflicts between the Bush Administration and the intelligence community marred the reporting on Iraq's weapons.

www.newyorker.com/printable/?fact/031027fa_fact

المركزية ووكالة مُخابرات الدفاع، مما فتح المجال لمكتب الخطط الخاصة في إنتقاء فقط ما يحلو له من المعلومات التي تدعم حصول العراق على أسلحة الدمار الشامل واتصاله المزعوم مع القاعدة.

أصدر مكتب (شولسكي) للخطط الخاصة العديد من المعلومات المغلوطة والمُلفّقة التي زودّهم بها المؤتمر الوطني العراقي من خلال أحمد الجلبي، وبدعم من زملائه المُحافظين الجُدد في واشنطن في معهد المشروع الأمريكي (American Enterprise Institute) والذين كانوا بمثابة "القيادة المركزية" الظل له، وقد وجدت هذه المعلومات المغلوطة طريقها إلى العديد من خطابات بوش ورامسفيلد وتشيني[57].

سعت وزارة الدفاع والجيش الأمريكي حثيثاً على العثور على الأسلحة المزعومة التي شنّوا الحرب من أجل تدميرها. كتب (بارتون جلمان) في صحيفة الواشنطن بوست في الثالث من حزيران عام 2003، عن "عملية سرِّية لوحدة من القوات الخاصة التابعة للجيش الأمريكي"عملت داخل العراق قبل بدء الحرب في آذار من عام 2003 في محاولة فاشلة للعثور على أدلة عن أسلحة الدمار الشامل للعضد من حجّة الهجوم المُرتقب على العراق. أُطلق إسم "لجنة عمل Task Force 20" على تلك الوحدة العسكرية التي يُعتبر وجودها ومهماتها ذات طبيعة سرية للغاية، وتتألف من نُخبة من وحدات القوات الخاصة التي تعرف بإسم (قوة دلتا). كانت مهمتها الأساسية هي "الإستيلاء على أو تدمير أو إبطال مفعول أو إستعادة أسلحة الدمار الشامل العراقية". أفادت تقارير سابقة أن وجودهم في العراق كان قد بدأ منذ شهر شباط في العام 2003 إثر إنزالهم عن طريق الجو في الصحراء الغربية من العراق. لم تتمكن هذه الوحدة العسكرية من العثور على أي دليل عملي عن وجود أسلحة عراقية للدمار الشامل، رغم ما

(57) "أكاذيب المسؤولين في إدارة بوش حول أسلحة دمار العراق الشامل المُفترَضة في تصريحاتهم" جاكسون ثورو، 16 شباط 2004.

"Bush Administration Officials' Lies about Iraq's Supposed Weapons of Mass Destruction in Their Own Words" Jackson Thoreau, 16 February 2004.

www.liberalslant.com/jt021604.htm

توفّرَ لهم من معدات كشف متطورة ومختبرات بيولوجية وكيمائية مُتحركة وإمكانات لوجستية مُساندة ضخمة.

بعد غزو العراق، وفي أوائل شهر نيسان من العام 2003، وصل ما يزيد عن تسعمائة من المُختصين وخبراء أسلحة الدمار الشامل في "قوة عمل الإنجاز الخامسة والسبعون 75th Exploitation Task Force" لمُساندة فعاليات والتوسّع في أعمال "لجنة عمل 20". وبعد عدة أشهر من العمل المُضني، لم تفلح هي بدورها في العثور على أي: "ذخائر حية غير عادية، أو صواريخ بعيدة المدى، أو قطع غيار للصواريخ، أو مخزون من عناصر الحرب الكيميائية أو البيولوجية، أو تقنيات تغنية اليورانيوم لقلب السلاح النووي"، والتي طالما ردّدَ الأمريكيون بأنها عناصر من ترسانة أسلحة الدمار الشامل العراقية المخفيّة. غادر فريق هذه اللجنة العراق في أوائل شهر حزيران من عام 2003 صُفر اليدين يمضغ المرارة بألسنتهم.

أدرك المُحافظون الجُدد حينها بفشل الإستمرار في تمرير خديعة "أسلحة الدمار الشامل العراقية"، ولدرء المسؤولية عن أكتاف مكتبهم للخطط الخاصة في وزارة الدفاع والتهرّب من المُساءلة عن موثوقية معلوماتهم، تراجع البيت الأبيض في أواسط حزيران من العام 2003 ونقل مسؤولية البحث المُتعثّرة عن الأسلحة من وزارة الدفاع والبنتاغون إلى (جورج تينيت) رئيس وكالة المخابرات المركزية.

هرع (تينيت) إلى تكوين فريق جديد بإسم (مجموعة مسح العراق Iraq Survey Team) لكي تتوسّع بإسهاب في أعمال البحث الفاشلة عن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية وخَصص له مبلغ تسعمائة مليون دولار وسلّم عصا قيادة الفريق المكوّن من 1400 فرد إلى يد (دافيد كاي)، المُفتش السابق في فريق (UNSCOM) وعميل لوكالة المُخابرات المركزية. كان (كاي) قد ساهم بدور ملحوظ في تأجيج العداء وحجّة غزو العراق بعد إنهاء عمله في (UNSCOM) والذي يمكن تلخيصه بالتصريح التالي له: "بالنسبة لي، جاء التغيير الحقيقي في العام 1994. في العام 1994 ماعدت مفتشاً، بل أضحيت أُقدّم الشهادة

وأكتب عن العراق وبأنه لم يعد بالإمكان الوصول إطلاقاً إلى نجاح نهائي من جانب لجنة (UNSCOM)، بل يجب أن يتغيرَ النظام نفسه. يجب تبديل صدَّام". يغفل (كاي) عن ذِكر الشركة الإستشارية (Science Applications International Corporation - SAIC) ذات العلاقات الوطيدة مع وكالة المُخابرات الأمريكية والبنتاغون واللوبي الصهيوني في أمريكا والتي عمل معها في تنفيذ عقودها في مجال (الأمن) على ما يزيد عن العقدين من الزمن، والتي وظّفت أيضاً خضر حمزة في العام 2002 ضمن فريقها في (مجلس إعادة إعمار وتطوير العراق The Iraqi Reconstruction and Redevelopment Council)[58].

صحا (كاي) على حقيقة تضليله المتواصل عن أسلحة الدمار الشامل بعد مكوثه لأشهر معدودة في العراق يُكرر البحث في التقارير القديمة والذكريات الصدئة والمنشآت المُدمّرة، ولم يتقدم أي عالم عراقي للحصول على مكافأة مالية بقيمة مائتي ألف دولار لقاء إدلائه عن معلومات جديدة عن الأسلحة المزعومة. كما لم يفد (كاي) التحقيق مع الأسيرين الفريق عامر السعدي، الذي ما زال قيد الإعتقال رغم صدق كلامه، وعبد حمود، سكرتير صدّام، والذي كان يتهمه (كاي) في الإشراف على إخفاء الأسلحة في قصور صدّام. أصدر (كاي) تقريره الأولي في نهاية شهر أيلول من العام 2003، والذي تزامن مع قراري بنشر كتابي هذا باللغة الإنكليزية، وعلى نفقتي الخاصة، مُتنبأً فشل مهمته في العثور على الأسلحة المزعومة. أقرّ (كاي) في النهاية بجسامة خطأ معلوماتهم المُخابراتية وتنصل من مسؤولية قيادة فريق وكالة المُخابرات المركزية. إلا أن ذلك لم يُثبِط من عزم بوش وبلير في الإستمرار في أعمال (مجموعة مسح العراق) وأناطوا بمهمة رئاسة الفريق للمفتّش الكندي السابق (تشالرز دوفاليير). وما زالت مئات الملايين من الدولارات تُنفق على جهودهم الفاشلة في التحرّي عن سراب أسلحة الدمار الشامل العراقي التي إستُحضِرت غيبياً في مُخيلات

(58) "دافيد كاي والسي أي أي" ويليام باويلز في 6 تشرين الأول 2003.
"David Kay and the CIA" by William Bowles, 6 October 2003.
www.williambowles.info/ini/ini-0105.html

لجان مُخابراتهم عن قصد أو بالإعتماد على معلومات مُلفَقة من "عراقيين مُعارضين" والتي ساهمت في إحتلال وتدمير العراق.

بعد إحتلال العراق بستة أسابيع، نَشرتُ مقالة "**السقوط الحُر للعراق نحو مصير مجهول**" والتي قدّمت المزيد من خلفية الحبك للمعلومات المُخابراتية الواهية، كما وعكست شدّة الألم وفداحة الدمار الذي أصاب العراق جراء إحتلاله. أشارت المقالة إلى تقرير للصحفي (جيمس رايزن) في صحيفة النيويورك تايمز في 22 مايس من عام 2003 بعنوان "مراجعة وكالة المخابرات المركزية لوجهات النظر ما قبل الحرب حول التهديد العراقي" ذكر فيه عن ما دار أثناء لقاء بين وزير الدفاع (رامسفيلد) ورئيس وكالة المخابرات المركزية (تينيت) في خريف العام 2002 حيث طرح (رامسفيلد) التكهّن التالي: "إذا دخلنا الحرب مع العراق، فما هي الأشياء التي علينا أن نبحث عنها؟" وإتفقا على أن العدوان على العراق سيمنحهما الفرصة المواتية لتعيير أداء جمع معلوماتهم المُخابراتية وتقييمها على ضوء الواقع. وعلّق أحد كبار مسؤولي المُخابرات على أن هذه المُراجعة لن تكون كتحقيق رسمي أو "إصطياد في الماء العكر"، وإنما هو تمرين ذهني بهدف تحسين أداء عمل الأجهزة المُخابراتية. ما كان هذا في حقيقة الأمر سوى "تمرين" إجرامي يدلُّ على ضخامة الجريمة التي أُرتكبت بحق العراق وشعبه. وتساءلتُ: من يتحمّل مسؤولية ومُترتبات فشل معلوماتهم خاصة بعد أن ثبُتَ، وبدون أي شك، كذب بوش وبلير على شعبيهما وقيامهم بشن حرب إحتلال إستناداً إلى هذه المعلومات المُخابراتية المغلوطة؟ وتسألتُ: هَلْ هذا هو نموذج الديمقراطيةَ الموعودة للعراق "المُحرَّر"؟

وبشكل مأساوي، دَفعَ إحتلالَ العراق الشعب العراقي إلى حالةِ السقوطِ الحرِّ في دهاليز الفوضى والدمار. رُفع الغطاء الإستبدادي لحكم صدّام ولكنه كشف عن فتحة أدّت إلى سقوط العراق فيها نحو هاويةَ عميقةُ يصعب التنبؤ عن مستقبل مصيره، ناهيك عن إحتلاله. أُكرر وأُذكِّر هنا ما أبلغت به أصدقائي قبل الإحتلال عندما لاموني على إنتقادي الشديد للسياسة الأمريكية وإغفال التهجّم على صدّام وتحسّبي من الوصول إلى هذا السقوط المُتسارع: هل نحن مُستعدون

لخسارة العراق من أجل التخلّص فقط من صدّام؟

تمخّض الإحتلال عن فوضى وتدمير واسع للبُنية التحتية الإدارية لإتخاذ القرار في العراق، ما عدا المناطق الكردية منه، شمل كافة وزارات الدولة (ما عدا وزارة النفط) ودوائرها المختلفة والبنوك والمحاكم والمستشفيات والجامعات، بالإضافة إلى نهب المتاحف وحرق آثار العراق التاريخية[59]. وبجرّة قلم، ألقى المُحتل، وبتشجيع من أحمد الجلبي، بأكثر من نصف القوى العاملة إلى دوامة البطالة واليأس بإلغاء الجيش العراقي وطرد الحزبيين، ومن ضمنهم أساتذة الجامعات، من مناصبهم، في حين عجز المُحتلون، كما تبيّن بجلاء الآن، من إعمار البُنية التحتية الاقتصادية المُدمرة لأسباب عديدة تشمل الفساد في منح عقود الباطن للشركات الأمريكية الكُبرى وبالرغم من الإستحواذ على مبالغ بيع النفط (حتى بعد "منح السيادة" للعراق[60]) وحتى قسم من أموال العراق المُجمّدة[61] لديهم.

وأضافت المقالة: "لقد برهن الأمريكيون في إحتلالهم للعراق على قدرتهم في حشد قواتهم العسكرية، وإطلاق آلاف الصواريخ، وإلقاء الآف القنابل ولكنهم عاجزون عن التعامل مع مجتمع ومنعه من التفكك والتشتت. وما الرئيس بوش وزمرة المُحافظين الجُدد في حكومته سوى دعاة حرب يشاهدون العالم حولهم بمنظار أمريكي بحت. لا يخطر في فِكرهم الحفاظ على مجتمع من التمزّق، بل على العكس فإنهم يهدفون إلى تمزيق تلك المُجتمعات لإعادة بنائها وفق منظور

---

(59) "إذا كان وزير الثقافة لا يعرف ليسأل الشاعر فيرناندو بياز" ماجد مكي الجميل، 10 آب 2004.

http://www.kitabat.com/r23558.htm

(60) "لن يسيطر العراق "ذو السيادة" على نفطه كثيراً" كريس شموي، 24 حزيران 2004.

"'Sovereign' Iraq to Have Little Control Over Oil" by Chris Shumway June 24, 2004

www.antiwar.com/orig/shumway.php?articleid=2867

(61) "إختفاء مبلغ 20 مليون دولار من أموال العراق التي كانت بحيازة CPA" كيم سينكبوتا، 28 حزيران 2004.

news.independent.co.uk/world/middle_east/story.jsp?story=535744

ومصالح "الإمبراطورية الأمريكية Pax Americana[62]". فها هم الأمريكيون والإنكليز، بصحيح العبارة، قد إغتصبوا العراق وتركوه مُسجاً بدمائه. وها هم يقفون فوقه، عراة من ملابسهم، يلعقون شفاههم بإنتظار دسّ أيديهم في نفطه".

وأشارت المقالة في ختامها بأنه: "بعد شهر ونصف (آنذاك) بعد غزو العراق، تقدّمَ الغُزاة بقرار إلى الأمم المتحدةَ يَعترفون بأنّهم في الواقع مُحتلّين له. فما عليهم إلا أن يَتوقّعوا ما يستحقّ المُحتلون من مقاومة لإحتلالهم".

وفي هذا الشأن، فلقد وافقت الأمم المُتحدة على هذا القرار المُجحف بحُجة وضع الشعب العراقي تحت مظلة إتفاقيات جنيف لحماية الأسرى، وما كان نتيجة ذلك سوى فظائع تعذيب سجن أبو غريب ولوي المُحتلين لبنود إتفاقيات جنيف بما يوالمهم وخرقت جيوشهم بنوده بدون أي رادع وتحت طائلة محاكمات عسكرية صورية للمذنبين منهم، بالإضافة إلى وجود ما يزيد عن عشرين ألف مُرتزق في العراق، البعض منهم ممول بأموال عراقية، في منأى، قبل وبعد "منح السيادة"، من أي محكمة عراقية أو حتى محاكم بلادهم على ما يرتكبوه من جرائم حرب في العراق[63].

إستخدم الأميركيون في إحتلالهم للعراق القنابل العنقودية[64]، المُحرّم

---

(62)"رؤية بوش للإمبراطورية الأمريكية" غايل روسل تشادوك، صحيفة كريستيان ساينس مونيتور، 23 أيلول 2003.

"A Bush vision of Pax Americana" by Gail Russell Chaddock, The Christian Science Monitor, September 23, 2003.

www.csmonitor.com/2002/0923/p01s03-uspo.html

(63)"المُرتزقة – المنسيون في الحرب" ريني ميرل، صحيفة الواشنطن بوست، 31 تموز 2004.

"Contract Workers Are War's Forgotten" by Renae Merle, Washington Post, Saturday 31 July 2004

www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A28813-2004Jul30.html

(64)خارطة بتوزيع مُخلفات الآف القنابل العنقودية القابلة للإنفجار إثر الإحتلال والألغام المزروعة من قبل نظام صدام في أنحاء العراق. صحيفة الغارديان، 31 مايس 2003.

image.guardian.co.uk/sys-files/Observer/documents/2003/05/31/landmines2.pdf

إستخدامها ضد المدنيين، على مدن مأهولة بالسكان[65] من ضمنها بغداد، والناصريّة، والبصرة، والحلّة،[66] والراشدية،[67] أدت إلى إستشهاد المئات من المدنيين العُزّل.

كان ناطق بإسم البنتاغون قد نفى الانباء القائلة عن إستعمال القوات المهاجمة لقنابل النابالم الحارقة، والمُحرمة دولياً، أثناء الحرب مُدعيًّا أن مخزون البنتاغون منه قد أُتلف قبل عامين. ولكن الأخبار وردت عن إلقاء قنابل ناريّة على الجسور: و"لسوء الحظ كان فوقها أناس أمكننا رؤيتهم من خلال فيديو قمرة الطائرة العامودية"[68]. للوهلة الأولى، بدا وكأن الناطق بإسم البنتاغون كان يحاول رسم خط فاصل بين تعبير " قنبلة نارية" و"النابالم". فحسب قول الناطق، فإن قوات البحرية كانت قد ألقت " قنابل نارية نوع مارك 77" واعترف أنها قنابل حارِقة ذات نتائج ميدانية "تتطابق تماماً" مع ذخائر النابالم. شبّه (روبرت ميوسل) المدير التنفيذي لـ (الأطباء من أجل المسؤولية

(65) "إستخدام القنابل العنقودية" ملف الأدلّة.

"The use of cluster bombs" The Evidence File.

www.informationclearinghouse.info/article3463.htm

(66) "مقتل مئات من العراقيين جراء القنابل العنقودية" جوليان بورغر في صحيفة الغارديان، 12 كانون الأول 2003.

"Hundreds of Iraqis 'killed by cluster bombs'" by Julian Borger, The Guardian, December 12, 2003.

www.guardian.co.uk/international/story/0,3604,1105142,00.html

(67) "مجزرة الراشدية" شهادة طبيب عراقي، إي خمّاس، 28 تموز 2003.

"The Massacre of Rashdiya", Testimony of an Iraqi Doctor, by E.A.Khammas, July 28th, 2003

www.occupationwatch.org/article.php?id=345

(68) "تأكيد مسؤولين عن إلقاء قنابل حارقة على القوّات العراقية" نتائج إستخدام هذا السلاح مشابهة "جداً" لإستعمال قنابل النابالم، جيمس كرولي، صحيفة منبر إتحاد سان دييغو، 5 آب 2003.

"Officials Confirm Dropping Firebombs on Iraqi Troops" Results are 'remarkably similar' to using napalm, by James W. Crawley, The San Diego Union-Tribune, 5 August 2003.

www.signonsandiego.com/news/military/20030805-9999_1n5bomb.html

الاجتماعية) بأن محاولة إضفاء فرق بين النابالم المُحرّم والقنابل النارية مـارك 77 "مثيرٌ للغضب" ولا يتعدى التلاعب بالكلمات.

لم يستطع البنتاغون أن ينفي إستعمال قواته لقذائف وطلقـات اليورانيـوم المُنضّب[69]، إذ أُصيب أكثر من ثلث أعضاء وحدة عسكرية تعاملت مع قذائف اليورانيوم المُنضّب وعادت مؤخراً من العراق بـأعراض سـرطانية جـراء تعرضهم لغباره[70]. قدّر خبراء عسكريون أمريكيون ومن الأمـم المتحـدة أن قوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية قد أطلقت ما بين 1100-2200 طن من قذائف اليورانيوم المنضّب خلال هجومها على العراق فـي آذار ونيسان من عام 2003، بالمقارنة مع حوالى 375 طناً أُستعملت في حرب عـام 1991 على العراق[71] و11 طناً أُطلقت أثناء الحرب على صربيا في العام 1999 وكمية أقلُ أُلقيت ضد المواقع الصربية في البوسنة في العام 1995[72].

(69) "الموت بالحرق البطيء: كيف تضرب أمريكا قوّاتها نووياً" أيمي ورذينجتن فـي صـحيفة أيداهو أوبزرفر، 16 نيسان 2003.

"Death By Slow Burn: How America Nukes Its Own Troops", by Amy Worthington, The Idaho Observer April 16, 2003.

proliberty.com/observer/20030401.htm

(70) "اليورانيوم المُنضّب: قنابل قذرة، قذائف قذرة، طلقات قذرة" ليورين موريت، 25 آب 2004.

"Depleted Uranium: Dirty Bombs, Dirty Missiles, Dirty Bullets" by Leuren Moret, 25 August 2004.

www.sfbayview.com/081804/Depleteduranium081804.shtml

(71) "الدمار المرتقب لإستخدام اليورانيوم المُنضّب في الحرب على العراق" (باللغـة العربيـة)، برنامج "بلا حدود" تقديم أحمد منصور، مقابلة مع البروفيسور الميجور دوج روكه: الرئيس الأسبق لمشروع اليورانيوم المنضب في وزارة الدفاع الأميركية في 19 آذار 2003. وهناك مقالات أخرى ذات الصلة على نفس الصفحة.

www.aljazeera.net/programs/no_limits/articles/2003/3/3-25-1.htm

(72) "أسلحة اليورانيوم المُنضّب تُشكّل أخطاراً على القوات العسكرية والمدنيين" باربرا بورست، الأسوشيتيد برس، 15 حزيران 2003.

"Depleted Uranium arms pose risks to troops, residents", by Barbara Borst, Assoc Press, 15 June 2003.

www.commondreams.org/headlines03/0615-01.htm

بعد تعثّر الإحتلال بأشهر معدودة، بدأ، وإن مُتأخراً الإنقشاع التدريجي للضَباب الإعلامي الذي غلّفت به الحكومتان الأمريكية والإنكليزية، بمساندة الأجهزة الإعلامية في دولتيهما، حملة إحتلالهما للعراق، ويعود الفضل الرئيس في ذلك إلى بروز المقاومة العراقية في مُقارعة المُحتّل وتمزيق قناعه وكشف خيانة عُملائه من العراقيين. وبدأت تطفو على السطح الإعترافات بجسامة الخطأ الذي وقعوا فيه، ومن ثم تدفّقت المُجاهرات بشكل مُتسارع خلال العام 2004 حول تركيز إهتمام الحكومة الأمريكية المركزي على إحتلال العراق طيلة السنوات الماضية، وعن خلفية إخفاقهم في تنظيم إدارة إحتلالهم له.

ففي آب من عام 2003 إعترف مسؤول رفيع المستوى في حكومة الولايات المتحدة بأنه: "لم يكن هناك مخطط حقيقي من أجل عراق ما بعد الحرب"(73)، وتعالى نواح موظف كبير سابق في البنتاغون وما زال يعمل مستشاراً لوزارة الدفاع الأمريكية: "كان بإمكاننا أن نفعل أحسن من ذلك بكثير". أمّا (بات لانج) الذي كان رئيساً لقسم مُخابرات الشرق الأوسط في البنتاغون من عام 1985 وحتى العام 1992، والذي تابع عن كثب المناقشات التي دارت حول إحتلال العراق وتداعياته، فقد أدرك مُتأخراً: "لقد كان (الإحتلال) نتيجة وهم جسيم عند المُحافظين الجُدد. كل ما حدث نابع من ذلك الوهم"(74).

كان (جوزيف ويلسن) سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية إلى الغابون من عام 1992 ولغاية عام 1995. كُلف في نهاية عام 2002 من قبل وكالة المخابرات المركزية للتحقيق في خبر محاولة شراء العراق 500 طن من

(73) "لم يكن هناك أي تخطيط واقعي لعراق ما بعد الحرب" جوناثان لانداي ووارن ستروبيل في صحيفة نايت ريدر في واشنطن، 11 تموز 2003.

"No real planning for postwar Iraq", by Jonathan Landay and Warren Strobel, Knight Ridder Newspapers, July 11, 2003.

www.realcities.com/mld/krwashington/6285265.htm

(74) "من أبطال إلى أهداف للقتل" ميشيل كولدبرغ، 18 تموز 2003.

"From heroes to targets" by Michelle Goldberg, July 18, 2003.

www.salon.com/news/feature/2003/07/18/pre_war/index_np.html

اليورانيوم من النيجر. وبعد سفره إلى النيجر والتحقيق في الأمر، لم يعثر على أي دليل يدعم صحة تلك المعلومات أو مصداقية الوثائق حولها (والتي تبيّن لاحقاً بأن مصدرها كان شخصاً في إسرائيل) وأبلغ السلطات الأمريكية بنتائج تحقيقه. إلا أن الإدارة الأمريكية قامت عن قصد بحجب ما توصّل إليه من نتائج ولوّح بوش بهذا "التهديد النووي العراقي" في خطابه أمام الكونغرس الأمريكي في كانون الثاني من العام 2003. إنتظر (ويلسن) ستة أشهر وإلى شهر تموز من عام 2003، وبعد أن إتضحت له بوادر تعثّر مُبررات إحتلال العراق، ليُبادر بتقديم إفادته في مقالة له في صحيفة النيويورك تايمز في 6 تموز 2003 بعنوان "ما الذي لم أجده في أفريقيا": "إستناداً إلى تجربتي مع الإدارة الأمريكية خلال الأشهر القليلة التي سبقت الحرب، لا يسعني إلا الإستنتاج بأن بعض المعلومات المُخابراتية المُتعلقة ببرنامج أسلحة العراق النووية قد لُفقت بغرض المُبالغة في التهديد النووي العراقي"[75].

أصدر الصُحفي بوب ودوارد، والذي كان له الدور الأساسي في كشف فضيحة وترغيت التي أطاحت بالرئيس نيكسون عام 1974، كتاباً عن الرئيس بوش في نيسان من عام 2004 بعنوان "خطة الهجوم Plan of Attack"[76] والذي كشف فيه عن قيام الرئيس بوش في 21 من تشرين الثاني من عام 2001 (أي قبل أكثر من سنتين من إحتلال العراق) بالطلب من وزير الدفاع دونالد رامسفيلد للتأهب ووضع خطة لشن حرب على العراق، وأوصاه في العمل على

(75) "مُحقق من وكالة المُخابرات المركزية يفضح تلفيق خبر محاولة شراء العراق لليورانيوم من النيجر" 6 تموز 2003.

"CIA Investigator Debunks Niger Uranium Sales To Iraq", 6 July 2003.

http://www.rense.com/general38/urn.htm

(76) "خليط من الكبرياء والإجحاف قادت إلى الحرب" ميشيكو كاكوتاني في صحيفة النيويورك تايمز 19 نيسان 2004.

"A Heady Mix of Pride and Prejudice Led to War" by Michiko Kakutani, New York Times, April 19, 2004.

query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9504E1D8103BF93AA25757C0A9629C8B63

ذلك بسرية تامة خشية أن يؤدي تسرّب ذلك التوجيه إلى "إرتياع دولي جسيم وتخمينات محلية".

كما وأكّد هذا الكلام تصريح كان قد أدلى به وزير المالية الأمريكي السابق بول أونيل، والذي ورد في كتاب آخر كان قد صدر مؤخراً لرون سسكند بعنوان "ثمن الولاء Price of Loyalty"، بأن فكرة الهجوم على العراق كانت في مُخيّلة الرئيس بوش حتى قبل أحداث الحادي عشر من تموز في العام 2001، وفي الواقع كان العراق على جدول أعماله منذ الأيام الأولى لتسلمّه مهام رئاسة الجمهورية في العام 2000، وهي نفس الإدعاءات التي أكدّها ريتشارد كلارك، مسؤول مكافحة الإرهاب السابق في الإدارة الأمريكية في كتابه المعنون "ضد كلّ الأعداء Against All Enemies" والصادر في آذار من العام 2004.

وشملت موجة توبيخ الضمير إعتذارين علنيين لصحيفتي النيويورك تايمز والواشنطن بوست في صيف العام 2004 لإجترارهما ما كانت تعلنه الحكومة الأمريكية من معلومات مُلفّقة قبل الإحتلال وبدون أي تمحيص صّحفي يليق بمهنة الصحافة. وأشارت النيويورك تايمز في 26 مايس من عام 2004 بجلاء في هذا المضمار إلى الأكاذيب التي لفقّها أحمد الجلبي عن أسلحة الدمار الشامل العراقية، ولكنهم أحجموا عن ذكر إسم مراسلتهم جوديث ميلر[77] التي كانت الوسيط في تمرير ونشر تلفيقات أحمد الجلبي.

لم تَخفِ مثل هذه الإعترافات الدور المحوري لفكر المُحافظين الجُدد في هذه الحملة العسكرية وبانت خيوط حبكهم بعد إحتلال العراق من خلال بعض التصريحات لبول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع ومن أبرز المُحافظين الجُدد. ففي 30 مايس من عام 2003 صرّح وولفوفيتز، في إحدى هفوات عنجيته، لمجلة (فانتي فير Vanity Fair): "لأسباب بيروقراطية (داخل الإدارة الأمريكية)،

---

(77) "مصدر المشكلة في (صحيفة النيويورك تايمز)" فرانكلين فوير في موقع نيويوركر مترو.
"The Source of the Trouble" by Franklin Foer, New York Metro.
www.metronewyork.com/nymetro/news/media/features/9226/index.html

إستقرّينا على قضية واحدة، وهي أسلحة الدمار الشامل (لإحتلال العراق)، لأنها السبب الوحيد الذي كان سيحظى بتأييد الجميع"[78]. وأعقب ذلك بأيام معدودة بزلة لسان أخرى نُشرت في موقع صحيفة الغارديان في 4 حزيران 2003 (ومن ثم حُذِفت منه في 6 حزيران 2003) عندما سُئل عن السبب في تعامل الولايات المتحدة الأمريكية المرن مع دولة ذات قدرة نووية عسكرية مثل كوريا الشمالية، في حين أنها تتعامل بشكل مُغاير تماماً مع العراق الذي لم يُعثر فيه على أي دليل لوجود أسلحة دمار شامل فيه قائلاً: "دعونا ننظر إلى الأمر ببساطة. إن الإختلاف الأكثر أهمية بين كوريا الشمالية والعراق هو الناحية الاقتصادية الذي لم يترك لنا خياراً بديلاً، فالعراق يسبح على بحر من النفط"[79].

وبالرغم من محاولات وزارة الدفاع الأمريكية الواهية في التخفيف من وقع هذين التصريحين بإعادة ترتيب مواقع الكلمات فيهما وتقديمها أطيافٍ لشروحات بديلة أخرى لطمس أبعاد هاتين المقولتين، إلا أنهم لن يفلحوا في درء عواقب احتلالهم غير القانوني لدولة ذات سيادة – العراق – ذو الجذور التاريخية الرّاسخة، وأرض الحضارات العريقة.

أدّت ضربة إسرائيل الإستباقية للمفاعلين الفرنسيين المُخصّصين للأبحاث العلمية بهدف إجهاض إمكانية التهديد النوويّ العراقي لأمنها إلى إتخاذ العراق قراراً سياسياً على العمل بإصرارٍ وعزمٍ للحصول على قنبلته النووية.

---

(78) "تصريحات وولفوفيتز تُثير من جديد الشكوك حول أسلحة الدمار الشامل العراقية" يو إس أي اليوم، 30 مايس 2003.

"Wolfowitz comments revive doubts over Iraq's WMD", USA Today, Posted 5/30/2003

www.usatoday.com/news/world/iraq/2003-05-30-wolfowitz-iraq_x.htm

(79) "وولفوفيتز: كانت حرب العراق بسبب النفط" جورج رايت في صحيفة الغارديان، 4 حزيران 2003.

"Wolfowitz: "Iraq War Was About Oil", by George Wright, The Guardian, 4 June 2003.

truthout.org/docs_03/060503A.shtml

سيؤدي إحتلال الولايات المتحدة الأمريكية الإستباقي للعراق بحجة وجود أسلحة دمار شامل فيه ولبتر صلته المُفترضة مع القاعدة، والذي ثبت بُطـــلان إدعائها، إلى نهوض أسد بابل.

لقد نجح المُحافِظون الجُدد بِمكرٍ في إستغلال "نمط الحياة الأمريكية" لتنفيذ مأربهم في إلتهام بلدي الحبيب.. العراق.

ولكننا سنُبْعَثَ مِن جديد – وإلى ضيرِهم.

الفهرس

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

ما مدى إقتراب العراق من الحصول على القنبلة النووية؟ هل جدد العراق برنامجه التسليحي النووي بعد حرب 1991؟ ما مصداقية المزاعم بأن العراق كان يشكّل تهديداً نووياً لأمن الولايات المتحدة؟ ومن هم الأمريكان والعراقيون الذين كانوا رأس الحربة في السعي لاختلاق الذرائع لإحتلال العراق بتقديمهم معلومات ملفّقة عن القدرة العسكرية النووية العراقية لأجهزة المخابرات الأمريكية؟


Ken Faugh/Toronto Star

يقدّم هذا الكتاب شهادة علمية للعالم النووي العراقي الدكتور عماد خدّوري والذي عمل في منظمة الطاقة الذرية العراقية لفترة ثلاثين عاما (1968 - 1998). يغطي الكتاب فترة البدايات السلمية للبرنامج النووي العراقي وتطوّره التدريجي وتحوله المباغت إلى برنامج تسليحي ومن ثم توقفه وإندثاره.

عماد خدّوري، الحائز على درجة الماجستير في الفيزياء من جامعة ميشيغان في الولايات المتحدة الأمريكية والدكتوراه في تكنولوجيا المفاعلات النووية من جامعة برمنغهام في بريطانيا، يوضح للقراء بطريقة صافية خلفيته التعليمية وانتماءه للعمل في البرنامج النووي العراقي وتوليه مختلف المواقع القيادية ومن ثم كيفية فك ذاك الارتباط والفرار من العراق مع عائلته أواخر عام 1998.

لفترة نصف سنة قبل احتلال العراق شهر عماد خدّوري قلمه، وحيداً دون معين، ليخوض معركة إعلامية في الصحافة والإعلام والإنترنيت لمواجهة حملة التضليل التي شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق والتي قام بتغذيتها شهود زور عراقيون. إلا أن صوته بالجهر بالحقيقة طُمس ووقع الاحتلال الذي كلّف العراق سيادته وأدى إلى مقتل وجرح عشرات الآلاف من العراقيين.

«أنصح كل عراقي أن يقرأ هذا الكتاب حتى وإن كره الحقيقة».

– ماجد مكي الجميل

«هذا أول كتاب يفك خيوط وألغاز أسطورة البرنامج النووي العراقي... أنه عرض أمين كتبه شخص شريف... أنه يقدم أيضاً لمحة عن المكائد الخانقة لأجهزة الأمن في العراق... قراءته لازمة لكل من يريد أن يعرف حقيقة البرنامج النووي العراقي».

– بيتر كوينبيرغ، مسؤول سابق في الأمم المتحدة عمل في العراق لمدة أربع سنوات

«لغة عماد خدوري في هذا الكتاب لغة كاتب متمكن قادر على الإمساك بالحدث والصورة، بارع في رسم ملامح الشخصيات وتصوير الحالات الإنسانية بأدق تفاصيلها كما لو كان كاتباً روائياً متمرساً. وفي ثنايا لغته يتغلغل حب كبير لوطن كان بالإمكان أن يغدو في طليعة الدول لو أن حاكماً أشد حكمة تولى زمام الأمور، ولو أن عدلاً حقيقياً يسود العالم».

– مي مظفّر

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb





Black Yellow Magenta Cyan